

منشورات وزارة الثقافة




# العالم العربي وإفريقيا

## تحديات الحاضر والمستقبل

أعمال ندوة

15-17 أكتوبر 2003

# العالم العربي وإفريقيا
# تحديات الحاضر والمستقبل

( أعمال ندوة )

عنوان الكتاب : العالم العربي وإفريقيا : تحدِّيات الحاضر والمستقبل
(أعمال ندوة)
إعداد وتنسيق : عبد الحميد عقار، خديجة الكور
الناشر : وزارة الثقافة، الرباط، المملكة المغربية
السحب : مطبعة الكرامة، الرباط
رقم الإيداع القانوني : 2005/0106
ردمك : 9954-0-4043-9

# العالم العربي وإفريقيا
# تحديات الحاضر والمستقبل
## ( أعمال ندوة )

نصوص البحوث المقدّمة في الندوة أعلاه والتي نظمتها وزارة الثقافة أيام 15 - 16 - 17 أكتوبر 2003 بالرباط احتفاء بها عاصمة للثقافة العربية 2003

# فهرس المحتويات
## (القسم العربي)

## II - تحديات الحاضر وآفاق المستقبل

# نص الرسالة الملكية

## التي وجهها صاحب الجلالة الملك محمد السادس

## إلى المشاركين في ندوة :

## «العالم العربي وإفريقيا : تحديات الحاضر والمستقبل»

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

أصحاب المعالي والسعادة،

حضرات السيدات والسادة،

إنه لمن دواعي ابتهاجنا أن يلتئم بالمغرب، البلد الإفريقي العربي، هذا اللقاء الهام، بين نخبة من خيرة مفكري ومثقفي الشعوب العربية والإفريقية الشقيقة، حول بحث العلاقات الجامعة بينها، وذلك لتدارس انعكاسات تحديات حاضرها، ورهانات مستقبلها، في محاولة للتعرف على السبل الكفيلة بتجديد مفاهيمها، وتحديد مشاريعها لولوج الألفية الثالثة، برؤية واضحة واستراتيجية محكمة.

إن المغرب الذي يعتز بكونه ظل على الدوام ملتقى لتفاعل الحضارات والثقافات، بفضل تشبثه بقيم الحرية والتسامح والانفتاح، وبكونه ممر جسور انتشار الإسلام وقيمه المثلى بأسلوب حضاري متميز، لاسيما في غرب إفريقيا، ليقدر كل تقدير ما قامت به أقطار عربية وإفريقية أخرى، في شرقي إفريقيا. وهكذا عرف تاريخنا المشترك تكريس تقاليد التبادل التجاري والثقافي والتفاعل الحضاري بين شعوبنا.

لقد كانت قوافل التجارة، ووفود العلماء، وانتقال الرحالة بين إفريقيا والعالم العربي، من دعاة السلام والوئام، وتمتين التعارف بين العالم العربي والإفريقي، كما كان له أبلغ الأثر في تداول العلوم والآداب والفنون، الأمر الذي أتاح لنا جميعاً، وفي عصور لم يكن التواصل فيها ميسراً للاستثمار الفعال لمعارفنا ومنتوجاتنا وإبداعاتنا المتنوعة، مثلما سمح بظهور تأثيرات متبادلة، في طرق وأنماط العيش، وفنون العمارة والموسيقى، والصناعات اليدوية، وغيرها من ضروب النشاط الإنساني.

ومما لا شك فيه أن هذه التجربة الفريدة تعد اليوم درسا نموذجيا في بناء علاقات وطيدة بين شعوبنا، وحافزا قويا لها لمواصلة الدفاع عن المبادئ والمثل العليا التي نتقاسمها، وللإسهام الفاعل في تأسيس ثقافة كونية أصيلة، ترتكز على قيم الحوار

والتعايش واحترام الآخر. وإننا لنتطلع إلى أن ينهض المثقف بدوره كاملا في ترسيخ هذا الإرث الحضاري وجعله مرتكزاً لإشاعة قيم الإنسانية المثلى للسلم والإخاء والحرية والتسامح ومناهضة كل أشكال التمييز والتطرف والعنف والإرهاب التي تنبذها الحضارة العربية - الإفريقية.

وإذا كنا مُعتزّين بهذا الإرث المشترك، ومقتنعين بقدرته على مدّنا بأسباب الاستمرار، وحثنا على المزيد من التضامن والتآزر، لمواجهة تحديات اليوم، فإننا نتطلع إلى مدّ جسور جديدة بين أقطارنا، في وقت أصبحت فيه التكتلات الكبرى وسيلة من وسائل بناء القوة الاقتصادية والاجتماعية، القادرة على تلبية الحاجات المادية والمعنوية للمواطنين.

وانطلاقا من هذا المنظور، فإننا مطالبون بضرورة إعادة بناء العلاقات الإفريقية العربية، على أسس ثابتة وقوية، في عالم أصبح يتسم بالتنافسية الشديدة، وهيمنة الاقتصاديات الكبرى، مما يجعلنا أمام خيار وحيد هو بناء المصالح المشتركة، والاستثمار الأفضل للموارد المتاحة، واستنهاض روح المبادرة التي كانت دائماً عنصراً من صميم ثقافتنا، لفتح آفاق جديدة للتبادل التّجاري والثقافي، تمكننا من تراكم أفضل لخبراتنا، ومن تعبئة أكثر نجاعة ومردودية لثرواتنا ومؤهلاتنا الطبيعية والبشرية.

أصحاب المعالي والسعادة،

حضرات السيدات والسادة،

إن العالم من حولنا يتطور بوتيرة متسارعة ويطالبنا في كل يوم بمجهودات إضافية لإيجاد أجوبة ملائمة وجريئة، لما يواجهنا من تحديات. وبالنسبة لعالمنا العربي الإفريقي، فإن قضايا الديمقراطية والتنمية وثقل المديونية والصحة والبيئة والهوية الثقافية وقضايا التربية والتعليم وأوضاع المرأة والطفولة، وغيرها من القضايا الملحة، بأولويتها وحساسيتها، لم تعد تتحمل التأجيل أو الانتظار. لذلك وفضلاً عما تقدمه السلطات العمومية والهيآت السياسية والاقتصادية، وفعاليات المجتمع المدني، من أجوبة عملية، فإن الحاجة باتت مُلحة لبناء مقاربة شاملة، توظف مختلف الأبعاد، بما فيها البعد الثقافي والفكري. فليس هناك أمامنا أي خيار لإنجاز تغيير حقيقي ونوعي في حياتنا، بدون قاعدة فكرية وأخلاقية، تربط بين الإنسان ومحيطه، وتجعل الإصلاحات التي ننهجها، والمشاريع التي نختطها قائمة على إدراك عميق لحاجياتنا المادية والمعنوية،

وعلى قناعة راسخة بكوننا لا نستطيع حل مشاكلنا بالوصفات الجاهزة، بل بابتكار صيغ نابعة من تراثنا وتطلعاتنا، مع إشراك واسع لكل طاقاتنا البشرية في بناء التصورات وتنفيذها. وهو ما يتطلب إعادة الاعتبار لمقومات هويتنا الثقافية، والعمل من خلال ذلك على إيلاء عناية خاصة للإنسان كقيمة حضارية راسخة، وجوهر كل استراتيجية تنموية هادفة.

وكما قال والدي المنعم المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني، قدس الله روحه، فإن "المغرب يشبه شجرة تمتد جذورها امتدادا عميقا في التراب الإفريقي، وتتنفس بفضل أوراقها التي يقويها النسيم الأوروبي. بيد أن حياة المغرب ليست عمودية الامتداد فحسب، بل هي تمتد كذلك امتدادا أفقيا نحو الشرق الذي نحن مرتبطون معه بالتالد والطارف من الصلات الثقافية. وحتى لو أردنا، ونحن لا نريد قطعا، فإنه من المستحيل علينا قطع هذه الصلات".

وإننا لواثقون بأن العلاقات العميقة القائمة على هذا المستوى بين العالم العربي وإفريقيا، والمستندة إلى رصيد روحي ولغوي وحضاري هائل، ستشكل منطلقا لتفكير مشترك في المستقبل، يهيئ المناخ الملائم لبناء جسور اقتصادية وثقافية ثابتة، مستحضرين في ذلك ثراء هذه الأرض التي تعد منارة للإسلام، والتشبع بتميزه بتكريم الإنسان وتقديس قيم التضامن والتسامح.

وإن المغرب البلد ذا الهوية الموحدة الغنية بروافدها، الأمازيغية والعربية الإسلامية والأندلسية والإفريقية، والمنفتح على الحضارة الكونية، والذي جعل من تحقيق الوحدة الإفريقية التزاما دستوريا، سيظل في طليعة المساهمين في الحوار العربي الإفريقي، وكذا مع فضاءات أخرى،خاصة منها الإسلامي والأوروبي والأمريكي، ودول الجنوب على وجه الخصوص.

حضرات السيدات والسادة،

لم يفتنا في قمة الجمعية العامة للدورة الحالية أن أعربنا عن التزامنا الثابت بالتضامن الفاعل مع الدول الإفريقية الشقيقة، وتعميق التعاون معها في الميادين السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية، ومساندة المبادرات الإفريقية البناءة،

داعين المجتمع الدولي إلى تقديم دعم ملموس لاستراتيجية النيباد، التي تتوخى التنمية المستدامة للقارة الإفريقية.

كما لم يفتنا في نطاق دعمنا المستمر للمجهودات الإفريقية، أن ألغينا ديوننا على البلدان الأقل نموا منها، وإقامة نظام جمركي تفضيلي لتشجيع صادراتها نحو المغرب.

وإن المغرب ليشيد بجهود كل الدول العربية والإفريقية التي تعزز هذا الاتجاه، معولا على المثقفين والمفكرين من العرب والأفارقة في أن يكونوا في طليعة المدعمين لعرى الأواصر الأخوية الإفريقية العربية، والمدافعين عن الخيارات الوحدوية في وجه كل مناورات التجزئة والانفصال، التي هي أشد خطرا على عالمنا الإفريقي- العربي من أي تهديد آخر.

وفقكم الله ورعاكم، وسدد خطاكم، في سبيل دعم التوجه الإفريقي العربي المشترك من أجل ضمان غد أفضل لشعوبنا وأجيالنا الصاعدة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.
وحرر بالقصر الملكي بالرباط
في يوم 15 شعبان 1424
الموافق 14 أكتوبر 2003.

محمد السادس
ملك المغرب

المملكة المغربية
وزارة الثقافة
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

# ندوة :

# «العالم العربي وإفريقيا : تحدّيات الحاضر والمستقبل»

17ـ 15 أكتوبر 2003

قاعة أحمد بلافريج بوزارة الشؤون الخارجية والتعاون - الرباط

# البرنـامـج

**الأربعاء 15 أكتوبر 2003 :**

الساعة 9 و30 د صباحاً : الجلسة الافتتاحية

حفل استقبال.

**المحور الأول : التراث الثقافي والهوية في إفريقيا والعالم العربي**

الساعة 10 و30 د. صباحاً : الجلسة الأولى برئاسة الأستاذ إبراهيم بوطالب

ومشاركة الأساتذة :

- أحمد التوفيق
- Mahamoudou Ouedraogo
- عبد الرحمان الطيب الأنصاري
- يوسف مختار الأمين

**مناقشـة**

**المحور الثاني : التواصل الثقافي بين العالم العربي وإفريقيا**

الساعة 15 : الجلسة الثانية برئاسة الأستاذ عبد المجيد القدوري

ومشاركة الأساتذة :

- عفراء الخطيب : بعض النماذج من العلاقات والتفاعلات بين الصحراء الكبرى وجنوب شبه الجزيرة العربية خلال العصور القديمة.
- Babacar Néné Mbaye : Monde arabe et Afrique : quelle coopération en perspective ?
- علي الهادي الحوات : التواصل الثقافي في الفضاء العربي الإفريقي مع الإشارة لنموذج شمال إفريقيا.

**مناقشـة**

**الخميس 16 أكتوبر 2003 :**

الساعة 9 و30 صباحاً : الجلسة الثالثة برئاسة الأستاذ حلمي شعراوي

ومشاركة الأساتذة :

- محمد بن منصور فنطر : أرض العروبة وإفريقيا السمراء : حوار قديم
- أحمد الشكري : أسس التواصل ومحدداته ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط.
- مصطفى أوعشي: الإنسان وتطوره بين إفريقيا والشرق الأدنى.
- حسن الصادقي : أوجه التعاون بين المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء في العصر الحاضر.

**مناقشـة**

الساعة 16 : الجلسة الرابعة برئاسة الأستاذ مصطفى عمر التير

ومشاركة الأساتذة :

- محمد الطاهر الجراري : الإرث التاريخي للصلات العربية – الإفريقية : ليبيا نموذجاً.
- Khadim Mbacké : Quelques aspects de la coopération culturelle arabo-africaine : le cas du Sénégal.
- فاطمة الجامعي الحبابي : «الإبداع الأدبي جسر للتقارب العربي الإفريقي : رواية مريم با نموذجاً»
- Amadou Mahtar Mbow : Le monde arabe et l'Afrique : réflexions sur les facteurs qui favorisent la coopération arabo-africaine et sur les exigences de cette coopération.

**مناقشـة**

الجمعة 17 أكتوبر 2003 :

## المحور الثالث : العالم العربي وإفريقيا : من تحديات الحاضر

الساعة 9 و30 صباحاً : الجلسة الخامسة برئاسة الأستاذ أحمد الشكري

ومشاركة الأساتذة :

- حلمي شعراوي : قضايا الجدل الثقافي العربي- الإفريقي في ظروف العولمة.
- علي أحمد فليفل : العرب والأفارقة في مواجهة تحديات العولمة
- مصطفى عمر التير : العولمة وتعميق الفروقات بين المجتمعات : حالة العرب وأفريقيا.
- Ousmane Batoko : Mondialisation et solidarité arabo-africaine

**مناقشة**

## المحور الرابع : العالم العربي وإفريقيا : آفاق المستقبل

الساعة 16 : الجلسة السادسة برئاسة الأستاذ عبد الأحد السبتي

ومشاركة الأساتذة :

- Boubacar Barry : La victoire de la caravelle sur la caravane : quel destin pour l'Afrique
- عبد الله السيد ولد أباه : العلاقات العربية الإفريقية : الأبعاد الاستراتيجية.
- Babacar Sall : Ankh : une initiative pour relever un défi.

**مناقشة**

**اختتام الندوة.**

# ورقة تقديمية

إن العلاقات العربية الإفريقية متجذرة في الزمان والمكان، وهي علاقات فيها من القواسم المشتركة المستثمرة وغير المستثمرة الشيء الكثير. إن التفاعل الثقافي والحياتي تمليه وتؤكده فضلا عن المصالح المشتركة للحاضر والمستقبل، قواسم حضارية ومجالية عريقة وجديرة بالتفكير والاستعادة النقدية لمضمونها.

لذلك نفترض أن الحوار بين المثقفين العرب والأفارقة ينفتح على أسئلة الحاضر بصعوباته والتباساته وآماله كذلك. إن التراث والهوية والتنمية المستدامة والعولمة تمثل اليوم تحديات حقيقية بالنسبة للثقافتين الإفريقية والعربية. ومن شأن انطلاق حوار جاد وصريح من منظور نقدي متبادل، أن يفتح الطريق نحو الاستعادة المنتجة والفعالة لأهمية الفضاء العربي الإفريقي، خاصة وأن ثراءه الثقافي والتراثي والنضالي لهو وضع أو مكسب إيجابي ومشجع على مثل هذا الحوار.

محاور الندوة:

- التراث الثقافي والهوية في أفريقيا والعالم العربي
- التواصل الثقافي بين العالم العربي وإفريقيا
- من تحديات الحاضر ( التنمية المستدامة، العولمة..)
- أفاق المستقبل

# "البحث في التراث بوصفه منطلقا لتنمية العلاقة بين العرب والأفارقة"

أحمد التوفيق(*)

من خلال هذه المشاركة أود أن أدلي ببعض الأفكار تحت العنوان الذي اقترحته " البحث في التراث كمنطلق لتنمية العلاقة بين العرب والأفارقة ". هذه الأفكار هي عبارة عن شهادة لتجربة عشتها فيما يتعلق بالمجال الذي نحن بصدده، ففي سنة 1987ألقى أحد علماء مالي درسا ضمن الدروس الحسنية التي تلقى في حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، وكان موضوع هذا الحديث هو: ماضي العلاقات بين المغرب والجهة التي كانت تسمى بمالي في التاريخ أو بالسودان المغربي أو الغربي ، فبعد انتهاء هذا الدرس علق جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله تراه على الموضوع، واقترح بل وأمر أن ينشأ كرسي للتراث المغربي الإفريقي المشترك، وتشكلت لذلك لجنة ترأسها وزير التعليم آنذاك، وتمخضت الفكرة في الأخير عن تأسيس معهد للدراسات الإفريقية كمعهد بحث في إطار جامعة محمد الخامس، وعينت مديراً له يوم 13 دجنبر 1989، وكما تعلمون فإن كل مؤسسة لابد أن يكون لها توجه ، وبالفعل لم تعترضنا العوائق في تعيين توجهات هذا المعهد، لأن الرصيد كان نصب أعيننا، ولكن المغرب له هذه العلاقات المعروفة الغنية مع البلدان الصحراوية والتي تقع جنوب الصحراء، فأردنا أن نخرج هذه الفكرة إلى حيز التفعيل، وكان أول اقتراح اقترحناه وتضمنه القانون المؤسس والموجه للمعهد هو إنشاء كرسي للتراث المغربي الإفريقي المشترك، ينظم في إطاره محاضرات يقوم بإلقائها على الخصوص أعلام من الباحثين

(*) مؤرخ وروائي مغربي.

تنويه استخرجت هذه الشهادة من شريط التسجيل الصوتي الخاص بالندوة.

والمهتمين من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وفي ظرف خمس سنوات كانت حصيلة هذه المحاضرات تزيد عن 40 عنوانا، فضلا عن تنظيم عدد من السنوات التي اشترك فيها الباحثون من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء والباحثون المهتمون من بقية بلدان العالم ولا سيما من أوروبا وأمريكا والباحثون المغاربة، وقد أسفرت عن تغيير في بعض وجهات النظر،لأن الذي كان في خلفية تفكيرنا-هو أن هذه العلاقات المغربية السودانية كما نقول أي مع غرب إفريقيا- تعرضت لنوع من التشويه ولا سيما في الكتب المدرسية التي تمخضت عن البرامج الاستعمارية في هذه البلدان، فكانت هذه الكتب في الغالب تشوه صورة العلاقات المتمثلة في السلم والروحانية والثقافة والمسالمة والمبادلة... وتحولها إلى علاقة الحرب والغزو والاسترقاق والاستغلال.

من الطريف أن نذكر أن هذه الندوات أدت إلى تغيير في عدد من وجهات النظر في هذا الاتجاه مع الباحثين الأفارقة، وأن ذلك التغيير تسرب إلى قرارات ومواقف عند هذه الدول ولا سيما في الأوساط الجامعية بل وحتى في الأوساط السياسية. وقد قوبلت فكرة هذا المعهد ونشاطه في هذه البلدان بشيء من الترحيب وربما من الشعور المستأنف، فيقولون وأخيراً استيقظ المغاربة ليقوموا برسالتهم الواجبة معنا، فكانت هذه التجربة غنية جداً بالرغم أن الوسائل المتاحة والمرصودة لها كانت متواضعة، ومع ذلك فقد مهدت لمواقف معظمها ثقافي وسياسي. فهذا المثال إذا أخذناه وعممناه، يمكن أن نقتنع بأن الدول العربية لها من رصيد العلاقات مع البلدان الإفريقية كل دولة في موقعها الجغرافي وفي سياق تاريخها تعتمد- من بين الوسائل المتعددة- تعديل كفة الحاضر وتهيئ المستقبل بالاعتماد على هذا التراث بكيفية يكون فيها كثير من البيان والتوضيح وربما حتى المصالحة النفسية.

فهذه التجربة هي قائمة وما زالت مستمرة حيث أنه بعد مغادرتي لادارة المعهد بعد ست سنوات، تولت الإدارة الأستاذة حليمة فرحات التي توجد بيننا حاضرة في هذه الندوة، واستمر المعهد في تطوير اتصالاته وإمكاناته، فهو مؤسسة معروفة في كل هذه البلدان من لدن جامعيها وباحثيها ،وقمنا بنشر عدد من الكتب التراثية المشتركة، وأجرينا عدداً من التحريات لنعرف مصير هذه العلاقات من الناحية الواقعية لأننا كثيراً

ما نلجأ إلى مساءلة الحاضر وما بقي منه وما ينبغي أن يؤسس عليه المستقبل، من ذلك البحث الذي قمنا به في كل من السينغال والكوط ديفوار ومالي حول العائلات ذات الأصل المغربي ،وكيف تم اندماجها وتعاملها،وما هو الرصيد الذي خلقه وجودها في تلك الأوساط، هذا بالإضافة ، إلى أن المسألة لا تقف عند حدود التلاحم البشري، ولكن هي أبعد من ذلك تتمظهر تجلياتها في الآثار الفكرية والروحية التي كانت الصحراء معبراً لتبادلها، لأن هذا التيار لم يكن أحادي الاتجاه شمالا جنوبا بل كان جنوباً شمالاً ثم شمالاً جنوباً فيتكون رصيد من اللحمة الدموية والعاطفية ثم الروحية والثقافية عبر التاريخ.

فعند الأفارقة جنوب الصحراء شعور فيه مطالبة بالعرفان في التبادل، إذ التعامل على أساس التبادل فاتجاه التأثير لم يكن دائماً شمال جنوب بل كان أيضاً جنوباً شمالا، وهذه المسألة هي مسألة إنصاف وليست مسألة تاكتيك لأننا في الحقيقة لا نستطيع أن نغير أو نقيس المؤثرات الثقافية ونقول هذه أكثر تأثيراً من تلك ،وإنما هنالك ولا سيما بالنسبة لبلدنا المغرب وبالنسبة لعدد من بلدان المغرب العربي وشمال إفريقيا على العموم التأثير الإفريقي مع بلدان جنوب الصحراء وحتى مع سكان الأدغال والغابات هو تأثير قوي يدخل فيه الدم وتدخل فيه التركيبة العاطفية وتدخل فيه المؤثرات الحضارية الموسيقية والفنية والتخييلية وغير ذلك من جوانب الحضارة في المطبخ والمفرش وغير ذلك. فمبدأ قيام التحاور على هذه العلاقة المتبادلة من شأنه أن يفك عدداً من العقد النفسية التي خلقتها الأيام ولا سيما في الفترة الاستعمارية.

وقد حاولنا من خلال نشاط هذا المعهد أن نجدد نوعاً من العلاقات التجارية على الأساس القديم- طبعاً هنالك الآن الشركات الكبرى التي يمكن أن تستثمر في الشمال أو في الجنوب بين البلدان العربية والبلدان الإفريقية- لكن فكرنا في نوع من إحياء التجار القدامى على الشكل القديم وذلك باقتراح ينصب على فتح المجال للطلبة المغاربة المتخرجين من معاهد التجارة ومن شعب الاقتصاد بكليات الحقوق بأن يتلقوا في المعهد وتحت إشرافه تكوينا إضافيا في إحداث الشركات وفي الجغرافيا

الاقتصادية لإفريقيا وفي بعض عناصر هذه العلاقة الثقافية بين بلادنا وبين البلدان الإفريقية وتأهيلهم للحصول على قروض ضمن برنامج القرض الممنوح للشباب المقاول Jeune promoteur. وإيفاد كل سنة 100 شاب أو أكثر للاستقرار هنالك والاندماج في المحيط الذي يعيشون فيه يتبادل التأثير ولا يكونوا كالشركات التي تفتح فقط مكاتب وتنصرف حسب ذبذبات الأسواق والأرباح التجارية هذا المشروع للأسف لحد الآن لم ينجح ويمكن أن يعوض بمشروع يشبهه أو بما هو أحسن منه أو بمثله، لكن هو في الحقيقة كان نتيجة الخلاصات التي جاء بها البحث حول وجود العائلات ذات الأصل المغربي في البلدان الثلاثة التي اتخذناها كنموذج.

في الحقيقة هنالك أشياء ومرتكزات كثيرة يمكن أن تقوم عليها هذه العلاقات بتغيير جوها النفسي وأن نكون مقتنعين بأن هناك عوائق نفسية منها:

-الجهل بهذه العلاقات القديمة عند الأجيال الناشئة في الشمال أو في الجنوب.

-مخلفات العوائق التي رصدت للحيلولة دون استمرار هذه العلاقات. ومع ذلك فمحاربة هذا الجهل بالعلاقات من جهة والارتكاز على صفحاتها.

الناصعة من جهة أخرى يعطي لكل دولة عربية إطار التعامل القائم على الثقافة والروحانية والعرفان والتاريخ والأخوة في كثير من المقومات، يبقى أن أختم بنقطة ربما مكملة أو جانبية ويتعلق الأمر بالعنصر الأساسي في العلاقات ألا وهو الإسلام، ومع الظروف التي نعرفها جميعاً هناك دول كثيرة في إفريقيا تحس وتشعر بل وتعيش ضرورة موافقة تطورها السياسي والاجتماعي والثقافي مع المقوم الإسلامي، وفي هذا المجال يحضر من جديد أصل هذا المقوم أو العلاقات مع منطلق هذا المقوم وهو بلدان الشمال والمغرب بالذات، هنا ينبغي أيضا أن نكون على وعي بأن الطريقة التي نعالج الحساسيات الإسلامية في حياتنا هي مراقبة ورصد وتطلع من قبل الدول الإفريقية، فبعض هذه الدول اختارت في نظامها العقدي اللائكية العلمانية، لكن وجود الأغلبية

الساحقة من السكان المعتنقين للإسلام يضعون لها مشاكل، فلابد أن يقع التعاون في هذا الباب، وفق نوع من التوجيه لتكوين المؤسسات الكفيلة بتجنيب هذه الدول والأنظمة الوقوع في تناقضات مع المقومات الأساسية لها. هذه هي النقطة الأولى، أما النقطة الثانية، هي أن الإسلام الآن في السياقات التي نعرفها في بعض الأحيان تميل إلى المطلق بمعنى إنكار التاريخ، فبعض الناس الذين يبشرون بالإسلام أو يريدون إعادة قراءة الإسلام يميلون إلى إنكار التاريخ وإلى نوع من الاطلاقية المعادية للإسلام والمناخية له، فيخلقون مشاكل في هذه البلدان. فهذا مجال آخر ينبغي أن نتعاون فيه أولا بألا تكون الدول العربية منطلقا لتوجهات إطلاقية تنفي التاريخ والأحوال والبيئة والظروف لكي تخلق مشاكل. وهذه نقطة أساسية ربما كانت من بين القضايا التي ينبغي أن تتعاون فيها الدول العربية مع الدول الإفريقية في المستقبل.

# الهجرات المتبادلة
# بين الجزيرة العربية والمغرب العربي (إفريقيا):
# "قضية الهوية والتراث المشترك"

عبد الرحمن الطيب الأنصاري(*)

خلق الله الأرض وقد وصل بين قارتين هما آسيا وإفريقيا، ثم شاء الله أن تنفصلا فانفصلتا مكونة البحر الأحمر وقرناه خليج العقبة وخليج السويس. لقد أخذت هذه العملية ملايين السنين وقبل أن يبدأ الإنسان نشاطه على الأرض، وبعد أن مدت الأرض وألقت ما فيها وتخلت، وأذنت لربها وحقت، بدأ كدح الإنسان فيها بانتقاله من إفريقيا إلى آسيا وبالعكس فقد سجلت الرسوم الصخرية التي تعود إلى الألف الرابع ق.م وربما قبلها أشكالاً آدمية أقرب إلى السحنات الإفريقية منها إلى سحنات الجزيرة العربية كما كشفت التنقيبات الأثرية في موقع سهى على الساحل الغربي جنوب البحر الأحمر على فخار يربط بين الجزيرة العربية والساحل المقابل في إفريقيا ولا شك أن الأخلاط العرقية التي تعيش في جنوب الجزيرة العربية وفي شرق إفريقيا تشهد على التبادل العرقي بين القارتين منذ حقب تاريخية غارقة في القدم.

إن هاجر زوج إبراهيم عليه السلام كانت أول إفريقية سجلها التاريخ تدخل إلى الجزيرة العربية وتصبح أمًا للعرب منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وتنشئ وولدها وأحفادها مستقراً يربط بين البشر وديانة التوحيد، فكان إسماعيل وأولاده المجتمع الأول في الجزيرة العربية التي اتضحت معالمه، ووصلتنا أخباره، مرتبطًا بركن من أركان الإسلام الخمسة وهو الحج إلى الكعبة وعرفات ومنى ومزدلفة هي الأماكن نفسها التي شهدها إبراهيم وإسماعيل واقتراب وقوع المأساة البشرية التي كانت ستحدث لولا

(*) باحث أكاديمي سعودي، أستاذ بقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود.

افتداء الله عز وجل إسماعيل بكبش يقدمه كل حاج قربانًا لله عز وجل لينال التقوى من عباده المخلصين إلى قيام الساعة.

وتستمر العلاقة بين الجزيرة العربية وإفريقيا بحراً وبراً وتصبح سيناء معبراً للإنسان والحيوان والغزاة، ولا أدل على ذلك من غزو الهكسوس وهم جماعة من القبائل الشرقية نزحت إلى وادي النيل حيث الماء والحياة، انتقلت بكل ثقافتها بما في ذلك العربة فأثرت وتأثرت وعادت إلى الشرق بعد ارتفاع الوعي الوطني بين المصريين حيث تخلصوا من ضغط الهكسوس واحتلالهم لأرضهم، ولكن هذا الفيضان البشري عاد من مصر حاملاً معه تراثًا ظهرت آثاره في شمال غرب الجزيرة العربية بين الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد في الرسوم الصخرية التي رسمها الإنسان العائد من إفريقيا. وفي الألف الثاني التقت الحضارة الشرقية مع حضارة مصر الإفريقية على أرض سيناء حيث نبعت وتشكلت الأبجدية السامية على يد الفينيقيين، وفي أحضان ربوع شمال غرب الجزيرة العربية نمى وترعرع القلم العربي القديم، ناشراً ألوانًا من الحروف منها السبئي واللحياني ثم الآرامي والنبطي والتدمري فالعربي الإسلامي.

وإذا ما اتجهنا جنوبًا في الجزيرة العربية نجد العلاقتين السياسية والحضارية بين اليمن والحبشة قد تقاربت حيث ينتقل العرب اليمانيون إلى إفريقيا ويكونون حضارة أكسوم، ثم تمتد الحضارة الأكسومية الإفريقية لتسيطر على المناطق الحضارية بين نجران وصنعاء وما حولهما جنوبًا وشرقًا وغربًا.

ثم سجل الأحباش طموحًا كبيراً قاده أبرهة الحبشي ليسجل حملته إلى جنوب غرب نجد حيث " تثليث" إذ يتحدث النص عن تأديب لقبائل، أملاً في السيطرة على طريق التجارة في القرن السادس الميلادي، ثم يقوم بحملة أخرى متجهًا إلى مكة حيث بيت الله ليهدم الكعبة ويجعل كعبة نجران أو صنعاء على خلاف بين المؤرخين قبلة للعرب أجمعين، وينتقم الإله عز وجل لبيته وتحصل المعجزة: طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، وهو حدث له شبيه معاصر وهي الطيور التي ترمي بميكروباتها في الصين لتفني ملايين الطيور الداجنة ثم انتقلت هذه الميكروبات إلى الإنسان لتقتله.

وفي بداية القرن السابع الميلادي كانت مكة بل والجزيرة العربية كلها تتهيأ للدين الجديد، ومجتمع مكة لم يكن ذلك المجتمع المنغلق، بل كان مجتمعًا عالميًا فيه الفرس والروم والأفارقة بل وكل الديانات، إنها عناصر سكان مرتبطة بحضارة العصر. وجاء الإسلام والدعوة المحمدية، وقبل الدعوة أطياف من هذه العناصر؛ فهناك سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي وعرب من كل أصقاع الجزيرة، ذلك هو المجتمع المصغر لعالمية الدين الإسلامي في بداياته الأولى في مكة، وقد عانى المسلمون الأولون من سطوة قريش وبطشها فوجد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ملجأ إفريقيًا لدى ملك الحبشة الذي لا يظلم لديه أحد، تلك كانت الميزة لذلك الحاكم الإفريقي الذي فهم النصرانية على حقيقتها وفهم الإسلام على حقيقته فاستحق الثناء من الرسول صلى الله عليه وسلم، وانطلق المسلمون يعيشون في ظل هذا التسامح بين النصرانية والإسلام في بلاد الحبشة.

وتسير قوافل الإسلام والمسلمين إلى المدينة حيث كان الأنصار من الأوس والخزرج الذين فتحوا عقولهم قبل بيوتهم للتوحيد ودين الله. وفي المدينة نشأت الدولة الإسلامية وآخى الرسول بين سكانها المسلمين وأمضى معاهدة بين المسلمين وغيرهم من اليهود ليضع أسسًا وقواعد للمجتمع الجديد، ويبعث البعوث إلى خارج الجزيرة العربية فاستجابت إفريقيا ممثلة في مصر وأجابت بهدايا كان من بينها ماريا القبطية تلك الفتاة المصرية الإفريقية التي اختارها الرسول صلى الله عليه وسلم زوجة له فأنجبت ابنه إبراهيم. لماذا سمى الرسول صلى الله عليه وسلم ابنه بهذا الاسم "إبراهيم"؟ إسماعيل بن إبراهيم يأتي من أم مصرية هي هاجر، وإبراهيم بن محمد يأتي من أم مصرية هي مارية، إن إفريقيا كانت الوعاء الحاضن لأشرف الأبناء على وجه الأرض "أبناء الأنبياء".

ظلت علاقة الجزيرة العربية متواصلة مع المغرب العربي (إفريقيا) حتى قبيل الإسلام، وعندما بدأت الفتوح الإسلامية كانت مصر هي الجسر الذي عبرته الجيوش الإسلامية في طريقها إلى المغرب العربي، وكانت الفسطاط هي القاعدة التي انطلق منها الفتح الإسلامي للمغرب العربي.

كانت منطقة المغرب العربي بأسرها قد سقطت في يد الرومان بعد استيلائهم على قرطاجنة سنة 146 ق. م، وما أن تخلص المغرب من السيطرة الرومانية حتى وقع تحت حكم الوندال الذي استمر حتى سنة 533م عندما أرسل الإمبراطور البيزنطي جستنيان حملة تمكنت من القضاء على الوندال فدخل المغرب العربي تحت الحكم البيزنطي الذي لم تتجاوز سيطرته المناطق المتاخمة للسواحل الشمالية المطلة على البحر المتوسط، وظلت أوضاع المغرب العربي متردية تحت الحكم البيزنطي حتى فجر الإسلام.

وبعد أن تمكن عمرو بن العاص من إتمام فتح مصر سنة 22هـ/642م، توجه منها غربًا مبتدأً الفتح الإسلامي للمغرب العربي فتمكن في أواخر سنة 22هـ/ أوائل سنة 643م من فتح برقة وطرابلس وعاد إلى مصر، وتم تأسيس جيش إسلامي أوكلت قيادته إلى عقبة بن نافع الفهري الذي تمكن من فتح المغرب العربي بعد أن قاد عدة حملات خاصة في سنوات 42هـ/662م، 43هـ/ 663م، واستمر عقبة في فتوحاته بعد أن تولى ولاية المغرب سنة 50هـ/670م، وأسس أثناء ولايته مدينة القيروان عاصمة للمغرب ومركزاً لانتشار الإسلام في المنطقة، واستمر جهاد عقبة بن نافع في سبيل نشر الإسلام حتى استشهاده سنة 63هـ/684م.

أجمع المؤرخون على عدم انتشار المسيحية في المغرب خلال عصر السيطرة البيزنطية، ولما دخلت الجيوش الإسلامية المغرب انتشر الإسلام بسرعة بين القبائل المغربية مما يؤكد الهوية المشتركة والصلات العرقية التي تربط بين المغرب العربي والجزيرة العربية قبل الإسلام، مما حدا بالكثير من المؤرخين الأوروبيين للاعتراف بالجذور المشتركة بين المنطقتين وقد عبر أحدهم وهو المؤرخ بيروني عن ذلك بقوله: (احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم، وعاداتهم وأخلاقهم، وقد علل ذلك بالتقارب بين العربية والفينيقية، وبالاتحاد في النسب الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع) (نصر 1998: 3).

وما الفينيقيون إلا قبائل كنعانية عربية هاجرت إلى المغرب العربي من الساحل الشرقي للبحر المتوسط وانصهرت مع السكان الأصليين، لذا عندما قدم العرب إلى المغرب بعد الإسلام كانت تسبقهم صلات القربى والدم المشترك التي كانت تربطهم بسكان المغرب منذ القدم.

ويجمع المؤرخون على أن الجيوش الإسلامية التي دخلت المغرب منذ عهد عمرو بن العاص وحتى عهد موسى بن نصير قد حملت معها العديد من القبائل العربية التي استقرت في المغرب وانتشرت في أرجائه واستوطنت وتزاوجت مع السكان السابقين، ثم جاء تأسيس مدينة القيروان ليتيح الفرصة لمزيد من العرب الذين كانوا جنوداً في الجيوش الإسلامية للاستقرار في هذه المدينة الجديدة، فلم تكن الحملات العسكرية الإسلامية تسفر فقط عن فتح بلدان ومدن، بل كانت تسفر عن استقرار العديد من هؤلاء الجنود في تلك البلدان والمدن والاندماج مع أهلها؛ ويذكر المؤرخون أن الولاة الأمويين قد نقلوا إلى المغرب أكثر من مائة ألف جندي من المشرق، توجه نحو أربعين ألفًا منهم إلى الأندلس فيما ظل الباقون في المغرب وانتشروا في القيروان وما حولها من حواضر المغربين الأوسط والأقصى (الجنحاني 1968:146؛ غلاب 1996: 138).

وفي أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي كثرت حركات الخوارج في المغرب العربي، وقد أدت هذه الحركات إلى دفع العديد من العرب للاستقرار في المغرب، إذ هاجرت العديد من القبائل التي تعتنق مذهب الخوارج إلى المغرب لتبعد عن مركزي الخلافتين الأموية والعباسية التي كانت تتصدى لهم في المشرق، وفي الوقت نفسه توالت الحملات العسكرية الأموية ثم العباسية على المغرب في محاولة للقضاء على الدول التي تمكن الخوارج من إقامتها في المغرب، وقد أدى ذلك في النهاية إلى استقرار العديد من هذه القبائل العربية في المغرب العربي.

وبعد قيام الخلافة العباسية سنة 132هـ/749م وقعت بين العباسيين والعلويين حروب كثيرة في المشرق، بعد مطالبة العلويين بالخلافة فطاردهم العباسيون ولذا فر العديد منهم إلى أنحاء بعيدة عن مركز الخلافة العباسية ومن هؤلاء الفارين إدريس بن

عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي تمكن من إقامة دولة علوية في المغرب الأقصى سنة 172هـ/789م واستمر في الحكم حتى سنة 177هـ/ 793م؛ وقد أسفرت إقامة هذه الدولة العلوية عن وفود العديد من العرب المناصرين لآل البيت إلى المغرب فراراً من العباسيين، فسكنوا في المغرب واستقروا به، كما نزحت إلى المغرب قبائل عربية من الأندلس من شيعة آل البيت. ويتجلى استقرار هذه القبائل العربية في مدينة فاس التي أسسها الأدارسة لتكون عاصمة لهم إذ أقيم بها تجمعان للعرب النازحين إلى المغرب، الأول عرف بعدوة القرويين نسبة للقيروان وخصص للقادمين من المشرق، والآخر عرف بعدوة الأندلسيين وخصص للقادمين من الأندلس، ولم ينعزل العرب أبداً عن السكان الأصليين مما أدى إلى اندماجهم سويًا، وصار المجتمع المغربي يضم السكان القدماء (الأمازيغ) والعرب الوافدين من المشرق، والنازحين من الأندلس، والأفارقة الزنوج، ومما يجدر ذكره أن العرب النازحين من الأندلس كانوا مزيجًا من العرب والبربر والأسبان (غلاب 1996: 40).

## تغريبة بني هلال وأثرها في انتشار العرب في المغرب العربي:

خرج المعز بن باديس (407-453هـ/ 1016-1061م) _ أحد حكام دولة بني زيري التابعة للخلافة الفاطمية _ على الخليفة الفاطمي المستنصر بالله فيما بين سنتي (440-449هـ/ 1048-1057م)، ولما أعيت الحيل الفاطميين في عودة تونس إلى طاعتهم استقر رأي أبي الحسن علي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على تهجير قبائل بني هلال وبني سليم من مصر إلى تونس للقضاء على ثورة المعز بن باديس فبدأت هذه القبائل هجرتها إلى تونس سنة 442هـ/ 1050م، وما أن حلت سنة 449هـ/ 1057م حتى كانت هذه القبائل قد اجتاحت تونس، ودخلت القيروان عاصمة دولة بني زيري مما أجبر المعز بن باديس على العودة إلى كنف الخلافة الفاطمية.

أدت هجرة بني هلال وبني سليم إلى انتشار العرب من جديد في أرجاء المغرب وعملت على امتزاجهم مع السكان القدماء، ولم تقف هجرتهم عند حدود تونس فقط، بل امتدت إلى أقصى المغرب فوصلوا إلى فاس ومراكش، وفي غضون ثلاثة قرون من

هجرة بني هلال كانت اللغة العربية قد استعادت قوتها في كافة أرجاء المغرب، بل وصلت إلى الصحراء الكبرى واجتازتها جنوبًا فصارت اللغة العربية هي لغة أغلب الشعوب والقبائل في غرب إفريقيا، ولم يقف العرب ولغتهم حائلاً دون بروز القوميات المحلية ولغاتها مثل البربر ولغتهم الأمازيغية.

كان أثر الهلالية كبيراً في تسارع وتيرة انعاش اللغة العربية في المغرب ولم يأخذ ذلك شكلاً من أشكال التطهير العرقي أو حلول شعب مكان آخر بل أخذ شكل الاندماج والانصهار، ويعبر عن ذلك المؤرخ عبد الحميد يونس بقوله: (استقر بنو هلال في ديار أخرى بعيدة عن ديارهم الأولى وساطوا غيرهم بدمائهم في أجيال متعاقبة متطاولة على الرغم من العامل البيولوجي القوي الذي يمنعهم فطرة من الإنصهار إلى غيرهم من الأجناس الأخرى... عدلت الغزوة الهلالية تعديلاً جنسيًا أو عنصريًا في السكان جميعًا، حتى أصبح الأثر البربري القديم لا يلتمس إلا في معاقل طبيعية ضيقة ولا يميز إلا ببعض الظواهر اللسانية العامة) (يونس 1956: 76-80).

وإذا كان الزمان قد عفى على أسباب تغريبة بني هلال، فإن تأثيرها لا يزال مشهوداً إلى اليوم، ولا تزال أصداؤها تتردد في الأدب الشعبي العربي؛ ويهمنا في هذا الصدد أنها أدت إلى الإسهام بفاعلية في تعريب المغرب العربي عرقًا ولسانًا، وإن هذا التعريب الذي وحد الهوية المشتركة بين العرب والبربر قد جمع الشعبين بالمصاهرة منذ أن تزوج أحد زعماء بني هلال ابنة المعز بن باديس، ومع مرور الزمن اندمج الشعبان وانصهرا في مجتمع واحد عربي بربري أو بربري عربي تبربر فيه العرب وتعرب البربر، ولا تزال العديد من الأسر في المغرب العربي تحمل ألقابًا مثل: الهلالي، والسلمي، والسليمي (غلاب 1999: 183).

وإلى جانب الدور البارز الذي لعبته تغريبة بني هلال في انتشار العرب بالمغرب العربي كانت هناك عوامل أخرى منها:

1- لم يكن الفتح الإسلامي بصفة عامة ذا طابع استعماري، وإنما تم على أسس حضارية وفكرية ولم يكن الهدف منه التخلص من أهل البلاد المفتوحة وإحلال العرب محلهم.

2 ـ أدى بقاء الجنود المسلمين في المغرب العربي وعدم عودتهم إلى بلادهم إلى امتزاجهم مع السكان القدماء )البربر) وتكوين مجتمع جديد من العنصرين العربي والبربري.

3 ـ فضَّل العديد من أبناء قادة الجيوش الإسلامية من العرب البقاء في المغرب مما أدى إلى استقرارهم ومصاهرتهم للمغاربة الأمازيغ، وقد وفد عليهم العديد من أبناء قبائلهم وحلفائهم مما أسفر عن نشوء تجمعات عربية اندمجت مع الأمازيغ وكونت جيلاً جديداً لا يمكن نسبته إلى عرق بعينه (غلاب 1996: 174).

4 ـ أدى فتح الأندلس منذ سنة 91هـ/ 711م إلى قدوم كثير من الجيوش العربية في طريقها إلى الأندلس عبر المغرب، واستقر العديد من العرب الذين شاركوا في فتح الأندلس في المغرب العربي مفضلين الإقامة في أرجائه على العودة إلى المشرق.

5 ـ قامت العديد من الدول الإسلامية في المغرب العربي خاصة خلال عهد الخلافة العباسية مثل: الدولة الرستمية (140هـ/758م)، ودولة الأدارسة (172هـ/789م)، ودولة الأغالبة (184هـ/800م)، وقد لعبت هذه الدول دوراً كبيراً في انتشار العرب بالمغرب، فقد كانت الدولة الرستمية تعتنق فكر الخوارج مما جعل العديد من الخوارج العرب يتوافدون عليها من المشرق والأندلس، والأمر نفسه حدث مع دولة الأدارسة التي جذبت الكثير من أنصار آل البيت إلى الاستقرار في المغرب، كذلك الأمر بالنسبة لدولة الأغالبة التي جذبت قبائل عربية عدة خاصة لفتوحاتها في البحر المتوسط التي وصلت إلى صقلية وغيرها، كما لا ننسى الأمويين وأنصارهم الذين فروا من المشرق بعد سقوط خلافة بني أمية وساروا خلف عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.

6 ـ بعد سقوط مملكة غرناطة آخر قلاع الإسلام في الأندلس سنة 897هـ/1492م أصبح المغرب موئلاً وملجأ للأندلسيين الذين طردهم النصارى، وكانت الهجرات العربية من الأندلس قد سبقت سقوط غرناطة فقد كان كل حاكم من ملوك الطوائف ما أن تسقط مملكته في يد النصارى حتى يبادر باللجوء إلى المغرب هو ومن معه، فقد عاد كل من بقي من المسلمين في مالقة إلى باديس، وهاجر أهل ألمرية إلى

تلمسان، وهاجر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وأهل رندة إلى تطوان، وانتقل سكان غرناطة إلى عدة مدن في المغرب العربي مثل: بجاية، ووهران، وقابس، وصفاقس، وسوسة، واستقر من قدموا من طريفة في أسفي وآزمور، وهاجر محمد الثاني عشر ملك غرناطة ومن معه إلى وهران وتلمسان، أما محمد الحادي عشر آخر ملوك غرناطة فقد عاد إلى المغرب بعد تسليم غرناطة للقشتاليين ولجأ معه الكثير من المسلمين فراراً بدينهم بعد أن أجبر النصارى كل من بقي من المسلمين في الأندلس على التنصير (غلاب 1996: 184-185). وأدت هذه الهجرة الأندلسية إلى تكاثر القبائل العربية في المغرب وزيادة رصيد الثقافة العربية به، إذ كان بين المهاجرين الكثير من العلماء والأدباء والشعراء الذين ساهموا بقسط وافر في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المغرب.

7 ـ لم تكن الجيوش الإسلامية التي توجهت إلى المغرب العربي مكونة من جنود مقاتلين فقط، بل كانت تضم العديد من حفظة القرآن الكريم الذين كانوا يلقنون القرآن لكل من يدخل الإسلام، بالإضافة إلى الفقهاء الذين كانت الدول الإسلامية تستعين بهم لنشر الإسلام بين المسلمين الجدد، يضاف إلى ذلك الدور الذي لعبته المساجد في نشر الإسلام واللغة العربية مثل مساجد: القيروان، والزيتونة، والقرويين وغيرها.

8 ـ يعد الحج من أبرز مقومات الهوية المشتركة بين الجزيرة العربية والمغرب العربي، فبعد أن استقرت جموع العرب في المغرب بعد حركة الفتوح عاد الكثيرون منهم إلى الجزيرة العربية لأداء فريضة الحج، أو أداء العمرة وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لطلب العلم. فقد كان طلبة العلم في كل من الجزيرة العربية والمغرب العربي حريصين على الاستفادة من العلماء الموجودين في المنطقتين، والارتحال إليهم للتزود من علمهم، وأدت هذه الهجرات المتبادلة إلى تبادل المظاهر الحضارية بين المنطقتين، إذ أنها لم تحمل فقط العلماء والشعراء والأدباء، بل حملت الصناع والحرفيين من مختلف الصناعات والحرف مما يؤكد على توثيق عرى الهوية المشتركة بين المنطقتين في كافة المجالات.

## الأسر الحاكمة في المغرب العربي هاجرت من الجزيرة العربية:

كانت دولة الأدارسة من أولى الدول المستقلة عن الخلافة العباسية التي نشأت في المغرب. فقد بويع الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في وليلي يوم الجمعة الرابع من رمضان سنة 172هـ/ السادس من فبراير سنة 789م، وأدى قيام هذه الدولة كما سبق أن ذكرنا إلى توافد العديد من القبائل العربية المحبة لآل البيت رضوان الله عليهم إلى المغرب والاستقرار به، ثم مرت على المغرب عدة دول هي المرابطية، والموحدية، والمرينية، والوطاسية، وفيما بعد عاد الحكم مرة أخرى إلى آل البيت ممثلين في الأشراف السعديين الذين يرجع نسبهم إلى محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أول ملوكهم بالمغرب الإمام عبد الله محمد القائم بأمر الله (923-915)هـ/ 1517-1509م)، واستمرت هذه الدولة حيث انتهت بنهاية حكم أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ سنة 1069هـ/1658م (السلاوي 1304: 3/2؛ كريم 1978: 33-40، 329؛ حركات 1984: 242 /20).

وبعد سقوط الدولة السعدية قامت دولة الأشراف الفيلاليين (الأشراف السجلماسيين) نسبة إلى إقليم تافيلالت ومدينة سجلماسة، وجد الأشراف الفيلاليين هو الإمام الحسن بن القاسم بن محمد المعروف بالحسن الداخل وقد قدم إلى المغرب سنة 664هـ/ 1265م وأقام بسجلماسة والريصاني حتى وفاته سنة 676هـ/ 1277م، ويرجع الفضل في قدومه إلى المغرب إلى أن وفداً من الحجاج المغاربة من سجلماسة بعد أن فرغ من أداء الحج عرج على مدينة ينبع النخل بالحجاز والتقى هناك بالإمام القاسم بن محمد وهو حفيد محمد النفس الزكية وكان من أكبر أشراف الحجاز آنذاك، وطلب الوفد المغربي من الإمام القاسم إرسال أحد أبنائه معهم إلى المغرب تكريمًا وتشريفًا لهم، فأرسل معهم ابنه الحسن، وبعد استقراره في المغرب أنجب الحسن ابنًا واحداً هو محمد، وبدوره أنجب محمد ابنًا واحداً هو الحسن الذي أنجب ولدين هما عبد الرحمن، وعلي المعروف بالشريف السجلماسي، وبذلك تمازجت هذه الأسرة مع المجتمع المغربي وصارت جزءً منه، وظل نجمها في صعود حتى آلت إليها أمورالحكم بمبايعة محمد بن محمد الشريف في سجلماسة سنة 1050هـ/ 1640م (السلاوي 1304: 4/2 ـ 8).

وتولى الحكم بعده أخوه الرشيد الذي تمكن من توحيد المغرب (المملكة المغربية) تحت سلطته، ثم بلغت الدولة أوج ازدهارها في عهد أمير المؤمنين إسماعيل بن الشريف (1082–1139هـ/ 1727-1671م) الذي استطاع توحيد المغرب من البحر المتوسط شمالاً إلى ضفاف نهر السنغال جنوبًا، وامتد نفوذه إلى السنغال ومالي (الشاوش 1989: 302–304)، واستمر أحفاد الحسن الداخل في حكم المغرب إلى اليوم؛ وهكذا تجذرت هذه الأسرة الشريفة في المجتمع المغربي وصارت جزءً من نسيجه مما يؤكد على ارتباط الهوية المشتركة بين المغرب والجزيرة العربية، وتجلى الارتباط بين الجزيرة العربية والمغرب في العصر الحديث عندما صار الحجاز ملاذاً للمغاربة أثناء نضالهم ضد الاستعمار الأوروبي لبلادهم حتى نالوا استقلالهم.

وفي الختام لا بد من التوقف أمام حقيقة تاريخية مهمة، وهي لماذا تأثر المغرب العربي بالعرب وتبادلا التأثر والتأثير حضاريًا وعرقيًا ؟. لكنه وقف ضد الغزاة القادمين من الشمال طوال حقب التاريخ من الرومان، والوندال، والبيزنطيين، والأسبان، والبرتغاليين، والفرنسيين، والإنجليز، ولم يتمكن هؤلاء من التأثير العرقي في المغرب، ولم يستطيعوا الاندماج مع الشعوب المغربية. في الوقت الذي نجح فيه العرب في التأثير في المغرب وبلغت العلاقات حد الانصهار العرقي بين الطرفين؛ إن ذلك يرجع أساسًا إلى قدم العلاقات بين الطرفين التي بدأت بهجرة الفينيقيين ومن قبلهم القبائل السامية إلى المغرب العربي، في حين كان الرومان ومن أتى من الشمال بعدهم مجرد غزاة حاولوا تجريد السكان الأصليين من حرياتهم ومقومات وجودهم دون العمل على التفاعل الحضاري معهم.

ولكي يتم إبراز الأوجه الحقيقية للهوية المشتركة والارتباط الحضاري الوثيق بين الجزيرة العربية والمغرب العربي فإنني أدعو إلى إعادة دراسة تاريخ المغرب العربي القديم من قبل المؤرخين والآثاريين العرب، لأن تاريخ المغرب القديم كتب على أيدي مؤرخين أوروبيين حاولوا دمج المغرب ضمن أوروبا لأهداف استعمارية صرفة، ولقد عبر عن ذلك الباحث المغربي الدكتور محمد الكتاني بقوله: "إن تاريخ المغرب القديم مكتوب بأقلام يونانية ولاتينية كتبها جغرافيون أو كتبها حكام عسكريون أو رحالة...

إن صراع البربر وثوراتهم ضد الرومان والوندال والبيزنطيين جعل المؤرخ الغربي يحتد غضبًا على رفض المغاربة للنموذج الروماني في الحضارة والعقيدة" (الكتاني 1989: 143).

## المراجع


الجنحاني، الحبيب 1968 القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي (الدار التونسية للنشر).

حركات، إبراهيم 1984 المغرب عبر التاريخ (الطبعة الثانية، الدار البيضاء).

خطاب، محمود شيت 1966 المغرب العربي (الجزء الأول، الطبعة الأولى).

السلاوي، أحمد خالد الناصري 1304 الاستقصاء (لأخبار دول المغرب الأقصى مصر).

الشاوس، محمد العربي 1989 الدولة العلوية المغربية النشأة، والاستقرار، والاستمرار، ص ص 300-306 ) دعوة الحق، العدد 273).

غلاب، عبد الكريم 1996 قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي) دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت).

الكتاني، محمد 1989 نظرات في طبيعة الدولة المغربية، ص ص 136-146 (دعوة الحق، العدد 273).

كريم، عبد الكريم 1997 المغرب في عهد الدولة السعدية (الطبعة الثانية، الدار البيضاء).

نصر، علي منصور 1997 أضواء على الفتح الإسلامي للمغرب، ص ص 17-53 (ندوة بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق حتى أواخر القرن التاسع الهجري، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة).

يونس، عبد الحميد 1956 الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي) مطبعة جامعة القاهرة).

# الموروث الثقافي السوداني
# تحديات الوحدة الوطنية والانتماء الإقليمي

يوسف مختار الأمين(*)

## مقدمة :

يمر السودان منذ إعلان الدولة الوطنية الحديثة في 1956م باضطرابات وأزمات سياسية واجتماعية تتصاعد وتيرتها مع تعقيدات الأوضاع الداخلية وارتباطاتها الإقليمية والعالمية. ويردُ المراقبون والباحثون في أوضاع السودان ذلك إلى عدة أسباب يلتقي معظمها في طبيعة المجتمع السوداني العرقية والثقافية وإمكاناته الاقتصادية. ولعل أبرز هذه الأسباب ما يمكن وصفه بالمأزق الثقافي التاريخي والظرف الموضوعي الذي تكوّنت فيه الدولة. وهو وضع لم تتمكن النخب التي تعاقبت على إدارة البلاد من النظر فيه، ومن ثم مواجهته بفعالية. وزاد الأمر تعقيداً تعثر هذه النخب في إنجاز القدر المطلوب من التنمية الشاملة وتأسيس نظام للحكم متفق عليه ويلبي طموحات الغالبية من أهل البلاد. وفي ظل أوضاع التخلف وتدهور مرتكزات الاقتصاد المعيشي الطبيعي وارتفاع معدلات النمو السكاني تتوسع تلقائيًا بؤر الصراع الإثني والجهوي والثقافي. ويتجلى هذا الصراع في تبني مواقف سياسية، وثقافية مغايرة للسائد وفي مواجهة السلطة المركزية بحمل السلاح وإذكاء حرب أهلية وصراعات قبلية تتفاقم أبعادها وآثارها يومًا بعد يوم. فالحرب الأهلية في الجنوب ظلت مشتعلة منذ الاستقلال وحتى الآن ما عدا فترة توقف لمدة عشرة أعوام. وشهدت البلاد مؤخراً صراعات وحروب في أقاليم السودان الأخرى في الشرق والغرب بين القبائل وبين بعضها والحكومة المركزية. إن استمرار هذه المواجهات قد أهدر موارد البلاد وعطل التنمية مما أدى إلى تفكك المجتمعات المحلية ونزوح الآلاف من السكان إلى غير أماكن تواجدهم الطبيعي،

(*) باحث أكاديمي سوداني أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة الملك سعود الرياض.

ويجمع المتابعون لمجريات الأمور أن استمرار هذه الأحوال بات يهدد الوحدة الوطنية ما لم يتم تدارك الأوضاع. ولا غرابة أن نجد اليوم أدبيات العلوم السياسية والاجتماعية الحديثة تصف السودان بالدولة المضطربة التي فشل قادتها ومثقفوها بصورة متكررة من مواجهة القضايا المعقدة التي أعاقت تطورها (Woodward: 1989؛ خالد: 1993).

تأمل هذه الورقة الاقتراب من قضايا الوحدة الوطنية ومعوقاتها المتمثلة في الصراعات الإثنية والثقافية وذلك من مدخل الموروث الثقافي. وأقصد بالموروث الثقافي كل المنتج الثقافي المادي وغير المادي منذ أقدم العصور وحتى الوقت الراهن باعتبار أنه المحيط الذي فيه تشكلّت الهوية السودانية وفيه تتفاعل تحولاتها الدينامية. إن تناول قضية الوحدة الوطنية وعلاقات الانتماء الإقليمي يمكن تناولها من منطلقات مختلفة بمناهج وأطر نظرية متنوّعة. وما يهمني هنا، النظر في إمكانية تحليل الأوضاع الحالية انطلاقًا من الموروث المادي الذي يشمل كل ما تركته لنا مجتمعات العصور القديمة من مخلفات أثرية تشمل الأدوات والمباني والفنون وكل ما له صلة بالفعل الإنساني على مر العصور. كما يشمل كل التراث الشعبي من حرف ومنتوجات محلية. إن دراسة الثقافة المادية ببعديها التاريخي والتراثي، من مهام علم الآثار الأولى كما سيأتي ذكره، إذ هي تشكل مصدراً أساسيًا إن لم يكن وحيداً لمعرفة التاريخ الثقافي للأمم. وينطلق البحث أيضًا من فكرة أهمية مراجعة التاريخ الثقافي السوداني (Culture History) منذ أقدم عصوره واستدعائه من أجل صوغ مفاهيم جديدة تشكل إطاراً موضوعيًا لاستيعاب تعقيدات القضايا الملحّة الآن في السودان واقتراح حلول مناسبة لها. فالموروث الثقافي المادي يمكن الاستفادة منه إيجابًا كما حدث في تجارب شعوب وبلدان أخرى في تدعيم ركائز الوحدة الوطنية. ويتم ذلك بالبحث عن المشترك بين فئات المجتمع وإبراز ما يدعم مبادئ التسامح والسلم الاجتماعي خاصة في حالات التعدد الإثني والثقافي في البلد الواحد. وقراءة التاريخ الثقافي في بلد كالسودان، بشكل متوازن تؤهله لإيجاد مناخات جيّدة لتأسيس علاقات إقليمية أكثر إيجابية وفائدة لكل الأطراف. لا تتوقف أهمية التراث المادي كما جاء في هذا السياق عند مرجعيتها وأهميتها التاريخية وإنما تمتد إلى كشف معالم الاستمرارية والتغيّر في الأنظمة

الثقافية. فالتاريخ الثقافي المعروف في شمال البلاد ووسطها يتعاقب في حلقات متصلة منذ العصور الحجرية حتى العصر الإسلامي وذلك مع وجود فترات تحدث فيها تحولات حضارية عميقة تشمل معظم جوانب الحياة الفكرية والمادية ولكنها بدرجات متفاوتة. فعلى سبيل المثال عندما قامت الممالك المسيحية في أواخر القرن السادس الميلادي حلت الديانة وفكرها الجديد مكان إيديولوجية الدولة القديمة القائمة على نظام الحكم العشائري والمعتقد البدائي. وانعكس التغيير أساسًا في الفكر ونظام الحكم ولم يكن واضحًا بنفس المستوى في الجانب المادي من حياة الناس. ومع انتشار الإسلام واللغة العربية فيما بعد لم تختف أيضًا عناصر الثقافة المادية للوهلة الأولى بل احتفظت ببعض عناصرها القديمة (Adams 1977: 665-680). تنبه لمثل هذه النقطة كثيرون منهم من هو غير متخصص في مجالات الدراسات الحضارية. فحليم اليازجي عند دراسته للحركة الأدبية في السودان خلال فترة تزيد عن ثلاثمائة عام يقول: "... فبان لنا مدى الترابط القائم بين هذا الأدب وواقعه البيئي وأحداث تاريخه وكثيراً ما كان انعكاساً مباشراً لهذا التاريخ وتلك البيئات... فالماضي السوداني بكل ما استوعبه من تجربة يقتحم أبواب الحاضر في تداخل عفوي أو مقصود" ويقول: "فالحضارات الموغلة في القدم، تحاور العقل السوداني المتطور الذي تغذي بلبان الثقافات الغربية الأكثر حداثة، وكذلك الثقافات العربية بنزعاتها الدينية والإصلاحية..." (اليازجي، 1985: 11-14).

وأخلص من ذلك بالقول أن الموروث المادي القديم والتراثي هو الأكثر قابلية، ضمن مجالات أخرى للبحث فيه عن المشترك بين فئات المجتمع في الماضي والحاضر ومن ثم تأويله لخدمة قضايا الهوية والوحدة الوطنية.

### عودة إلى الماضي:

يتساءل كثيرون لماذا العودة للتاريخ الثقافي البعيد عند طرح قضايا وأزمات ملحة تهم المجتمعات المعاصرة؟ أليس ذلك انكفاءً واستغراقًا في أمور غير مفيدة لمعالجة مشاكل الحاضر مثل الوحدة الوطنية والانتماء التي يبدو حلها كامنًا في ميدان السياسية؟ لقد ألمحت آنفًا إلى دور الموروث الثقافي في معرفة وتأصيل تكوين الأمم

والأسس التي تحكم الكثير من علاقات الأنظمة الاجتماعية والفكرية فيها. وتحفل أدبيات علم الآثار والتاريخ بالشواهد العملية لاستغلال المعرفة التاريخية إيجابًا أو سلبًا في تأسيس الكيانات الوطنية وتقدمها أو في إضاعة حقوق تاريخية لمجموعات سكانية أو شعب بأكمله. ويتفق الجميع على أن حاضر الأمم يقوم على ماضيها بالرغم من صعوبة تحديد معالم ذلك الماضي البعيد أحيانًا ومشروعيته في تشكيل الحاضر وبناء علاقاته الداخلية والخارجية. ليس من الممكن في هذا الحيز أن نستعرض الأسس النظرية والتطبيقية المطلوبة في ذلك السياق وتطورها في علم الآثار أو الدراسات الأنثروبولوجية. شهد علم الآثار مؤخراً تحولات مهمة في توجهاته النظرية المستخدمة في تأويل التراث المادي القديم. وإذا كانت الأهداف تتغيّر من حين إلى آخر فإن معرفة أو اكتشاف الأنظمة الثقافية القديمة وتطورها عبر الزمن ظل أحد الأهداف الرئيسة لذلك النشاط العلمي. ويهتم الآثاريون في عملهم الأكاديمي بالهويات الثقافية القديمة وتحديد معالمها مثل ما تجد دراستها رواجًا في علوم أخرى غير الآثار وذلك تعبيراً عن تيار متصاعد في العلوم الإنسانية موجه نحو حقوق الأقليات وتأكيد مبادئ التمايز والتعدد الإثني والثقافي في المجتمع الواحد. واليوم نجد البحوث الآثارية قد امتد ميدانها من المجتمعات القديمة إلى المجتمعات التقليدية والبدائية المعاصرة[1] والموجودة في أكثر من بلد ومن بينها السودان. ومثل هذه المجتمعات بقدر ما تعرضت له من تأثيرات حضارية حديثة ما زالت تحافظ على تراثها وأنماط اقتصادها المعيشي المتمثل في الرعي والصيد والزراعة التقليدية. ويشمل التراث المادي أعمال النجارة والحدادة والفَخَار والأواني المنزلية وأدوات الزينة والملابس وأدوات الموسيقى الشعبية... الخ إن مثل هذه الحرف التقليدية لها تاريخ طويل وهي تملأ حيزاً في المكوّن الثقافي للمجتمعات الحالية. وإذا افترضنا مثلاً أن دخول العرب وانتشار الإسلام في السودان يمثل شبه قطيعة ثقافية في مجالات اللغة والدين والفكر فإن ذلك لا يشمل كما أشرنا التراث المادي التقليدي بكامله الذي احتفظ بكثير من سماته القديمة التي ظلت مستمرة حتى اليوم .(Elamin 1999: 1-3).

إن آثار الماضي البعيد والتراث المادي التقليدي ماثلة أمام الناس في شكل مباني وفنون وتحف تعرضها المتاحف المختلفة بطريقة تعكس أهداف الجهات التي أعدت تلك المتاحف. فالموروث الثقافي يقدم للناس على أنه ارثهم الحضاري الذي يقوم عليه حاضرهم ومستقبلهم. وبناء على ذلك فكثير من الأعمال التي يقوم بها الآثاريون تنبع من موجهات فكرية أو وطنية تدعمها الدولة لبث مفاهيم وأفكار توظف في ترسيخ الأوضاع الراهنة. وليس بعيداً عن الأذهان الاستفادة من دراسة الموروث الثقافي من أجل أجندة سياسية هدفها تشكيل الحاضر وصياغته لصالح فئة أو فئات معينة في المجتمع. بل أن دولاً عدة اعتمدت في نشأتها على استغلال الموروث الثقافي. ففي حالة إسرائيل على سبيل المثال عمل الآثاريون على إنتاج معرفة يعتقدون أنها تؤكد أحقية المستوطنين اليهود في أرض الميعاد وإحياء العصبية اليهودية ومن ثم إثبات مواصفات الهوية الثقافية كما وردت في القصص التوراتي. وفي الدولة العبرية نجد أن المواقع الأثرية الكبيرة تمثل قوة رمزية لدى المستوطنين، ساعدت في توحيدهم خلال فترة التأسيس. وأصبحت هذه المواقع الأثرية وما تعنيه من موروث جزءاً مهمًا في الفضاء الاجتماعي والسياسي والفكري الإسرائيلي. وفي إفريقيا تظل قصة المباني الأثرية الرائعة لعاصمة زمبابوي القديمة خير مثال على دعاوى المستوطنين الأوروبيين في رفضهم نسبة تلك الحضارة العريقة للسكان المحليين، وذلك اعتماداً على تأويل الآثاريين الذين استقطبتهم سلطات الاحتلال الأوروبي. فقد روّجوا آنذاك إلى أنها تمثل إنجازاً معماريًا لمجموعات وفدت من الخارج إلى أن نجح آثاريون منصفون، بعد مضي وقت، من إثبات أحقية قبائل البانتو الإفريقية في تأسيس المملكة التاريخية. وقد كان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى هزيمة الفكر الاستيطاني الذي قامت عليه دولة البيض المستعمرين. ومن المعلوم أنه عندما تحقق الاستقلال في تلك البلاد تقرر تغيير اسمها من روديسيا الشمالية إلى زمبابوي رمزاً إلى تاريخ أفريقي عريق يستعيده أصحابه مرة أخرى دعمًا للهوية السياسية الجديدة (Trigger 1984: 355-370) . ولا نجد اليوم بلداً لم يُستغل الموروث الثقافي فيه لاستلهام المستقبل وشحذ همم المواطنين. والمتاحف الأثرية على اختلاف أنواعها في جميع أقطار العالم تعرض مواد الآثار والتراث للزائر بطريقة تعكس الصورة الرسمية لتاريخ الأمة. وليس غريبًا أن يلاحظ

المرء أحيانًا عدم تمثيل تراث بعض الأقليات أو حتى جزءًا من التاريخ العام يظن أنه يخلّ بالأوضاع السائدة. فالماضي أو التاريخ مهما كان بعيداً يظل قابعًا في الذاكرة الجمعية يخبو حينًا ويتقد أحيانًا أخرى في لحظات الاستدعاء.

وعند مناقشته للهوية الوطنية المصرية أشار فكري حسن إلى رسوخ التراث العربي الإسلامي وما جاء من أوروبا من مؤثرات في العصر الحديث في أذهان الناس مما يشكل ابتعاداً واضحًا عن الماضي القديم بيد أن الأخير يظل ورقة سياسية مهمة. فالتاريخ الفرعوني كان مصدر قوة واعتزاز لدى المصريين خلال مقاومة الاحتلال الأجنبي، ويتجلى ذلك في خطب السياسيين وما كتبه مثقفو الطبقة الوسطى عن الهوية المصرية. وقد استدعى قادة ثورة 1919م هذا التاريخ ومجدوا ماضي الأمة كما كتب عدد من مشاهير الأدباء أعمالاً روائية مهمة تستمد رموزها من ذلك التاريخ العريق. ولم يتراجع ذلك الاهتمام إلا بعد نمو التيار القومي الحديث في الخمسينات من القرن الماضي (Hassan 1998: 207).

واختم ملاحظاتي عن أهمية تأويل الموروث الثقافي نظريًا واستغلاله في تعريف الهويات الثقافية التي تعبر عن نقطة الانطلاق في تكوين الشرعية التي تقوم عليها الأمة والسلطة التي تدير شؤونها. والاستعانة بالموروث الثقافي في تشكيل الحاضر يتوقف بالدرجة الأولى على الإيديولوجيا السائدة وعلى قدرة القوى الاجتماعية التي تتبناها. ومن هذه المقدمة أود الإشارة، في إيجاز، إلى سيرة التاريخ الثقافي السوداني ومصادره لنرى مدى انعكاساته على الواقع السوداني المعاصر.

نستمد معلوماتنا عن فترات العصور الحجرية والتاريخ القديم من الأعمال الأثرية التي بدأت منذ مطلع القرن العشرين في شمال السودان بوتيرة بطيئة لتتصاعد بصورة مؤثرة عندما تقرر بناء السد العالي وأجري ما عرف بحملة إنقاذ آثار النوبة (1959- 1965م). جاء إلى المنطقة في ذلك الوقت أكثر من أربعين بعثة علمية أجنبية تجري المسوحات وتنقب في المواقع الأثرية في كل من شمال السودان وجنوب مصر. وكان نتائج أعمالها هو معظم إن لم نقل كل ما نعرفه تقريبًا عن تاريخ السودان القديم والوسيط.

توسع النشاط الأثري بعد ذلك في منطقة الخرطوم ولكنه لم يشمل مناطق السودان الشاسعة الأخرى إلا في حالات قليلة مما سبب نقصًا واضحًا في المعلومات المطلوبة لصوغ التاريخ الحضاري للسودان بحدوده الحالية. ويجدر بالذكر أن التركيز على شمال السودان أوجد "مركزية شمالية" أثّرت في توجيه مسار البحث العلمي في هذا الحقل لم تبدأ مراجعتها إلا مؤخراً وبصورة جزئية (محمد علي، العباس، ويوسف الأمين 1992: 65-67). ومازالت مناطق واسعة في الغرب والشرق لم يستوعب تاريخها القديم والوسيط في مسيرة التاريخ السوداني بطريقة مقنعة. بل إن جنوب السودان لم يحظ إلا بحملة أثرية واحدة ولفترة محدودة (John Mack and Robertshaw 1982).

أوضحت البحوث الآثارية وجود مواقع تعود لفترة العصر الحجري القديم عاشت خلالها مجموعات سكانية على امتداد وادي النيل في السودان وفي الأقاليم الأخرى بعيداً عن نهر النيل. وكانت الأدوات الحجرية المكتشفة تعبر في مجملها عن وجود تقاليد ثقافية في تصنيع الأدوات الحجرية وأنماط الاقتصاد المعيشي البدائي وهي تمتاز بخصائص محلية كما تعكس صلات حضارية مع المناطق المجاورة في الوقت نفسه. ويبدو من الصعب القول أن كل أراضي السودان الحالي كانت تمثل في ذلك الزمن وحدة حضارية تربط بين أقاليمه. وربما نجد أول إشارة لهذا الأمر في الدور الثاني من العصور الحجرية المتمثل في مجتمعات العصر الحجري الحديث عندما تعرف الناس على عمل الفخار واستئناس الحيوان والزراعة ضمن ابتكارات أخرى في مجال تصنيع الأدوات العظمية ونماذج الفنون الأخرى وتوجه مجتمعات الصيادين نحو الاستقرار بصفة عامة. ويذكر في هذا السياق ما اشْتُهِرَ باسم حضارة الخرطوم القديمة التي عرفت أولاً في موقع الخرطوم المبكر الذي نقب فيه آركل في الأربعينات من القرن الماضي. وقد وصف الموقع بأنه كان مستوطنة شبه دائمة أقيمت على ضفاف النهر القديم اعتمد سكانها على صيد الأسماك والحيوانات البرية وجرش الحبوب البرية إذ لم يعرفوا الزراعة بعد. وقد شكلوا أدواتهم المتميزة من الأحجار والعظم كما صنعوا فخار الخرطوم الشهير وهو من النوع الصلب غير المصقول، تزّينه خطوط متصلة مموّجة وأخرى متقطعة مموّجة أو متعرّجة. وقد أمكن تأريخ هذه الحضارة فيما بعد للألف

الثامن قبل الميلاد وبذا يكون فخار الخرطوم الأقدم في وادي النيل وربما أفريقيا كلها. وقد اكتشف هذا الفخار بزخارفه المعروفة في السودان الأوسط وشمالاً حتى وادي حلفا وكذلك في أماكن بعيدة من الصحراء الغربية حتى النيجر.

وفي السودان نفسه يشير توزيع مستوطنات هذه المرحلة إلى تماثل حضاري يمتد من شمال السودان حتى وسطه وقد كانت المستوطنات التي تلت مرحلة ثقافة الخرطوم عبارة عن تجمعات سكانية كبيرة نسبيًا اعتمد أصحابها في حياتهم على زراعة الحبوب وتربية الحيوانات مثل الأغنام والماعز والأبقار إضافة إلى الموارد الطبيعية المعهودة (Arkell 1975: 15-25; Haaland 1992: 43-64).

ومع انتشار هذه المستوطنات الكبيرة شبه المستقرة بالقرب من ضفاف نهر النيل في الفترة 5000 ـ 3000 ق. م تهيأت المجموعات السكانية لإحداث نقلة حضارية جديدة تتمثل في نشوء مراكز وتجمعات أكبر حجمًا انتظمت فيما يعرف بدويلة المدنية. كان ذلك أولاً في كرمة في منطقة النوبة العليا بشمال السودان عندما تمكن الزعماء والأمراء المحليين من تأسيس حكم مستقل عن الدولة المصرية. وقد كان هؤلاء يمثلون مقاومة مستمرة للاحتلال المصري لشمال السودان. وتدلنا المكتشفات الأثرية إلى أن كرمة كانت مدينة تبلغ مساحتها نحو خمسة وعشرين هكتاراً وهي مسورة بحائط ارتفاعه ثلاثين قدمًا. ويوجد في وسط المدينة معبد وقصر وقاعة استقبالات كبيرة وبيوت الطبقة العليا في المجتمع. كانت هذه عاصمة أول دولة سودانية (كوش) التي ازدهرت نحو 2200 ق. م وهي بالتالي أقدم مدينة معروفة لدينا في أفريقيا خارج مصر. كان مجتمع كرمة يمجد الحرب والعسكرية بحيث امتد نفوذها لتسيطر على النوبة السفلى في الشمال لبعض الوقت. واستعان حكام كرمة من المصريين المقيمين في القلاع والحصون لمساعدتهم في إدارة المنطقة. وقد خلفت كرمة تراثًا حضاريًا غنيًا في مجالات الفنون والحرف والعمارة ما يقف شاهداً على التميّز الثقافي والأصالة المحلية (شارل بونيه، 1997).

عاد المصريون واخضعوا كل بلاد النوبة نحو 1460 ق. م وازدهرت المنطقة ببناء المستوطنات والمعابد وبالنمو الاقتصادي والثقافي. نهض أمراء المنطقة مرة أخرى بعد مرور مصر بفترة ضعف، وأسسوا دولة نبتا نحو 9000 ق. م حيث يبدأ تاريخ كوش الحافل في مرحلته الثانية التي تطغى فيها المؤثرات المصرية كاللغة والعمارة والفنون والدين على الرغم من الغموض الذي يكتنف الطريقة التي تأسست بها هذه الدولة. لقد أعاد الكوشيون للحضارة المصرية مجدها القديم عندما حكموا مصر لمدة سبعين سنة حافلة بالإنجازات التي كان في مقدمها تحقيق أول وحدة سياسية في وادي النيل. إضافة إلى توسعهم في بناء المعابد والمدن وإحياء اللغة المصرية بعد ما أصابها من تدهور في فترة الاضمحلال في نهاية الألف الثاني ق. م. استمرت كوش دولة مستقلة في مرحلتها الثالثة عندما انتقلت العاصمة جنوبًا إلى مدينة مروي القديمة القريبة من مدينة شندي (300 كلم شمال الخرطوم). وفي الوقت الذي ازدهرت فيه مروي وتوسعت في الأقاليم السودانية كانت مصر قد خضعت لحكم الفرس ثم البطالمة ثم اليونان والرومان.

ازدهرت الحضارة المروية (300 قبل الميلاد إلى 350 ميلادي) وعرفت بسماتها الأصلية الممزوجة بالتيارات الثقافية الوافدة من الشمال. كان أول ما حققه حكامها المحافظة على دولتهم ومقاومة البطالمة والرومان من بعدهم عسكريًا ودبلوماسيًا عندما فشلوا في صدهم بالقوة. يصعب علينا أن نحصي صفات تلك الحضارة، ويكفي أن نشير إلى أهم إبداعاتها مثل الكتابة المروية التي وصفت بأنها شبه أبجدية ولها خطان أحدهما هيروغليفي وثانيهما تجريدي وكلاهما منحدران من أصول مصرية وهي أقدم لغة أفريقية صريحة مكتوبة، غير سامية كما يعتقد أحد علمائها البارزين (عبد الله، عبدالقادر محمود 1986). ومثل ما حدث في الكتابة المروية من تطوير محلي نجد إبداعًا آخر في صناعة الفخار الرفيع والذي لم تشهده المنطقة من قبل. وتشمل الصناعات أيضًا مختلف أنواع قطع الزينة الذهبية والعاجية وغيرها من الأحجار الكريمة والمواد التي جاءت عن طريق التجارة التي انتعشت في هذا العهد. وتوسع المرويون في بناء المعابد والأهرامات والقصور والقلاع والحصون والبيوت السكنية في المدن الكبيرة المنتشرة في الأقاليم الشمالية والوسطى وأجزاء من

الشرقية من البلاد. ومما لا شك فيه أن بقية الأقاليم المروية داخل السودان وبعيداً عن وادي النيل قامت فيها مستوطنات ربما كانت مبنية بمواد غير حجرية تتناسب والبيئة المحلية وممارسة الرعي والزراعة الموسمية. استطاع المرويون أيضًا أن يصنعوا الحديد في القرن السادس قبل الميلاد قبل أن تصبح المدينة عاصمة للدولة وبذلك يكونوا أول من حقق هذه الطفرة التقنية في أفريقيا جنوب الصحراء، ومن المرجح أنها جاءتهم من مصر التي وصلتها التقنية بدورها من غرب آسيا. أما في مجال الفكر والأديان فقد استمر المرويون في اتباع الأديان المصرية المعروفة وأضافوا إليها معبودات محلية أهمها أبادماك (الإله الأسد) الذي أقيمت له المعابد في أكثر من مكان وكان بالنسبة لهم إله الخلق والحرب[2]. وبنهاية القرن الرابع الميلادي اختفت دولة مروي من مسرح الأحداث في المنطقة تاركة وراءها من الموروث الثقافي ما يشهد على روعة إنجازاتها في دمج الإبداع المحلي بما هو وافد من شمال الوادي. إن تفاصيل امتداد دولة مروي في شرق وغرب السودان غير معروفة الآن وتنتظر الأبحاث الميدانية في المستقبل إذ وجدت آثار مروية في الجزيرة بوسط السودان وعلى النيل الأبيض حتى مدينة كوستي (400 كلم جنوب الخرطوم). وهكذا فإن دولة مروي قد حكمت مركزيًا إقليمًا واسعًا من مساحة السودان الحالي وكان تراثها المادي متنوعًا مثلما تنوعت أقاليمها بيئيًا (Adams1977: 323-325).

لا يوجد أثر لدولة مركزية بعد تفكك مروي ما عدا نوباتيا في النوبة الشمالية وكان مركزها في بلاّنة وقسطل في أقصى الشمال وظلت محصورة هناك تحتفظ بموروثات الحضارة الكوشية حتى تغيّر حكامها ليعتنقوا المسيحية بتأثير من مصر البيزنطية في 580م. وكان ذلك إيذانًا ببداية العهد الذهبي الثاني في حضارة السودان القديم. تشير الأدلة الأثرية المتوفرة إلى أن قبول المسيحية وانتشارها أحدث تحولاً ثقافيًا عميقًا ومؤثراً مما يعطي انطباعًا بأن أفواجًا من الناس قد دخلوا البلاد، ولكن هذا لم يحدث. لقد كانت نقلة ثقافية سريعة أحدثتها اتصالات بين المبشرين وصفوة الحكام في البلدين. لم يكن السودان كله موحداً خلال تاريخه الوسيط حيث قامت في البداية ثلاث دويلات هي نوباتيا والمقرة في الشمال وعلوة وعاصمتها سوبا جنوب

الخرطوم وفيما بعد توحدت نوباتيا والمقرة في دولة واحدة عاصمتها دنقلا. نعمت البلاد باستقرار سياسي لنحو ستمائة سنة أثمر خلالها تلاحم الثقافات المحلية مع الديانة الجديدة الوافدة رصيداً حضاريًا مميزاً كانت حصيلته بارزة في الفنون الزخرفية واللوحات الملوّنة الرائعة التي تزّين الكنائس وفي الإنجيل المكتوب باللغة النوبية القديمة وكما نجدها أيضًا في مختلف الحرف والمصنوعات التي تمس حياة الناس اليومية (Adams 1977: 246-381; O'connor 1993: 4-15).

تمثل المرحلة التالية المنعطف الكبير في تاريخ السودان الحديث عندما سقطت الدولة المسيحية في شمال السودان في 1323م ومن بعدها الدولة الثانية (علوة) بنهاية القرن الخامس عشر وكان ذلك نتيجة للهجرات العربية المتتالية إلى السودان من مصر. اعتنق سكان شمال السودان ووسطه الدين الإسلامي تدريجيًا، وبمرور الوقت اتخذوا من العربية لغة تجمع بين فئات المجتمع المختلفة كما بدأت عمليات المصاهرة تلقى بظلالها في التركيب العرقي للسودانيين. تشير المصادر التاريخية إلى دخول العرب للسودان بأعداد قليلة منذ عهد حمير ربما عبر البحر الأحمر أو عبر سيناء جنوبًا للسودان الشرقي ولكن الأعداد الكبيرة منهم تسربت من مصر بعد الفتح الإسلامي. ثم جاءت أفواج أخرى من الشمال الأفريقي. وقد واجه العرب المسلمون في البداية مقاومة شرسة من الدولة المسيحية في دنقلا التي خاضت ضدهم حربًا دفاعية أحيانًا وهجومية أحيانًا أخرى. وقد عقد المسلمون معها اتفاقية سلام في 651م تحفظ حقوق الطرفين في التنقل ودفع الجزية ووقف الاعتداء المتبادل. وهكذا صارت بلاد النوبة بموجب هذه الاتفاقية (البقط) خارج داريّ الحرب والإسلام في آن. ولم يحسم الأمر لصالح المسلمين إلا بعد أن دب الوهن في عضد الدولة المسيحية لأسباب كثيرة منها الأثر العربي الذي نتج عن توغل أعداد غفيرة من المهاجرين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حيث انهارت الدولة وأسلم آخر حكامها في عام 1323م وانفتح الباب واسعًا أمام العرب والمستعربين لتأسيس الممالك والسلطنات الإسلامية (Hassan 1967).

وقبل الحديث عن تطور تلك الأحداث السياسية وأثرها البالغ في المجتمع السوداني علينا الإشارة إلى مصادر المعلومات عن هذه الفترة الحرجة من تاريخ

السودان وذلك لأهميتها في تشكيل المناخ الفكري الذي نبعت فيه الرؤية الثقافية السائدة عن السودان اليوم.

لم تحظ الفترة الإسلامية في السودان بعمل آثاري مثل غيرها من فترات التاريخ السوداني. ففي المنطقة الشمالية الأوفر حظًا في هذه الدراسات لم تعُنى البعثات العلمية الأجنبية إلا بعدد محدود جداً من المستوطنات الإسلامية إذ لم تكن ضمن اهتمامات العلماء الأجانب. وقد أهملت تلك الآثار من منطلق أنها حديثة ولا تفيدهم في معرفة واقع يرونه ماثلاً أمامهم. أما في بقية أقاليم السودان يظل العمل الأثري في مجال الآثار الإسلامية غير معروف ما عدا ما جُمع من نقوش وشواهد قبور إضافة للوصف العام لقباب مدافن الفقهاء أو شيوخ الطرق الصوفية. وفيما عدا الاهتمام بوصف العمارة والآثار العثمانية في سواكن في شرق السودان ظلت آثار السلطنات الإسلامية في كردفان ودارفور بغرب السودان بعيدة عن اهتمام الباحثين (El-Zein 2000: 35-36).

وتشير الأبحاث المحدودة في شمال السودان إلى استمرار الاستيطان في المواقع المسيحية ولكن المباني تدهورت بعد ذلك ولم يجر ترميمها أو بناء مثيل لها كما توقف إنتاج الفنون المتمثل في الرسم والصناعات الخزفية والمعدنية. ويصف الرحالة الذين زاروا المنطقة في أوائل القرن التاسع عشر المنازل الطينية الشبيهة بما نجده في القرى الريفية المعاصرة. كذلك تتوفر معلومات مفيدة في ما كتبه أولئك الرحالة الأوروبيين الذين زاروا السودان ووصفوا ناسه وعاداتهم وأنسابهم كما سمعوها منهم. أما الهجرات العربية فمصادرها هي ما كتبه المؤرخون العرب أمثال المقريزي وابن خلدون. ولم يكتب السودانيون أنفسهم إلا القليل، ومن أهم ما عرف من مؤلفات محلية مخطوطة ابن ضيف الله المعروفة بالطبقات التي وضعها بلغة عربية محلية في مطلع القرن التاسع عشر. وتحوي المخطوطة معلومات مفصلة عن سيرة مشاهير الفقهاء ورجال الدين كما تعد مصدراً أوليًا عن الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية لفترة مملكة الفونج الإسلامية التي قامت في وسط السودان مطلع القرن السادس عشر. ويذكر في هذا السياق وثائق تمليك الأرض عند الفونج وشجرات النسب التي تؤرخ للأسر السودانية وتحدد أصولها

العربية التي يراد لها دائمًا النقاء العربي بمدها حتى النبي (ص) أو عمه أو أحد من الصحابة. ويعتقد أن الكثير من عناقيد النسب هذه مشكوك فيها وهي تعود للقرن التاسع عشر وقليل منها إلى عهد دولة الفونج. ومن المخطوطات المهمة التي كتبت في القرن التاسع عشر مخطوطة كاتب الشونة التي يصف فيها ملوك وأحوال دولة الفونج (حسن، يوسف فضل 1975: 109–144). ومن جهة أخرى نجد أن تاريخ الممالك والمشيخات الإسلامية التي قامت في أقاليم السودان الأخرى مثل العبدلاب شمال الخرطوم وتقلي والمسبعات في إقليم كردفان ومملكة الفور في الغرب، يستمد من نفس المصادر المشار إليها وكلها خطها أصحابها في مناخات تدعو لتأصيل النسب العربي (القرشي) وتهمل العنصر المحلي فيه. وعلى الرغم من الحديث المتكرر عن التزاوج بين العرب والسكان المحليين فإن التاريخ القبلي يصر على ذكر الأب أو الجد العربي الأول. وهكذا فإن هذه المصادر لا تعطينا معلومات واضحة تفيدنا في معرفة عمليات المزج السلالي أو تعريب السكان المحليين ويبقى الحكم على ذلك من خلال النتائج فقط. ومن أشهر مصادر التاريخ الشعبي السوداني الدراسة التي قام بها مكمايكل، أحد رجال الإدارة البريطانية في السودان، وذلك في العقد الأول من القرن الماضي. وقد جمع مئات الوثائق الشعبية مثل عقود ملكية الأرض وأسماء الأسر والأفراد، إضافة لشجرات النسب المنتشرة عند زعماء القبائل ورجال الدين وهي من نوع الوثائق سالفة الذكر. ومن هذه الوثائق وضع الأساس لتاريخ العرب في السودان حيث ذكر ما لا يقل عن مائة قبيلة بعضها يتفرع إلى أخرى صغيرة ويعود نسبُها جميعًا إلى أصل عربي خالص. ولقد قسمت دراسة مكمايكل سكان السودان إلى نوعين عرب وغير عرب وبالتالي شكّلت إطاراً لكل الدراسات التاريخية اللاحقة ويوشك ضررها أن يبلغ نفعها (MacMichael 1922).

وفيما يتعلق بوحدة أقاليم السودان فأن أيًا من الممالك الإسلامية آنفة الذكر لم تتمكن من بسط نفوذها على كل أو معظم أقاليم السودان. ففي أقصى الإقليم الشمالي نجد مشيخة الكنوز ثم مملكة العبدلاب وعاصمتهم قرِي شمال الخرطوم وقد كانت هذه عبارة عن اتحاد فضفاض يشتمل على عشرات المشيخات يحكمها زعماء القبائل. وفي

مملكة سنار وممالك الغرب تظل السلطة السياسية محدودة في أقاليم متعارف عليها ولكن ذلك لم يمنع التداخل السلمي أو الضم الذي ينجم عن نزاعات حربية. ومع أن نظام الحكم كان إسلاميًا في ظاهره فإن كثيراً من العادات والطقوس المحلية القديمة ما زالت تجد تعبيراتها في حياة الأمراء ومساعديهم أو عامة الشعب. وما وردنا من معلومات عن العناصر المادية لثقافات هذه الممالك يعكس هو الآخر تراثًا يعود لفترات حضارية سبقت انتشار الإسلام. ومن جهة أخرى فإن انتشار الإسلام وتزايد نفوذ رجال الدين الصوفية كان عاملاً فاعلاً مع انتشار اللغة العربية في ربط أقاليم السودان الوسطى والشمالية في وحدة اجتماعية إن لم تكن سياسية بالكامل. ونشوء الممالك المشار إليها لم يكن في الواقع كله من عمل العرب الوافدين بل بالتعاون مع أقوام مستعربة أو سكان محليين. فبعد أن سقطت مملكة علوة في أيدي العرب بزعامة العبدلاب (القواسمة) هاجمتهم قبائل الفونج السود الذي قضوا على نفوذ العرب وتعاونوا معهم لاحقًا في إدارة الإقليم الشمالي بعد أن اتخذوا من سنار عاصمة لهم في 1504م. ومهما يكن من أمر فقد استمرت دولة الفونج نحو ثلاثمائة سنة اتسعت خلالها دائرة انتشار الإسلام والمؤثرات العربية الأخرى كما ظلت بعض أقاليم السودان الحالي بسكانها بعيدة عن هذه التيارات (O'Fahey and Spaulding 1974: 26-116).

سقطت دولة الفونج وعهد الممالك الإسلامية في السودان في 1821م عندما أكملت جيوش محمد علي باشا غزو البلاد وأقامت ما يعرف بالحكم المصري التركي. وكان من نتائج هذا الحكم الذي استمر ستين عامًا توحيد كل أقاليم السودان الحالية وإخضاعها لحكم مركزي. وقد وضع الحكم الجديد أسسًا حديثة للإدارات المحلية كما أدخل أنظمة جديدة في إدارة الاقتصاد والمجتمع وربط أقاليم السودان ببعضها وبالعالم الخارجي. انتهى ذلك الحكم بنجاح الثورة المهدية وهي أول ثورة تحررية في القارة الأفريقية تقوم على فلسفة دينية تنشد توحيد كلمة المسلمين وإزاحة الحكم الأجنبي وقد كتب لها النجاح في 1885م. ولم تستمر دولة المهدية الوطنية كثيراً إذ اكتسحت البلاد مرة أخرى جيوش الغزو الأجنبي التابعة للتحالف الثنائي بين حكومتي مصر وبريطانيا في 1899م. وعاش أهل السودان تحت الإدارة الأجنبية التي دمرت مؤسساتهم التقليدية

وحلمهم في الدولة المستقلة إلى أن حققوا استقلالهم رسميًا مرة أخرى عام 1956م. نذكر هذا في إيجاز شديد لأن موضوع هذه الورقة يتركز حول الموروث الثقافي القديم والوسيط وأثره في بناء وحدة السودان وهوية سكانه الأمر الذي نناقشه في الفقرة التالية.

**حوارات الهوية:**

كيف ينظر السودانيون الآن إلى ذلك التاريخ الثقافي القديم؟ وكيف يقوّمونه خاصة عندما يتصل الأمر بالهوية وتأصيل الشخصية الوطنية؟ في ذلك يذهب عامة الناس وصفوتهم مذاهب شتى. فالتاريخ القديم بمعطياته الأثرية والحضارية لم يتسرب بدرجة كافية في الأدبيات المنشورة العامة أو غير المتخصصة ولا في مقررات التعليم العام. وقطاعات كبيرة من النخب المتعلمة تراه شيئًا بعيداً عن هموم حياتهم اليومية وربما لا يمت بصلة لأنسابهم المباشرة. وفي الكتابات الأكاديمية التي تتناول المجتمع والسياسة والثقافة يصادف المرء عادة رصداً لوقائع التاريخ القديم والوسيط يقدمه المؤلف كأمر ضروري تفرضه منهجية البحث. ويقصد به الكاتب عادة تأصيلاً تاريخيًا لموضوع الدراسة دون توظيف تلك المعلومات في تطوير أطروحة فكرية ما. والأمثلة الشائعة لإيراد ملخصات للموروث الثقافي نجدها عادة في الدراسات التي تتناول هوية السودان عربية هي أم أفريقية؟ أو تلك التي تنطلق من مبدأ خصوصية تكوين الثقافة السودانية والهوية الوطنية. وهناك أيضًا من يتناول التنوع العرقي والثقافي السوداني في إطار العلاقات الخارجية (الحاكم، أحمد محمد علي 1990؛ الصديق، عبد الهادي 1997؛ الباشا، محجوب 1998). هذه أمثلة محدودة من الإصدارات الكثيرة حول هذه القضايا التي تصدرها مراكز الأبحاث والجامعات والأفراد، وذلك بصورة ملفتة منذ عقد التسعينات. وهي الفترة التي اشتد فيها وعي النخب السياسية والأكاديمية بأهمية الموروث الثقافي ودوره في إيجاد حلول لمشاكل البلاد التي ظلت عالقة لأمد طويل. وقبل ذلك بكثير كانت قضية الثقافة السودانية والهوية مطروحة في حوارات تركزت حول جدلية العروبة والأفريقانية مع اتخاذها أشكالاً ومناحيّ متباينة. يرى أحد أبرز مؤرخي

العرب والإسلام في السودان أن تكوين الأمة السودانية بدأ في الإطار الجغرافي الحالي للبلاد منذ بداية دولة كوش القديمة وما لحقها من حضارات في العصر الوسيط ويرى أن السودانيين الحاليين يقلب في تكوينهم العرقي العنصر الأفريقي كما أن عمليات التزاوج والانصهار مع العرب الوافدين أنتجت أجيالاً من المستعربين. ويمضي بالقول إن عروبة السودان بالمولد وباللغة والوجدان ولكن الهجين الماثل للعيان لا يجعل منهم عربًا خلصًا حسن، يوسف فضل .(1988: 40-44) وفي مجال آخر يناقش انتشار اللغة العربية وثقافتها في وسط البلاد واضمحلال نفوذها كلما ابتعدنا عن مركز الوسط حيث لا تزال اللغات الأفريقية المحلية رائجة تقاوم تيار التعريب مما يؤكد قوة الثقافة الأفريقية. ويقول "يبدو أن قلة من السودانيين قد أخطأوا عن جهل حينما تطرفوا في المبالغة بانتسابهم للعرب دون سواهم ولعل في هذا التطرف من جهة والتمسك بالحضارة الإسلامية العربية من جهة أخرى محاولة لإيجاد سند حضاري يتكئون عليه بعد أن هزم الاستعمار الإنجليزي ثورتهم المهدية واغتصب بلادهم وكاد أن يحتويهم بحضارته الأوروبية" (حسن، يوسف فضل 1975: 21-22). مما لا شك فيه أن مثل هذا الرأي لا يبعد عن الواقع بل لا يعدم من يطوّره لاتخاذ مواقف أخرى.

وعند النظر للحوارات المبكرة حول الهوية السودانية وعلاقتها بالمكوّن التاريخي نجد تباينًا وغموضًا في استخدام المصطلحات مثل "الهوية السودانية" و"القومية/ الوطنية" و"الشخصية السودانية". من الممكن رصد ثلاث ملاحظات عن الأدبيات التي تناولت هذا الموضوع الأولى هي التركيز على الأدب السوداني العربي بخاصة الشعر العربي الفصيح والدارج ثم القصة والمقال باعتبار أنها الأوعية التي تحفظ الفكر السوداني وبالتالي تمثل المصدر الرئيس لمعرفة خصائص الهوية وأصول الثقافة. والملاحظة الثانية أنها تؤرخ للثقافة السودانية من خلال الموروث العربي الإسلامي غير عابئة بما قبله. والملاحظة الثالثة هي أن هذه المساهمات تركزّ على الأقاليم الشمالية والوسطى عندما يستدعي الأمر العودة للموروث الثقافي القديم وذلك نسبة لتوفر مصادر المعلومات كما ذكرنا آنفًا وهي في الوقت نفسه مكان الأثر العربي الإسلامي الأكثر وضوحًا.

والأطروحة الأكثر رواجًا في موضوع الهوية السودانية تقوم على مبدأ التمازج والانصهار بين القبائل العربية والسكان المحليين الذين استوعبتهم الثقافة العربية الإسلامية. وأول ما يلاحظ عليها أنها نادراً ما تناقش عمليات التغيّر الثقافي ولا تطرح تفسيراً موضوعيًا للتنوّع في مستويات التعريب أو الأسلمة للمجموعات الإثنية المحلية. يذكر الكثير من الكتاب عمليات مزج العنصر العربي مع الأفريقي وفق طريقة ميكانيكية تؤدي في النهاية إلى عنصر بيولوجي جديد يسمى "سوداني" وبعد ذلك تحدث معادلة أخرى، غير واضحة تمامًا، تربط بين البيولوجي والثقافي. فالثقافة الجديدة هي المعادل الطبيعي للعنصر السلالي الهجين. يقول أحد أصحاب هذا الرأي: "... ومن خلال هذا التلاقح ظهر إلى الوجود مخلوق جديد هو السوداني الحديث، الذي لا يشكل دمًا عربية خالصًا أو دمًا زنجيًا خالصًا، ولكنه بالتأكيد يجمع في أنسجته بين ذينك النوعين من الدماء ويحمل في دماغه نتاج الثقافة الأقوى والأكمل..." (إبراهيم، محمد المكي (12 :1989وعن نفس عملية التمازج بين العرب الوافدين والسكان المحليين يقول آخر: "... ونتج عن كل هذا عنصر مميز في شخصيته وثقافته وانتمائه. فهو عربي اللسان والثقافة، أفريقي التقاطيع، مزيج عرقي وسط يمكن أن نطلق عليه "عربي ـ أفريقي" "أفرو ـ أراب كما يقول الفرنجة" (محمد أحمد، عبدالغفار 1987: 31). وهكذا فالسحنة أفريقية والثقافة عربية لأن تعريف الأخيرة هنا يقتصر على اللغة والدين ولا يلتفت إلى عناصرها الأخرى (المادية) التي ربما تحمل رواسبًا من الثقافة الأفريقية المحلية.

وعلى الطرف الآخر، هناك من يرى وجود مجموعات عربية خالصة في الشمال والوسط وأخرى أفريقية خالصة، مثل ما هو الحال في جنوب البلاد لم تتأثر بالثقافة العربية ولم يحدث اختلاط بها وظلت خارج دائرة التأثير والتأثر الثقافي. واستمر جنوب البلاد بصفة عامة متميزاً إثنيًا وثقافيًا كما يرى كثيرون (Deng 2000: 8)ومع صحة هذا الرأي في عموميته فهناك أيضًا ما يشير إلى التداخل الثقافي منذ أمد بعيد كما ألمحنا لذلك عند مراجعة التاريخ القديم. إن الحديث عن الأجناس والأعراق وربطها بالثقافة أمر في غاية التعقيد ولا يمكن تناوله بهذه البساطة. وفي حالة السودان لا يوجد

حتى الآن دراسات كافية في الأنثروبولوجيا الطبيعية تسمح بالخوض في ربط جنس معين بثقافة معينة وما نشر من معلومات حول هذه المسألة في شمال السودان لا يدل على تحول مفاجئ أو كبير في الخصائص البيولوجية للتركيبة السكانية منذ العهد الكوشي وحتى ما بعد سقوط الممالك المسيحية. من جهة أخرى أوضحت الأبحاث الآثارية والأنثروبولوجية بصفة عامة في أماكن أخرى صعوبة، بل ربما خطأ، ربط ثقافة ما بمجموعة عرقية إذ أن هناك حالات موثقة نجد فيها مجموعات من أصول عرقية مختلفة تشترك في نظام ثقافي واحد. ومن المناسب في هذه الحالة البحث في الثقافة من خلال عناصرها الذاتية وليس العنصر البشري الذي انتج تلك الثقافة.

استمر الفكر العربي / الإسلامي الأكثر وضوحًا من غيره في الحركة الأدبية التي عبر المتعلمون من السودانيين من خلالها عن هويتهم وتميّزهم الثقافي. وفي الستينات من القرن المنصرم برزت حركات إقليمية، وفي العاصمة القومية تعبّر عن طموحات ومطالب مجموعات إثنية وقبلية تتمثل في حق الاعتراف بالاختلاف الثقافي والمساواة في الحقوق الاقتصادية والاجتماعية. وفي وقت وجيز تحوّلت إلى منظمات مسيّسة تناضل من أجل تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية من مدخل الاختلاف والتنوّع الثقافي. ومن هؤلاء أو من يتفق معهم في الرأي برز قادة للعمليات العسكرية ضد الحكومة المركزية في الشرق وفي الغرب في السنوات القليلة الماضية. وهكذا تحوّل حوار الهوية إلى صراع مسلح يهدد الوحدة الوطنية. ومن جهة أخرى ظهرت حركاتُ تمثل تيارات فكرية مختلفة في تناولها لقضايا الثقافة والهوية الوطنية وقد عبرت هذه عن وجهات نظرها من خلال المسرح والشعر والمقال الصحفي والندوات..الخ وعلى الرغم من أن أعمال هذه المجموعات جاءت من منطلقات فكرية متباينة، ولم يجمعها إطار تنظيمي واحد، غير أنها في جملتها تمثل بداية الأطروحة الثانية حول الثقافة السودانية.

قدم أصحاب الأطروحة الثانية موضوعاتهم وأفكارهم من خلال معالجة الأدب السوداني، تاريخه ومحتوياته واتجاهاته وأساليبه الفنية. كذلك ظهرت الآراء نفسها في دراسات نقدية للفنون التشكيلية، تبحث في موضوعاتها والينابيع التاريخية لتعبيراتها

المختلفة. وقد تميّزت هذه الأعمال النقدية/ الأدبية بشيئين، الأول أنها ركّزت على الأصول والصفات الأفريقية والمحلية للثقافة السودانية في محاولة لجعلها نداً للثقافة العربية أو متفوقة عليها مما أوجد ثنائية ربما هي غير ضرورية في تناول موضوع شائك مثل الهوية الثقافية. والشيء الثاني أنها تطرح بقوة فكرة التنوّع العرقي والثقافي في السودان وتنادي بأحقية الأقليات في إبراز هوياتها الثقافية كمدخل للتمتع بحقوقها الطبيعية. وذاعت في وسائط الإعلام في ذلك الوقت مصطلحات لم يتم تحديد معانيها بدقة مثل "الغابة والصحراء" والأقليات الهامشية أو المهمشة" والأفريقيانية" . ودون المساس بحقوق تلك الأقليات أو الاعتراف بوجودها، على المرء أن يضع في الاعتبار عمليات التغيّر والاختلاط التي أحدثتها التطورات الاقتصادية والتعليمية والإدارية الحديثة وسبل الاتصال في الفترة التي أعقبت نشر المعلومات الأولية عن الكيانات الإثنية الصغيرة وثقافاتها. إذ ليس معروفًا على وجه اليقين ما حدث لتماسك الكيانات الصغيرة. ومن جانب آخر، على المرء أن يتذكر نتائج الهجرات أو النزوح الجماعي الذي تمخض عن النزاعات القبيلة وقسوة موجات الجفاف منذ سبعينات القرن الماضي. وقد يحدث أن يلتحق بعض أفراد المجموعة الإثنية بمجموعة أخرى وتندمج فيها ثم تكتسب طريقة حياتها. وليس موثقًا على وجه الدقة أيضًا مدى التغيّرات التي حدثت في ثقافات المجموعات النازحة من ناحية اللهجات والعادات وغيرها. وفي مثل هذه الظروف تتبدل هويات وتتشكل غيرها (الأمين، يوسف مختار 2001).

### عوداً على بدء:

أشرنا إلى أن قضايا الوحدة الوطنية وانتماءات السودان معقدة تتداخل فيها عوامل شتى منها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإقليمي بيد أن العامل الثقافي يمثل فيها موقعًا مركزيًا. ومما لا شك فيه أن حوارات السودانيين حول الهوية على ما فيها من غموض، لم تنته إلى موقف فكري يلتف حوله معظم الناس ليتخذوه منطلقًا لحلول موضوعية لمشاكل البلاد العالقة منذ ما قبل الاستقلال.

وعندما حَصُل السودان على استقلاله من الحكم الأجنبي رسميًا في 1956م كان انضمامه لجامعة الدول العربية أمراً طبيعيًا لم يشكل عقبة أمام الطبقة السياسية التي قادت حركة المقاومة وشكلت الأحزاب الوطنية الفاعلة ومنظمات العمل المختلفة. كان غالبية هؤلاء القادة من طلائع الطبقة الوسطى التي نالت حظها من التعليم ونالت التدريب في دواوين الحكومة وقد كانوا أصلاً ينحدرون من المجموعات السكانية ذات الأصول العربية. لقد ظلت معظم أقاليم السودان بعيدة عن التعليم الحديث لفترة طويلة بل أن بعضها ظل خارج مجريات الأحداث بفضل سياسات العزل التي فرضتها الإدارة الأجنبية. والمطّلع على التاريخ الرسمي لحركة الاستقلال يرى للوهلة الأولى توجهها العربي الإسلامي حيث كانت وثيقة الصلة بالحركة الوطنية المصرية على سبيل المثال. وكان خطاب حركة المقاومة للأجنبي عربيًا وإسلاميًا، لغتُّه العربية كما هي وسيلتُه في الاتصال والإعلام، من خلال المقال والبيان الجماهيري والقصيدة الشعرية. نجحت القطاعات الشعبية ذات الأصول العربية في التمدد اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا كما نجحت بدرجات متفاوتة في استقطاب أو استصحاب القطاعات الأخرى من المجتمعات غير العربية. وبمرور الوقت ترسخ تيار العروبة والإسلام في شكل "أيديولوجية" للنخب الطليعية يدعمها مكتسبات اقتصادية وإنتاج ثقافي يتمثل في الكتابات التاريخية والاجتماعية ومناهج التعليم الرسمي والشعبي.

إن قبول السودان كدولة وشعب في منظومة البلاد العربية، كان حصيلة أوضاع تاريخية وثقافية تعود للقرن السادس عشر كما أسلفنا، وذلك أمر له مزاياه الحسنة بطبيعة الحال كما له استحقاقاته. ومما لا خلاف عليه فإن غالبية أهل السودان يدينون بالإسلام ويتحدثون العربية بالرغم من تنوعهم العرقي الواضح. فقد ساعد انضمامه في تقوية الثقافة العربية ومكنّها من الدعوة لاستيعاب الجميع وذلك رغمًا عن التباين الإثني والتاريخي. وبمرور الوقت أصبحت الثقافة العربية تلقائيًا مجموعة من الرموز والمعتقدات الاجتماعية المتماسكة التي ينظر من خلالها الفرد السوداني للواقع الاجتماعي. واستمرت هذه العملية عبر قنوات المثاقفة والتعليم كما جرى أثناء ذلك تأطير المجتمع وفئاته على تلك الأسس. ومن دون تخطيط مسبق من النخب المسيطرة،

أعاق ذلك التأطير فرص الأقليات التي لا تتوافق مع النموذج السائد، في مجالات التطوير الذاتي، اقتصاديًا واجتماعيًا. وهكذا تكّون حاجز نفسي/ سلطوي يقف في وجه أي مراجعة تهدف إلى معالجات للشأن الداخلي يُظن أنها قد تمس جوهر الانتماء العربي الذي ترسخ تاريخيًا.

وفي التسعينات من القرن المنصرم تعقدت الأزمة السودانية وامتد النزاع ذو الصبغة الثقافية إلى أقاليم أخرى غير جنوب البلاد حيث دخلت فيه مجموعات قبيلة مسلمة أصولها غير عربية. ليس من السهل إرجاع تفاقم هذه الأوضاع إلى عوامل داخلية فحسب وإنما لأخرى خارجية أيضًا ذلك لأن معطيات النظام العالمي الجديد ليست ببعيدة عن مجريات الأمور في السودان.

واليوم لا يختلف اثنان على محورية التنوع الثقافي والإثني في السودان ولا على وجوب البحث عن حلول جذرية لمشاكل ظلت عالقة لسنوات طويلة. فأدبيات الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني كلها تتفق على جوهر هذا الأمر ولكنها تختلف في الحلول والمسالك المؤدية إليها. إن الجدل المستمر منذ سنوات صار صريحًا وجريئًا إذ تناول تفاصيل الأسس التي قام عليها المجتمع السوداني الحديث ولامس علاقاته الإقليمية في الوقت نفسه. فمن جهة علاقات السودان العربية انتبه البعض إلى أن الحوار الجاري الآن بين فئات المجتمع لم يشاركهم فيه الأخوة من المفكرين العرب بصورة ترقى لمستوى نسبة السودان للمنظومة العربية. فقد تُرك السودان لحاله وإن كانت هناك مشاركة فهي من منطلقات الأمن القومي العربي والمحافظة على السودان باعتباره "بوابة العرب إلى إفريقيا" و"معبر الثقافة العربية..." الخ، وهي شعارات يصفها الكثيرون بأنها تبشيرية ضارة بمصير العلاقات الداخلية بين إثنيات السودان المختلفة، ناهيك عن كونها تعبر عن مفاهيم قديمة غير مناسبة حتى من منطلق الحرص على انتشار الثقافة العربية الإسلامية. فإنجاز الهدف الأخير في وقتنا الحالي لا يحتاج لمعابر أو بوابات جغرافية ينتقل عبرها الأثر الثقافي. ويمضي هؤلاء إلى أن عدم مشاركة العرب الإيجابية تعود إلى هامشية عاشها السودان في علاقته العربية منذ أمد. وتترسخ تلك الهامشية في قلة الإلمام بخصوصية التكوين الاجتماعي للسودان كما أن

المعطيات التاريخية والثقافية السودانية غير معروفة بدرجة كافية لأشقائه. وربما تعبر هذه الحالة عن نفسها بتلك المؤلفات التي كتبها السودانيون في موضوعات شتى وبدت وكأنها مرافعات لإثبات عروبة السودان وثقافته. ناقش محمد عمر بشير قضية خصوصية التنوع الثقافي والإثني في السودان في سياق حديثه عن البعد العربي والإفريقي في علاقات السودان. وذكر أن السودان لم يشرك أحيانًا في بعض المنظمات العربية بسبب وضعه الطرفي أو لعدم حسم مسألة العروبة فيه (بشير، محمد عمر 1991: 90-84) ويمضي ذلك الاستقطاب داخليًا مداه عندما برزت على السطح فكرة المواطنة كأساس للتعايش ونيل الحقوق وليس الدين أو العرق، أو غيرهما. هذا هو المدخل المناسب لفك الارتباط بين العروبة واحتكار السلطة والثروة على رأي بعض من يدعمون هذا الاتجاه. وما يجري الآن من مفاوضات جريئة[3] بين كل الأطراف السودانية لا يخرج عن هذا الإطار ويبدو أن الكل يستعد لتقديم تنازلات تبدو تاريخية من أجل تأمين الوحدة الوطنية. وإن وصل الحوار القائم الآن إلى غاياته المنشودة فسوف يكون للسودان وجه جديد تفرضه الظروف الموضوعية الداخلية وليس رغبات أفراد أو جهات أجنبية. والوضع الجديد المتوقع ينطلق من مراجعة مواقف الهويات الثقافية التي صار لكل واحدة منها قراءة رسمية لتاريخها ظلت غير قابلة للمراجعة أو الاختراق لفترة طويلة. وعلى المستوى الداخلي فإن تاريخ البلاد على النحو الذي كتب به في الغالب، ربما بسط سلطته المعنوية لمصلحة فئة من المجتمع دون أخريات لتستمد منه القوة والسلطة وتشكل من خلاله الحاضر. لا أود أن يأخذنا بعيداً القول الشائع أن التاريخ يكتبه المنتصرون وفق ما يودون ولكن مساءلة التاريخ أمرٌ ضروري يمليه علينا راهن الأوضاع في السودان. إن إعادة قراءة التاريخ الثقافي بكامل عصوره لا بد أن يكون مقرونًا بمشروع الأبحاث الحقلية المستمرة آنفة الذكر خاصة في تلك الأقاليم التي ليس لها تاريخ مدوّن. والمعلومات التي توفرها الآثار والمصادر التاريخية والتراث الشعبي هي المصدر الأساسي الذي يكشف لنا مستويات الاتصال والتأثير بين مختلف الإثنيات والأعراق في البلاد ومن ثم إبراز المشترك بينها الذي يدعم أواصر الوحدة الثقافية ويعترف بالتنوع والخصوصية في الوقت نفسه. ولتأمين هذه الأشياء لا تكفي فقط القرارات السياسية على كل حال.

ولكن الفهم المشترك للظروف التاريخية التي تشكلت فيها الثقافة السودانية يفتح الباب واسعًا أمام البناء الوطني والتماسك الاجتماعي. وذلك من منطلق أنها إحدى ركائز الشرعية التي تقوم عليها الدولة الوطنية كما ذكرنا. عندئذ قد يكون السودانيون في وضع أفضل لخلق علاقات إقليمية أكثر توازنًا وفائدة لهم ولشركائهم في العالمين العربي والإفريقي من جهة، ولمصلحة نمو الثقافة العربية الإسلامية وتفاعلها مع الثقافات المحلية من جهة أخرى.

## الهوامش

(1) يسمى هذا المنهج في الدراسات الآثارية بالاثنواركيولوجيا وهو يقوم على تحليل العناصر المادية للمجتمعات التقليدية في سياقاتها البيئية والاجتماعية بغرض جمع معلومات تفيد في بناء فرضيات نظرية ينطلق بها الباحث من الحاضر لتأويل الماضي (الأمين، يوسف مختار 2002).

(2) اتخذته مجموعة من الأدباء والتشكيليين شعاراً لمنتدى فكري يبحث في أصول الثقافة ومنابعها الأفريقية وذلك في الستينات من القرن المنصرم.

(3) تتمثل جرأة الحوار بين السودانيين عندما تقرر أن تكون الخرطوم عاصمة للثقافة العربية عام 2005م حيث رأى البعض أن تحديد العربية قد يسبب مشكلة داخلية بالنسبة للمجموعات الأخرى غير العربية. ويرى آخرون أن الخرطوم ستقدم وجهًا سودانيًا للثقافة العربية يشتمل على عناصرها الإفريقية في الوقت نفسه. ومن الملفت أن النقاش كان حراً ومفتوحًا في وسائط الإعلام ساهم فيه الكثيرون بمن فيهم بعض المسئولين.

## المراجع


**إبراهيم، محمد المكي 1989:**

الفكر السوداني، أصوله، وتطوره، الخرطوم.

**الأمين، يوسف مختار 2001:**

تحولات الهوية السودانية. العصور الجديدة_ 82 :7 95.

**الباشا ، محجوب 1998:**

التنوع العرقي والسياسة الخارجية في السودان .مركز الدراسات الاستراتيجية، الخرطوم.

**بشير، محمد عمر 1991:**

السودان بين التجمعات الإقليمية وتجمع دول حوض النيل. في: علاقات السودان الخارجية (البعد العربي والإفريقي) .تحرير حامد عثمان أحمد ومدني محمد أحمد، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ص 84-114.

**الحاكم، أحمد محمد علي 1990:**

هوية السودان الثقافية، منظور تاريخي، دار جامعة الخرطوم للنشر.

**حسن، يوسف فضل 1975:**

دراسات في تاريخ السودان، الجزء الأول، دار جامعة الخرطوم للنشر.

**حسن، يوسف فضل 1988:**

مفهوم الأمة السودانية: منظور تاريخي. في: دراسات في الوحدة الوطنية في السودان، تحرير العجب محمد الطريفي، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص 23-64.

**خالد، منصور 1993:**

النخبة السودانية وإدمان الفشل (جزءان) سجل العرب. القاهرة.

**شارل، بونيه 1997:**

كرمة مملكة النوبة .تراث إفريقي من عهد الفراعنة. ترجمة: أحمد محمد علي الحاكم، دار الخرطوم للطباعة والنشر.

**الصديق، عبد الهادي 1998:**

السودان والأفريقانية .مركز الدراسات الاستراتيجية، الخرطوم.

**عبد الله، عبد القادر محمود 1986:**

اللغة المروية .مطابع جامعة الملك سعود.

**محمد احمد، عبد الغفار 1987:**

السودان والوحدة في التنوع، المكتبة العربية، برلين.

**محمد علي، عباس سيد أحمد ويوسف مختار الأمين 1992:**

مشروع البطانة الأثري (شرق السودان): النتائج والدلالات. في: دراسات في الآثار .الكتاب الأول. ص ص 65-99. قسم الآثار، جامعة الملك سعود، الرياض.

**اليازجي، حليم 1985:**

السودان والحركة الأدبية) جزءان). منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت.

**Adams, Y. M. 1977:**

Nubia: Corridor to Africa. Allen Lane, London.

**Arkell, A. J. 1975:**

The Prehistory of the Nile Valley. Leiden.

**Deng, F. 2000:**

Race and Culture: Prejudice and Denial in Sudanese Society. In: Sudan: Development and Culture; 5-12. Sudanese Studies Centre. Cairo.

**Elamin, Yousif. M. 1999:**

Archaeology and Modern Sudanese Cultural Identity. The African Archaeological Review 16: 1-3.

**El-Zein, Intisar. S. 2000:**

The Archaeology of the Early Islamic Period in the Republic of Sudan. Sudan and Nubia. No.: 32 -36.

**Haaland, R. 1992**

Fish, Pots and Grain. In: The African Archaeological Review, 10: 43-64.

**Hassan. Fekri. A. 1998:**

Memorabilia. Archaeological Materiality and National Identity in Egypt. In : Archaeology Under Fire. Nationalism Politics and Heritage in the Eastern Medit. And Middle East. (ed) Lynn Meskell.Routledge. London. 200-216.

**Hassan, Yusuf. F. 1967**

The Arabs and the Sudan. Edinburgh.

**Mack, John and Robertshaw (eds) 1982:**

Culture History in the Southern Sudan. Archaeology, Linguistics, Ethnohistory. Memoir No. 8 of the British Institute in Eastern Africa.

**MacMichael, H. A. 1922:**

A History of the Arabs in the Sudan, 2 vol. Frank Cass and Co. (1967). London.

**O'connor, D. 1993:**

Ancient Nubia; Egypt_s Rival in Africa. Philadelphia.

**O'Fahey, R. S. and Spaulding J. L. 1974:**

Kingdoms of the Sudan. Methuen and Co. Ltd. London

**Trigger, B. G. 1975:**

Alternative archaeologies: nationalist, colonialist, imperialist. Man 19: 355-70.

**Woodward, P. 1990:**

Sudan: 1898 - 1989

The Unstable State. Lester Crook Academic Publishing. London.

# الإرث التاريخي للصلات العربية الأفريقية
# ليبيا نموذجا

محمد الطاهر الجراري(*)

قسمت الورقة إلى تعريف لغوي ومقدمة عامة ثم الأحداث فالأسباب والخاتمة.

**التعريف :**

في هذه الفدلكة التاريخية استخدمت لفظتي العرب والعربية بمفهومها الثقافي لا العنصري، فكما تجمع الثقافة الأمريكية بين السكسوني والهندي واللاتيني والأفريقي فإن الثقافة العربية تجمع بين الأمازيغي والكردي والعربي والأفريقي. لكل كامل الحق في الاعتزاز بذاته وصفاته مع إقرار بقاسم مشترك يجمع الجميع دونما استنقاص أو استكبار.

**المقدمة:**

هذا زمن يجمع بين نقيضين : العولمة والخصخصة أو الفردية والكونية. ومن الطبيعي وسط هذا التيار الجارف، أن يرتب الإنسان أولوياته فيعرف أولا ذاته ثم ما يفرقه أو يجمعه مع الآخرين خصوصا جيرانه الأقربين.

والتاريخ هو المخزن الضخم لتحديد الذات والعلاقات وقد سيقت لهذا الغرض ثلاثة أحداث من ليبيا ، كنموذج لمنطقتها العربية، لتوضيح التواصل العربي الأفريقي عبر العصور القديمة والوسيطة والحديثة.

---

*باحث أكاديمي ليبي، مدير مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ورئيس تحرير" مجلة البحوث التاريخية" التي تصدر عن المركز.

ولاشك أن لكل واحد من هذه الأحداث الثلاثة التي سنسردها، أسبابه الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية الخاصة التي وجهته نحو إفريقيا؛ ولكن بدلا من البحث في هذه الأسباب الفردية التي ستطول وتشتت، أثرتُ جمعها وتجريدها من خصوصياتها العللية والنظر إليها مجتمعة من خلال منظور أبعد وبؤرة أوسع صار عندها توجهها الإفريقي، أيا كانت أسبابها المباشرة، استجابة عفوية لتيارات تاريخية محكومة بضرورات وليست خيارات فالشعوب مثلا لا تختار جيرانها لأن الإنسان أصلا لا يختار مكان ميلاده؛ وحرية الإنسان في كينونته الثقافية والحضارية بما فيها اللغوية والدينية محكومة بمحيطه الذي قد يهوده أو ينصّره أو يؤسلمه.

وعليه فالأسباب التي وردت في هذه الورقة هي قواسم مشتركة بين العرب والأفارقة، وأشبه ما تكون بثوابت فرضها الموقع الجغرافي والتراث التاريخي والفلك الحضاري والتوجه الفكري. الأمر الذي يزكي فهمها والبناء عليها لصالح التقارب العربي الأفريقي موضوع هذه الندوة.

**الأحداث :**

**1. رحلة شباب الناسامون لاكتشاف أفريقيا:**

الناسامون قبيلة ليبية قديمة ذكرها هيريدوت (Herod. II. 32, IV. 172) وبطليموس (Plin. XXXVII. 10 S. 64) وغيرهم.

ووفقا لهيريدوت فإنهم من أقوى البدوية في شمال ليبيا. وقد استقروا لبعض الوقت في برقة وسرت ويموقعهم ديودوروس (Diodorus III. 3) في مناطق أوجلة مع امتدادات إلى شواطئ المتوسط. ويتحدث الكاتب اللاتيني لوكان (Lucan. Pharsal. X. 443) عن قرصنتهم على بعض السفن بخليج سرت. أهم أعمالهم الرعي ويحدثنا هيريدوت (Herod. IV. 172) بأنهم يتركون قطعانهم صيفا على الشاطئ، ويتوجهون إلى أوجلة خريفا لجمع التمور. وفي أرضهم توجد معادن وأحجار كريمة حتى أن بليني المؤرخ الروماني (Plin. XXXVII. 10. S.64) يطلق اسم ناساموني على نوع من الأحجار الكريمة ويروي هيريدوت (Herod. II. 32-33)

عن أهل قورينا (شحات الحالية) القصة التالية: "خرج الناسامون في زيارة إلى معبد آمون بواحة سيوة وهناك سألهم اتيارخوس Etearchus ملك الامونيين عن ما إذا كانوا يعرفون أكثر من الآخرين عن أجزاء من الصحراء الليبية. أجاب الناسامون بأنه من بين أبناء شيوخ قبيلتهم اختير بالقرعة خمسة من المتطوعين المشهود لهم بالشجاعة والإقدام، وذلك بهدف زيادة التعرف على أجزاء من الصحراء الليبية والوصول إلى أبعد مما وصله الآخرون. بعدها دخلوا منطقة حيوانات متوحشة. ومن هناك عبرو إلى منطقة صحراوية في طريقهم صوب ريح الغرب. وبعد اجتيازهم عبروا منطقة رملية واسعة، أخذتهم عدة أيام،أو بعدها أشجارا تنمو - كما قيل - على أرض منبسطة. وعند وصولهم إليها قطفو من بعض الثمار التي على الأشجار. وبينما هم يقطفون هوجمو من قبل أقزام بشرية أقل طولا من الرجال ذوي القامات المتوسطة. فقبضوا عليهم واقتادوهم. الناسامون لم يكونوا يفقهون لغة هؤلاء الأقزام، ولا الأقزام كانوا يفهمون لغة الناسامون. وقد قادوهم عبر مستنقعات ضحلة وواسعة بعد عبورها وصلوا إلى مدينة (ربما موقع تمبكتو الحالي) مسكونة بأناس ذوي قامات مماثلة لقامات مقتاديهم، أما بشرتهم فكانت سوداء. وفي هذه المدينة يمر نهر كبير (ربما النيجر) يصب من الغرب في اتجاه مطلع الشمس وفيه يمكن مشاهدة التماسيح... وقد عاد الناسامون بعد ذلك كما أفادني سكان قورينا. وكل هذه الأقوام التي زارها الناسامون، يشتغلون بالشعوذة والسحر. أما عن النهر الذي يمر بالمدينة فقد اعتقده الملك اتيارخوس Etearchus بأنه النيل".

هذا هو نص قصة هيريدوت عن رحلة الناسامون لوسط إفريقيا ومنها يستشف أن الرأي العام في ذلك الوقت، وهو القرن الخامس قبل الميلاد أو القرن السادس، كان مشبعا بالتطلع الإفريقي ومتحفزا لمعرفة المزيد عنها.

### 2 - دولة أولاد محمد* سنة 1550-1813 م:

اشتق اسم الدولة من اسم مؤسسها الشريف محمد الفاسي الذي يرجح مروره بفزان حاجا. وقتها كان الجنوب الليبي في فوضى سياسية وحروب أهلية على الأرجح. ويبدو

- *رغم أهميتها للتاريخ الليبي إلا أن الأستاذ الدكتور حبيب وداعة الحسناوي أول من كتب عن هذه السلطنة سنة 1990، ونشر عنها العديد من المقالات، علاوة على كتابين: أحدهما بالإنجليزية والثاني بالعربية، انظر قائمة المصادر.

أن محمد الفاسي قد قام بدور في تأمين الصلح وإقرار الأمن معتمدا على ذكائه وأصله الشريف ودعم المرابطين له، وطبيعة المرحلة المشبعة بالحس الديني والغيرة على ديار الإسلام نتيجة الهجمات الأوروبية المسيحية عليها وفشل السلط الحاكمة في ردعهم.

استقر محمد الفاسي بفزان وأمَّره أهلها عليهم، فاتخذ من مرزق عاصمة له، وتمكن مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي من السيطرة شبه التامة على جنوب ليبيا، أي فزان وجزء من شمال تشاد وتكوين دولة باسم دولة أولاد محمد استمرت تحكم فزان من سنة 1550إلى 1813م حين أنهى حكمهم يوسف باشا القرهمانلي وإلى طرابلس . .( H.EL-Hesnawi, 1990 : 35F. )

تبادل على حكم سلطنة أولاد محمد سبعة عشر (17) سلطانا. اعتمدت السلطنة في حياتها المادية على كونها محطة لتنظيم التجارة بين الشمال والجنوب وأخذ إتاوات على البضائع والجمال علاوة على ما تجنيه من التجار والسياح. لهذه الأسباب كانت حريصة على حماية خطوط القوافل وتوفير محطات تجارية ومراكز العرض المكونة من أسواق وخانات ودور سكنية وغيرها. وهكذا ترعرت في وسط الصحراء وربما بشكل استثنائي مناطق مدنية وحضارية راقية تناقض وجهة النظر القائلة بأن المنطقة الممتدة ما بين المغرب والسودان ومصر عبارة عن صحراء قاحلة، فدولة أولاد محمد هي النموذج الأمثل على الامتزاج العربي الإفريقي خلال العصور الحديثة المبكرة، والجسر الواصل بين الشمال والجنوب. لقد ساعد هذا الموقع أولاد محمد على التعامل المباشر بين النطاقين وجمع الاثنين اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا في بوتقة واحدة هي بوتقة الجنوب الليبي وسلاطينه أولاد محمد (A. Ahmida,2003).

مشكلة أولاد محمد الرئيسة كانت كيفية الملاءمة بين أطماع السلطة المركزية بطرابلس ويمثلها الأتراك العثمانيون في عوائد تجارة الصحراء من جهة ومصالحهم ومصالح رعيتهم من جهة أخرى. العثمانيون وبعدهم القرهمانليون كانوا يصرون على استلام إتاوة صخمة تزداد مع اضمحلال موارد القرصنة البحرية وسنوات الجفاف والمجاعات وزيادة أطماع الولاة.

لذلك عاشت سلطنة أولاد محمد تحت تهديد دائم من الشمال وحملات (محله) عسكرية شبه مستمرة فكلما قلت الإتاوة عن المقدار الذي كان يتوقعه أو يرغبه الوالي العثماني بطرابلس قام بتجريد حملة عسكرية ضدهم. كما كان أولاد محمد أيضا يستغلون تردي الأحوال السياسية في الشمال فيقومون بعدم دفع الخراج، أو الإتاوة السنوية مما يدفع السلطة المركزية إلى تجريد حملات لتأديبهم.

وحلا لهذا الإشكال استن سلاطين دولة أولاد محمد بمرزق سياسة وسطية ذكية أشبه بشعرة معاوية تعتمد على : أولا إعلان التبعية للسلطان العثماني مع عدم إظهار الخضوع الكامل للوالي العثماني بطرابلس حتى لا تضعف هيبتهم أمام رعيتهم. وثانيا عدم الاستجابة التامة لكل طلبات ولاة السلطان العثماني بطرابلس حتى لا يرهقوا مواطنيهم الذين أثبتوا ولاءهم الكامل لهم بدليل أنه كلما غزتهم جيوش الباب العالي وطردتهم، يرفض الأهالي ذلك ويصرون على إعادتهم وتثبيتهم بمرزق. وثالثا تحاشي الصدام المباشر مع الجيش العثماني الضخم نظرا لفارق القوة وذلك بالفرار أمامه وقت الهجوم والعودة بعد رحيله. ورابعا الاستفادة من العمق الأفريقي بالالتجاء إليه كلما اضطرتهم جيوش الباب العالي للخروج من عاصمتهم مرزق. وهناك ـ أي في ممالك السودان ـ يعيدون ترتيب أمورهم ويجندون أنصارهم ويتصلون برعيتهم فيستعيدون عرشهم.

ففي سنة 1577 فرض الجيس العثماني سلطة الخلافة العثمانية على فزان وفر الناصر ابن المنتصر بن محمد الفاسي من عاصمته مــرزق إلى بلاد الهوسا التي استطاع منها تأليب الناس في الجنوب ضد الحكم العثماني مما مكنه من استعادة سلطته على الجنوب الليبي سنة 1588. ومنذ هذه السنة وحتى مطلع القرن التاسع عشر أجبر سلاطين دولة علي مغادرة عاصمتهم مرزق والالتجاء إلى السودان أربع مرات على الأقل استطاعو بعد كل مرة العودة بقوة إلى مقر حكمهم بتأييد شعبي من مواطنيهم ودعم سخي من حلفائهم ملوك السودان وحكامها.( El-Hesnawi, 1990: 63-97).

وفي سنة 1813 أجبرت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها طرابلس الوالي يوسف القروهمانلي على ارسال قوة بقيادة محمد المكني تمكنت من القضاء النهائي على سلطنة أولاد محمد بالجنوب الليبي وشمال تشاد سنة 1813 م.

### 3 ـ الحركة السنوسية(*) :

تأسست الحركة السنوسية من أجل استنهاض المسلمين لمواجهة الهجمة الأوروبية عليهم خلال القرن التاسع عشر. أسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي المستغانمي حيث تلقى تعليمه الأول، سافر بعدها إلى المغرب ودرس الصوفية على يد عبد الوهاب التازي مما رسخ لديه فكرة الزوايا التي عليها ارتكزت فكرة السنوسية. أسس زاويته الأولى بالبيضاء بالجبل الأخضر ببرقة سنة 1843 م ومنها امتدت الطريقة إلى كامل التراب الليبي.

ومن ليبيا امتدت الحركة مباشرة إلى أفريقيا التي كان التوجه نحوها واضحا منذ البداية، ومنها تغلغلت الحركة جنوبا إلى تشاد ووداي وبرنو والنيجر ومالي ونيجيريا. البداية كانت من الجغبوب والكفرة حيث كانت الزوايا تستقبل الطلبة والمريدين حيث يتم تدريبهم وتعليمهم الدين واللغة العربية وعلوم الحياة ثم يرسلهم إلى مناطقهم لينقلوا ما تعلموه إلى ذويهم ويربطونهم بزوايا ترتبط جميعها بالزاوية الرئيسية في الجغبوب او الكفرة.

ونظرا للانتشار الواسع الذي حققته الحركة في إفريقيا الوسطى والجنوبية قرر السيد المهدي الشريف زعيم الحركة (1902– 1916) نقل مركزه الرئيس إليها. فكر أولا في منطقة مارا بإقليم دارفور بالسودان الغربي ثم استقر رأيه سنة 1899 م على الانتقال إلى إقليم قورو أو قور على الجانب الشمالي الشرقي من قمم جبال تيبستي التابعة لسلطان واداي. وهي مناطق ليست بغريبة على المؤسس وخليفته الذين بادرا مبكرا إلى إقامة شبكة من الزاوايا بالمنطقة أهمها زاوية واجنجا وماسيف وكاوار وتيبستي وبوركو واندي وكانم ووداي وباجرمي وغيرها كثير.

- *كثيرة هي الكتب التي تناولت الحركة السنوسية ، منها كتب الطيب الشهب Z.Evan-Prietchard N. Ziadeh هذا الملخص استفدت كثيراً من مقال الأستاذ الدكتور محمد دغيم 1998. انظر قائمة المصادر.

لقد ساعدت الطرق الصوفية عموما ومن بينها السنوسية على تفعيل التنافس بين مريديها لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية العربية ـ وهكذا وجد الليبيون أنفسهم بعد انكفاء غالبية الحركات المنافسة مع نهاية القرن التاسع عشر، روادا لحركة التواصل العربي الأفريقي.

لقد اتصلت سلسلة الزوايا الصوفية السنوسية من ليبيا إلى الصحراء ثم ما بعد الصحراء وصولا إلى نيجيريا وما حولها. ويقر العارفون بأن عدد الزوايا بالسودان الأوسط يزيد عن عشرين زاوية، ويدلل الكاتب توماس أرنولد على أن الجهد الليبي كان كبيرا في التعزيز والاندماج بين العرب والأفارقة، ودعم الازدهار العلمي والاقتصادي وتوسيع النشاط الديني. ويضيف بأنه سنويا كان يغادر طرابلس إلى السودان ألف داعية للمساهمة في تكريس التضامن العربي الأفريقي ونشر الدين والثقافة وإعداد الجميع ـ أفارقة وعرب ـ روحيا ومعنويا لمواجهة اللهجة العسكرية والحضارية الغربية ضد الإسلام محمد دغيم، (1999 :617).

واندمج الليبيون مع الأفارقة وتشاركو معاً في مقاومة الاستعمار الغربي بل وتزعموها في أكثر من مكان وزمان، ففي سنة 1902 تزعم السيد المهدي حركة المقاومة ضد الفرنسيين وقد خرج إلى إحدى المعارك سنة 1902 وتوفي، وبعده قاوم السيد أحمد الشريف الذي تولى زعامة الحركة، مع ليبيين آخرين الفرنسيين في أكثر من موقعة، فقد شهدت زاوية بير علالي حسبما تذكر المصادر التاريخية، معارك طاحنة بين الفرنسيين والمقاومين الأفارقة والليبيين استشهد خلالها عدد من الليبيين دفاعا عن هذه الزاوية. وفي معركة عين كلك قتل محمد البراني الساعدي الليبي مع آخرين (محمد دغيم، 1999: 616-618؛ سعيد الحنديري، 1983 و1998).

ويكفي في هذا المجال التذكير بأن عمر المختار، رمز المقاومة الليبية ضد الإيطاليين، قد استهل نضاله العسكري المبكر في تشاد ضد الفرنسيين حيث كان يشتغل مدرسا بزاوية عين كلك.

**الأسباب أو الاستدلال:**

الأحداث أو النماذج الثلاثة السابقة تشترك جميعها في اختيار التوجه صوب أفريقيا. والسؤال هو لماذا أفريقيا. وليس غيرها ؟ وقد قسمت الإجابة إلى أربعة أسباب هي: الجوار الجغرافي والتجربة التاريخية الطويلة والإطار الثقافي والفلك الحضاري.

**1. الجوار الجغرافي :**

منذ أقدم الأزمنة اتصل العرب بالأفارقة عبر عدة طرق أهمها:

1. طريق المحيط الهندي للانتقال ما بين شرق أفريقيا وجزيرة العرب.

2 . طريق باب المندب.

3 . طريق البحر الأحمر.

4 . طريق شبه جزيرة سيناء.

5 . الطريق الساحلي الذي سمح بالاتصال بأفريقيا عبر برزخ السويس مرورا بسيوة والجغبوب وغيرها من المحطات شبه الساحلية ابتداءً من مصر وانتهاءً بالمغرب الأقصى.

6 . منخفض "بينويه" الممتد من وادي نهر (لوجون) حتى بحيرة كوار/تشاد ، وربط هذا الطريق ما بين المحيط الأطلسي وبلاد حوض المتوسط عن طريق البر والبحر قرب الساحل أو عبر الصحراء.

7 . في الجنوب الشرقي لأفريقيا يوجد طريق يمتد ما بين البحيرات، وقد استخدمت قبائل كثيرة هذا الطريق للوصول إلى وسط أفريقيا وجنوبها (الماحي، 1999:81-63)

8 . ساعد هذا الجوار الجغرافي على سهولة نقل المعارف والأدوات الحضارية برا وبحرا. ويسر رغم صعوبة* الصحراء، انتقال البشر والأفكار والمعتقدات وتكوين عمق أفريقي للهوية الثقافية العربية الإسلامية.

- *القول بأن الصحراء لم تكن حاجزاً بين الشمال والجنوب فيه تبسيط للحقائق الطبيعية ، لكن إرادة البشر في التواصل بين شمال القارة وجنوبها كانت أقوى.

## 2 ـ التجربة التاريخية :

هناك تفاعل شبه دائم بين المنطقة العربية وإفريقيا، وذلك منذ أقدم العصور وعلى أكثر من جبهة.

المصادر المصرية القديمة أشارت إلى علاقات مع بلاد بونت وإلى رحلات في البحر الأحمر ووسط إفريقيا، كما عددت مجموعة من القبائل الواقعة إلى الغرب والجنوب منها، ومنها القبائل الليبية التي ارتبطت معها بعلاقات سلمية وحربية (Bates, 1970 :40-50)

الكتاب الكلاسيكيون ـ الإغريق والرومان ـ بطليموس (القرن الثاني الميلادي (Ptol. IV 7. 25). ستيفانوس البيزنطي (القرن السادس الميلادي) وبروكوبيوس (القرن السادس الميلادي) (Procop. B. Pers. I. 19). وكتاب الرحلة الارثرية (The Perioplus of the Erytheraear Sea) العائدة للقرن الأول الميلادي. أشاروا جميعا إلى حركة شبه دائمة بين السبئيين والحميريين والأفارقة في جنوب البحر الأحمر ويفصل صاحب كتاب الرحلة الإرثيرية العائد للقرن الثاني الميلادي هذا التعايش بقوله: "منذ قرون طويلة تعاشر العرب والأفارقة بمنطقة ازانيا Azania (شرق أفريقيا) لقد كان العرب مختلطين مع الأفارقة يعيشون بينهم ويتزاوجون منهم ويعرفون كل قراهم ويتكلمون لغتهم" .(Thompson, 1969 : 32) وقد تكونت نتيجة لهذا الامتزاج تجمعات مختلطة عديدة أشهرها مملكة أكسوم Axume التي تعود بداياتها إلى القرن السابع ق. م. وامتد هذا التفاعل بين العنصرين حتى القرن السادس الميلادي أي قبل الاسلام بقليل حيث نجد أن ملك أكسوم في الفترة من سنة 527 م إلى سنة 565 م، وهي الفترة الموازية لحكم الامبراطور حستنيان البيزنطي، كان ملكا عربيا يعرف باسم اليزيان (w.smith 1878 : 348 ; snowden F. 1971: 207-215).

طوال هذه الفترة كانت أكسوم المركز الأهم للتبادل التجاري بين جزيرة العرب والبحر الأحمر ودواخل إفريقيا خصوصا في بضاعة التبر والعاج والجلود والروائح (Thompson, 1969 : 55-61). هذا من الجنوب الشرقي أما من الشرقى فإن اللغوي

الإغريقي (اجاتارخيدس Agatharchides) من القرن الثاني ق. م. وهيريدوت (Herod. IV. 183) أشارا إلى قبيلة عربية إفريقية باسم (تروقلو ديتاي Troglodytae) تمتهن الرعي وتسكن الساحل الغربي للبحر الأحمر ابتداء من السويس إلى باب المندب. وتمتد غربا حتى برقة، وهناك من يرى أن العبادلة المعاصرين هم أحفادهم .(W. Smith, 1878 :1236) وقد عرفوا بالمهارة في طرق الصحراء، مما دفع ملوك فارس ومنهم اكسرسيس Xerxes وقمبيز Cambyses إلى الاستعانة بهم في جيوشهم. كما استفادت منهم القوافل الواصلة ما بين برقة وأواسط إفريقيا.

من جهة الشمال كانت شمال إفريقيا قريبة الصلة بآسيا عن طريق برزخ السويس والمتوسط، ويتحدث المؤرخان سالوست الروماني (Jugurith 18-21) من القرن الأول قبل ميلاد المسيح، وبروكوبيوس البيزنطي (B. V.II. 10-24) من القرن السادس الميلادي، عن تحركات بشرية قديمة بين المنطقتين، وهجرات من فلسطين والشرق عموما إلى شمال إفريقيا. وعنهما أخذ غالبية المؤرخين المسلمين نظرية الأصل الشرقي للبربر أو الأمازيغ.

هومر الشاعر الملحمي الإغريقي من القرن الثامن قبل ميلاد المسيح لمح إلى تواجد فينيقي مبكر جدا بشمال أفريقيا ففي ملحمة الاوديسا (Odysseus IV 83-85)، التي تحدثت عن حوادث تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ذكر أن بطل الملحمة أوديسيوس بعد مروره بفينيقيا ومصرا اتجه صوب إفريقيا فقابل اثيوبيين وقوما من مدينة صيدا بلبنان (سيدونيان)، وحيث أنه لا يعقل عودة بطل الملحمة إلى مكان زاره، فإن الأرجح أنه كان يعني الفينيقيين بشمال إفريقيا، ويدعم الجغرافي سترابو (Strabo, I. P 48) هذا الاتجاه بإخباره بأن التواجد الفينيقي في شمال إفريقيا معاصر للحرب الطروادية أو بعدها بقليل.

قرجيل (Aen. 1. IV) وليفي (XXI. I) جستن (Just. XVIII. 4) وغيرهم كثير تحدثوا بإفاضة عن العلاقات القوية بين آسيا وإفريقيا، وتحدثوا عن تأسيس قرطاجة وأوتيكا وغيرهما من قبل فينيقيين قادمين من صور اعتبارا من الربع الأخير

من الألف الثاني قبل ميلاد المسيح. الجغرافيون الإغريق القدماء (Muller, G.G.M. G.) ذكروا شخصا قرطاجنيا باسم هانو Hanno قام برحلة استكشافية لغرب إفريقيا حوالي أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وقد سجل الكثير من المعلومات القيمة عن المنطقة.(Warmington, 1934 :73).

أما هيريدوت فإنه تحدث عن رحلة لأعماق القارة قام بها شباب الناسامون انطلاقا من شرت ووصلو فيها إلى تمبكتو ونهر النيجر .(Herod. II. 32-33) من هذا كله يتضح عمق التجربة التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية منذ أقدم العصور ومن كافة الجهات حسب ما يورده الكتاب الكلاسيكيون.

قديما كان العامل الاقتصادي والسياسي هما الدافع الأهم في التقارب العربي الإفريقي. لكن في القرن السابع الميلادي أضاف الإسلام واللغة العربية بعدا ثقافيا جديدا للتجربة التاريخية بين العرب والأفارقة تحولت فيه التجارة والسياسة إلى عوامل مساعدة في إذكاء التقارب بين الأقوام وليس العوامل الوحيدة.

لقد ساعد الإسلام على صهر الثقافات العربية والأمازيغية والإفريقية في ثقافة جديدة هي الثقافة الإسلامية العربية الإفريقية. وفي هذا الإطار الحضاري الثقافي الواحد تحرك الكتاب والرحالة وتمكنوا فيه من رصد الحياة الأفريقية والتعرف عليها بشكل جعلهم المصدر الأهم لمن يرغب في دراسة إفريقيا الوسيطة. وعلاوة على الذين كتبوا عن الفتوح الإسلامية لشمال إفريقيا، وهم كثر ولا يتسع المجال لذكرهم، فإن المفكرين الإسلاميين تعمقوا في إفريقيا ما بعد الصحراء، وكتبوا عنها بإفاضة وما محمد بن إبراهيم الفزاري 180 هـ/796 م، إلا بداية هؤلاء جاء بعده اليعقوبي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، والبلادري (279 هـ/982 م)، والمقدسي (335 هـ/947 م)، والمسعودي (345 هـ/957 م)، والاسطخري 346)هـ/957 م)، وابن حوقل (367 هـ/977 م)، والشريف الإدريسي (492 هـ/1100 م)، وياقوت الحموي (575 هـ/1179 م)، وابن بطوطة، وابن عذاري، وابن الخطيب، وابن خلدون، والقلقشندي، والمقريزي، والعسقلاني وغيرهم كثير. فالتراث العربي الإسلامي حول إفريقيا غني ونادر، مما يزيد من فرص التقارب نظرا لطول فترة التجربة والتعارف.

## 3 ـ الإطار الثقافي :

المخزون الثقافي للوطن العربي في عمومه يرتكز على الإسلام بنسبة واسعة تم المسيحية. أما إفريقيا فإن تراثها يقوم على الوثنية بنسبة ضعيفة فالمسيحية والإسلام.

وصلت المسيحية إلى الشمال الإفريقي مبكرا وأقصى وأوسع امتداد لها جنوبا كان في الحبشة التي وصلتها المسيحية في القرن الرابع الميلادي عن طريق مصر.

منذ القرن السابع بدأت الثقافة الإسلامية العربية في الانتشار بإفريقيا، واستمرت في الاتساع حتى صارت غالبية إفريقيا امتدادا حضاريا للإسلام. وبرغم الجهد المكثف الذي بذلته الدول الاستعمارية الغربية خلال القرون الحديثة لنشر المسيحية، كوسيلة لتدعيم احتلالها، على حساب الإسلام، إلا أن التواجد الثقافي الإسلامي لازال واسعا مما يوسع من دائرة القواسم الثقافية المشتركة بين الأفارقة وغيرهم من سكان المنطقة العربية نظرا لكون الدين يمثل عادة العمود الفقري للثقافات (زبادية 1989: 26-97).

4 ـ الفلك الحضاري :

سنة 484 ق. م. قرر اكسرسيس الفارسي، وهو زعيم الكتلة الشرقية وقتها، غزو الغرب الأوروبي ممثلا باليونان فجمع الجيوش بمن فيهم الأفارقة، وزحف بهم حتى توقفت عند المجرى المائي الفاصل بين آسيا وأوروبا عندها قرر شاه شاه فارس والشرق جسر الهوة بطريق خشبي من القوارب عبرت عليه جيوشه البرية إلى أوروبا وتقابلت مع الإغريق الذين هزمهم الفرس.

هيريدوت الإغريقي علل الهزيمة بأنها انتقام إلهي لتجرأ الملك الفارسي على وصل ما أرادت الآله له أن يكون فاصلا بين عالمين: عالم الاستبداد والحكم الفردي بالشرق، وعالم الحرية والحكم الديمقراطي بالمغرب (Dodos, 1968 E 25-50, Bengston, 1970 :89 FA. Lesky, 1966, :306-328) أرسطو المفكر الإغريقي المتحرر والفيلسوف العالمي الأشهر تحيزاً لهذا المفهوم،

واقتبس في إحدى كتاباته نصا للكاتب المسرحي الإغريقي يوربيديس قائلا "من الحق والمنطقية أن يستولي الإغريق على البرابرة الشرقيين لأن هؤلاء عبيد بالسليقة بينما الإغريق رجال أحرار" (R. Littman, 1974 : 34)، على الطرف الآخر نجد ابن فضلان في رحلته المشهورة إلى الغرب الأوروبي خلال القرن العاشر الميلادي يسجل صدمته بالكثير من المظاهر الحضارية والعادات الأوروبية المناقضة تماما لما عهده في عالمه، من ذلك قوله عن النساء في أوروبا "وما زلت اجتهد أن يتستر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك".

وفي مكان آخر يتحدث فيه عن مظاهر الرجال فيقول "وهم يحلقون لحاهم" (رسالة ابن فضلان، (1977: 138-162) وهو في هذه وغيرها يعبر عن لون حضاري مختلف يمثل فيه الشعر قيمة فكرية ودينية تجسدت في شمشون النقيض الشرقي لشخصية أطلس العملاق الأوروبي الذي يستمد قوته من عضلاته لا شعره. كما واقع المرأة الأوروبية هو امتداد للاستعراض السنوي الذي كان يتم في إسبرطة باليونان القديمة وتخرج فيه الفتيات عاريات لاختيار أقربهن إلى المواصفات المعروفة وقتها.

لقد حرفت المسيحية، ذات الأصول الشرقية، لأنها كيفت لتتوائم مع التراث الكلاسيكي الغربي لذا جاء الإسلام كصولة "شرقية" أخيرة على التحريف والتزييف.

إذا يمكن تقسيم العالم إلى أفلاك ودوائر حضارية كالدوائر الكهربائية تتناغم بالتنسيق والترتيب والعقلنة وتتنافر وتتصاعق بالمناطحة والمصادمة.

إفريقيا التي عرفت قديما بليبيا أو اثيوبيا، هي كآسيا العربية جزء من عالم الشرق القديم. لقد كان أبناؤها من بين الفرق التي جندها ملوك فارس أثناء صراعهم مع الغرب الأوروبي خلال القرن الخامس قبل ميلاد المسيح وما بعده، ومن المناسب هنا التذكير بأن هيريدوت ذكر بأن الملك الفارسي اكسرسيس عند تنظيمه لجيشه ضم الاثيوبيين والعرب في فرقة واحدة أمر عليها شخصا باسم أرساميس (Herod. VII. 69-70).

وعندما ظهر الإسلام واعتنقته جماعات واسعة من إفريقيا زادت مسافة البعد بينها وبين فلك الحضارة الغربية. ونظر الكتاب المسلمون إليها على أنها جزء من دائرة الثقافة العربية الإسلامية فاليعقوبي من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي وبعده الوزير الحسن بن محمد من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي كلاهما اعتبرا مملكة كانم مملكة عربية إسلامية كغيرها من ممالك المسلمين.

وقسم المقدسي المنطقة العربية إلى أربعة عشر إقليما أحدها بلدان السودان (زبادية، 1989: 5).

## الخاتمة :

الأمل أن الأحداث الثلاثة التي سيقت والأسباب الأربعة التي رشحت كدوافع لتوجهها تؤشر إلى أن الإرث التاريخي العربي الإفريقي يحمل في رحمه بذور تآلفه لأنه مؤسس على توابث منطقية مشتركة قادرة على تفسيره لصالح التقارب بين الطرفين ومرشحة إياه لتطوير أكثر مستقبلا.

والبلد الذي اختيرت منه هذه الأحداث، وهي ليبيا، كانت، ولا زالت، إحدى بوابات هذا الاتصال ونماذجه، وما رحلة الناسامون، وتوجه سلطنة أولاد محمد، ومحمد بن علي السنوسي وصناع القرار الليبي المعاصر نحو إفريقيا إلا استجابة طبيعية لتوابث تاريخية قديمة ومتصلة.

## المراجع


1 ـ أحمد بن فضلان بن حماد، رسالة ابن فضلان، تحقيق د. سامي الدهان، دمشق 1978.

2 -Ali A. Ahmida, The Discovery of the state of Awlad Muhammed in Fazzn, 1551-1812, مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، تحت الطبع.

3 ـ حبيب وداعة الحسناوي، وثائق دولة أولاد محمد بفزان، مركز جهاد الليبيين للدراست التاريخية، طرابلس1994.

4 - Habid Wada'a El-Hesnawi, Fazzan Under the rule of the Awlad Muhammad, the centre for African Researches and Studies Sebha, 1990.

5- H. Bengtson, Irrodution to Ancient History, Transl. By R.I. Frank & Frand D. Gilliard London, 1970.

6- Robert J. Littman, The Greek Experiment Imperialism and Social Conflict 800-400 B.C, London, 1974.

7. سعيد عبد الرحمن الحنديري، تطور الحياة السياسية في تشاد ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1983.

8 ـ سعيد عبد الرحمن الحنديري، العلاقات الليبية التشادية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1983.

9 ـ الطيب الأشهب، برقة العربية أمس واليوم، القاهرة، 1948.

10. عبد الرحمن عمر الماحي، مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي. أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء 12-14/5/1998؛ مراجعة وتقديم دكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، 1999.

11 ـ عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

12 - Frank M. Snowden, Blacks in Antiquity, Harvard, 1971.

13 - L. A. Thompson & Ferguson, Africa in classical Antiquity, Ibadan University Press, 1969.

14 ـ محمد فرج دغيم، التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية الواقعة على جانبي الصحراء ودور ليبيا في هذا التواصل. أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء 12-14/5/1998 م. مراجعة وتقديم دكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، 1999.

15 ـ موسى عبد الرحيم عربي، العوامل الفكرية وانتشار الإسلام في تشاد، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية.

16 - Nicola A. Ziadeh, Sanusiyah : Astudy of a Revivalist Movement in Islam, Leiden, 1968.

17- William Smith, A Dictionary of Greek Roman Geography, London, 1878.

18- E.E. Evans - Pritchard The Sanusi of Cyrenaica, Oxford, 1973.

19 - E. H. Warmington, Greek Geography, London. 1934.

20 - E. R. Dodds, The Greeks and Irrational, California, 1958.

21- Oric Bates, The Eastern Libyans, Frank Cas & Co. LTD, 1770.

22 - C. Muller, Geografhi Graeci: Minores 1, 1ff.

# التواصل والتفاعل بين شمال إفريقيا والصحراء الكبرى وشبه الجزيرة العربية خلال العصور القديمة

عفراء الخطيب(*)

إن الوحدة الثقافية والحضارية التي تتميز بها الأراضي الممتدة بين بلاد الرافدين والهلال الخصيب وجنوب غرب آسيا والشاطئ الشرقي لإفريقيا والصحراء الكبرى وشمال إفريقيا، والتي الجزء الأكبر منها يمثل العالم العربي، يبدو أنها ترجع في أصولها الأولى، إلى :

**أولا :** التجانس الجغرافي الذي تعرفه هذه الأراضي، التي هي عبارة عن حوض يمتد على خط عرض واحد، تعرض تقريبا لعوامل مناخية واحدة.

**ثانيا :** أن جميع هذه المناطق مفتوحة على بعضها ومرتبطة بواسطة المسطحات المائية؛ دجلة والفرات والخليج العربي والبحر الأحمر والنيل والبحر الأبيض المتوسط، التي شكلت معابر ومجالات للانتقال والاتصال والتفاعل. الأمر الذي أدى بدوره إلى انتشار نمط اقتصادي اجتماعي متماثل في جميع هذه الأراضي منذ أقدم العصور.

## شبه الجزيرة العربية

وقد كان لشبه الجزيرة العربية الدور الفعال في التواصل الحضاري بين مختلف مناطق هذا المجال الجغرافي. وذلك بحكم موقعها عند ملتقى قارتي آسيا وإفريقيا (خريطة رقم 1)، أي أراضي الرافدين والهلال الخصيب من جهة، والهند وجزرها من جهة ثانية، وإفريقيا الشرقية من جهة ثالثة. مما جعلها مؤهلة لأن تقوم بدور الوساطة بينهم.

---

(*) باحثة أكاديمية سورية ،أستاذة التاريخ القديم وعلم الآثار بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس بالرباط، بالمغرب.

وأن تتأثر بدورها بتلك الثقافات التي كانت في الغالب قد انحدرت من أراضيها وهاجرت مع الأهالي، لترجع بعد ذلك بشوب جديد إليها، وتساهم في وضع مبادئ اللغة والمعتقدات الدينية والمؤسسات الاجتماعية والتقاليد الفنية.

وربما لذلك، نجد أن هيرودوت (Herodote, Histoire, II)، لا يقصر تسمية بلاد العرب على شبه الجزيرة، بل يعمم هذا الاسم على القسم الداخلي من سوريا وشبه جزيرة سيناء والأراضي الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر. وفي هذا الصدد يؤكد العالم الإيطالي موسكاتي أن المناطق الثلاث : شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام (من ضمنها فلسطين) وبلاد الرافدين، كلها كانت تشكل وحدة جغرافية مترابطة، كانت في تلك الأزمان مسرحا رئيسيا للنشاط البشري (Moscati S., 1955 : 41-42).

أما علماء الجيولوجيا فيرون أن هذه الوحدة الحضارية ترجع في أصولها إلى الوحدة الجغرافية التي عرفتها المنطقة في العصور البعيدة، حيث كانت شبه الجزيرة عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى إفريقيا، قبل أن يحدث الانفصال ويظهر البحر الأحمر. (Tompson C., Gardiner E. W., 1939 : 7-45). وأن أثناء الدور الجليدي، الطبقة الجليدية التي غطت المعمورة لم تتعد جبال آسيا الصغرى جنوبا. وقد تزامنت الأدوار الجليدية مع فترات أمطار غزيرة متداخلة في المناطق المدارية، حيث كانت كل دورة جليدية تهيمن على القارة الأوربية وخطوط العرض الشمالية، تقابلها دورة مطيرة في صحارى إفريقيا والجزيرة العربية وإيران. مما جعل شبه الجزيرة العربية أن تعرف أربع فترات مطيرة وأربع فترات جافة خلال مدة البليستوسين، وتشهد أجواء ملائمة من الرطوبة والخصوبة. أي أن الموقع الجغرافي هو الذي أبعد شبه الجزيرة العربية والنصف الجنوبي لإفريقيا عن التيارات الثلجية الكبرى وهو ما وفر المناخ المناسب لحياة الإنسان في تلك المناطق (رشدي سعيد،هـ. فور، 1983، ج. I :391 )

وما يؤكد أن شبه الجزيرة العربية كانت وفيرة المياه والخصوبة هي تلك الأودية العديدة التي تشق المنطقة في كل الجهات، والتي يرى الباحثون أنها كانت أنهارا متدفقة بالمياه خلال الفترة المطيرة الأخيرة. شأنها شأن تلك الأودية الجافة بالصحراء

الإفريقية (أحمد سوسة، ـ 249 : 1983 250) .هذا بالإضافة إلى وجود عدد هام من البحيرات والصهاريج والسدود، وظاهرة نظام الإرواء المتمثل في التحكم في المياه وتصريفها لأغراض فلاحية (محمد بيومي مهران، . 1998 : 112-121) وكذلك وفرة انتشار الصناعات الموستيرية الخاصة بالعصر الحجري الوسيط (بيتر بار، 1978: 40)، ووجود النباتات الزراعية في حالتها البرية، من قمح وشعير وذرة وأنواع كثيرة من الخضروات والثمار (أحمد سوسة، 1983 : 267).

ورغم ذلك، يبدو أن القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية[1] قد تميز عن باقي أقسام الجزيرة بثروات طبيعية هائلة. وفي هذا الصدد يقول جواد علي : "قد حبت الطبيعة اليمن بمزية جعلتها تحتضن كل النباتات وأنواع المزروعات، وذلك بإنعامها عليها بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة ورطبة، هيأت لها ثلاثة أجواء، تنتج محصولات ثلاثة أنواع من المناخ : منتوج المناخ المرتفع البارد، ومنتوج المناطق المعتدلة، ومنتوج المناطق الحارة" (جواد علي، : 1993ج I : 211) ومن أهم هذه المنتوجات كانت البخور واللبان، بترول العالم في ذلك الزمان، والصموغ والتمر ومنتوجات زراعية أخرى اشتهرت بها المنطقة وكانت مصدر رخائها ومصدر تنافس الدول الكبرى عليها في ذلك الوقت.

فعلا، كانت الزراعة تدر على جنوب البلاد بثروات هائلة، ولكنها بالتأكيد لم تكن السبب الوحيد في ازدهارها، بل كان لموقع شبه الجزيرة العربية الجغرافي الدور الأساسي في ذلك، حيث جعل منها صلة وصل بين جميع المناطق المحيطة بها. وقد ارتبطت بجميع هذه البلدان بواسطة طرق برية ونهرية وبحرية، أقامت عليها الموانئ والمحطات، أي مراكز تجمع بشري، شكلت معها شبكة عالمية للتجارة قام أصحابها بالوساطة في ترويج أثمن أنواع المنتوجات(عدنان تريسي، 97 - 99 : 1990).

وكانت شرايين المواصلات البرية في شبه الجزيرة العربية تسير بمحاذاة الأودية ومواضيع المياه، وتنتهي في أراضي الرافدين والهلال الخصيب وبموانئ العربية الجنوبية. و كذلك امتدت هذه الطرق من العربية الشرقية إلى العربية الغربية) جواد علي، 1993ج 1، 220) أما الطرق البحرية والنهرية، فكانت تتجه نحو البحر الأحمر

في الغرب، والخليج العربي في الشرق، وبينهما المحيط الهندي ليستمر بعد ذلك شرقا. هذا بالإضافة إلى نهري دجلة والفرات في شمال الخليج العربي.

وتشير الأبحاث إلى أن أهل الجزيرة، وبشكل خاص أهل الجنوب، كان لهم دور فعال في هذه التجارة .(Hourani G., 1963 ; Salles J.-F., 1988) وأن تحقيق هذا الدور كان مرتبطا بتطور تكنولوجيا بحرية ملائمة، وفن تسخير الرياح والتيارات في المحيط الهندي. الذي كانت من خصائصه الجغرافية التغيير الموسمي العكسي للرياح الموسمية والتأثر بالتيار الاستوائي، الذي كان ينساب باتجاه الجنوب، بعد أن يضرب الساحل الصومالي (أ. م. شريف، : 1985ج II، 571 ـ 572)

وهكذا تظافرت عوامل كثيرة هيأت شبه الجزيرة العربية لتكون من المراكز الحضارية الأولى، التي توصلت إلى الاستقرار والإنتاج الزراعي في وقت مبكر، وأن تكون بيئة مناسبة لتكاثر الإنسان والاستيطان السريع. وأوضح دليل على ذلك ما عثر عليه في الموقع الأثري "كلوة" الذي يقع على سفح جبل "الطبيق" (جواد علي، 1993، ج I، 532). وكذلك ما عثر عليه في البحرين من أدوات حجرية قدر عمرها بين 12 و 10 آلاف سنة قبل الميلاد، أي أنها ترجع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة. ومن بين هذه الأدوات هناك أحجار سننت وشذبت لكي تكون بمثابة آلات لحصد المزروعات ولقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض (محمد بيومي مهران، 1998 : 195-212)

ويبدو أن الاستيطان حول البلاد، على حد تعبير فيليب حتى، إلى "خـزان بشـري هائل" (فيليـب حتى، 1958: ج I، 66-68)، اعتبر من طرف غالبية العلماء أنه الموطن الأصلي للعناصر السامية (جـواد علي، 1967-1971: ج I، 387؛ Moscati S., 1955 ) ذلك "الخزان"، الذي بدأ في وقت من الأوقات يقذف بالموجات[2] البشرية إلى الهجرة نحو أراضي الرافدين والهلال الخصيب وجزيرة سيناء والشاطئ الشرقي لإفريقيا. وكانت تلك الموجات متتابعة، وبلغت الفترة بين الواحدة والأخرى حوالي ألف عام. (فيليب حتى، 1958 : 69) الأمر الذي جعل من شبه الجزيرة العربية أحد أهم مراكز الهجرة العالمية وأقدمها في منطقة غرب آسيا.

أما العوامل الرئيسية التي دفعت بالأهالي إلى الهجرة، فكانت مناخية وسكانية واقتصادية، هذا بالإضافة إلى المصالح التجارية. وإذا أردنا أن نحدد بشيء من الدقة البداية الممكنة للهجرات، فلا بد أن نربط ذلك بالانقلاب العالمي في المناخ الذي حدث منذ حوالي 10 آلاف سنة قبل الميلاد. حيث انتقلت فيها الجزيرة العربية والمناطق المدارية والاستوائية بصفة عامة، من الدورة المطيرة الطويلة إلى دورة الجفاف (رشدي سعيد، فور هـ، 1983، ج I، ص. 388) فكانت أكثر عرضة للجفاف من غيرها، وذلك ليس بسبب بعدها عن المحيط الأطلسي فحسب، بل أيضا لوجود حواجز طبيعية مثلت عائقا هاما أمام تساقط الأمطار داخل الجزيرة. فمن الغرب، تحتضنها مرتفعات جبلية متصلة ببعضها، تمتد من بلاد الشام إلى اليمن، وتعرف بجبال "السراة"، وهي سلاسل جبلية موازية للبحر الأحمر. ومن الجنوب، تحتضنها سلاسل جبلية أخرى تمتد من اليمن غرباً حتى عمان شرقاً (محمد بيومي مهران، 1998، ص. 111) وهذا يعني أن الجفاف كان أشد وطأة مما عليه الحال في المناطق الإفريقية، مما جعل الهجرة أمراً حتمياً (أحمد سوسة، 1983، ص. 302) فانطلقت الهجرات منذ ما قبل التاريخ مع بداية جفاف صحراء الجزيرة العربية، واستمرت إلى حدود القرن السادس الميلادي.

وقد توجهت الهجرات إلى منطقة الرافدين والهلال الخصيب وشرق إفريقيا، حيث امتدت إلى مصر (ملحق، 1985: ج I، 757) والحبشة والصومال والسودان والصحراء الكبرى وشمال إفريقيا (انفري ف، 1985: ج II، 383)، على شكل أفواج عديدة ومتتالية.

## الوحدة الثقافية في المنطقة

وهكذا، يتضح أن شبه الجزيرة العربية قد تمكنت بحكم موقعها الاستراتيجي وثروتها الطبيعية، من السيطرة على جزء هام من التجارة العالمية، وأن تتبوأ مكانة استثنائية في العالم القديم. و أن تلتقي في أراضيها ومنها تتفرق مختلف التيارات الثقافية.

وفعلا، أثبتت الأدلة الأثرية بين دجلة والفرات أن الوافدين الجدد قد استطاعوا في أيام سرجون الأول (حوالي 2340 ق.م.)، إقامة مملكة **اكاد** التي سيطرت على مدن - الدول السومرية واتسعت فتوحاتها حتى وصلت إلى آسيا الصغرى. وفي هذا الصدد يقول أحمد فخري : "ليس من المعقول أن يتمكن المهاجرون من فرض أنفسهم على شعب ذي حضارة مثل الشعب السومري، إلا إذا كان هؤلاء قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم، وتصبح لهم السيطرة على البلاد، وأن تظل لغتهم الأصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم ملازمة لهم قرونا طويلة. (أحمد فخري، 1963: 124).

وأشارت نتيجة الأبحاث الأثرية في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية وخصوصاً الجزء الشرقي منها، بما في ذلك ساحل الخليج العربي، إلى أن مبادئ ثقافية مشتركة توجد بينها وبين مراكز الحضارة في سومر وبلاد نهر السند. (عبد الله حسن مصري، .(1976 : 69 ـ 70) وقد تم الكشف عن أحد هذه المراكز في موقع "دلمون" أو "تلمون" (Dilmun)، الذي ورد ذكره في النصوص السومرية كمحطة للتجارة مع الهند والبلاد البحرية الأخرى.(جواد علي، 1993ج I: 568) وتبين من النصوص السومرية والاكادية والأشورية وغيرها، أن أهل العربية الشرقية كانوا قد كونوا لهم حكومات - مدن قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، صرفت جل عنايتها نحو التجارة وركوب البحار (جواد علي، 1993، ج I: 569) وأما المكتشفات الأثرية من أختام ومواد أخرى من عمل الهند في مواقع "أور" و"كيش" و"دلمون" و"سومر" و"أشور" وبلاد الشام، فأثبتت أن الاتصال التجاري بالبحر كان معروفا في الألف الثالثة قبل الميلاد. وأن حركة الاتصال هذه كانت منتظمة، وأن منطقة الخليج كانت ملتقاً هاماً للسلع والأفكار (هشام الصفدي، 1984 : 307).

هذا بالإضافة إلى العثور على صهاريج مرتبطة بأنفاق، في أواسط شبه الجزيرة العربية والأقسام الشرقية منها، مما أكد أن هذا النظام من الإرواء كان يستخدم في المنطقة، وأنه مماثلا لنظام الإرواء في بلاد الشام وفلسطين وإيران والأقسام الشمالية

من بلاد النهرين (جواد علي، 1968، 1971: ج I؛ 102) وقد عثر كذلك في وسط الجزيرة العربية، على أدوات تنتمي إلى العصر الحجري القديم المبكر في منطقة "الدوادمي"، وجمعت مئات من الفؤوس تشبه المجموعات الاشولية الافريقية.

أما في جنوب غرب الجزيرة العربية، في منطقة "نجران"، ومنطقة "وادي الدواسر" فقد وجدت أدوات حجرية يعتقد أنها تنتمي إلى فترة سابقة للعصر الاشولي (عبد الرحمن الطيب الأنصاري، 2000 : 235-240) وأنها تشير إلى الاتصال بين شبه الجزيرة العربية والشاطئ الشرقي لإفريقيا.

هذا مع العلم أنه توجد عدة نقط تماس طبيعية بين الجانبين. ففي الشمال عند شبه جزيرة سيناء يمر خط بري استعمل في التحركات البشرية منذ أقدم العصور. وفي الوسط كان يربط البرين خط يقطع البحر الأحمر إلى وادي الحمامات. وفي الجنوب، تقترب شبه الجزيرة العربية من إفريقيا (خريطة رقم 1) عند باب المندب (ميون)، ولا تحول دون اتصالهما إلا مسافة خمسة عشر ميلا (محمد عبد القادر محمد، 1979 : 17 ـ 37)

وتشير الأبحاث إلى أن الصلات البشرية بين السواحل الإفريقية والأسيوية للبحر الأحمر ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. عندما بدأت الهجرات في العصر الحجري القديم الأعلى تتوالى من جنوب الجزيرة العربية، عبر باب المندب، إلى إفريقيا الشرقية (عبد المنعم عبد الحليم سيد، 1993 : 575) ومن الأدلة التي تثبت أن الاتصال بين سواحل العربية الجنوبية والسواحل الإفريقية المقابلة، كان قوياً ووثيقاً، هي الأدوات الحجرية والفؤوس اليدوية التي وجدت في منطقة حضرموت والتي تعد من صميم الصناعات التي ظهرت في شرق إفريقيا (جواد علي، 1993، ج I، 531).

وحول التواصل الثقافي بين المنطقتين تقول "كيتن تومسن" C. Thompson، أنه كانت توجد في شرق إفريقيا ثقافة مركزية تفرعت منها ثقافات متعددة ليس في إفريقيا وحدها بل وفي آسيا أيضا. (Thompson C., 1939, p. 18-19, 29-35) ولكن سليمان حزين لم يقبل هذه النظرية، ويرى أنه إذا كان ولا بد من البحث عن أي الجهتين، شرق إفريقيا أو جنوب بلاد العرب، أقدم ثقافة فإنه يميل إلى اعتبار بلاد العرب هي

الأقدم، وأن الثقافة قد انتقلت منها في العصور الحجرية القديمة إلى شرق إفريقيا. (سليمان حزين، 1962، ج I، 513 ـ 514) أما أحمد فخري فيقول : "سواء أصحت نظرية سليمان حزين أو نظرية كيتن تومسن، فإن أمامنا حقيقة ثابتة وهي وجود ثقافة من العصر الحجري القديم في بلاد العرب، وإن هذه الثقافة تشبه إلى حد كبير ما عثر عليه في إفريقيا، كما تشبه أيضا مع وجود اختلافات، ما عثر عليه الباحثون من عصر ما قبل التاريخ في سوريا والعراق" (أحمد فخري، 1963، 124).

وهكذا يتضح أن شبه الجزيرة العربية قد كوّنت مع أراضي الرافدين والهلال الخصيب وإفريقية الشرقية منطقة جغرافية واحدة مفتوحة على بعضها. بدأت ثورة العصر الحجري الحديث بها تقريبا في نفس الوقت، ما بين الألف الثاني عشر والألف العاشرة قبل الميلاد (جواد علي، 1968: ج I، 532) مما أخضع المنطقة، ككل إلى عوامل ثقافية متشابهة، بل ومتطابقة في الكثير من جوانبها.

## الصحراء الكبرى

وفي عملية التواصل هذه، لعبت الصحراء الكبرى دورا أساسيا، حيث أثبتت التحريات الأثرية في السنوات الأخيرة، والتي تم تعزيزها بنتائج أبحاث الجيومورفولوجيا وعلم المناخ، وعلم النباتات والحيوانات، أنها كانت تختلف عما هي في الوقت الحاضر، وأن في الكثير من أنحائها كانت تنتشر الأنهار والبحيرات والغابات، وأنها كانت آهلة بالسكان. (Bordes F., 1976-77, 186)أما أقدم الآثار فتدل على وجود الإنسان في إفريقيا منذ حوالي مليوني سنة. وأن أكثر من نصف الإنسانية كانت تعيش قبل مائة وخمسين ألف سنة في إفريقيا. إذ كانت التقلبات الجوية أقل حدة من التقلبات والانجرافات الجليدية التي حصلت في معظم المناطق الأوربية (غونتر سمولا، 1979 : 168).

وبما أن المناخ كان منذ ظهور الإنسان هو العامل المتحكم في الاستقرار من ناحية، وفي التحركات البشرية من ناحية ثانية، لاشك أن أقل زيادة في الجفاف في مساحات الصحراء الكبرى، كان يؤدي للهجرة إلى المناطق التي تتوفر فيها سبل الحياة، وبالتالي إلى تغيرات اجتماعية وسياسية بعيدة المدى.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت الصحراء الكبرى على القيام بدور التواصل بين مختلف المناطق المحيطة بها، هو الشاطئ الشرقي لإفريقيا. الذي تميز بسهولة الوصول إليه ليس فقط من الداخل ولكن أيضا من البحر. أي أنه كان بمثابة بوابة على البحر الأحمر والمحيط الهندي وأخضع المنطقة لتاريخ طويل من تحركات السكان والصلات البشرية والتجارية والتفاعل بين مختلف التيارات الثقافية.

وأكدت الدراسات التي أجريت في شرق إفريقيا، أن المجموعات البشرية قد تطورت تطورا مماثلا، من وادي النيل إلى بقية القرن الإفريقي، وأن هناك تشابها شديدا، كان يبلغ حد التطابق، في العادات الجنائزية والأدوات الحجرية. وأن في المنطقة كلها كانت تنتشر ثقافات متقاربة ومتداخلة فيما بينها (آدم شحاتة، 1985: 231) ولايظهر التباين الواضح بين حضارة الجزء المصري الأدنى من وادي النيل وحضارة جزئه النوبي الأعلى إلا قرب الألف الثالثة قبل الميلاد. حيث انفصلت مصر عن بيئتها الغربية والجنوبية، بعد أن أصبح جيرانها يشكلون خطرا عليها، حين أدى الانتشار السريع للصحراء إلى إرغامهم، على طرق أبواب جنة وادي النيل. فأقامت مصر سلسلة من الحصون والقلاع لحماية نفسها منهم (عبد الحميد زايد، 1985 :130)، الشيء الذي حتم على تلك الجماعات عبور الواحات والاتجاه جنوباً صوب تشاد، وشمالا صوب فزان، وغربا صوب النيجر والمغرب.

أما في الأراضي الليبية، فقد تم الكشف عن العديد من المواقع السكنية على ضفاف بحيرات قد جفت، بالقرب من جبل "نبطة". حيث وجدت بقايا بيوت مبنية من ألواح حجرية موضوعة بشكل عمودي، ترجع إلى الألف السادس قبل الميلاد. وعثر كذلك على بقايا شعير وأدلة أخرى تشير إلى وجود زراعة حقلية تعود إلى أواخر الألف السابع قبل الميلاد (رودلف كوبر، 72 : 1979).

وقد أثبتت الأبحاث أن العصر الحجري الحديث في الصحراء الليبية كان متطورا وعرف الخزف والحياة المستقرة والزراعة وتربية المواشي، ولكنه رغم ذلك لم يكن أكثر قدما من نظيره في الشرق الأدنى (رودلف كوبر، 1979 : 72 ـ 74).

ومن الأدلة التي تشير إلى وجود الصلات الثقافية بين جانبي البحر الأحمر، هو الخزف المكتشف في جبال أكاكوس، والمماثل للخزف الذي اكتشف في الخرطوم وفي جنوب غرب آسيا، والذي يرجع إلى أواخر الألف السابع قبل الميلاد (رودلف كوبر، 1979 : 73).

ويبدو أن الاتصال والتفاعل بين مختلف المجموعات البشرية في وسط الصحراء الكبرى، قد امتد إلى أقصى غرب المناطق الصحراوية. حيث يلاحظ أن الأدوات الحجرية والخزفية، وطرق حفر الآبار وأساليب الحصول على المياه، والرسوم والنقوش الصخرية في شمال إفريقيا، تتشابه مع نظيراتها في الصحراء وحوض النيل، إلى درجة جعلت الباحثين يعترفون بأن التواصل بين جميع هذه المناطق كان قائما منذ العصر الحجري الحديث (م. بوسنانسكي، 1985 : 562 -564).

وإلى جانب ذلك كشفت الدراسات الانتروبولوجية أن سكان فزان الأقدمين هم حصيلة التفاعل مع المجموعات البشرية في إريتيريا وجنوب غربي آسيا، وأنهم ممتزجين بهم عرقياً وحضارياً. (محمد البشير شنيتي، 2000 : 402)، وإن ذلك راجع إلى أن موقع فزان كان أفضل معبر للمجموعات البشرية المتحركة من الشرق إلى الغرب أو العكس. وهذا ما تشهد به البقايا الأثرية العائدة إلى عصور متباينة وخاصة منها ما يتعلق بالفترة الرطبة الأخيرة (الألف الخامس قبل الميلاد). وإلى جانب ذلك هناك الرسوم البشرية التي تظهر بعض الأشخاص مُقنّعين وعلى رؤوسهم ريش. وقد عثر على نماذج من هذه الرسوم المتميزة في أنحاء كثيرة من الصحراء الكبرى، بما فيها فزان والهكار و صحراء سيناء. وجدت أيضا على المزهريات الفخارية العائدة إلى ما قبل الأسرات بمصر القديمة، وكذلك كانت منتشرة في الجزيرة العربية، وخاصة منها المناطق الغربية (Despois J., 1946). وهذا ما يدعو إلى الافتراض أنه قد تمت صلات بشرية بين جميع هذه المناطق المتباعدة خلال عصور ما قبل التاريخ (محمد البشير شنيتي، 2000، 403).

ورغم ذلك، تجب الإشارة إلى أن كل محاولة للربط بين التطورات في مختلف مناطق الصحراء تصطدم بعقبات، من أهمها : أن الصحراء الكبرى التي تبدو حاليا كمنطقة طبيعية واحدة، كانت سابقا تختلف الظروف المناخية فيها بين منطقة وأخرى بشكل كبير.هذا بالإضافة إلى الاختلاف بين المجموعات البشرية التي سكنت هذا الجزء من العالم (رودلف كوبر، 1979 : 77).

## مسالك وطرق في الصحراء الكبرى

لقد أثبتت معطيات الأبحاث العلمية في السنوات الأخيرة، أن الاتصال الفعلي بين المجموعات البشرية في منطقة الصحراء الكبرى يرجع إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، وأنه كان على حد سواء غير مباشر كالذي تهيئة آثار البداوة، ومباشرا كالذي ينشأ عن طريق الاتصال التجاري واستعمال المعادن (م. بوسنانسكي، 1985 : 562 - 564) ومن أهم السلع التي كانت تنتقل بين الشاطئ الشرقي لإفريقيا والشمال الغربي لإفريقيا، عبر الصحراء الكبرى (خريطة رقم 2)، هي: الياقوت الأحمر والعقيق الأبيض والأحجار الكريمة، وأحجار "أمازونيت" (Amazonite) التي عثر على رواسب منها في سلسلة مرتفعات دهون (Dahone) في شمال شرقي تيبستي (Monod T., 1974, 51-66)، والحيوانات المتوحشة والعاج وريش النعام وأنواع التوابل والأقمشة والحلي والذهب وأواني الحديد والبرونز، وغير ذلك (ج. سوتون، 1985 : -583- 605).

وكشفت الأبحاث كذلك، أن الكثير من المسالك والطرق كانت تتطابق مع تلك التي ذكرتها النصوص الكلاسيكية في فجر التاريخ (بيير سلامة، 1985 : 544؛ Carpenter R., 1965 : 47-48).

ومن أوضح الأدلة على وجود وسائل للمواصلات في الصحراء الكبرى، هي الرسوم والنقوش الصخرية التي تحتوي على مختلف أنواع العربات ذات العجلات والتي تجرها الحمير والخيول والثيران (الشكل رقم 1، 2)، والتي تتوزع من أقصى شرق الصحراء إلى أقصى غربها (خريطة رقم 3). حيث توجد أهم المجموعات في جنوب المغرب، وجنوب الجزائر، ومنطقة تاسيلي (Tassili)، والهكار، وإلى الجنوب والشرق من

مرتفعات الأحجار، وفزان، ومرتفعات تيبستي (Tibesti)، وانيدي، وفي جبل العوينات على الحدود بين مصر وليبيا والسودان، وفي السودان في منطقة دارفور، وفي النيل النوبي والتلال المجاورة على نفس خط العرض، والوديان التي تتجه إلى النيل من مرتفعات البحر الأحمر (Lhote H., 1963 : 38-225 ; Holl A.F., 1995 : 26).

وبناءاً على توزيع مواقع رسوم ونقوش العربات، وقوائم الجرد التصنيفية للقطع الأثرية، أصبح من الممكن إعادة رسم الخطوط العريضة لأهم مسالك عربات النقل في الصحراء الكبرى (بيير سلامة، 1985 : 544). ففي أقصى شرق إفريقيا، كانت أبرز تلك الطرق تمتد على طول وادي النيل (خريطة رقم 4)، الذي يجري قسم كبير منه موازيا للبحر الأحمر، والتي تتوفر على عدة منافذ إلى المرتفعات الإثيوبية والبحر الأحمر والجزيرة العربية.[3] وهناك أرض البطانة التي تقطعها شبكة طرقية، يتجه البعض منها نحو البحر الأحمر، والبعض الآخر إلى الداخل نحو كردفان ودارفور. وإلى جانب ذلك اكتشفت التنقيبات مؤخرا طريقا آخر قد يكون أكثر أهمية، وهو الطريق البري الذي يربط سلسلة الواحات "الليبية" بواحة "سليمة" والأودية والمنخفضات المؤدية إلى اينيدي وتيبستي وكردفان ودارفور وبحيرة تشاد. (Bonnet Ch., 1990 83-88) وكان من الممكن الوصول من جرامة (جرمة) إلى وادي النيل، سواء بالطريق الشمالي من خلال واحات "زويلة" و"زلة" أو "جلة" و"سيوا"، أو عن طريق أبعد جنوبا عند "الكفرة" (بيير سلامة، 1985 : 541؛ Rebuffat R., 1969 : 7-181) ويلاحظ في هذه الأقاليم الشرقية من الصحراء، التركيز القوي على شبكة المواصلات الممتدة بين تيبستي والهكار (Hoggar) ودارفور وإفوغاس (Iforas)، حيث تميزت تيبستي بموقعها كمحطة تجمع وانطلاق منذ عصور ما قبل التاريخ. هذا بالإضافة إلى أن أكثرية الخطوط كانت تتجه نحو الشمال والشمال الشرقي وإلى الموانئ على البحر الأبيض المتوسط، (Beck P., 1969).

وإلى الداخل، كانت الظروف المناخية تسمح بالانتقال نحو الغرب (خريطة رقم 5) بين الخرطوم ووادي ازواك، (يرجح أنه كان رافداً من روافد النيجر)، باتباع المجاري المائية المنتشرة آنذاك والجاف معظمها الآن. فكان الطريق ينطلق من منطقة الخرطوم

إلى وادي هوار في شمال دارفور وبحر الغزال الغربي، الذي يصب في بحيرة تشاد في الجانب الشمالي الشرقي، وادي تافساست (Tafassasset) الذي يصب في البحيرة نفسها من جانب الشمال الغربي، بعد أن ينبع من مرتفعات الأحجار. وهكذا كاد أن يكون هذا الطريق متصلا من شرق الصحراء الكبرى إلى غربها. (Holl A.F., 1995 :17).

أما في المناطق الغربية للصحراء فكانت لـ"الطريق الغربي" أهمية كبيرة نظراً لوجود صناعة النحاس في موريطانيا والنيجر. ( Grebenart D., 1988 : 107-139). ومن خلال ما وجد في مقابر السنغال من أدلة وفيرة للنفوذ المغربي يستخلص أن الصلات التجارية في المنطقة ترجع إلى الألف الثانية والألف الأولى قبل الميلاد. (م. بوسنانسكي، 1985 : 562) وأن المسالك التجارية كانت في أغلب الأحيان تتطابق مع تلك التي نشطت خلال القرون الوسطى، وإنها بشكل عام كانت تربط بين أراضي السودان والمغرب (خريطة رقم 5). وكانت إحدى تلك الطرق تستمر إلى الداخل نحو "سجلماسة"، التي كانت بمثابة ميناء للتجارة في الصحراء، وبعد ذلك تتجه الطريق إلى الريصاني وتافيلالت ووليلي (Jodin A., 1987 : 278) وهناك أدلة كثيرة تشير إلى وجود مراكز ومحطات تخزين على طول هذه الطريق، التي اعتبرت من أهم المحاور التجارية في المنطقة والتي استمر استعمالها وازدهرت في العصور اللاحقة (Jodin A., 1987 : 278 ; Carcopino J., 1949 : 73 -163) وبالإضافة إلى ذلك، هناك طريق آخر، يمتد بين فيكيك (Figuig) وتونديا (Tondia)، ويقوم بدور هام في التجارة بين سكان المغرب ومنطقة السودان (Puygaudeau O., 1961 : 37-39).

وبناء على ذلك فقد أعيد بناء طريقين للعربات، الأول يتجه من المنطقة الطرابلسية (Tripolitaine) إلى جاو (Gao)، والثاني يبدأ من الجنوب الجزائري والمغربي ليتجه نحو النيجر. وتؤكد غالبية الدراسات أن هذا الطريق الغربي، كانت له أهمية كبيرة منذ أقدم العصور (Mauny R., 1968 : 120-123).

## وسائل النقل

وبالطبع أن هذه الشبكات من المسالك والطرق قد استلزمت وجود وسيلة للنقل، ويبدو أن الوسيلة الأساسية كانت العربات ذات العجلات. تلك العربات التي وردت أولى

المعلومات عنها وعن مجال استعمالها في الصحراء، في كتابات هيرودوت، والتي اعتبرت إلى وقت قريب أنها من خيال المؤلف. ولكن مع اكتشاف رسوم ونقوش العربات في الصحراء الكبرى، كان لا بد من الاعتراف بحقيقة وجودها .(Hachid, M., 2000 : 122)

وقد أثارت هذه العربات وأشكالها وأنواعها ومجال استعمالها جدلا بين الباحثين مازال قائما حتى اليوم. فهناك من استبعد استعمالها لنقل البضائع واعتبر أنها كانت عربة استعراضية تستعمل من طرف الأعيان والحكام في المناسبات الاحتفالية، مستندين في ذلك على أنها خفيفة الوزن ولا تحمل على متنها إلا شخصا واحدا .( Camps G., 1993 : 1877-1892)

وهنا يتساءل البعض الآخر من الباحثين :هل يعقل أن يكون هذا العدد الهائل من العربات (حتى الآن تم اكتشاف حوالي 650 عربة)، أن يكون مخصصا للحكام وللاحتفالات؟ وهل يعقل أن يقود الحاكم أو القائد العربة بنفسه ويُمثّل في وضع منحني إلى الأمام، حيث يوحي شكله أنه منشغلا بسرعة العربة وعقبات الطريق؟ (شكل رقم 2). فعلا، أن هذا الوضع لا يتلاءم مع هيئة حاكم أو قائد يستعرض مجده ونصره .(Bonnet A., 1982 : 64)

وبالإضافة إلى ذلك، أثبتت الدراسات الحديثة، أن غالبية رسوم ونقوش العربات كانت توجد في أماكن يسهل الوصول إليها، وقريبة من مواقع التجمعات السكنية (Bonnet A., 1982 : 62). وأن العربات كانت تستخدم من طرف الجماعات في النقل والتنقل لمسافات قريبة، وخاصة أن أعداداً كثيرة منها كانت مجرورة من الثيران. وكانت العربات تُسيّر من طرف أناس ذات خبرة ومعرفة في اجتياز الطرق والمعابر الوعرة .(Kunz J., 1982: 84) وفي هذا الصدد يقول A. Bonnet : "لا بد من الاعتراف أن حركة تجارية كانت قائمة في منطقة الصحراء الكبرى، وأنها كانت تستخدم العربات، وخاصة منها ذات الأربعة العجلات" .(62 : 1982)

وقد استخلصت الدراسات التي أجريت حول رسوم ونقوش العربات في الصحراء الكبرى، نوعين أساسيين من العربات : النوع الخفيف ذات العجلتين، والنوع الثقيل

ذات الأربعـة عجـلات .(Vernet R., 1993 : 320) وإلـى جـانـب ذلـك، فقد وجدت بعض النقوش تمثـــل العربات متصلة ببعضهـا البعـض علـى شكـل قافلـة. (Meunie J., 1956 : 61, pl. 46, fig. 8) (شكل رقم 3).

أما تنوع أشكال العربات فيبدو أنه يدل على تنوع وظائفها واستعمالاتها، منها ما كان مخصصا لنقل البضائع الخفيفة، وأخرى للبضائع الثقيلة. واستعملت العربات كذلك في عمليات الصيد والاشتباكات مع العدو... .(Sigaut F., 1982 : 173-176)

ويرى الباحثون أن وجود هذين النوعين من العربات ذات العجلات في الصحراء الكبرى، يدل على نمطين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين. الأول، النوع الثقيل ذو الأربعة عجلات، كان مماثلا للعربات الثقيلة في أراضي الرافدين .(Muzzolini A., 1982 : 53 - 54) تلك الأراضي التي اكتشفت فيها، حتى الآن، أقدم عجلات الخزف وعجلات العربات التي ترجع إلى النصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد. والتي كان لها شأن حيوي في نـقل المدينـة من مكان إلى آخر (ول ديورانت، 121 : 1965ج 2) أما النوع الثاني من العربات، العربات الخفيفة، فكانت منتشرة بشكل خاص في أراضي آسيا الصغرى، وهي ذاتها التي انتقلت بعد ذلك إلى مصر. وبينت الدراسات أنه لا يوجد انقطاع زمني بين النمطين، أي الثقافتين، وأن هناك استمرارية وتداخل بين الحقب الزمنية التي تنتميان إليهما العربات الثقيلة والخفيفة .(Muzzolini A., 1982:53-54.)

أما الحيوانات التي استخدمت من أجل جر العربات فهي : الحمير والخيول والثيران. وتدل الدراسات على أن الحمار حيوان لا يكل، وأن بعض أنواعه تمتاز بالسرعة، ويستطيع السير على كل الطرق .(Childe G., 1952 : 65) وأنه قد استخدم من طرف المصريين[4] في تنقلاتهم، ورحلاتهم منذ عصور ما قبل الاسرات ( محمد السيد عبد الحميد 47 : 2000).

أما في شبه الجزيرة العربية، فيعرف أن الحمار أقدم عهدا من الخيول والبغال، وأنه كان واسطة الركوب والنقل في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد (جواد علي، 1993 : ج 2، 202).

أما الحصان الذي تم استئناسه في آسيا (أوكرانيا) في الألف الرابع قبل الميلاد (Muzzolini A., 1982 : 45-56)، فيبدو أنه ظهر في الصحراء الكبرى لأول مرة في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، وكانت له وظائف عديدة إلى جانب الأبقار والثيران في عملية النقل والتنقل.

ويستدل من وجود هذه الحيوانات على أن قلة موارد المياه لم تكن قد بلغت بعد حد الدمار للإنسان والحيوان. حيث أن قطع الدرب أو الطريق كان يتطلب إما وجود نظام مراكز للإمداد بالمياه، مثل الآبار والينابيع، وخزانات المياه، وإما نقل كمية كبيرة من المؤن (مانفرد فيبر، 1979: 194). ويبدوأنه من أجل ذلك أقيمت على طول هذه الطرق مراكز تجمع بشري مرتبطة بتلك الشبكات التجارية (آدم شحاتة، 1985 :239).

وكان الأهالي وخاصة منهم الأدلاء، يقومون بتسييرها ونقلها على مراحل من منطقة إلى أخرى. حيث، كما يقول R. Mauny "لم تكن هناك طرق مخططة ومرصفة تمتد من أقصى شرق إفريقيا إلى أقصى غربها"، بل كانت البضائع تنتقل من جماعة إلى أخرى (de proche en proche)، باستعمال شبكات عديدة للمواصلات (Mauny R., 1970 : 61-63).

وهكذا، توحي التغيرات المناخية والتحركات البشرية، ووجود منافذ ودروب ومسالك ملائمة لتداول التجارة، وقربها من مواقع رسوم ونقوش العربات ذات العجلات، أن الاتصال كان على أشده بين مختلف أقسام الصحراء الكبرى من ناحية، وبينها وبين المناطق المحيطة بها، من ناحية أخرى. وأن التفاعل والاندماج بين مختلف الجماعات البشرية قد أدى بدوره إلى نوع من القرابة الأثنية والثقافية في جميع الأراضي الممتدة بين جنوب غرب آسيا والصحراء الكبرى وشمال إفريقيا. ويبدو من كذلك أن الصحراء الكبرى لم تكن عائقا، وأن الروابط والعلاقات لم تنقطع أبدا منذ عصور ما قبل التاريخ، فهي تتضح أحيانا وتختفي أحيانا أخرى، باختفاء الشواهد التي تلقي الأضواء عليها. أي أن التسربات الحضارية كانت مسترسلة مع استمرار التحركات البشرية. ولعل هذه الروابط والعلاقات تصبح أكثر وضوحا بما قد تكشف عنه الحفريات الأثرية والأبحاث في المستقبل.

## الهوامش

(1) يستدل من الأسماء التي عرفت بها جنوب الجزيرة العربية عند مختلف الشعوب، أنها اشتهرت بالثراء والرفاهية، فسميت عند الفراعنة بـ"البلاد المقدسة"، وعند الإغريق بـ"بلاد العطور"، وفي النصوص السبئية القديمة بـ"يمنت" أي "الجنوب"، وعند الرومان باسم "بلاد العربية السعيدة" (Arabica Felix)، وعند العرب باسم بلاد اليُمن.

(2) قد أطلق عليها اسم موجات، وفي الحقيقة أنها أكثر شبهاً بسائر الحركات البشرية في التاريخ، حيث تبدأ بانتقال أشخاص قلائل يتبعهم آخرون ويزداد عدد الذين يلحقون بهم إلى أن تصل الحركة ذروتها وتأخذ بالتراجع... (فيليب حتي، 1958، ج I:69).

(3) لتسيير تلك المواصلات التجارية، لجأ فراعنة السلالة الثانية عشر (2000 ـ 1788 ق. م.) إلى شق قناة تربط النيل بالبحر الأحمر، ومنه تنتقل السفن إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، أي تم فتح القناة قبل وصول الجمل إلى شبه الجزيرة بأكثر من سبعمائة سنة، وقبل فتح قناة السويس بأربعة آلاف سنة. ويعرف أن قناة الفراعنة قد طمست في وقت من الأوقات، ثم أعاد البطالمة فتحها، ثم طمست مرة أخرى إلى أن أعاد الخلفاء المسلمون فتحها وأطلقوا عليها اسم خليج أمير المؤمنين، نسبة إلى الخليفة عمر (عام 642 م). عن حسين الشيخ، تاريخ العرب قبل الإسلام. الإسكندرية، 1993، ص. 177.

(4) من شواهد ذلك، نقوش مقابر كبار موظفي الأسرة السادسة، مثل "حرخوف" الذي تحدث في رحلته الثالثة عن عودته ومعه ثلاثمائة حمار محملة محملة السودان (وليم نظير، د. ت. : 56).

## المراجع

### أولا : المراجع العربية

**أحمد فخري،** 1963 دراسات في تاريخ الشرق القديم. القاهرة.

**أحمد سوسة،** 1983 تاريخ حضارة وادي الرافدين. ج. I، بغداد.

**آدم شحاتة،** 1985 أهمية النوبة. حلقة اتصال بين إفريقيا الوسطى والبحر المتوسط. تاريخ إفريقيا العام. يونسكو، باريس، ج. II، ص.229- 245.

**المعمري عبد الرزاق أحمد راشد،** 1995 العصر الحجري الحديث في جنوب الجزيرة العربية. "مجلة الثقافة"، العدد 20، ص. 98- 112 .

**بيتر بار، جوريس زارنس،** 1977 التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشمالية عام 1977 حوليات الآثار العربية السعودية "أطلال" 1978، 2، ص. 31ـ 58.

**جواد علي،** .1993المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. بيروت (أجزاء 1 ـ 10)، الطبعة الثانية.

**ج. سوتون،** 1985 إفريقيا الشرقية قبل القرن السابع. تاريخ إفريقيا العام. ج. II، يونسكو. ص. 583 ـ 605.

**حسين الشيخ،** 1993 تاريخ العرب قبل الإسلام. الإسكندرية.

**رشدي سعيد ؛** فور هـ، 1983 الإطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بإفريقيا. تاريخ إفريقيا العام. يونسكو. باريس، ج. I، ص. 395 ـ 434.

**رودلف كوبر،** .1979من الصيد إلى الرعي، ما هو العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى. "الصحراء الكبرى". منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. ص.69 ـ 79.

**عبد الحميد زايد،** .1985علاقات مصر بسائر أجزاء إفريقيا. تاريخ إفريقيا العام. يونسكو، باريس، ج. II، ص. 127ـ 145.

**عبد الرحمن الطيب الأنصاري،** 2000. الإطار التاريخي للجزيرة العربية. ندوة "دراسات في آثار الوطن العربي". منشورات جمعية الآثاريين العرب. القاهرة. ج. I، ص. 235 - 240.

**عبد الله حسن مصري،** 1976. آثار شرق الجزيرة العربية ودورها في نشأة حضارة سومر. مجلة "الدارة"، السنة الثانية، العدد الأول. الرياض. ص. 65 - 83.

**عفراء علي الخطيب،** 2002. الثالوث الكوكبي المقدس : أحد مظاهر علاقات المغرب القديم بشرقي إفريقيا وجنوبي شبه جزيرة العرب. الرباط.

عدنان تريسي، 1990. بلاد سبأ، حضارات العرب الأولى (اليمن). بيروت.

غونتر سمولا، 1979. الصحراء الكبرى الممتدة بين إفريقيا السمراء والعالم القديم. "الصحراء الكبرى". منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. ص. 168- 167.

**سليمان حزين،** 1962. البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل. ج. I، القاهرة.

**سليمان سعدون البدر،** 1978. منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد. الكويت.

**كنتنسون هنري،** 1985. حضارة فترة ما قبل أكسوم. تاريخ إفريقيا العام. ج. II، يونسكو. ص. 345 - 364.

مانفرد فيبر، .1979المصريون القدماء والصحراء الكبرى. "الصحراء الكبرى". طرابلس. منشورات مركز جهاد الليبيين. ص. 178 - 194.

**محمد بيومي مهران،** 1998. دراسات في تاريخ العرب القديم. الإسكندرية.

**محمد عبد القادر محمد،** 1979. العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة، تاريخ الجزيرة العربية. الرياض، ص.13- 37.

**محمد السيد عبد الحميد،** 2000. الطريق ودوره في تجارة مصر القديمة. ندوة "طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ". منشورات اتحاد المؤرخين العرب. القاهرة.

**ملحق بتاريخ إفريقيا العام،** 1995. تقرير عن ندوة عمران مصر القديم. يونسكو، باريس. ج. II، ص. 745 - 364.

**هشام الصفدي،** 1984. دراسات مقارنة لأختام الخليج العربي : الصلات الحضارية مع وادي السند والرافدين. "الجزيرة العربية قبل الإسلام"، تحت إشراف عبد الرحمن الأنصاري .الرياض، ص. 295 - 310.

**ول ديورانت،** 1965. قصة الحضارة. ج. 2. ترجمة محمد بدران. القاهرة.

**وليم نظير،** د.ت. : الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين. القاهرة.

**ثانيا : المراجع غير العربية**

***Beek P. ; Huard P.,*** 1965. Tibesti, carrefour de la préhistoire saharienne. Paris.

***Bonnet Ch.,*** 1990. Kerma point de recontre entre l'Egypte et les populations africaines. Sahara. 3. p. 83-88.

***Bonnet A.,*** Cabissole F., Fabre R., Mossant G., 1982. Les chars sahariens d'après les peintures rupestres de Tamagjert et d'Amguid (Tassili N'Ajjer Occidental). Actes du Colloque de Sénanque. 1981. Aix-en-Provence. p. 59-67.

***Bordes F.,*** 1976-1977. Le paléolithique hors d'Europe. Bordeaux.

***Camps G.,*** 1993. Chars (art rupestre). In Encyclopédie Berbère. t. XII, p. 1877-1892.

***Carcopino J.,*** 1949. Le Maroc antique. Paris.

***Child G.,*** 1952. New Light on the most Ancient East. London.

***Despois J.,*** 1946. Mission scientifique à Fazzan. Alger.

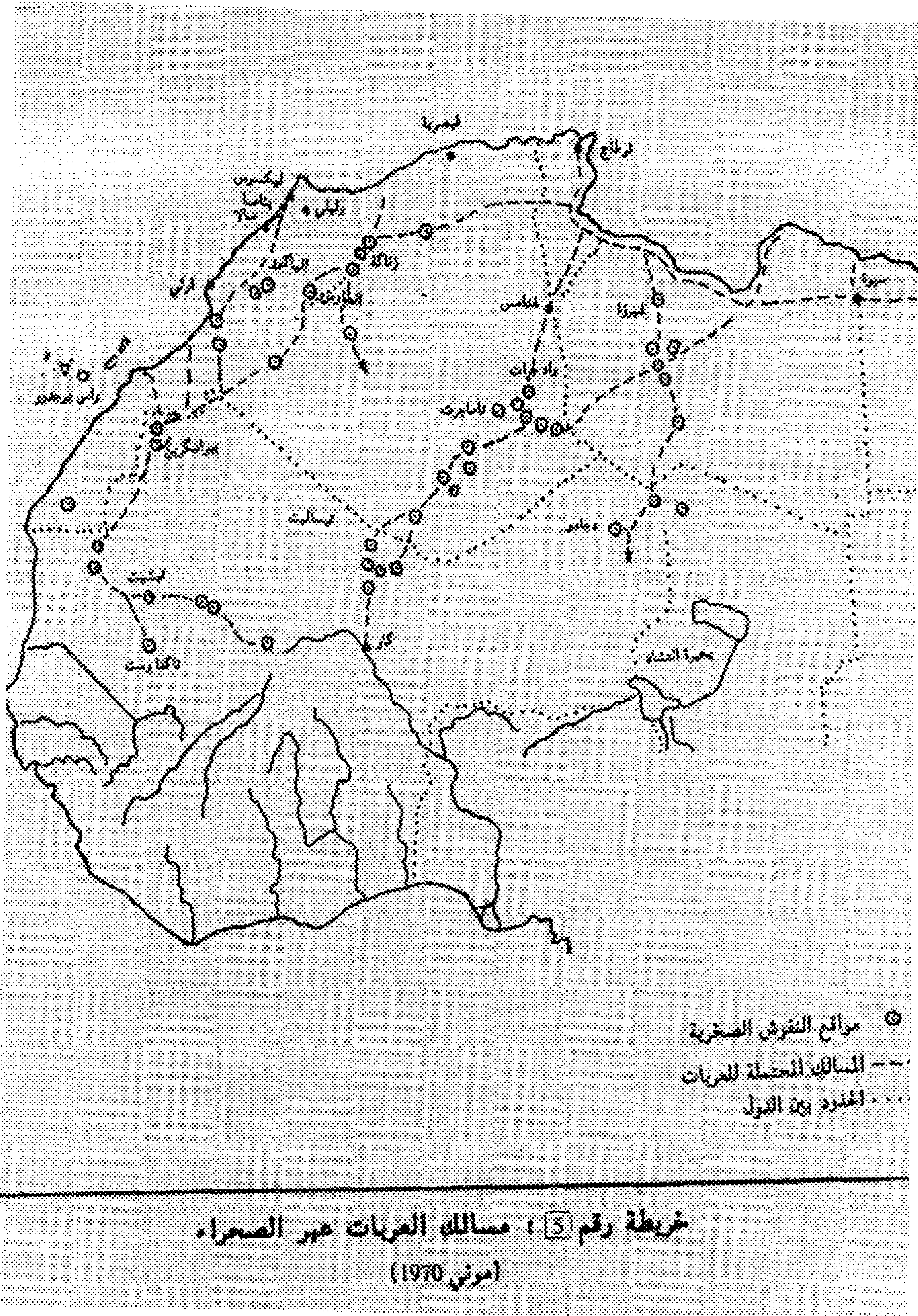
***Grebenard D.,*** 1988. Les premiers métalurgistes en Afrique Occidentale. Paris.

***Hachid M.,*** 2000. Les premiers berbères entre Méditerranée, Tassili et Nil. Paris.

***Hourani G.F.,*** 1963. Arab Seafaring in the Indian Ocean. Beyrouth.

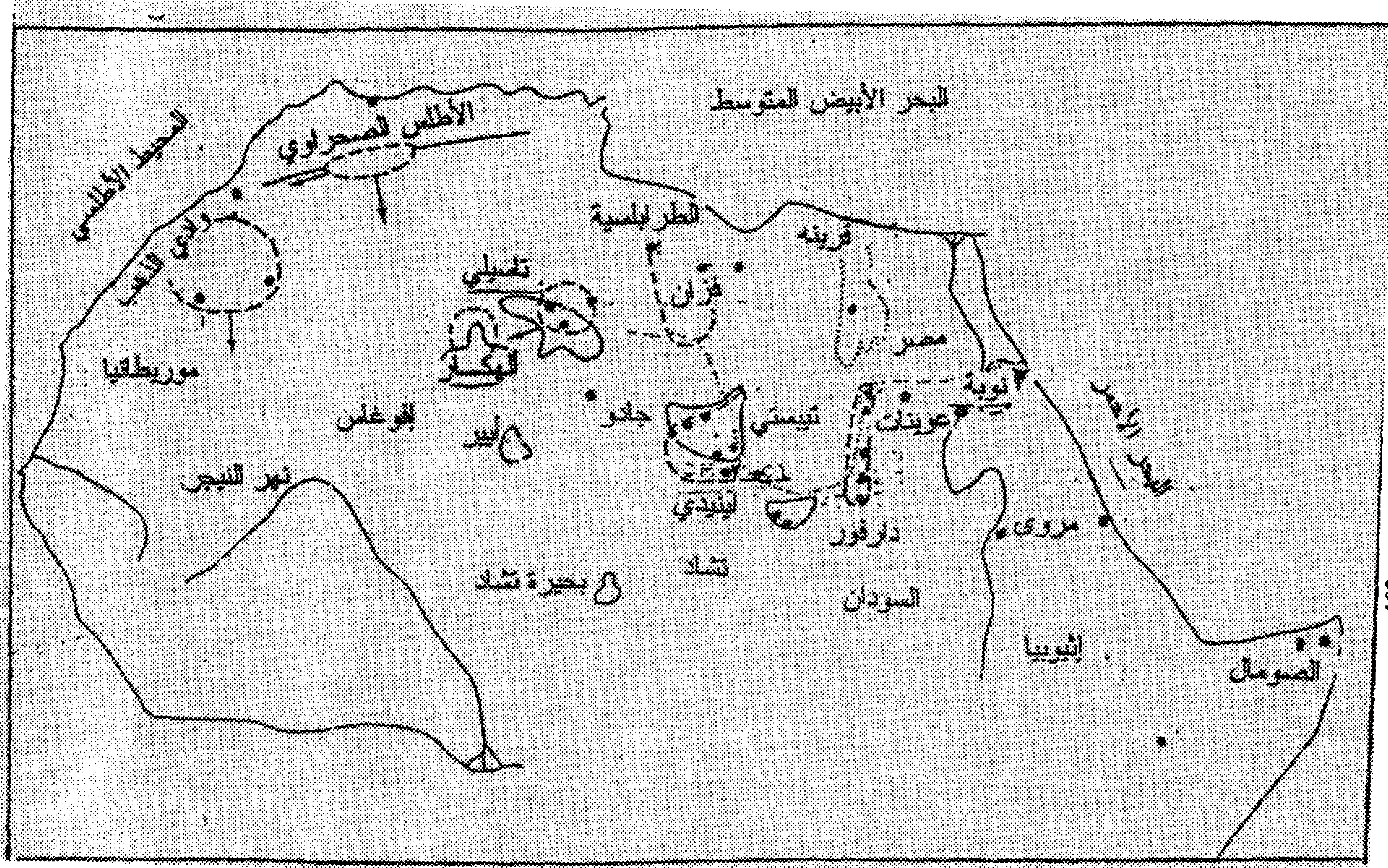
***Huard P.,*** 1952-1953. Recherches rupestres au Tchad. dans Tropiques, fasc. II, p. 1-12.

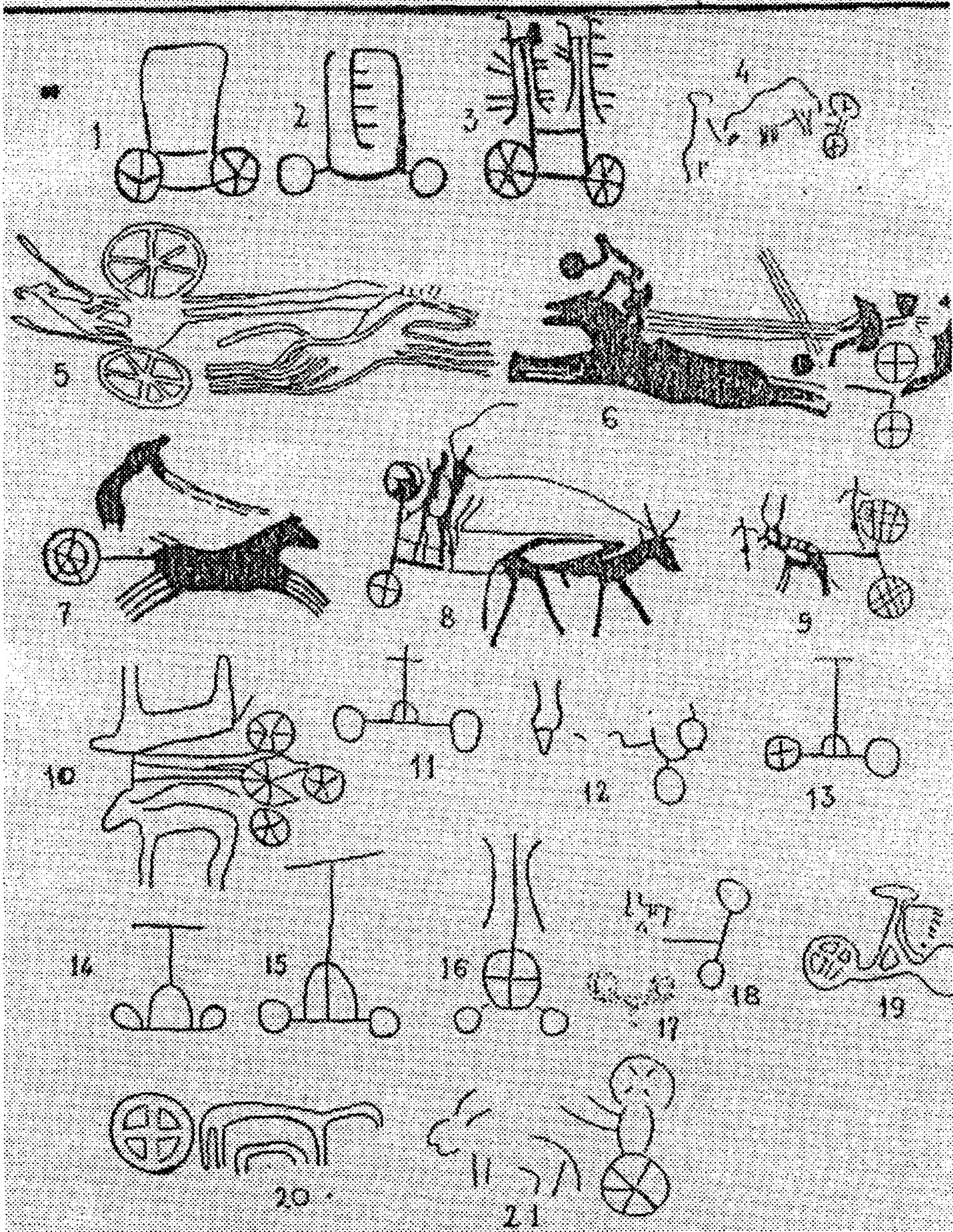
***James H.D.,*** 1966. Welcome to Bahrain. London.
***Jodin A.,*** 1987. Volubilis Regia Lubae. Paris.
***Kunz J.,*** 1982. Contribution à l'études des chars rupestres du Tassili-n-Ajjer occidental. Actes du Colloque de Sénanque. 1981. " Les chars préhistoriques du Sahara". Aix-en-Provence. p. 81-97.
***Lhote H.,*** 1964. Gravures rupestres de Tachoukent et de Tan Zega (Sud Marocain) L.A.P.E., XII, p. 225-245 (Libyca. Anthropologie. Préhistoire. Ethnologie) Alger.
***Mauny R.,*** 1968. Une contribution pratique à l'étude des chars. Notes Afr., p. 120 - 123.
***Mauny R.,*** 1970. Les siècles obscures de l'Afrique noire. Paris.
***Meunie J.,*** Allain Ch., 1956. Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême sud-est marocain. in Hespéris. T. XLII. p. 51-85
***Moscati S.,*** 1955. Histoire et civilisation des peuples sémitiques. Paris.
***Muzzolini A.,*** 1983. L'art rupestre du Sahara central : classification et chronologie. Thèse, Université de Provence.
***Muzzolini A.,*** 1982. La période des chars au Sahara. L'origine égyptienne du cheval. Colloque de Sénanque. 1981. Aix-en-Provence. p. 45-56.
***Puygaudeau O.,*** 1961. Une route de char à boeufs révèle les rapports trois millénaires entre le Maghreb et le Soudan. Archéologia, n° 9, mars-avril, p. 37-39.
***Salles J. F.,*** (sous dir.), 1988. L'Arabie et ses mers brdières. Travaux de la Maison de l'Orient. N° 16. Paris.
***Sigaut F.,*** 1982. Du véhicule militaire au véhicule civil : quelques problèmes techniques et économiques non encore résolus. Actes du Colloque de Sénanque. 1981. Aix-en-Provence. p. 173-176.
***Tompson C.,*** Gardiner E.W., 1939. Climat, Irrigation and Erly Man in the Hadhramaut. In Geographical Journal, 93, p. 7 - 45.
***Vernet R.,*** 1993. Préhistoire de la Mauritanie. Nouakchott.



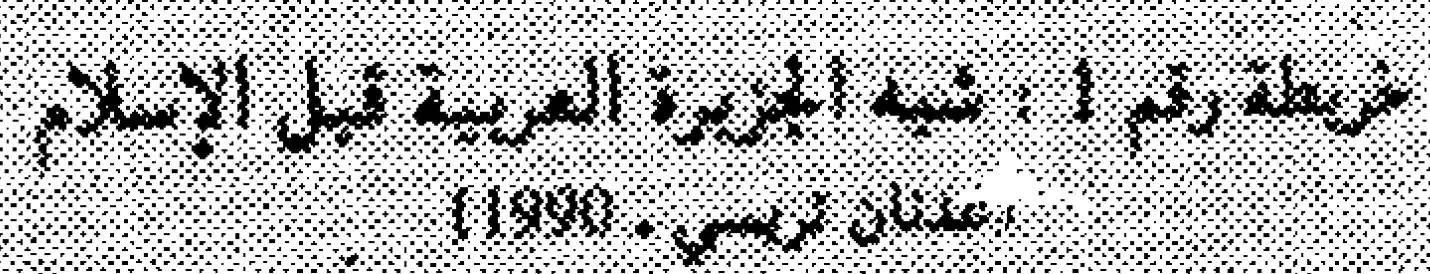

**خريطة رقم 5 : مسالك العربات عبر الصحراء**

(موني 1970)

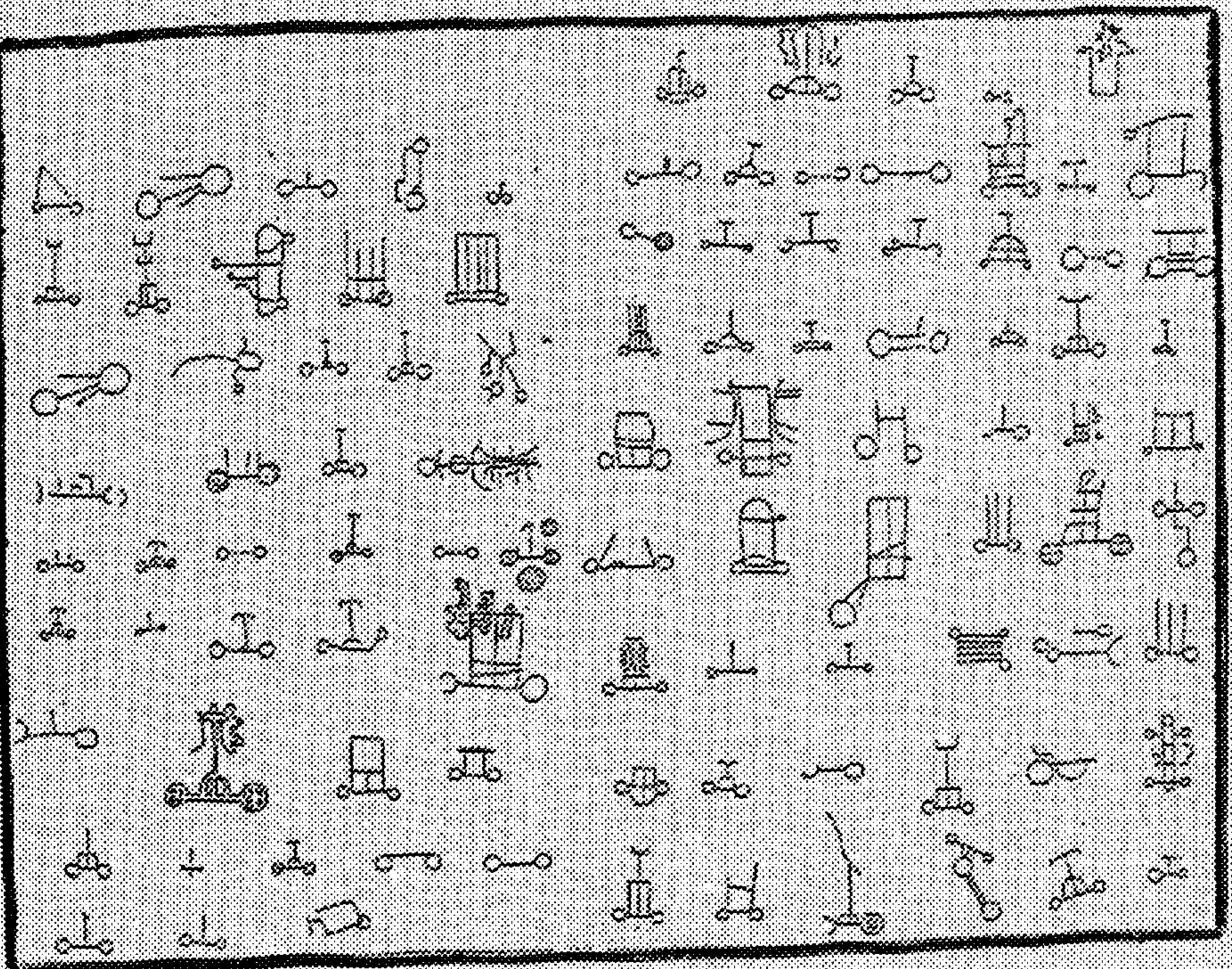

البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
الأطلس الصحراوي
وادي الذهب
موريطانيا
الطرابلسية
فزان
مصر
نوبة
عوينات
تيبستي
جادو
درفور
السودان
تشاد
بحيرة تشاد
نهر النيجر
مروى
البحر الأحمر
إثيوبيا
الصومال

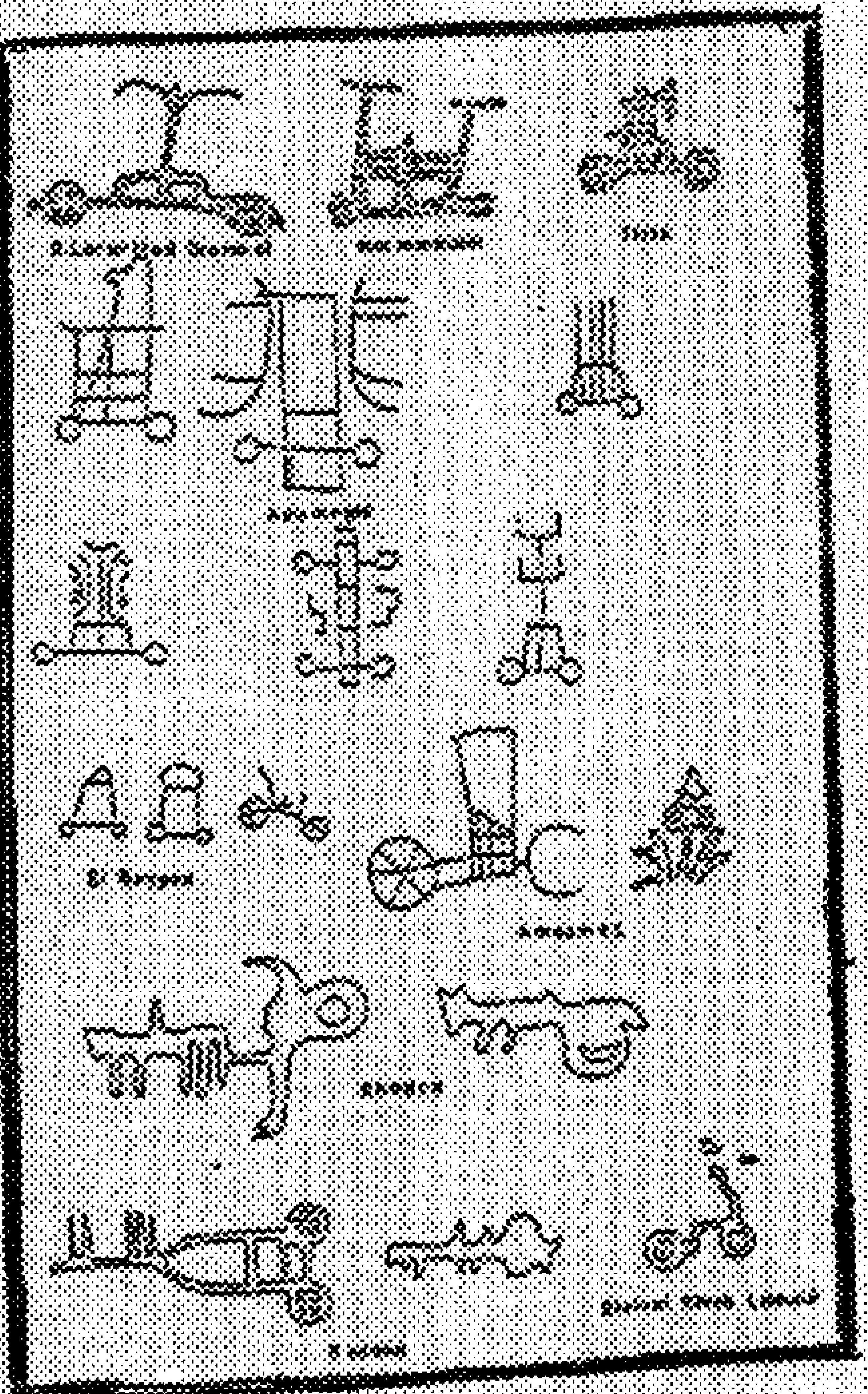



شكل رقم 1 أنماذج من عربات النقوش الصخرية ـ 1 ـ 4 فزان ؛
5 ـ 9 تاسيلي ؛ 10 ـ 16 هكار ؛ 17 ـ 20 جادو (ر. موني ـ 1970)

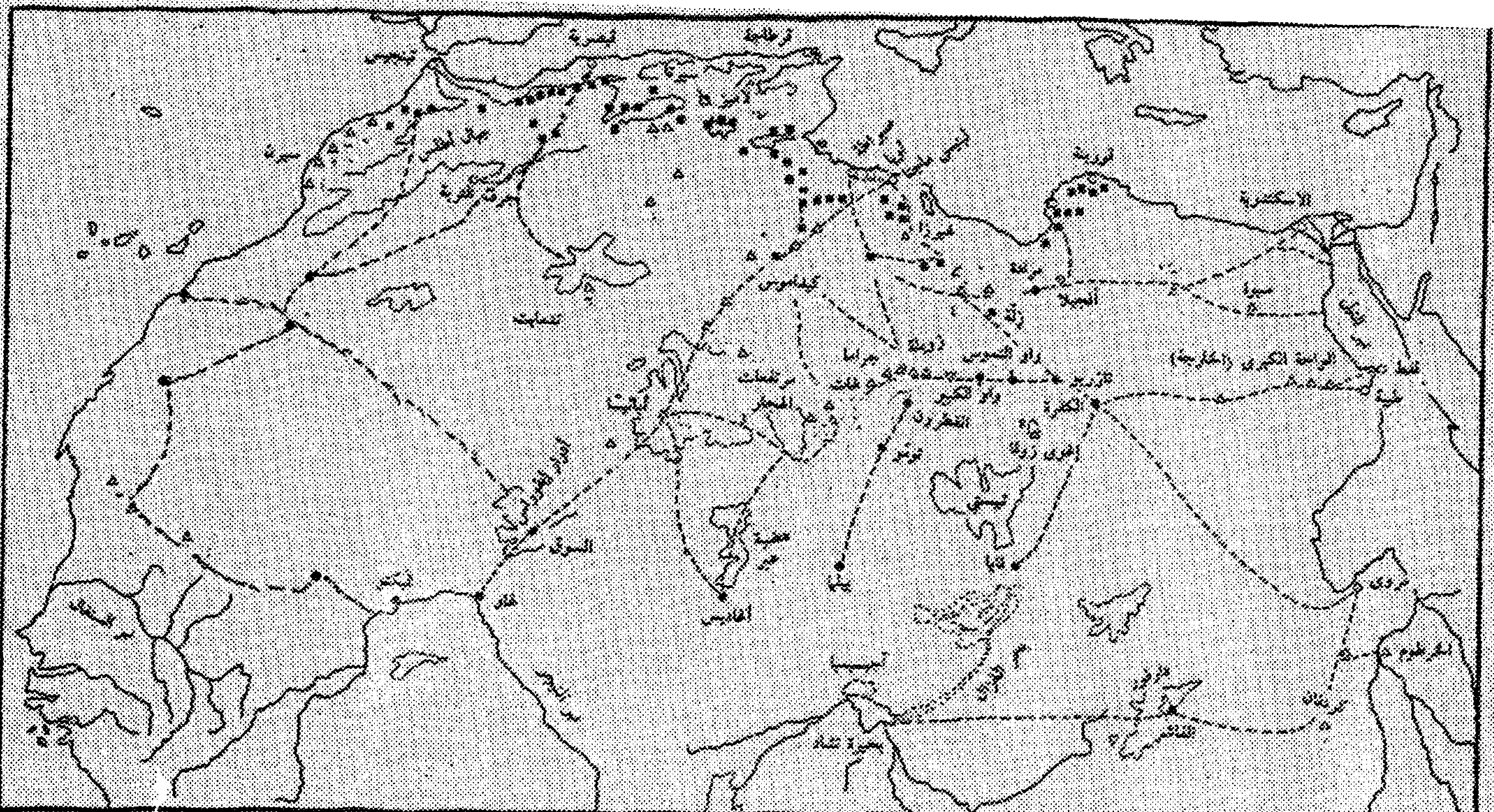



خريطة رقم 1 : شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام
عدنان تريسي . 1990

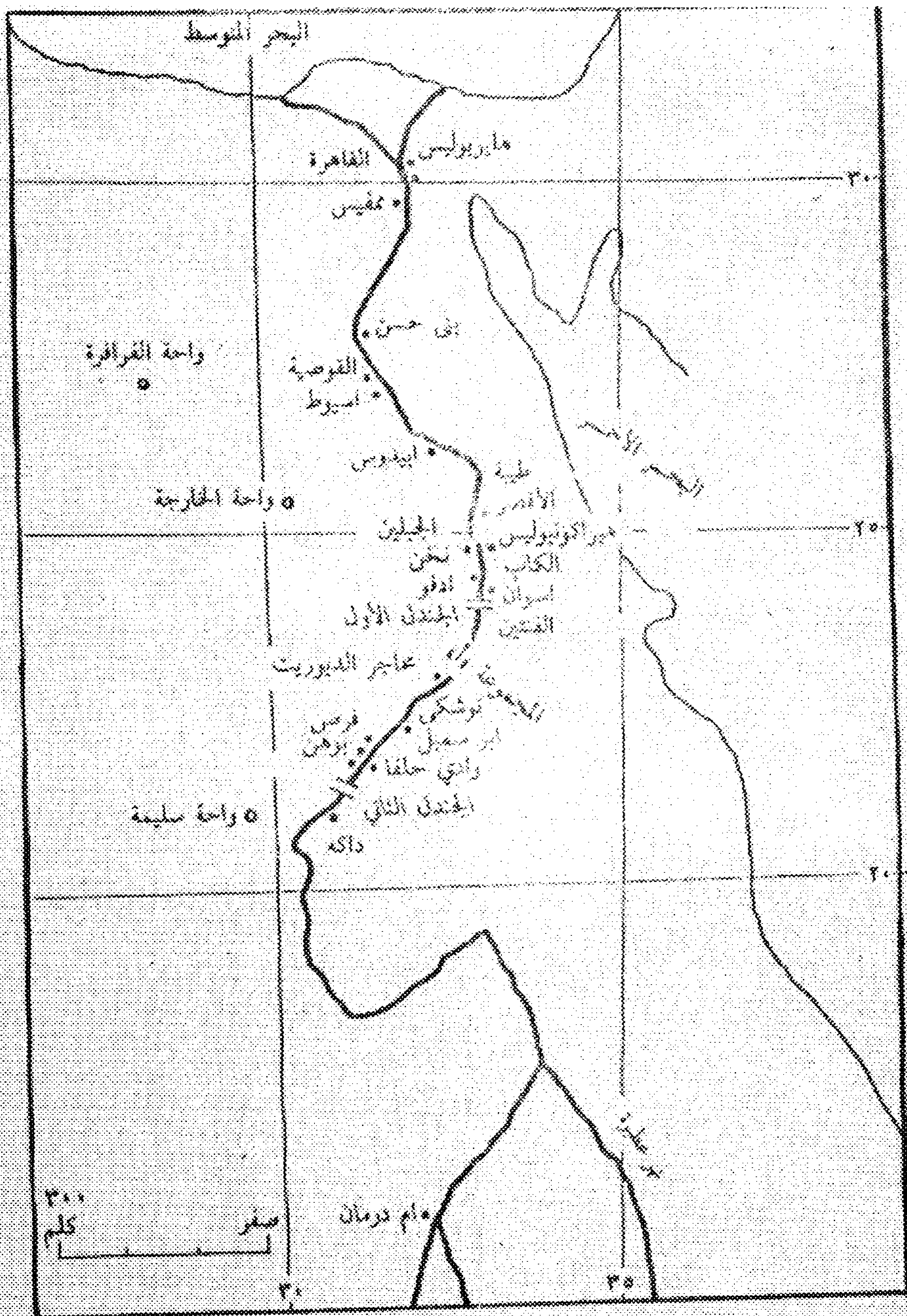




شكل رقم 2 : عربيات من غرب إفريقيا
(أ. فيرني ، 1993)

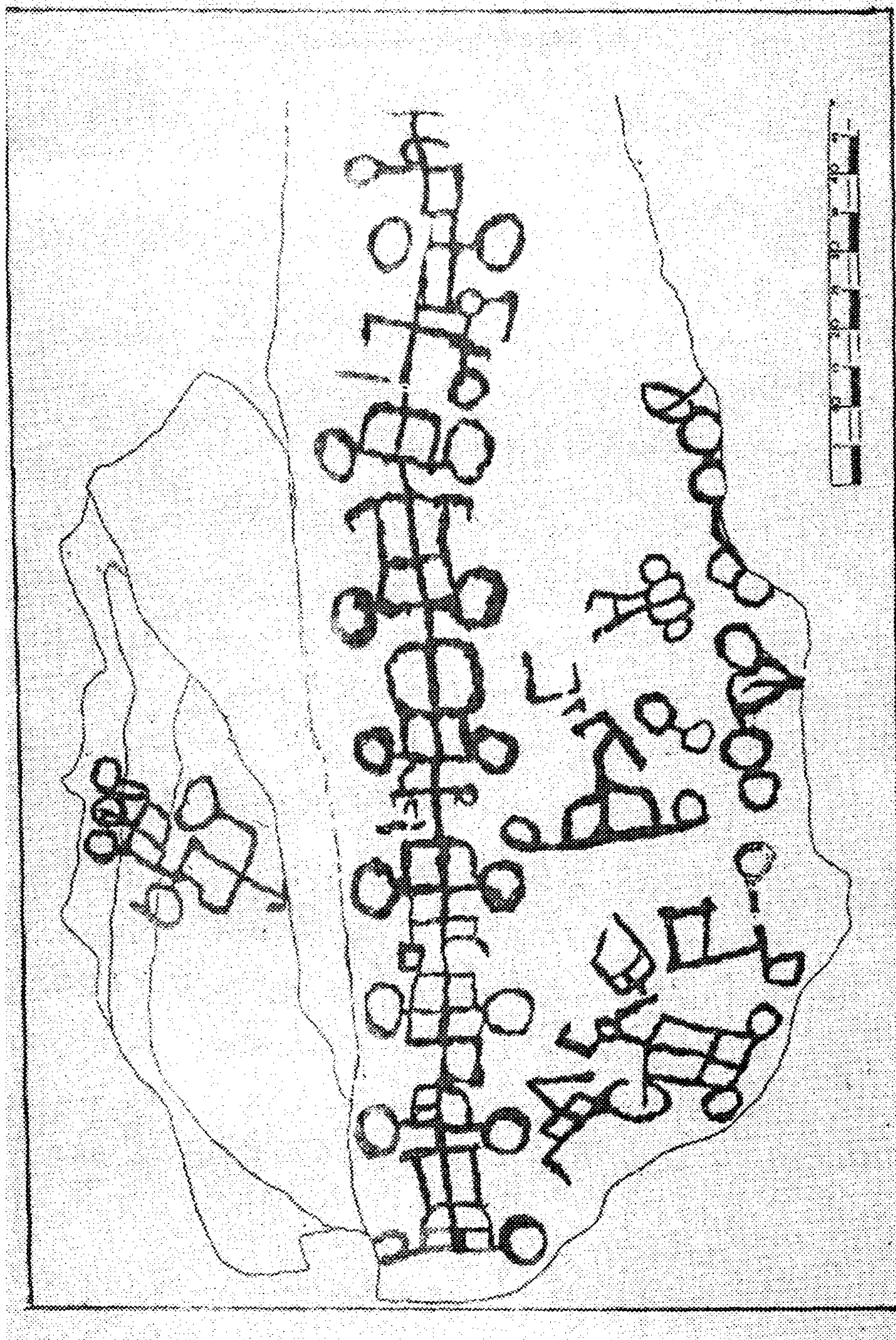



خريطة رقم 2 : الطرق التجارية المحتملة في الصحراء الكبرى
(ب. سلامة ـ 1985)




خريطة رقم 4 : وادي النيل

(نجم الدين محمد شريف، 1985)



# أرض العروبة وإفريقيا السمراء
# حوار قديم

محمد فنطر(*)

الحوار يعني الأخذ والعطاء فليس هو الجدال فهو يعني المساواة، ففي الحوار لا غالب ولا مغلوب بل هو توق إلى الاتصال والتعارف والتعايش مع الحفاظ على الكينونة والهوية واحترام كينونه الآخر وهويته فلا حوار مالم تكن مستعدا لقبول الآخر واحترام خصوصياته عرقية كانت أو ثقافية دينية.

ومادام الحديث حول الحوار بين أرض العروبة وإفريقيا فلابد من تعريف أو تقديم المتحاورين فماذا أعني بأرض العروبة؟ أرض العروبة هي الأرض الممتدة بين المحيط والخليج، فهي أرض لغتها العربية وثقافتها نسيج سداه ولحمته يمتحان من تراث عريق تنغمس جذوره في أعمق طبقات الماضي السحيق وقد لا تحصى موارجه عددا فلقد تكلمت أرض العروبة لغات عديدة الظروف والمظاريف فهي سامية جذورها وحامية فهذه أكادية وتلك أشورية بابلية وأخرى مصرية هيروغليفية وهل تنسى الأمازيغية؟

أما عن لغات الجزيرة العربية فحدث. فلقد احتار الإسلام لغة قريش مطية فانتشر وانتشرت مع احتضان القديم وإنجاب الحديد. فلقد تعددت حواضر أرض العروبة وأينعت وساهمت في بناء الحضـارة الإنسانية فهل يوجد على الأرض من لا يدين بشيء إلى الربوع التي نشأت فيها بابل ونينوى ومكة والمدينة وقرطاج والقيروان ومنف والقاهرة وقرطبة وغرناطة وإشبيلية ومأرب والمهدية على أن العروبة ما قلت وما لم أقل احتراما للوقت المتيسر لأن العروبة جغرافية ممتدة الأطراف تاريخها تليد وحضارتها ولود.

---

(*) باحث أكاديمي تونسي، أستاذ بالجامعة التونسية وبجامعة الزيتونة، وبالمدرسة القومية للإدارة.

أما إفريقيا فبعض العروبة منها ويعتز بالانتماء إليها. أليست مصر إفريقية؟ أليس مغربنا العربي منها؟ بلى. بل لابد منن إشارة إلى اسم إفريقيا !

لقد قيل الكثير حول هذا الاسم في الكتابات العربية وغير العربية، وافتعلت لهذا الاسم تفاسير عديدة مختلفة فمن الخيال بافريقش وجعل منه جدا لسكان إفريقية ونسب بعض المصنفين القدامى إلى عمر بن الخطاب قولة مضمونها أن اسم إفريقية يعود إلى فرق فهي إذا أرض التفرقة. وفي التفرقة شقاق وثفاق. توجد تفاسير أخرى تفضل بها مؤرخون من غير العرب قد يطول الحديث عنها. على أنني أقترح شخصيا تفضيل الفرضية التالية ومضمونها أن اسم افريقيا تعريب صوتي لاسم أووه الرومان في كتبهم منذ القرن الثاني قبل الميلاد لكنه انتشر بعد الغزو الروماني لقرطاج وللممالك النوميدية الماوورية ومن أشهر الذين ذكروا أفريقيا الموؤخ اللاتيني الروماني صلّوستيوس صاحب كتاب حول حرب يوغرطة يعود إلى منتصف القرن الأول قبل ميلاد المسيح، ولاشك أن الرومان لم يبدعوا هذا الاسم بل وجدوه لدى سكان البلاد فتبنوه وصبوه في قالب لاتيني. فهو إذا اسم محلي أو إن شئتم أمزيغي كما يقال اليوم. فما هو الاسم المحلي الذي رومنه الغزاة؟ إن التحليل اللغوي الفيلولوجي بين أن اسم أفريقة Africa يتركب من اسم لوبي أي أمزيغي ولاحق Suffixe لاتيني، فالاسم اللوبي الأمزيغي هو "افر" ومعناه المغارة، الكهف ومازال هذا الاسم موجودا في عديد اللهجات الأمزيغية وهو الذي نجده في بعض الإعلام الجغرافية ومنها افران وبنو افران فالإفريون قديما هم الذين يتخذون من الكهوف والمغارات بيوتا لأحيائهم وأمواتهم. ولقد أشار المؤرخ الاغريقي هيرودوتس إلى هؤلاء الافريين باستعمال لفظ اغريقي Troglodytes واللفظ الاغريقي يعني سكان المغارات والكهوف. فأخذ الرومان إذا اسم "افر" وأضافوا إليه لاحق النسبة "Ca" في صيغة المؤنث وقالو Africa وكان اسم Africa يطلق على شمال القارة أي على الربوع التي أينعت فيها الحضارة القرطاجية البونية ونشأت فيها الممالك النوميدية والماوورية ثم تمطط اسم Africa لينسحب على كامل القارة ولعل ذلك يعود إلى ما قبل القرن الأول قبل ميلاد عيسى عليه السلام. كيف تم ذلك؟ لا أستطيع الجواب عن هذا السؤال، والقضية جديرة بالعناية والتحقيق.

ومادمنا مع القارة الأفريقية فقد تجدر الاشارة إلى اسم ثان تسمت به منذ قبل. ففي النصوص الاغريقية تحمل القارة اسم "لوبة" وسكانها اللوبيون هكذا عرفوا في المصنفات الاغريقية التي تعود إلى التراث الإغريقي العتيق ومن تلك المصنفات تاريخ هيرودس ولعله اقتدى بمن عاصروا هوميروس الثابت أن القارة الافريقية سميت لوبة قبل أن يسميها الرومان افريقيا. Africa مع العلم أن اللوبيين هم سكان شمال القارة. هكذا أشارت إليهم نصوص مصرية بعضها يعود إلى الألف الثاني قبل ميلاد المسيح.

مما انفكت القارة تحمل اسما أصوله مغاربية وفي الأمم تعبير عن الاتصال وعن أواصر القربى ويتجلى كجسر أو شريان ممتد بين شمال القارة وجنوبها. فكيف يتجلى ذلك الشريان بين العالم العربي وإفريقيا ؟ جوابا عن هذا السؤال سأحاول استعراض بعض الأحداث استعراضا مختزلا.

ففي منتصف الألف الثاني قبل ميلاد المسيح تبوأت عرش مصر القديمة ملكة اسمها حتشبسوت 1483 ـ 1520 لقد حكمت هذه المرأة البلاد وسهرت على شؤون العباد وكأنها رجل بل أثبتت بطريقتها أن لا فرق بين المرأة والرجل؛ وقد تميز حكمها بالبناء والتشييد؛ ومن منجزاتها المعمارية بنايات دير البرحي بإشراف المهندس المعماري سنموت. على أن ما يهمنا في هذا الصدد بعثة نظمتها الملكة نحو بلاد البونت Pays du Pount. ومعلوم أن المصريين ما انفكوا يترددون على سواحل البحر الأحمر وسواحل افريقيا الشرقية منذ العهد القديم أو الأسر الأولى أي منذ الألف الثالث قبل ميلاد المسيح. ويبدو أن الإسم المحلي لبلاد البونت هوبون Poun. ويرى بعض المختصين أن هذا الاسم يشير إلى مختلف الربوع المطلة على البحر الأحمر، ولعله اسم استعمله المصريون القدامى للإشارة إلى أقطار بعيدة عنهم يدركونها بحرا، فالنقائش التي سطرت في معبد دير البحري والتي تعود إلى عهد الملكة حتشبسوت تضمنت وصفا لبلاد بونت ومن ذلك أن السفن المصرية أدركت سواحل منبسطة توجد فيها أشجار من فصيلة افريقية حيث تسود الحرارة والرطوبة ومنها أشجار البخور وفيها يسكن المحليون أكواخا أقيمت على ركائز. أما من حيث ملامحهم فسكان بلاد البونت يسبهون المصريين. بشرتهم تميل إلى الحمرة شعرهم طويل مضفور ضفائر طويلة وللرجال لحية

مذببة. ويرتدون أزياء كالأزياء المصرية إلا أن ملكهم يحمل في ساقه اليمنى مجموعة من الأسورة النحاسية وتبدو الملكة ودكاء وطباء.

هذا ويتجلى في ضوء نقوش دير البحري أن سكان بلاد البونت يهرعون لاستقبال السفن المصرية ويحسنون لمن عليها وبعد القيام بواجبات الضيافة تنطلق عملية المقايضة التجارية: يقدم المصريون ما احتوت عليه بطون سفنهم من بضاعة مغرية ويقدم البونتيون موادا مخلفة من أخشاب ثمينة وأصمغة قائمة وأشجار بخور والأبنوس والعاج والتبر والكحل وحيوانات يستحسنها المصريون لزينة حدائق قصورهم كالقردة وكلاب الصيد من فصيلة السلوقي والفهود وغيرها.

ففي عهد الملكة حتشبسوت كانت العلاقة بين مصر وبلاد البونت متينة أما عن تحديد جغرافي لتلك الربوع فالأرجح أنها كانت على شواطئ البحر الأحمر الإفريقية منهما والعربية أي من جهة الصومال ومن جهة اليمن هكذا نتبين أن بلاد البونت تشير إلى تناضج تجاري حضاري بين مصر وسواحل أفريقيا الشرقية وبين مصر وجنوب الجزيرة العربية فهي علاقات افريقية افريقية وعلاقات عربية افريقية مع العلم أن مصر ينتمي إلى إفريقيا لحما ودما.

وما فتئت مصر مهجوسة بشؤون إفريقيا وما انفكت إفريقيا تثير فضولها. ومما يجسد تلك الهواجس وذلك الفضول بعثة استكشافية أمر بتنفيذها نيخو الذي حكم مصر من سنة 609 إلى سنة 594 قبل ميلاد المسيح. وكان نيخو يسعى إلى السيطرة على البحر، فكلف القورنثيين ببناء أسطول من الثلاثيات والثلاثية (Tiere) سفينة تتحرك بواسطة ثلاثة صفوف من الجدافين. وكان الهدف من هذا الأسطول السيطرة على المتوسط وعلى البحر الأحمر. ففي عهد هذا الفرعون كان المصريون يسعون إلى التحكم في البحر شمالا وجنوبا حتى يكون لمصر حضور فاعل في البحر الأبيض المتوسط وفي البحر الأحمر. ومن مآثر هذا الفرعون البعثة الاستكشافية التي إليها أشرت منذ حين. فلتنفيذها طلب من الفينيقيين القيام برحلة حول القارة الإفريقية وكانت إذ ذاك تسمى لوبة وقد وصف هذه الرحلة المؤرخ الإفريقي ميرؤؤوتس استنادا إلى رواية يسندها إلى الفينيقيين والقرطاجيين فهل هي رواية شفوية؟

قد يكون، كيف وصلت إلى هيرودوتس؟ سؤال تعسر الإجابة عليه ! فلاشك أن الفينيقيين سجلوا ملاحظاتهم أثناء رحلة طويلة ولعلها دامت سنتين أو ثلاث سنوات أو أكثر. ذلك أن هيرودوتس يشير إلى مراحل. ففي الخريف يلقي الأسطول مراسيه وينزل البحارة ويحرثون الأرض ويبذرون ويقيمون في تلك الربوع حتى فصل الحصاد. وما أن يتم جمع المحاصيل حتى يركبوا البحر من جديد ويواصلون مسيرتهم. ومعنى ذلك أن الفينيقيين كانوا لا يقتصرون على احتذاء السواحل الإفريقية بل يقيمون في ربوعها ويحرثون ويبذرون ويحصدون وفي ذلك إشارة إلى علاقات متينة عميقة بالأرض وبمن عليها ولاشك أن الفينيقيين كتبوا الكثير عن ذلك وقدموه تقريرا مفصلا إلى الفرعون نيخو.

والأرجح أن هذا التقرير سطر على أرواق من البردي أتى عليها الدهر, فكم كنا نسعد لو تمكنا من الاطلاع على ذلك التقرير على ما فيه من معلومات جغرافية أنثروبولوجية تعرفنا على المشاهد الإفريقية التي استمتع بها الفينيقيون. هذا ومن الجدير بالذكر، أن الأسطول الفينيقي انطلق من البحر الأحمر واحتذى السواحل الإفريقية المطلة على المحيط الهندي حتى أدرك رأس إفريقيا ذاك الذي يسمى عندنا برأس الترجي الصالح. وقال الفينيقيون في روايتهم أنهم عندما كانوا يجتازون الرأس رأوا الشمس على يمينهم. وتهكم هيرودوتس من هذا القول معبرا إياه من الخور وعلق أنه لا يصف مثل هذا القول. والواقع أن ما جاء في الرواية الفينيقية يثبت قطعا أن الفينيقيين اجتازوا رأس إفريقيا حتى أدركوا مياه المحيط الأطلسي. ذلك أنه عند اجتيازك لرأس الرجاء الصالح ترى الشمس تشرق على يمينك وتميل إلى الغروب وهي دائما على يمينك. أفلا يبرهن ذلك على صدق ماورد في تقرير الفينيقيين؟ بلى. اجتاز الأسطول الفنيقي إذاً رأس الرجاء الصالح ودخل مياه المحيط الأطلسي وشقه حتى أدرك عمودي ملقارت هيرقليس أي مضيق جبل طارق ولعله حطّ الرحال في بعض الموانئ الفينيقية البونية في الربوع المغربية كأقدير أوليكسوس، ثم واصل المسيرة نحو قرطاج ومنها إلى الموانئ الفينيقية البونية بالربوع الليبية كصبراضة ولبدى الكبرى ونهم إلى السواحل المصرية.

فهذه الرحلة المصرية مآثرة من مآثر السياسة المصرية في عهد الفرعون فيخو ومآثرة من مآثر الأسطول الفينيقي خلال القرن السادس قبل ميلاد المسيح والهدف من تلك الرحلة البحرية التعرف على القارة الإفريقية وإلى ما يوجد في أعماق أعماقها من كنوز وعجائب إنه توق إلى معرفة المجهول وتوق إلى ربط الصلة بشعوب وقبائل تعيش في ربوع نائية هو الجسر الذي يمتد بين شمال القارة وجنوبها فلم يكن التعرف إلى إفريقيا وليد الثورة الصناعية الغربية بل هو حوار قديم بين ما نسميه اليوم العالم العربي وإفريقيا يعود إلى عصور قديمة وعمل على تنشيط ذلك الحوار شعوب مختلفة من شعوب الوطن العربي في مصر ولبنان اليوم وكانت تسمى كنعان أو فينيقيا.

ولنواصل هذا الحوار في عهد قرطاج. ففي القرن الخامس لميلاد المسيح كلفت الدولة القرطاجية أمير البحر حنون بمهمة مضمونها التعرف إلى سواحل إفريقيا العربية، ومن حسن الحظ أن بقي من التقرير الذي قدمه أمير البحر حنون في السلط القرطاجية تلخيصا منقولا إلى الإغريقية يوجد ضمن كنوز جامعة هيديلباج بألمانيا. وجاء في ديباجة في ذلك التلخيص المختزل مايلي: " رحلة حنون سبط القرطاجيين " حول الربوع اللوبية التي تقع وراء أعمدة هيرقليس وعلقها حنون نفسه في قدس بعل حمون ( رحلة حنون).

قد يطول الحديث عن الحوار التجاري الثقافي الذي تميزت به العلاقات بين العالم العربي قبل الإسلام والقارة الإفريقية مع العلم أن جزءا كبيرا من العالم العربي ينتمي عرقيا إلى القارة الإفريقية ذلك أن العروبة ثقافة لا عرق.

# أسس ومحددات التواصل ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط

أحمد الشكري(*)

تشهد النقوش الصخرية المتناثرة في أجزاء مختلفة من الصحراء على أن العلاقات المغربية السودانية موغلة في القدم. وحسبما يستفاد من الشهادات المصدرية العربية المدونة خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة (8-9 م)، يظهر أن العلاقات ما بين ضفتي الصحراء عرفت تطورات هامة خلال القرون الميلادية الأولى، بيد أننا نجهل الكثير عن ملامحها وخصائصها.

وبتقدمنا نحو نهاية العصر الوسيط انطلاقا من القرن العاشر للميلاد (وهي الفترة التي صادفت انتشار الإسلام ببلاد المغرب وبداية تدفق تأثيراته نحو الجنوب لتشمل أهل الصحراء وما وراءهم من قبائل بلاد السودان)، عرف المجال الصحراوي، دينامية بشرية واقتصادية وثقافية مثيرة للغاية، . الشيء الذي أهّله ـ على الرغم من قحولته وعدوانيته تجاه الإنسان ـ لأن يلعب دورا بالغ الحيوية في تاريخ المنطقة؛ لا يقل في شيء عن دور البحر الأبيض المتوسط بالصيغة التي قدمه لنا المؤرخ الفرنسي ف. بروديل.

كيف عملت الصحراء على التقريب ما بين الشعوب والقبائل المنتشرة على ضفتيها، وكيف يمكننا قياس مبلغ حيويتها ؟ وما هي قيمة العوامل المناخية والاقتصادية والثقافية التي ساهمت في تذليل صعوبات التواصل ؟ وهل كان للاعتبار السياسي ـ وقتئذ ـ إضافة في هذا المجال ؟

تؤكد شهادات الرحالة والجغرافيين العرب من ابن حوقل إلى ليون الإفريقي على حيوية ونشاط المجال الصحراوي في عملية التواصل ـ على جميع المستويات ـ ما بين

* باحث أكاديمي مغربي، أستاذ باحث بمعهد الدراسات الإفريقية بالرباط.

بلاد المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط [1]. كما أنها تحيلنا على أهمية دور القبائل الصحراوية من صنهاجة وزناتة في خفارة القوافل وتأمين المسالك ونقاط الماء وغير ذلك مما يرتبط بتنظيم التجارة القافلية ما بين ضفتي الصحراء.

وتكفي الإشارة هنا إلى أن الصحراء باعتبارها النافذة الأساسية - إن لم نقل الوحيدة -، هي التي مكنت أهل السودان من الاتصال بالعالم الخارجي وحضارات البحر الأبيض المتوسط. وبذلك تمكن السودانيون من فك عزلتهم الخانقة التي فرضتها عليهم الطبيعة (الصحراء والمحيط الأطلسي)[2] طيلة عهود طويلة. ومهما حاول البعض التقليل من أهمية هذا المعطى لأسباب نظرية أو وطنية، فلا سبيل لأي وطني غيور أو باحث متمرس لأن ينكر فضل الصحراء أو أن يستهين بدورها الحاسم في تاريخ الدول والممالك السودانية خلال العصر الوسيط[3].

وباعتبار هذه المعطيات التي تفصح عنها الشهادات المصدرية العربية على اختلاف أنواعها وأصنافها[4]، اندفع الكثير من الباحثين العرب والعجم على السواء في عملية تقييم مبالغ فيها لدور الصحراء في العلاقات بين ضفتيها، وكأن الأمر يتعلق بمجال سهل، بالمعنى اللغوي والجغرافي للمصطلح.

والحالة هذه، وبما أن ارتياد الصحراء في نظر هؤلاء كان عملا جاريا وعاديا ولم يعرقل بأي شكل علاقات الدول والممالك الواقعة على أطرافها، فإن القول بفشل تجربة الإسلام ببلاد السودان أو الكلام عن تجارة العبيد بالأرقام التي يطرحها ريموند موني ومن أخذ عنه[5]، لابد أن تجد لدينا اعتبارا وتقديرا لا يمكن مقاومته.

والمؤسف في الأمر أن مثل هذه الأطروحات، وغيرها كثير في حقل الدراسات الإفريقية، تصدر عن باحثين مشهود لهم بحنكتهم وتجربتهم الطويلة في هذا المجال. ولذلك تجد استنتاجاتهم وتصوراتهم رواجا وشيوعا كبيرين في الدراسات المتأخرة.

وبالعودة إلى المادة المصدرية المتوفرة عن الموضوع، يتضح لنا أن أمر اجتياز الصحراء لم يكن بهذه السهولة التي تعكسها الاستنتاجات والتصورات المتهافتة. وأن ارتيادها وركوب مخاطرها، كان يتطلب مجاهدة ومكافحة عظيمة.

**فما هي ظروف اجتياز الصحراء :**

بالنظر إلى صعوبة وشهرة المسلك الصحراوي المعروف بالطريق اللمتوني، الذي يربط ما بين سجلماسة وغانة العاصمة( قومبي صالح)، وهو مسيرة شهرين أو أكث[6]، فقد تحدث عنه غير واحد من أصحاب مصادرنا.

وكان ابن حوقل من أوائل الجغرافيين العرب الذين وصفوا جزءا من هذا الطريق الصحراوي في منتصف القرن العاشر للميلاد، وخلّف لنا وصفا هاما له، كثيرا ما تردد في المصادر اللاحقة. ومما جاء في وصفه:" وبين المغرب [...] وبلاد السودان مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي، لا تسلك إلا في الشتاء [ المقصود وقت تساقط المطر وليس فصل الشتاء] وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورود والصدور"[7]

ويعترض الطريق اللمتوني مجال خطير للغاية يعرف بصحراء نيسر، يمر به أو على هامشه تجار سجلماسة القاصدون غانة. وقد استطاع الشريف الإدريسي بحسه الجغرافي المعهود أن يلتقط لنا صورة حية عن صحراء نيسر وكيفية اختراقها في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد. ومما جاء في وصفه لها:" [وهي] 14 يوما لا يوجد فيها ماء [...] وفي هذه الصحراء المعروفة بصحراء نيسر حيات كثيرة طوال القدود غلاظ الأجسام [...][8] وهذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف (91) وصفة السير بها أنهم يوقرون أجمالهم في السحر الأخير ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشتد الحر على الأرض فيحطون أجمالهم ويقيّدونها ويعرسون أمتعتهم ويخيمون على أنفسهم ظلالا تكنهم من حر الهجير وسموم القائلة [...] هكذا سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان على هذا الترتيب لا يفارقونه لأن الشمس تقتل بحرّها من تعرض للمشي في القائلة عند شدة القيظ وحرارة الأرض"[10].

ويسجل لنا ابن بطوطة بعض ذكرياته عن الطريق الصحراوي الذي أخذه من سجلماسة إلى ولاتة (إيولاتن)، بقوله:" ومنها [ يقصد تغازى] يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا في النادر [...]. وكنا في تلك الأيام نتقدم

أمام القافلة، فإذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به. ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري، فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت . [...][11] ثم وصلنا إلى تسرهلا [...] ومن هنالك يبعث التكشيف إلى إيولاتن [...]. وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل إيولاتن بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم [بسبب قلة الماء][12]. وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح، وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع"[13].

وحين أخذ ليون الإفريقي يتحدث عن صحراء صنهاجة، ذكر أن الماء بها لا يوجد إلا على مسافة مائة أو نمئَتَيْ ميل، وأنه لا يتوفر إلا في آبار عميقة جدا، وفوق ذلك يكون الماء بها مالحا ومرّاً. لهذه الأسباب كثيرا ما يموت الناس عطشا في هذه الصحراء من شدّة الحر[14]. ويضيف جغرافينا عن آبار الطريق المؤدية من سجلماسة إلى تنبكت، أن بعض تلك الآبار المكسوة في داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها، قد لا يعثر عليها التجار في غير فصل الشتاء، "لأنه تهب في غير هذا الفصل رياح قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار، حتى أن من يذهب مؤملا أن يجد الماء في الأماكن المعتادة لا يعثر للآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر ويكون مضطرا إلى أن يموت عطشا"[15].

وحينما نقف على مثل هذه الشهادات - وغيرها كثير - ونضعها نصب أعيننا، سوف نتريث كثيرا، وكثيرا جدا، قبل أن نطلق العنان لاستنتاجات تقديرية حول كمية السلع الواردة والصادرة فيما بين ضفتي الصحراء وعدد العبيد المجلوبين من بلاد السودان[16]، وسنلزم الكثير من الحذر والحيطة ، قبل أن نعلن عن فشل الإسلام في احتواء الذهنية السودانية، وغير ذلك من الاستنتاجات التقديرية السطحية والمتهافتة.

إن الفرد في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، سواء كان تاجرا أو فقيها أو مسافرا عاديا، كان يفكر ألف مرة قبل أن يقرر اجتياز الصحراء. وحينما يتخذ القرار، يتهيأ للسفر طيلة عدة أشهر حتى يتسنى له اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لسفره: شراء الإبل وترويضها على العطش، توفير المال اللازم لقضاء الحاجات الخاصة، ولدليل

القافلة، ولشراء الماء في الصحراء، وللظروف الطارئة مثل مهلك الراحلة في الطريق...الخ[17].

وعلى الرغم من اتخاذ جميع هذه الاحتياطات الدقيقة، تبقى إمكانية الهلاك في الصحراء أثناء السفر واردة، وحظوظها قوية. ذلك أنه إذا كان دليل القافلة بخبرته وتجربته الطويلتين مؤهلا لأن يضيع في الصحراء كما أخبرنا ابن بطوطة وأكده ليون الإفريقي، فماذا يمكن أن ينتظر المسافر العادي أو حتى أولئك التجار المعتادين على ركوب المسالك الصحراوية[18]؟

باستحضار هذه المعطيات يمكننا أن نتحسس الحوافز العميقة، التي دفعت ابن بطوطة ـ أثناء توقفه بإحدى محطات الصحراء: ولاتة ـ للتعبير عن رغبته في العودة إلى فاس وهو بعد لم يصل إلى بلاد السودان. ويغمرنا إحساس قوي أن رحالتنا حينما عبر عن رغبته تلك، فلأنه أدرك بعد مجاهدته لحل الطريق الصحراوي، أن لا شيء يمكن أن يغري الإنسان باجتياز الصحراء، حتى ولو كان ذهب السودان في انتظاره مجانا[19].

وليون الإفريقي الذي مرّ بنفس التجربة بعد أكثر من قرن ونصف من رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان، يشارك رحالتنا في إحساسه ذاك، حيث عبّر لنا عن حسرة تدعونا للاعتقاد أن الرجل كان يتمنى لو أنه لم يقدم على اجتياز الصحراء[20].

لقد كانت لدى المسافر خلال العصر الوسيط، قناعة بأن اجتيازه للصحراء، لن يكون بأية حال عبارة عن رحلة سياحية، كما هو الشأن بالنسبة للمسافر من فاس إلى سجلماسة أو قرطبة أو القيروان.

حقيقة أن إحساسات مرهفة تجاه الصحراء عند شخصيات حضرية مثل ابن بطوطة وليون الإفريقي، قد لا نجدها بنفس الحدة عند تجار الصحراء أو أهل أغمات وسجلماسة وتاهرت، كما قد لا نصادفها لدى القبائل البربرية والعربية الظاعنة في الصحراء وهوامشها؛ بيد أن ذلك لا يعني أن هؤلاء كانوا يستهينون، بمصاعب الصحراء وأهوالها، وما التقاليد القديمة التي أرسوها وتواضعوا عليها في اجتيازها، إلا دليل قوي على مدى وعيهم بمخاطرها، وعدم استخفافهم بأهوالها[21].

ولا مشاحة إذن، في أن المقبل على السفر إلى بلاد السودان مرورا بالصحراء، لا بد وأن تحفزه إغراءات قوية وجذابة جدا، حتى يمكنه أن يقبل الخوض في مثل هذه المغامرة، ويقدم عليها. ولو لم يكن الملح يقايض وزنا بوزن مع الذهب السوداني، ما خاطر تجار بلاد المغرب ومصر بأنفسهم لجلب الذهب السوداني[22]. وكذلك الفقيه المسلم، لا شيء يمكن أن يدفعه لاجتياز الصحراء بهدف نشر الإسلام بين أهلها (البربر) والسودان الذين وراءهم، إلا زهده في الحياة الدنيا. على أن الإسلام لا يطلب من المسلم أن يعرّض نفسه للهلاك وضياع النفس، لذلك نجد قلة من الفقهاء والدعاة المسلمين من تجشموا مصاعب الصحراء وخاطروا بأنفسهم ابتغاء مرضاة الله. وفي هذا السياق، فإننا حينما نستحضر موقف طلبة أبي عمران الفاسي، وذلك عندما رفضوا الذهاب مع يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الصحراء إشفاقا على أنفسهم من دخولها، فعلينا أن نقدر الموقف في إطار المعطيات التي طرحناها والشهادات التي وقفنا عندها، حتى لا يزل لساننا باتهام أولئك الطلبة في دينهم[23].

وغني عن التذكير هنا، أن موقف طلبة أبي عمران هذا، لا يمثل حالة استثنائية، بل قاعدة عامة ومتواضع عليها عند أهل بلاد المغرب كافة. ولنتأكد من هذه الحالة، يكفي أن نستعرض الشهادات المصدرية لنتبين كم لدينا قبل مطلع القرن العاشر الهجري (16م) من فقيه - في مستوى عبد الله بن ياسين أو الإمام الحضرمي أو أبي الحسن النحوي - تحدى عواصف الصحراء وشظف العيش بها، وأقبل على العمل بالصحراء بين ظهراني أهلها ؟ والسؤال الموازي الذي يمكن أن يعمق وعينا بثقل المشكل : كم لدينا من مذكرات رحالة أو جغرافيين عرب جابوا فعلا أصقاع الصحراء، وتركوا لنا شهادتهم عنها فيما بين القرن العاشر والسادس عشر للميلاد[24] ؟

لاغرو والحالة هذه ، أن تصبح الصحراء عند أهل بلاد المغرب حكاما ورعية، مجالا للنفي السياسي والاجتماعي[25]. وقد لا نتنكب الصواب إذا قلنا إن نظرة المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط إزاء الصحراء كانت تماثل نظرته وتصوره عن بحر الظلمات (المحيط الأطلنتي)، وهي نظرة خوف وتهيب[26].

ومعطى القول، نعتقد أن تناول موضوع العلاقات بين بلاد المغرب وبلاد السودان، تفرض علينا أن نقيم اعتبارا كبيرا ـ وكبيرا جدا ـ للصحراء، سواء كمعطى جغرافي أو كمعطى ثقافي في ذهنية المجتمع القرسطوي.[27]

ونرى أن كل محاولة لا تراعي ولا تلتفت لهذا الاعتبار، وتستهين بالحجم التاريخي والجغرافي للصحراء، فإنها لن تتمكن من استكناه تاريخ بلاد السودان وعلاقته ببلاد المغرب، وسوف تضيع وراء إغراءات النظريات الاقتصادية والتحليلات النظرية السطحية. وبتوجهها هذا، فإنها لا تفعل أكثر من تغطية فقر وضحالة حسها التاريخي.

ففي إطار هذا المحدد الحاسم يمكننا فهم وتفهّم ثم تقييم تجربة التواصل بجوانبها المختلفة ما بين ضفتي الصحراء.

والمقام هنا لا يسمح بتتبع ورصد مجمل التأثيرات المتبادلة ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وسنكتفي بإثارة بعض القضايا ذات الصلة بالجانب الديني- الثقافي.

**ـ إشكالية تجربة الإسلام ببلاد السودان.**

إن الإشكالية التي تطرحها قضية تجربة الإسلام واللغة العربية بالبلاد السودانية، تستدعي بداية الوقوف عند ملاحظة أساسية، مفادها أنه منذ بداية تردد أصداء الدعوة الإسلامية بالمنطقة عند ملتقى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (10-11م) وإلى غاية القرن 19م، لم تهدأ ولم تتوقف عملية انتشار الإسلام بالمنطقة والدعوة له. حقا لقد بذل أهل المغرب مجهودات لا يستهان بها في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وتبين لنا كذلك أن السودانيين من جانبهم رحبوا بالإسلام وعبروا من خلال عدد من المؤشرات والسلوكيات عن رغبتهم العميقة في الانتماء للعقيدة والثقافة العربية الإسلاميتين.

فلماذا لم يأخذ الإسلام مكانته العادية بالمنطقة مثلما هو الحال بالنسبة لمصر أو بلاد المغرب؟

نعتقد أن هنالك ثلاثة عوامل أساسية كان لها وقع سلبي على مسيرة وصيرورة انتشار الإسلام ببلاد السودان (أو ما أصبح يعرف بإفريقيا الغربية حاليا)، وبالتالي لم تسمح بتطوره بشكل طبيعي، وهي:

## قلة الدعاة وانعدام انتظام عملية نشر الإسلام

في مساحة شاسعة مثل بلاد السودان، تضم قبائل ولهجات أو لغات تعد بالمئات، كان يفترض أن تستقطب عددا كبيرا من الدعاة المسلمين وزمنا لا يقل عن ثلاثة أو أربعة قرون من الزمن، إذا أردنا تحولا شاملا بالمنطقة. غير أنه بالرجوع إلى الشهادات المصدرية المتوفرة على امتداد الأحقاب الفاصلة ما بين القرن10 والقرن 16 للميلاد، يتأكد لنا أن عددهم كان قليلا جدا. إضافة لذلك فإن نسبة محدودة من هذا العدد، كانت في مستوى عبد الله بن ياسين (ت. 1058م) ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت. حوالي 1523م)أو الفقيه عبد الرحمان سقين(ت.1549م). ونعتقد أن الصحراء بمعطياتها الطبيعية والمناخية الصعبة، قد حدت من تدفق عدد أكبر من الفقهاء والدعاة فيما بين ضفتيها.

وبالنسبة للتجار المغاربة الذين كانوا يرتادون المنطقة، فلا ينبغي أن ننتظر منهم ترك عملهم الذي جاءوا من أجله ليتفرغوا لنشر الإسلام. ويمكن أن نجمل مساهمتهم في كونهم مهّدوا الطريق للدعاة المسلمين، وأزاحوا من أمامهم العوائق النفسية وغيرها من العراقيل التي يمكن أن تعوق التواصل مع السودان. ففي هذا الإطار، نفهم ونتبين فعالية دورهم.(28)

والوجه الثاني لهذه القضية، أن عملية انتشار الإسلام بالمنطقة - كما تشهد على ذلك جل مصادرنا، تحققت بطريقة عفوية وسلمية، مما يعني أنها لم تخضع لرغبة سياسية منظمة وموجهة ومدعمة من طرف أي دولة إسلامية. وبالتالي لم تستفد العملية من أي تنظيم مقنن وموجه يسمح بتطورها على النمط الذي عرفه المغرب أو مصر.

## ب - قلة المراكز الحضرية في بلاد السودان

قد لا يحتاج الباحث إلى كبير جهد ليكتشف ازدواجية مسيرة التجارة والإسلام في بلاد السودان، مما يفسر ارتباط الإسلام بالمراكز الحضرية السودانية. وبالنظر إلى عدد مدن المنطقة مقارنة مع مساحتها، يتضح لنا أن المجال الحضري السوداني كان ضعيفا.(29) وقد شكل هذا العامل بدوره أحد العناصر التي ساهمت في خنق قنوات

تسرب وتدفق التأثيرات الإسلامية. الشيء الذي يبين لنا لماذا كانت وتيرة عملية انتشار الإسلام بطيئة، ويفسر في نفس الآن لماذا اعتقد غير واحد من الباحثين في فشل الإسلام بالأرياف. والخلاصة التي تتأتى لنا بهذا الشأن أن الإسلام وجد تربة خصبة بالمدن السودانية، في حين بقيت الأرياف بعيدة عن تأثيره. غير أن هذه الملاحظة التي تطفح بها مجمل المصادر العربية القرسطوية، لا تعني أن الأرياف كانت أكثر مقاومة للإسلام أو أكثر تشبثا بمعتقداتها القديمة(الأرواحية) كما اعتقد غير واحد من الباحثين.

إن تفسير هذه المسألة يكمن في الطريقة أو الوسائل التي ركبها الإسلام للوصول إلى السودان. فقد كان التاجر المسلم ـ بحكم طبيعة عمله ـ يبحث عن الأسواق الكبرى المتوفرة أساسا بالمدن وليس بالأرياف، لذلك كانت المدن تمثل إغراء ماديا بالنسبة له، وفضلا عن ذلك كانت المدن توفر للتجار الأمن والأمان، الذي قد لا يجدوه في الأرياف ذات الأسواق الصغيرة والتي غالبا ما تكون حاجياتها البضاعية محدودة. من ثمة، نفهم استقرارهم بها وتأثيرهم على أهلها من خلال سلوكياتهم وعملهم الدعائي إن أتيحت لهم الفرصة. وبموازاة مع ذلك، فإن استقراء المادة المصدرية، يسمح لنا بالقول إنه كلما بلغ تاجر مسلم أحد أسواق مدائن السودان، تعقب خطاه فقيه داعية، واستقر بتلك الحاضرة بهدف تعليم السودانيين مبادئ الدين الإسلامي.

وترتب عن هذه الحالة أن عرفت التعاليم الإسلامية رسوخا وتطورا بالغين في جل المدن السودانية مقارنة مع الأرياف. وهذا التصور الذي يمكن أن نتلمسه حدسا أو تأويلا، يمكن أن ينتهي إليه كل من خَبَرَ المادة المصدرية المتعلقة ببلاد السودان خلال العصر الوسيط. وليس من محض الصدفة أن يتبناه أحد أصحاب مراجعنا منذ القرن 8 هـ/14م، وهو الجغرافي الدمشقي المتوفى عام 727هـ/1327م؛ يقول الدمشقي في كلامه عن السودان:" ينقسمون إلى كفار ومسلمين. فالمسلمون يسكنون المدن ويلبسون المخيط والكفار طوائف وهم لملم ودمدم فمن قارب المسلمين يسترون فروجهم بجلود ومن بعُد منهم يأكلون من وقع إليهم من الناس من غير جنسهم لشدة توحشهم من الناس وهم الدمدم".(30)

## ج ـ واقع اللغة العربية في بلاد السودان وقضية التعريب

بالنظر إلى كون الإسلام انتقل من بلاد المغرب إلى بلاد السودان عبر بربر الصحراء (الأمازيغ)، وعلى اعتبار أن عملية التعريب لم تكن ممكنة في المنطقة بسبب ضآلة عدد الفقهاء أو العناصر العربية، فقد احتفظت القبائل السودانية ـ بعد إسلامها ـ بلغاتها ولهجاتها المحلية، ولم توظف اللغة العربية إلا في القليل النادر من حياتها اليومية والدينية.[31]

ففي منتصف القرن 14م، وعلى الرغم من الحماس الذي أظهره أهل مالي في سبيل ترسيخ الدعوة، يذكر ابن بطوطة أن كل خطيب من خطباء مساجد الإمبراطورية كان مضطرا للاستعانة بمترجم" يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب". وبعد حوالي قرنين من ذلك، أي في عهد إمبراطورية سنغاي، حاول الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي أن يلفت انتباهنا إلى أن تجار بلاد المغرب حين ارتيادهم لبلاد السودان، كانوا مضطرين لتعلم اللغات المحلية للتواصل مع السودان.[32]

وعدم تمكن السودان من اللسان العربي لم يلحق الضرر بالمستوى الثقافي فحسب، وإنما أصبح يهدد آفاق العقيدة الإسلامية نفسها لديهم، حيث أخذ يجنح بها نحو انحرافات خطيرة، ناتجة عن عدم فهم مقاصد الشريعة الإسلامية. وقد تنبه السلطان أسكيا محمد لخطورة المشكل، فبادر إلى استشارة الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي في هذه المصيبة ـ حسب تعبير السلطان ـ التي حلت بالمسلمين السودانيين[33].
ولا ريب أن الهمّ لم يكن يقتصر على السلطة الحاكمة، وإنما كان يشغل كذلك ذهن وبال الفئات المتنورة من علماء وفقهاء السودان. وهذا ما تكشف عنه الرسالة التي وجهها أحد الفقهاء القاطنين بالمنطقة(تنبكت) للإمام جلال الدين السيوطي عام 1493م، حيث استفسره في تلك الرسالة عن عدد من المسائل الفقهية، ومنها: هل يجوز مدح الرسول (صلعم) بالكلام الأعجمي؟ فرد عليه الإمام السيوطي بالإيجاب .(341)

مؤدى القول، إن انتقال الإسلام إلى بلاد السودان عبر بربر الصحراء، فضلا عن قلة العناصر العربية التي تحملت مسؤولية بث الدعوة الإسلامية في تلك الأرجاء وهي

محرومة من كل دعم مادي أو سند معنوي، ثم أخيرا ضعف المجال الحضري السوداني؛ كل هذه المعطيات وفرت ظروفا غير مساعدة على تعريب السودانيين، وبالتالي على إمكانية ازدهار الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة.

ومما زاد في تعقيد الوضع، توافق الصحوة الثقافية السودانية مع بداية انهيار الثقافة والحضارة الإسلاميتين وما رافق ذلك من اكتساح أوربا المسيحية للشواطئ الأطلنتية، مما أثر على المحاور التجارية الصحراوية بشكل جدي.

لقد خاض الإسلام في بلاد السودان تجربة محرومة من جل الوسائل الفعالة التي يمكن أن تدعم موقعه في المنطقة، كما لم تتوفر له أدنى الشروط التاريخية لنجاحه . وعلى الرغم من ذلك، تمكن من اختراق الحاجز الحديدي الذي تمثله الصحراء، وانتشر بين فئات واسعة من المجتمع السوداني، ثم ما لبث أن أصبح يشكل المرجعية الأساسية للدولة السودانية منذ عهد مالي خلال القرن 13م. وفي عهد سنغاي تشكلت نخبة متنورة عميقة التأثر بالثقافة العربية الإسلامية، خاصة في جني وتنبكت، وانتقلت بالمجتمع السوداني من مرحلة التلقي والاستيعاب إلى مرحلة العطاء والإنتاج الثقافي وذلك منذ بداية القرن 16م، فظهرت أسماء مثل الفقيه القاضي محمود كعت الذي بدأ عملية تأليف" تاريخ الفتاش"، ثم برز المؤرخ باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانْوا، الذي نجهل عنه كل شيء تقريبا، وهو صاحب تصنيف تاريخي ما يزال مجهولا لدينا: " درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان".

وما كاد القرن 17م يطلّ علينا حتى برزت أسماء وازنة في الثقافة العربية الإسلامية، نخص بالذكر منها أحمد باب صاحب التآليف المشهورة في العالم الإسلامي، وعبد الرحمان السعدي صاحب "تاريخ السودان".

## الهوامش :

(1) تعتبر مسألة الحدود قبل العصر الحديث، من القضايا التي يصعب تحقيقها. وبصفة عامة، فإن المجال الصحراوي الذي يعنينا هو المجال الذي كانت تشغله القبائل الصنهاجية والزناتية. وينحصر هذا الفضاء فيما بين شط الجريد والأطلس الصحراوي ووادي درعة إلى سوس من الشمال، ومن بحيرة التشاد أو بالأحرى من الحوض الأوسط لنهر النيجر إلى مصب نهر السنغال من الجنوب. وعن القضايا المرتبطة بمسألة حدود ببلاد المغرب وبلاد السودان، انظر:

أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني : امبراطورية مالي (1230-1430). أبو ظبي: الإمارات العربية المتحدة، المجمع الثقافي، 1999. صص 57-75.

(2) نقصد الصحراء قبل دخول وانتشار الجمل بها خلال القرن الثالث للميلاد، في حين نقصد المحيط الأطلسي قبل بداية الكشوفات الجغرافية الإيبيرية.

Niane D. T., L'interdépendance des Empires Soudanais et Etats Maghrébins aux XI-XIVe siecles. In Actes du IV éme Colloque Euro-Africain sur l'Histoire du Sahara. Bergano-Italia, 1986, p 125.

(4) نحيل هنا على مؤلف يوسف كيوك:

(5)انظر:

Cuoq J., R. Recueil des sources Arabe concernant l'Afrique Occidental du 8 au 16e siècle (BILLAD AL-SUDAN. Paris, CNRS, 2éd, 1985.
Mauny, R.,Tableau Géographique de l'ouest Africain au moyen-âge. Mém. De L'IFAN., N° 61, DAKAR 1961. pp. 336-343, 379, 520- 525, 536, 541-545.

(6)ابن حوقل ، صورة الأرض. بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979، ص 91. وانظر كذلك:

البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك. باريس، ميزونوف، 1965. ص168. ومسيرة يوم = المرحلة = 30 إلى 40كلم. وهناك عدة معطيات مختلفة ومتنوعة ( طبيعية ومناخية وسياسية واجتماعية) تتحكم في مسيرة اليوم الواحد.

(7)ابن حوقل، صورة الأرض. ص 100.

8)كانت الحيات والثعابين تشكل تهديدا خطيرا على حياة المجتازين للصحراء. انظر: ابن سعيد، كتاب الجغرافيا. بيروت، 1970. ص112، 114. وابن بطوطة، تحفة النظار...، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985، ج ، ص775. ليون الإفريقي، وصف إفريقيا. بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. 2، 1983. ج 2 ص148. وقارن مع كلام الشنقيطي عن أنواع الحيات بشنقيط ومدى خطورتها: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط. القاهرة، 1958، ص536.

(9)كما يذكر الإدريسي فإن قلة شدة الحر هي سبب سفر التجار في فصل الخريف، بيد أن هناك سببا آخر ذكره ليون الإفريقي ويتمثل في كون الصحراء خلال فصل الخريف تشهد تساقطات تسمح بظهور مراعي، فتستغلها القوافل في رعي إبلها. انظر:

- الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس )النزهة) ، ليدن، بريل 1968. ص 32.

- ليون الإفريقي، وصف إفريقيا ، ج1، ص81.

(10)الإدريسي، النزهة، ص31-32. وقارن مع أقوال ابن سعيد عن نيسر، ص 133.

(11)ويساير ليون الإفريقي كلام ابن بطوطة، حيث يقول عن رحلته من ولاتة إلى القاهرة (ج1 ص77) :" كنا تارة نضل الطريق إلى مكان الماء بسبب خطأ الدليل، فنضطر إلى ادخار الماء لنكتفي منه طوال عشرة أيام باستعمال ما كنا أعددناه لخمسة أيام".

(12)انظر قصة التاجر الذي اشترى بصحراء أزواد قدحا من الماء بعشرة آلاف مثقال، وعلى الرغم من ذلك مات مع الذي باعه إياه. انظر: ليون الإفريقي، وصف إفريقيا ،ج1 ص76.

(13)ابن بطوطة، تحفة النظار، ج2 ص773-776.

(14)ليون الإفريقي، وصف إفريقيا ، ج1 ص144-149. والميل: ألفا ذراع عند العرب، وألف خطوة عند الرومان، وهو يساوي نحو 1340 متر.

(15)ليون الإفريقي، ج1 ص76. وهذه الرياح يمكن أن تغطي مدينة بأكملها، ويمكن أن تلحق أضرارا بالغة باعتدائها على القوافل( الإدريسي، ص35، 42) . كما يمكنها أن تبخر كل الماء الذي تستعين به القافلة على الطريق، وحينئذ يضطر أصحاب القافلة إلى نحر بعض جمالهم لاستخراج الماء من بطونها بهدف استهلاكه، وذلك في انتظار العثور على بئر أو يهلك المسافرون عطشا (ليون الإفريقي، ج 1 ص76). وقارن مع أقوال ابن بطوطة عن خطورة هذه الرياح، وشياطين الصحراء: تحفة النظار ،ج2 ص77.

(16)يقدر ريموند موني عدد العبيد الذين كانت تجلبهم أسواق بلاد المغرب من بلاد السودان طيلة العصر الوسيط ب000 20سنويا. وبهذا الرقم حاول مؤرخنا إقناعنا - بموضوعية زائفة وذكية - أن تجارة الرقيق البرتغالية مع بلاد السودان خلال القرنين 16 و17م، إنما هي امتداد لتجارة الرقيق الإسلامية مع المنطقة. والواقع أن هذه الفكرة الملغومة لا تملك أية مصداقية. انظر:

- Mauny, R.,Tableau Géographique de l'ouest Africain au moyen-âge. Mém. De L'IFAN., N° 61, DAKAR 1961. pp. 336-343 et 379.

(17)انظر كيفية استعداد ابن بطوطة قبل إقدامه على اجتياز الصحراء في طريقه إلى مملكة مالي، تحفة النظار، ج 2 ص772-773.

(18)من المخاطر التي لا تأتي على ذكرها المصادر الوسيطية، أودية الرمال، حيث يمكن أن يغوص فيها الراحل براحلته، وحينئذ يهلك ما لم ينقذه أحد. انظر: الشنقيطي، الوسيط...، ص 472. وننبه هنا أننا لم نلتفت إلى المشاكل البشرية في الطرق الصحراوية مثل اعتداء قطاع الطرق والمرتزقة على القوافل. وقد برز هذا المشكل بشكل خطير بعد القرن 8هـ/14م. انظر ليون الإفريقي ج1 ص77 وج2 ص112.

(19)ابن بطوطة، ج2 ص776.

(20)كانت رحلة ليون الإفريقي إلى بلاد السودان عام 917هـ/ 1511م. والعبارة التي تدلنا على حسرته تلك جاء فيها:" وإذا أردنا أن نذكر تفاصيل سفرة واحدة [ من تلك التي قمنا بها في الصحراء] فلا بد أن نكتب مجلدا من مائة صفحة. وصف إفريقيا، ج1 ص77.

(21)خلال القرن الرابع الهجري (10م) وما بعده، أصبحت تتوفر لدينا معلومات غاية في الأهمية حول النظام الذي يحكم المواصلات القافلية فيما بين ضفتي الصحراء. وحسب ابن حوقل في إحدى إشاراته العرضية، نتأكد من أنه كانت هنالك تقاليد قديمة تحكم نظام القوافل، تعود لفترة ما قبل القرن 2هـ/ 8م. انظر، صورة الأرض، ص 96. وتجد في نفس المصدر (ص65، 143) توضيح ابن حوقل لأسباب اندثار الطريق الصحراوي بين مصر وغانة خلال القرن الرابع الهجري/ 10م.

(22)البكري، ص174. ابن خلدون، مقدمة العبر، ص 706-707.

ومعلوم أن تجار بلاد المغرب، هم الذين احتكروا تصريف أمور التجارة الصحراوية طيلة العصر الوسيط. في حين لم يتمكن السودانيون - في خلال نفس الفترة - من تشكيل قافلتهم التجارية، والوصول بها إلى سجلماسة أو غيرها من مراكز التجارة المنتشرة على الضفة الشمالية للصحراء.

(23) لا يعتبر إبراهيم القادري بوتشيش بجبروت الصحراء وبالتالي لا يقبل تبرير طلبة أبي عمران الفاسي؛ انظر مقاله: خبايا رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الحج )حوالي 427 هـ) . في أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة الندوات، جامعة المولى إسماعيل: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية ، المغرب، 1993، ص259.

(24)الأسماء المعروفة لدينا هي: ابن حوقل، ابن بطوطة، ليون الإفريقي.

(25)ابن عذاري، البيان المغرب، ج1 ص258. وقسم الموحدين، ص30. ابن خلدون، العبر، المجلد 5، ص47، 109-110.

(26)ابن سعيد، ص 90. ابن خلدون، المجلد 6، ص 194-195.

(27) باستعراض المادة المصدرية المتوفرة لدينا، يتبين لنا بجلاء أن نصوص الجغرافيين والرحالة، تدلنا على معرفتهم بالصحراء ومعطياتها الواقعية. في حين نجد في الكتابات ذات الصبغة الأدبية (مثل ابن عذاري، وعبد الواحد المراكشي، وابن أبي زرع، والمالكي، والتادلي، والحميري)

اقتصادا في إشاراتها للصحراء أو الأحداث التي مجالها الصحراء. وما من شك في أن السبب الأساس لهذا الاقتصاد، إنما يعود إلى ضعف معرفة هذه الفئة بالمعطيات الجغرافية والبشرية للصحراء. من ثمة، أخذ مصطلح الصحراء في كتاباتهم دلالة أدبية رمزية (= النفي) أكثر منها جغرافية واقعية.

(28) سُئِل أحد زعماء صنهاجة عن الموضوع قبل بداية الحركة المرابطية، فعلّق قائلا:"[...] لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم [...]". على أن هذا التصور لا يلغي من حساباتنا الحالات الاستثنائية التي تؤكد جمع التاجر ما بين دوره الأساسي ودور الداعية. لكن هذه الحالة تمثل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ليس إلا. انظر: ابن عذاري، ج 4 ص7.

(29) إذا غضضنا الطرف عن المدن التي لم تقاوم الزمن مثل غانة ونياني عاصمة مالي وزاغة، فإن حصيلة أهم المدن طيلة العصر الوسيط تبدو ضعيفة جدا، بحيث لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة، وأشهرها: ولاتة، وتنبكت، وجني،وكوكو ( ـساو). ونلفت انتباه القارئ بهذا الصدد، أن الكثير من المراكز الحضرية التي حدثنا عنها البكري (القرن 11م) ثم الإدريسي(القرن 12م)، لم يعد لها أثر خلال القرن 13م.

(30) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. ليبسك .1923ص268.

(31) إن قضية العدد بهذا الشأن لها أهمية قصوى، ويكفي أن نشير هنا إلى أن اجتياح قبائل بني هلال وسليم للفضاء الشنقيطي، كان له الأثر الواضح في تعرب أهالي المنطقة. انظر: أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ، ليبيا: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية 1995. الفصل الثاني، صص71-81.

(32) تحفة النظار،ج2، ص786. وصف إفريقيا، ج2، ص160.

(33)المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974. صص22-24.

(34) السيوطي، الحاوي للفتاوي، القاهرة: مكتبة القدسي 1351هـ. ج1،صص285-288.

# التواصل الثقافي في الفضاء العربيالأفريقي :
# نموذج من شمال أفريقيا

علي الحوات *

## مقدمة

إن المتتبع لمنطقة شمال أفريقيا بكل بلدانها و مجتمعاتها يلاحظ أنها من أهم المناطق و الأقاليم أو الوحدات في الفضاء العربي الأفريقي ، فقد استقبلت هذه المنطقة الثقافة العربية الإسلامية ممثلة أساساً في الإسلام ، و أرسلتها لكل مناطق أفريقيا تقريباً خاصة منطقة غرب ووسط أفريقيا أو ما يُعرف بالسودان الغربي في الجغرافية الأفريقية القديمة ، كما أن هذه المنطقة " شمال أفريقيا " استقبلت الكثير من الأفارقة الذين جاءوا للعلم أو التجارة أو العيش و الاستقرار أو المرور قاصدين حج بيت الله الحرام و زيارة المدينة المنورة و كثير من هؤلاء الحجاج استقر في المنطقة ، و إلى يومنا هذا تعتبر بلدان شمال أفريقيا مستقراً لكثير من الأفارقة الذين يأتون إليها للعلم و التجارة و العمل أو السفر و العبور إلى مناطق أخرى في العالم خاصة الهجرة إلى أوروبا و العالم الغربي بصورة عامة ، و لذلك فإن هذه المنطقة لها تأثيرات واسعة وعميقة على التواصل الاجتماعي و الثقافي في الفضاء العربي الأفريقي و كذلك في العلاقات الأفريقية الأوروبية ، بمعنى أن علاقات أفريقيا بأوروبا و العكس متأثرة بشكل أو آخر بمنطقة شمال أفريقيا، و هذا الوضع لم يكن من صنع الحاضر، و لكنه بكل تأكيد من تراث التاريخ الماضي و صنعه أيضاً ، و هذا ما يدفعنا إلى الاهتمام بهذه المنطقة من أفريقيا و اعتبارها إحدى المناطق المهمة و المؤثرة ليس في الفضاء العربي الإفريقي فقط، بل و أيضاً في علاقات الغرب و الحضارة الغربية بأفريقيا. وهذا يتأتى من ميزتين رئيسيتين : الأولى أن شمال أفريقيا هي البوابة الجنوبية للعالم

*أستاذ علم الاجتماع بجامعة الفاتح طرابلس ـ ليبيا ونائب رئيس الجامعة المغاربية " جامعة المغرب العربي"

الغربي، والثانية أن الغرب أو الحضارة الغربية لا تستطيع أن تبني علاقات بأفريقيا. مهما كانت بدون رؤية و دور فعال وأكيد لشمال أفريقيا ، بل و شراكة فعالة و نشطة؛ و لكل ذلك، نعتقد أن النظريات و الدعوات التي تفصل شمال أفريقيا عن بلدان ما وراء صحرائها الكبرى جغرافياً و بشرياً و ثقافياً هي نظريات مخطئة أو متحيزة تفتقد الرؤية الشاملة ، والأصوب بدلاً من ذلك، الاعتراف بحقيقة الامتداد الطبيعي و البشري والثقافي و الاجتماعي لشمال أفريقيا مع بقية أجزاء القارة ، فهذا الوضع نعتقد أنه من خصائص الجغرافية و التاريخ ، و الصحراء الكبرى التي ينظر إليها عازلاً بين جزأيْ أفريقيا ، لم و لن تكون عازلاً حقيقياً فقد عبرها الأفارقة و بكل ألوانهم و أجناسهم، بقوافلهم من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال . و يبدو اليوم أن هذا الحاجز الصحراوي وهم و سراب لا يمنع الاتصال و الاتصالات ، و وسائل المواصلات الحديثة تعزز هذا الاتصال و التغلب على المساحات الجغرافية ، و لذلك و مهما كانت المبررات و الحجج فإن أفريقيا بشمالها و ما وراء صحرائها الكبرى و بكل ألوانها وأطيافها هي إقليم جغرافي واحد و فضاء اجتماعي و ثقافي واحد و إن تعددت فيه اللغات و الثقافات و الألوان ؛ فهذا التعدد مصدر غناء و ثراء حضاري إنساني ، فالأفارقة يشكلون أرضية واحدة و عقلية متقاربة ، و بالتالي من الأفضل ألا ننظر إليهم كفرقاء ، بل يجب أن ننظر إليهم كشركاء و لأسباب مختلفة قد لا تقبل بذلك ، إلا أن منطق الجغرافيا و التاريخ و الدين و الحضارة يجعلنا أخوة في أسرة واحدة مهما اختلفنا و مهما اتفقنا ، فالاختلاف و الاتفاق من طبائع الأشياء و حقائق الحياة .

و انطلاقاً مما سبق تسعى هذه الورقة إلى الإجابة على التساؤل الرئيسي الآتي ؛ ما هي طبيعة و واقع التواصل الثقافي بين العرب و الأفارقة في الماضي ؟ و ما هي التحديات و المشكلات التي يطرحها في الحاضر ؟ و كيف يمكن التغلب على هذه التحديات و زيادة فرص التواصل الثقافي بين الطرفين ، مع الإشارة إلى نموذج من شمال أفريقيا ؟ .

## التواصل الثقافي

على الرغم من أن مسألة التواصل الاجتماعي و الثقافي عامة و غير محددة ، ويمكن أن تعني تواصل جماعات أو أفراد أو مؤسسات أو بلدانٍ و تأثرها ببعضها بعضاً ، إلا أن التواصل مهما كانت طبيعته و أغراضه لابد أن يتضمن أطرافاً و عناصر يتم بواسطتها التواصل و الاتصال ، و تتم عملية التأثير و التأثر بين أطراف و عناصر التفاعل و التواصل ، و لغرض هذه الدراسة فالمقصود بالتواصل الاجتماعي و الثقافي هو العملية التاريخية أو العملية المعاصرة التي في إطارها تم و يتم تفاعل و اتصال الثقافة الإفريقية بالثقافة العربية الإسلامية ، و بطبيعة الحال و من منطق التحليل العلمي فإن مثل هذا الاتصال أو التواصل لا يعني أن طرفاً أو عنصراً أفضل أو أقوى من الآخر ، و لكن جميع الأطراف و العناصر متساوية، و لكنها تؤثر في بعضها بعضاً بحسب مقتضيات الحاجة و الفترات التاريخية ، و بحسب مقتضيات النماذج و الاندماج الحضاري و الثقافي بين الجماعات الإنسانية ، فكل عنصر أو طرف في التواصل يؤثر و يتأثر بالآخر .

و المقصود بالفضاء العربي الإفريقي في هذه الدراسة ؛ هو ذلك الإطار الجغرافي والنفسي و العقلي و الثقافي الذي يجمع بين العرب و الأفارقة ، و يستبعد هذا التعريف كل معاني الأفضلية أو العنصرية أو العرقية، و لكنه يعترف بالاختلاف الثقافي والاجتماعي و الخصوصية لكل وحداته الصغرى و أطرافه المتعددة ؛ و من هنا فهذا الفضاء العربي الإفريقي لا يعني مساحة جغرافية محددة أو حدوداً سياسية أو إدارية بقدر ما يعني عقلية و ثقافة متجانسة و متقاربة تنطلق من مصادر و منابع تكاد تكون واحدة ، و هذه الذهنية أو العقلية تكونت خلال مسيرة تاريخية طويلة قوامها مئات السنين من التواصل و التأثير و التأثر والتفاعل ، فهي إذن تشكل قاسماً مشتركاً اجتماعياً و ثقافياً و بشرياً متقارباً على أساسه يمكن أن يتحدد الفضاء العربي الإفريقي، و على أساس هذا القاسم المشترك يمكن أن تبنى أيضاً نظمٌ و مؤسسات اجتماعية تعمل من أجل تعزيز ودعم هذا التواصل و توظيفه لصالح جميع الأطراف المتفاعلة فيه سواء أكانوا عرباً أو أفارقة ، و سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين أو

يدينون بالديانات الطبيعية الإفريقية . و سواء أكانوا يميلون إلى الثقافة الإفريقية الأصيلة أو يميلون إلى الثقافة العربية الإسلامية أو يميلون إلى الثقافة الإفريقية المتأثرة بالثقافة المسيحية الأوروبية و الغربية .

والمهم في افتراضات هذه الدراسة الأساسية أن الفضاء العربي الإفريقي يشكل إطاراً حضارياً و اجتماعياً و ثقافياً و سياسياً له حدوده وله واقعه و خصائصه وديناميكيته و طموحاته و رؤيته للماضي و الحاضر و توجهات المستقبل .

و بطبيعة الحال، فإن مثل هذا التحديد بقدر ما يميز هذا الفضاء و يعطيه هوية وخصوصية ، فإنه لا ينكر المشاكل و الصعاب و المؤثرات التي قد تنشأ أو تحدث بفعل التواصل و رؤى الحياة و إيجاد حلول لمشاكلها . و المهم إن هذا الفضاء يقف على أرضية مشتركة و يتقارب و يتفاعل مع ذاته و مع الآخرين بهوية مميزة نسميها لاعتبارات هذه الدراسة الفضاء العربي الإفريقي ، و هذا الفضاء ليس بالضرورة أن يكون ثابتاً و جامداً ، بل هو متحرك و متغير و مؤسس في تفكير العرب و الأفارقة أينما كانوا و ذهبوا في العالم ، فهو شعور دائم و حالة عقلية لها طبيعتها و خصائصها ورؤيتها لأمور العالم و الحياة الحاضرة و المستقبلية ، و هذا ينفي التعريف التقليدي للفضاء العربي الإفريقي الذي يتحدد بالجغرافيا؛ فهو أكثر من وحدة جغرافية، إنه وحدة فكرية و ثقافية تعزز فلسفة و معايير و ثقافة مميزة لكل سكّان هذا الفضاء سواء أكانوا في إطار الحدود الجغرافية لهذا الفضاء أو كانوا مهاجرين متنقلين في مختلف أنحاء العالم ، فهو أشبه بتعريف الأمة بالمعنى الحضاري و الثقافي و ليس بالمعنى الإداري أو الجغرافي الحرفي للمصطلح .

## التواصل بين العرب و الأفارقة : نظرة إلى الماضي

لم يكن التواصل بين العرب و الأفارقة حديثاً أو جديداً أو من صنع السياسة والساسة ، إنه قديم قدم التاريخ و الإنسان في هذه المنطقة من العالم ، ونود بداية أن نشير إلى أن معظم الباحثين و الدارسين العرب عندما يعالجون هذا الموضوع ينطلقون من فرضيات و مسلمات تاريخية و حضارية ، و هي أن التواصل بدأ و جاء من طرف واحد

و هو العرب ، فالعرب هم الذين ذهبوا إلى أفريقيا ، و هم الذين حملوا إليها دينهم الإسلام ، و هم الذين غيروا وجه الحياة في أفريقيا؛ و هذه فيما نعتقد فرضيات ومسلمات يجب أن تناقش و تنتقد لعدة أسباب منها ؛ أن الاتصال بين العرب و أفريقيا قديم جداً و ربما قبل ظهور الإسلام و لا شك أن ظهور الإسلام زاده قوة و ثراء و كثافة و لكنه موجود بحكم الجغرافية و المكان ، فهناك من المؤرخين من يرى أن أفريقيا والجزيرة العربية كانت إقليماً أو أرضاً واحدة ، و أن ظهور البحر الأحمر في العصر الجيولوجي الثالث هو الذي فصل المنطقتين و جعلهما يظهران و كأنهما إقليمين منفصلين ، و لكن هذا البحر صغير و لا يعجز الإنسان عن عبوره قديماً و حديثاً ؛ وإضافة إلى ذلك هناك من المؤرخين من يقول إن الصحراء ، و الدلائل الجغرافية والتاريخية تؤكد أن هذه الصحراء الكبرى ، لم تكن صحراء في العصور القديمة بل كانت مليئة بالماء و النبات و الحيوان و الإنسان ، و تكّون حضارة و مستوطنات بشرية يعيش فيها الإنسان سواء أكان إفريقياً أو عربياً أو ما يعرف بالقبائل الليبية القديمة التي كانت تستوطن و تعيش في المنطقة الواقعة بين شمال أفريقيا و الصحراء الكبرى[1]. إضافة إلى ما سبق، فإن التأسيس على فرضية أن العرب هم الذين جاءوا إلى إفريقيا و أعطوها دينهم و حضارتهم و ثقافتهم كثيراً ما يزعج إخوتنا الأفارقة ويعطيهم الشعور والإحساس بتعالي العرب عليهم ، و بأنهم أشبه بالمستعمرين الذين جاءوا إلى إفريقيا؛ فنظرة العرب دائماً على أنهم هم المؤثرون في إفريقيا في الماضي و الحاضر يخلق انعكاسات سلبية على العلاقات العربية الإفريقية ، إذ كما أشرنا منذ قليل فإن هذا الطرح يدفع الأفارقة إلى تكوين صورة هي أشبه بصورة المستعمر العربي في الماضي، و هم يفرضون اليوم لغتهم ووجهة نظرهم ، و بدون شك فإن لهذا الشعور لدى الإفريقي ردود فعل سلبية تجاه العرب و الثقافة العربية، بل تجاه البلاد العربية بأسرها؛ و لو حللنا و درسنا دعوة سنجور في السنغال للزنجية و الثقافة الزنجية لوجدنا أن جزءاً منها مدفوع بهذا الإدراك الإفريقي للعرب و الثقافة العربية ، و هذا مع الإشارة إلى أن الإسلام خفف و يخفف من هذا الإدراك الإفريقي السلبي للعرب خاصة في الأوساط الأفريقية التي تدين بالإسلام[2]. و على أية حال، إن أفريقيا و الثقافة الإفريقية كانت و لا تزال طرفاً قوياً في هذا التواصل الحضاري العربي الأفريقي و قدمت وأعطت،

أي أفريقيا، الكثير من مظاهر الحضارة و الثقافة للعرب و مجتمعاتهم و حضارتهم ؛ فقد أسهم الأفارقة على سبيل المثال قديماً في الثقافة العربية ، و في الدولة العربية وفي الحياة الاجتماعية و الاقتصادية العربية، فمنهم التجار و العلماء و الفقهاء والمزارعون والجنود والعمال الذين جاءوا إلى شمال أفريقيا و استقروا فيها إلى يومنا هذا، بل وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من التكوين السكاني لشمال أفريقيا بل والوطن العربي بأسره. و لذلك فإنني أعتقد أن بحوث التواصل الثقافي و الاجتماعي بين العرب والأفارقة التي تتم في المؤسسات و الجامعات العربية يجب أن تغير و تعدل من منهجيتها وتبحث الأمور في سياق التواصل المتكافئ و الأفقي و ليس العمودي، وتبحث في العناصر الأفريقية التي دخلت وعززت الحضارة العربية و أغنتها بدلاً من التركيز فقط على العناصر العربية التي دخلت الثقافة الإفريقية، و مثل هذا التغيير في منهجية البحث العلمي الذي يقوم به العرب في أفريقيا السوداء سيساعد على إظهار حقيقة التواصل ، و يسد الباب على كثير من النظريات التي دائماً تصور العرب و كأنهم مستعمرون ذهبوا لأفريقيا السوداء في الماضي ليستعمروها و يستغلوا مواردها الطبيعية ( الملح و الذهب )، و البشرية ( تجارة الرقيق ) ؛ و على أية حال لعلنا نسأل كيف بدأ التواصل العربي الأفريقي ؟ إن هذا التواصل كما قلنا لم يكن حديثا أو جديداً، إنه قديم جداً . فيقال من أوائل العرب الذين وصلوا إلى أفريقيا في القرن الخامس ق .م الفينيقيون الذين وصلوا إلى منطقة السنغال في غرب أفريقيا، و ربما كان الاتصال و التواصل متساوياً و بدون حدود و قيود بين أفريقيا والجزيرة العربية قبل ظهور البحر الأحمر؛ إن هذه الوحدة الجغرافية بين أفريقيا و الجزيرة العربية برغم فاصل البحر الأحمر تجعل هذه المنطقة فضاءً جغرافياً و اجتماعياً و ثقافياً واحداً يتفاعل فيه البشر و يؤثر في بعضهم بعضاً. فالافتراض الأساسي في هذه الدراسة أن هناك ترابطاً و تداخلاً بين أفريقيا والجزيرة العربية، و مما يؤيد ذلك هو شدة التشابه العرقي واللغوي و الثقافي بين الشعوب الناطقة باللغات الحامية والكوشية، و الشعوب الناطقة باللغات السامية ( كالعرب والأمهرة والنقري )، و هذا التشابه جعل الكثير من الباحثين يستنتجون أن هاتين المجموعتين العرب و الأفارقة قد عاشتا في موضع واحد وربما تنتميان في أصولهما البعيدة إلى شعب واحد . وتنتشر المجموعة الناطقة باللغات

الحامية على السواحل الشرقية و الشمالية لأفريقيا، و تتكون من الصومال و الفالا وبعض الإريتريين و البجا و النوبيين و قدماء المصريين و البربر، و تضم بعض هذه اللغات قدراً من الكلمات العربية ، و تؤكد هذه الصلات العرقية و اللغوية مهما كانت درجتها بين سكان جزيرة العرب و سواحل أفريقيا الشرقية أنه تم تبادل التأثير الثقافي بين المجموعتين و بشكل كبير و عميق(3)، و الملاحظ أنه نتيجة للصلات التي وطدها و عمقها الإسلام بين العرب و الأفارقة و التي وصلت حد الاختلاط البشري و التزاوج العرقي ظهور جنس جديد هجين بين العرب و الأفارقة هو الجنس السواحيلي الذي يدين بالإسلام و يتكلم اللغة السواحيلية التي تولدت نتيجة لاختلاط اللغة العربية بلهجات قبائل البانتو و التي اشتملت على عدد كبير من الكلمات العربية ، و يتكلم هذه اللغة اليوم أكثر من خمسين مليوناً من الأفارقة .(4)

و إلى جانب التاريخ ؛ فقد شكلت الجغرافية و لا شك عاملاً قوياً في بناء الفضاء العربي الإفريقي ، فالجوار كما أشرنا بين الجزيرة العربية و أفريقيا سهل الاتصال والتواصل، و نتيجة لذلك ظهرت طرق و منافذ ربطت أجزاء هذا الفضاء ببعضها بعضاً تاريخياً، و من أهمها ما يلي :

1- طريق بلاد اليمن و حضرموت و البحرين و الإحساء إلى الساحل الإفريقي الشرقي و مصوع و بربرة، و شكل هذا الطريق جسراً من التواصل و الاتصال بين العرب وأفريقيا، و بسبب تأثيرات الهجرات الذاهبة من الجزيرة العربية إلى أفريقيا ، و من أفريقيا إلى الجزيرة العربية ظهرت مدينة مقديشو على ساحل المحيط الهندي ببلاد الصومال ، وامتدت تأثيرات هذه الهجرات إلى زنجبار و تأسست مدينة كيلو بتنزانيا الآن، و كذلك إلى كينيا و أوغندا و إلى أقصى جنوب القارة الأفريقية (5). و قد شكل هذا الطريق خطاً مزدوجاً في الاتجاهين بمعنى: هناك الكثير من الهجرات الأفريقية التي وصلت إلى الخليج العربي و الجزيرة العربية و نقلت معها ثقافتها الأفريقية و كل مظاهر حياتها الاجتماعية ، و بفعل التاريخ و الزمن اندمجت هذه الهجرات الأفريقية في المحيط الاجتماعي و الثقافي للمنطقة و أصبحت جزءاً من مجتمعات هذه المنطقة إلى يومنا هذا. و العكس أيضاً هناك هجرات عربية من الجزيرة العربية و الخليج إلى شرق

أفريقيا، حيث استقرت هذه الهجرات إلى يومنا هذا و أصبحت جزءاً من التكوين السكاني لمنطقة شرق أفريقيا .

2 ـ طريق أفريقيا الشمالية و الغربية؛ تعتبر شمال أفريقيا و غربها من أهم نقاط ومحطات الاتصال و التواصل في الفضاء العربي الأفريقي، و يرجع ذلك في نظرنا إلى أن منطقة شمال أفريقيا وغربها كانت و لا تزال من أهم نقاط و حلقات الاتصال والتواصل بين العرب و أفريقيا جغرافياً و حضارياً ، فمن الناحية الجغرافية يتم الاتصال في نفس الإقليم و المحيط دون فواصل أو حواجز جغرافية فعلية، و هذه الحقيقة سهلت و لا تزال تسهل انتقال السمات و العناصر الحضارية و الثقافية بين مختلف أجزاء وجماعات هذا الإقليم الجغرافي الواحد .إن المتتبع سواء في الماضي أو الحاضر لنتائج هذا التواصل، يلاحظ بكل سهولة السمات و الخصائص الحضارية التي انتقلت مع الحركة البشرية الأفريقية العربية سواء تلك الذاهبة من شمال و غرب أفريقيا إلى جنوبها و وسطها ، وحتى منطقة ما يُعرف في القديم بالسودان الغربي ، أو تلك الهجرات الإفريقية المتجهة من وسط أفريقيا وغربها إلى مناطق الشمال الإفريقي على البحر المتوسط . فكيف نضع حدوداً و فواصل مثلاً بين جنوبي الجزائر و ليبيا و بقية أفريقيا ؟ أو كيف نضع حدوداً و فواصل مثلاً بين جنوب المغرب وبقية أفريقيا و خاصة الإقليم الغربي منها ؟ و لا شك أن الإسلام وما ترتب عنه من نتائج اجتماعية و سياسية و ثقافية لعب دوراً كبيراً في نمو و تطور هذا الاختلاط و التواصل و الاندماج بين العرب والأفارقة في هذا الجزء من الفضاء العربي الإفريقي ، وكما تؤكد الدراسات الاجتماعية والتاريخية، فقد أدى هذا الطريق الذي انطلق من شمال أفريقيا والشمال الغربي لأفريقيا إلى الاختلاط البشري بين العرب والأفارقة و وصل إلى حد التزاوج واختلاط الدماء العربية و الإفريقية. وأدى إلى ظهور جماعات مختلفة الأعراق والألوان، تختلط في ثقافتها وحضارتها و أنماط معيشتها، الثقافة الإفريقية الأصيلة والثقافة العربية الإسلامية التي وصلت إلى المنطقة. و بهذا الصدد لا ننكر عناصر الثقافة الأوروبية الغربية التي وصلت إلى إفريقيا و التي بدون شك في التحليل العلمي الاجتماعي قد أثرت و تأثرت بما وجدته من حضارة وثقافة مهما كانت في القارة الإفريقية ، و هنا

نستبعد التحليل المعتاد الذي يفصل بين الحضارة الغربية و الحضارة الإفريقية، فلا شك أن للحضارة الغربية تأثيراتها في إفريقيا، و يجب أن يؤخذ ذلك في الحسبان عند أي مستوى من التحليل الثقافي في تواصل أفريقيا مع غيرها من الشعوب والحضارات؛ ومهما كان الموقف، فالمهم في هذا التحليل الاعتراف لإفريقيا بدورها الحضاري؛ و تأثيرها الثقافي في الحضارة الإنسانية العالمية سواء العربية منها أم الغربية .

**التواصل بين العرب و الأفارقة : نظرة إلى الحاضر و تحدياته**

برغم كثافة وعمق التواصل الثقافي و الحضاري بين العرب و الأفارقة في الماضي و الحاضر ، فإن هذه الدراسة لاعتبارات المكان و لاعتبارات علمية تركز فقط في هذا الجزء على التواصل الثقافي بين شمال أفريقيا و بقية أجزاء القارة ، و خاصة منطقة الساحل و الصحراء و غرب أفريقيا و كثيراً ما يعرف هذا التواصل في دراسات التاريخ و الأنتربولوجيا بنموذج الصحراء الكبرى ، و هو نموذج متميز له خصوصياته تاريخياً و في الوقت الحاضر(6). و على أية حال فإن هذا التواصل الثقافي و الحضاري تواجهه اليوم تحديات و صعوبات أبرزها في نظرنا ما يلي :

**1ـ تحديات الثقافة**

برغم أن الثقافة و عناصرها المختلفة تشكل وسيلة للتواصل الثقافي بين جميع أمم و مجتمعات العالم ، و بما في ذلك مجتمعات أفريقيا في جميع أقاليمها الشمالية والجنوبية ، فإن الملاحظ أن تطور الثقافة و خاصة الآن يثير تحديات و مشكلات تتمثل في أن الخارطة الثقافية في أفريقيا بما في ذلك شمالها متعددة و متنوعة بتعدد و تنوع القبائل و الأعراق و التأثيرات الثقافية نفسها ، إلى جانب ذلك فإن تطور الثقافة حالياً أخذ مسارين رئيسيين: الأول ؛ مسار الثقافة الحديثة العصرية المتأثرة بالغرب و موجات العولمة الثقافية. و الثاني؛ هو مسار الثقافة الإفريقية الأصلية المتأثرة كثيراً بالماضي والتاريخ الإفريقي . هذان المساران الثقافيان كثيراً ما يشكلان تحدياً للتواصل الثقافي ليس في نموذج شمال أفريقيا، بل في كل أفريقيا تقريباً، و يتمثل

هذا التحدي في انقسام العقل الإفريقي ، فإذا حاول العرب و المسلمون نشر ثقافتهم وجدوا صعوبة في قبولهم و خاصة في أوساط الأفارقة المتأثرين بالحضارة الغربية ؛ وإلى جانب ذلك فالعرب ليس في شمال أفريقيا فقط بل في كل أجزاء الوطن العربي يعتقدون أن الأفارقة المتأثرين بالغرب هم أتباع الاستعمار الغربي و يرفضون العرب والإسلام. و بذات الطريقة يعتقد الأفارقة المتأثرون بالغرب أن العرب يحاولون نشر ثقافتهم و فرض دينهم الإسلامي و لغتهم العربية على الأفارقة ، و من هنا تظهر حواجز عقلية و نفسية و ثقافية حتى لو لم تظهر علناً فهي كامنة في الصمت تعبر عن نفسها في أشكال و مواقف عملية مختلفة . من هنا تظهر حواجز عقلية و نفسية و ثقافية تقف في وجه أي تواصل ثقافي مكثف أو عميق بين العرب و الأفارقة ، و يعزز هذا الشعور بعض الأفراد و المؤسسات من داخل أفريقيا و خارجها خدمة لمصالحهم و أغراضهم الثقافية في المدى القريب و البعيد .

ومن التحديات و صعاب التواصل الثقافي كذلك بين العرب و الأفارقة، ليس في نموذج شمال أفريقيا و جنوبها فقط بل في سياق التواصل الثقافي العربي الأفريقي بأسره، تضارب و اختلاف الرؤى الثقافية لمظاهر الحياة الاجتماعية و السلوك اليومي. فالأفريقي حتى لو كان مسلماً مثلاً، يقوم بالكثير من التصرفات و له عادات و تقاليد مختلفة و قد لا تتفق مع الثقافة العربية، و هو في ذلك متأثر بتراثه الإفريقي الأصيل ، تصرفات وتقاليد يرى فيها العربي المسلم خروجاً عن قواعد و معايير الثقافة العربية الإسلامية ؛ من هنا تنشأ هذه الحواجز العقلية والثقافية . فكل يرى الآخر، بمنظار ثقافي مختلف عن الآخر، والمهم من شأن هذه الحواجز النفسية التي خلقتها الثقافة نفسها أن تعيق التواصل الثقافي فيعتقد العربي أنه ينتمي إلى ثقافة ، و يعتقد الإفريقي غير العربي أنه ينتمي إلى ثقافة أخرى، و يصبح الجميع مقتنعا بعدم التواصل الثقافي بدلا من دعم وبناء سسور هذا التواصل الثقافي.

## 2 ـ تحديات اللغة

من المعروف أن أفريقيا بها مئات اللغات و اللهجات ، بل لكل قبيلة أو عرق لغته أو لهجته.هذا إلى جانب اللغات الثلاث الواسعة الانتشار الآن في أفريقيا: العربية والإنجليزية و الفرنسية. والواقع أن كل لغة تعكس ثقافة و عقلية و تراثاً يؤثر على قيم

الفرد و سلوكه و مجمل نظرته للحياة ؛ هذا بالإضافة إلى تأصل هذه اللغات الثلاث في مؤسسات التعليم و الثقافة و الفن و الأدب، و تخرج كل لغة عقلا و معايير و فكرا مختلفا عن الآخر، خاصة الانقسام الواضح بين العقلية الإفريقية المتأثرة بالثقافة العربية الإسلامية و العقلية الإفريقية المتأثرة باللغتين الفرنسية و الإنجليزية . هذا إلى جانب العقلية المتأصلة في اللغات الإفريقية الأصلية و التي تطالب باستعمال لغاتها الوطنية مثل: الهوسا أو السويحلي في التعليم و الإدارة ؛ و التواصل الثقافي والاجتماعي إزاء ذلك متغير القنوات و متناقض و متضارب ، و كثيراً ما تظهر هذه المشكلة في اللقاءات الرسمية التي يجتمع فيها العرب و الأفارقة ، و عادة ما تحل بواسطة الترجمة الفورية، لكنها تظل أي مشكلة اللغة و اللغات من تحديات التواصل الثقافي السهل في النظام العربي الإفريقي[7].

## 3 ـ تحديات الأيديولوجيا

لعل من أكبر تحديات التواصل الثقافي العربي الإفريقي التحدي الذي تشكله الأيديولوجيا و الفكر خاصة إزاء أيديولوجيا العولمة الآن، فعند تحليل هذه الإشكالية يتضح أن الأيديولوجيا لا تشكل تحدياً أو مشكلة معقدة و عامة فحسب ، بل إن هذه المشكلة في حد ذاتها معقدة و ذات أبعاد و عناصر متشابكة و متداخلة و تؤثر على التواصل الثقافي ليس بين العرب و الأفارقة ، بل بين الأفارقة أنفسهم و العرب أنفسهم، فنظرة عامة على الخارطة الأيديولوجية في أفريقيا يتضح منها وجود أنماط من الأيديولوجيا التي ترتبط و قد تعيق في ذات الوقت التواصل الحقيقي بين العرب والأفارقة و من أهمها ما يلي :

### أ ـ أيديولوجيا السياسة أو الساسة

فمن الواضح أن السياسيين الأفارقة لهم أيديولوجياتهم السياسية و الفكرية التي تقترب أو تبتعد و غالباً ما تبتعد عن العرب و همومهم و أيديولوجيتهم سواء في شمال أفريقيا أو بقية أجزاء الوطن العربي ، فالساسة الأفارقة يضعون دائماً نصب أعينهم بلدانهم و أهدافهم و علاقاتهم الدولية؛ والإقليمية ، وكذلك الساسة العرب لهم رؤيتهم

الأيديولوجية و مصالحهم و علاقاتهم الدولية ، و الواقع أن هذه المشكلة تظهر أشد ما يكون في المواقف الدولية التي تتطلب أخذ مواقف و اتخاذ قرارات، فهي تثير بين العرب و الأفارقة الخلاف أكثر من الاتفاق ، و الانقطاع أكثر من التواصل. و لعل في كثير من المشاكل الإفريقية و الدولية أوضح الأمثلة لاختلاف العرب و الأفارقة و تباعد مواقفهم و أيديولوجياتهم. فيتوقع العرب أن يتخذ الأفارقة نفس مواقفهم أو يؤيدوهم ، و لكن ذلك لا يحصل عملياً أو لا يحدث دائماً ، و الأفارقة بنفس الطريقة يتوقعون أن يساندهم إخوتهم العرب في المواقف التي يتخذونها إقليمياً أو دولياً ؛ هذا و تزداد الصورة تعقيداً و صعوبة بالاختلافات السياسية و الأيديولوجية التي تحدث أو تنشأ بين الأفارقة أنفسهم ، أو تلك التي تظهر بين العرب أنفسهم و فيما بينهم ، و الخلاصة أن هذه مواقف سياسية قد تتغير و تتبدل من آن إلى آخر ، إلا أن لها ظلالها و تداعياتها على التواصل الثقافي سواء الإفريقي - العربي أو الإفريقي - الإفريقي أو العربي - العربي، و ما يثير الاهتمام و قد يؤثر في خارطة التواصل الثقافي في أفريقيا العولمة و ما يمكن أن تحدثه من قنوات الاتصال و التواصل ، فهذا الموضوع إذن جدير بالدراسة والتحليل و له انعكاساته على الأبعاد الأيديولوجية للفضاء العربي الإفريقي و مستقبله.

### ب - أيديولوجيا المؤسسات

تضم أفريقيا كسائر مناطق العالم الكثير من المؤسسات الاجتماعية و الثقافية والاقتصادية و السياسية ، و بطبيعة الحال فإن لهذه المؤسسات أيديولوجيتها و وجهات نظرها في كثير من القضايا و الأحداث و الأعمال ، و هذه الأيديولوجيا المؤسستية قد تتضارب و تختلف ليس مع العرب بل قد تتضارب فيما بينها كمؤسسات إفريقية ، ولعل من أوضح الأمثلة لذلك الأحزاب السياسية الإفريقية و أيديولوجيتها التي قد تتجه نحو اليمين أو اليسار، أو تعبر عن مصالح قبلية أو مهنية، أو تسعى إلى تطلعات سياسية و اجتماعية . إن أيديولوجيا المؤسسات كثيراً ما تكون ثقافتها التي تتكون من رؤى و وجهات نظر معينة حائلاً أمام التواصل الثقافي. فعلى سبيل المثال، لا نتوقع من الكنيسة الكاثوليكية أن تتواصل أو تتفق في أيديولوجيتها مع مؤسسة دينية إسلامية إفريقية؛ فلكل منهما أيديولوجيتها وثقافتها التي تفرز عقلاً و سلوكاً مختلفاً

عن الآخر ، ولا نتوقع من الناحية الموضوعية تواصلاً حقيقياً من شريحة اجتماعية تعلمت و تربت في التقاليد الإفريقية الكاثوليكية ، و أخرى تعلمت و تربت في التقاليد الإفريقية الإسلامية ، أو لا تزال تعيش في تقاليدها الإفريقية الطبيعية بعيدة عن أي تأثير ديني مسيحي أو إسلامي . و برغم التواصل اليومي الذي تفرضه الحياة اليومية، إلا أن الملاحظ هوأن هناك جزراً ثقافية و أيديولوجية منعزلة و منغلقة على ذاتها ، ويصعب جداً تواصلها و تفاعلها فيما بينها بحيث تشكل قاعدة مشتركة أو إطاراً لتواصل ثقافي و حضاري إنساني فعال و مؤثر في الحضارة الإنسانية و العلاقات الدولية و مفيد للطرفين العربي و الأفارقة .

## ج ـ الأيديولوجيا المرتبطة بالبناء الاجتماعي

قد يبدو في الظاهر أن البناء الاجتماعي الإفريقي و البناء الاجتماعي العربي (تركيبة المجتمع) واحد أو متشابه ، فكل منهما البناء الأفريقي و العربي يتكون من بنية تقليدية تاريخية ، و بنية حديثة معاصرة أو شبه معاصرة ، و أن البناء الاجتماعي في العالم الإفريقي والعالم العربي يعتمد أساساً على الأسرة و القبيلة و القرية و المدينة، و هذا صحيح في الظاهر ، و لكن عندما نبحث في آليته أو كيف تعمل هذه الوحدات الاجتماعية نجدها مختلفة و متعارضة حتى وإن تطابقت أو تشابهت المسميات والرموز، و هذا يعني أن آلية عمل الأسرة أو القبيلة في أفريقيا مختلف عما هو موجود في العالم العربي ، فالأسرة الإفريقية لا تزال روابطها قوية و تشكل وحدة اقتصادية ، بينما الأسرة العربية سواء في شمال أفريقيا أو بقية أجزاء الوطن العربي بدأت روابطها الاجتماعية تضعف و تميل إلى الفردية و التحول من كونها وحدة اقتصادية إلى وحدة اجتماعية ترتبط بالسوق و المنظومة الاقتصادية الشاملة سواء على المستوى الإنتاجي أو الاستهلاكي ، و القبيلة في البلاد العربية تعمل و تفكر بطريقة مختلفة عن القبيلة الإفريقية ، فهذه الأخيرة هي تكوين اجتماعي و سياسي و اقتصادي و ثقافي واسع وكبير، و قد تشمل من الناحية السكانية أكثر السكان في الدولة الإفريقية مثل الهوسا في النيجر أو الموسي في بوركينا فاسو أو الماندي في مالي ، بينما هذا الوضع القبلي

بدأ في البلاد العربية يتغير و يتبدل بمعنى ؛ أن القبيلة العربية بدأت تأخذ تركيباً اجتماعياً موزعا في مختلف أنحاء البلد و رابطته الأساسية ليس الأرض في الغالب كما هو الحال في أفريقيا ، و إنما رابطته الأساسية اجتماعية و عاطفية و سكنية و ليس بالضرورة أن تشترك القبيلة العربية في أرض واحدة أو تشغل حيزاً كبيراً أو موزعة في بلد واحد ، و بعبارة أخرى فرابطة القبيلة الإفريقية خاصة في الأرياف تقوم على الأرض و العيش المشترك في مكان واحد ، بينما رابطة القبيلة في البلاد العربية تطورت خاصة في السنوات الأخيرة و لم تعد ترتبط بالأرض و العيش في مكان واحد، و إنما أصبحت في الغالب رابطة اجتماعية و عاطفية أكثر منها رابطة اقتصادية و من شأن مثل هذا البناء الاجتماعي أن يكون مواطناً غير قابل للتواصل الثقافي الكامل ، بل يظل دائماً يحمل في شخصيته و عقله ثقافة أخرى تمنعه من التواصل هي ثقافة قبيلته الأصلية أو ثقافة أسرته الكبيرة، و بذلك تصبح دائرة التواصل الثقافي غير مكتملة ، فهي لا تتم بين أطراف و عناصر متساوية في الاستعداد و متشابهة في القيم ، إنما كل يتواصل بالقدر الذي لا يتعارض مع شخصيته الثقافية التي حددتها الأسرة الكبيرة أو القبيلة و ثقلها الاجتماعي و الاقتصادي والثقافي .

و في الجملة، إن اختلاف طبيعة و آلية عمل هذه الوحدات الاجتماعية في العالم الإفريقي و العالم العربي قد يؤثر و ربما يعرقل و يعيق التواصل الثقافي ، بمعنى أن هذه القوالب الاجتماعية تشكل قوالب و معايير فكرية و ثقافية تحد من التواصل الثقافي بين أبناء أفريقيا و إخوتهم العرب ، و لعل في التراث القبلي الإفريقي والتراث القبلي العربي الكثير من الأعراف و معايير الثقافة التي تعيق التواصل الحقيقي والاندماج الاجتماعي ليس بين العرب و الأفارقة ، بل بين الأفارقة أنفسهم والعرب أنفسهم. و لعل الكثير من الصراعات و الحروب الأهلية الإفريقية هي بسبب الاختلافات القبلية ، و تنافس القبائل الإفريقية وتضارب ثقافتها القبلية ، فالتواصل الثقافي الفعال في أي مكان يحتاج إلى درجة عالية من الاندماج الثقافي و الاجتماعي وتحول الفرد من إطار القبيلة إلى إطار الوطن والأمة ، بل وإطار العالم والحضارة الإنسانية.

## التواصل الثقافي في نموذج شمال أفريقيا : الفرص المتاحة و آفاق العمل.

عندما نحلل التواصل الثقافي على ضوء الخلفية السابقة، و ما يوجد بها من تحديات و سلبيات، و ما يوجد بها أيضاً من فرص يمكن توظيفها و استثمارها لدعم هذا التواصل و تعزيزه بما يفيد الطرفين؛ العرب و الأفارقة ، خاصة عرب شمال أفريقيا ، هنا يبدو أنه من الضروري التفكير في مستويين من العمل: الأول هو التواصل المخطط أي الذي تحكمه خطة عمل مشتركة بين الطرفين العرب و الأفارقة ، والمستوى الثاني هو استحداث مؤسسات و هيئات تعمل على تنفيذ خطة التواصل الثقافي بين شمال أفريقيا و بقية أجزاء و مناطق القارة ، و فيما يلي نلقي نظرة و نقدم أمثلة للمستويين السابقين من إمكانيات التواصل الثقافي في نموذج شمال أفريقيا ( شمال ـ جنوب وجنوب ـ شمال ) .

### 1ـ التواصل الثقافي المخطط ( خطة ثقافية مشتركة )

و يتمثل هذا التواصل في إيجاد خطة ثقافية مشتركة بين بلدان شمال أفريقيا من جهة ، و بقية أجزاء أفريقيا من جهة أخرى، و يمكن أن تعد و تصمم هذه الخطة في إطار اتحاد المغرب العربي ، و بمساهمة من بعض المؤسسات العربية الأخرى مثل المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، و المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم والثقافة، و المعهد العربي الإفريقي للثقافة و غيرها من المؤسسات العربية ، إضافة إلى مؤسسات إفريقية ذات طبيعة ثقافية مثل اتحاد الجامعات الإفريقية؛ و المهم فإنه من الضروري أن تكون لهذه الخطة أهداف بعيدة المدى، و تتصف بالمرونة والديناميكية، و النظرة العميقة للعلاقات الثقافية العربية الإفريقية ، و تعمل على معالجة المشاكل الثقافية التالية :

1ـ مراجعة السياسات الثقافية و الإعلامية العربية الموجهة إلى أفريقيا ، وبخاصة تلك السياسات الثقافية السائدة في منطقة شمال أفريقيا ، و اكتشاف نواحي القصور فيها ، و تحويل مسار التواصل الثقافي من المستوى الرسمي الحكومي المعتاد إلى المسار غير الرسمي الذي يعتمد على التواصل غير الرسمي و الأفقي بين

مختلف المؤسسات الثقافية غير الرسمية ، و اختلاط و تواصل رجال الثقافة و العلم و التعليم بطريقة بعيدة عن الرسميات و القيود الإدارية المعتادة في الاتفاقيات الثقافية و التربوية .

2 ـ تضمين المناهج التربوية في بلدان شمال أفريقيا مادة دراسية أو مواضيع مدرسية عن أفريقيا ، و لكن بشكل معمق و مفصل عن أفريقيا شعوباً و ثقافات في الماضي و الحاضر و المستقبل ، و الابتعاد في مثل هذه المواد الدراسية عن مناقشة و تحليل التواصل الذي يتصف بأحادية النظرة و الرؤية، أي بمعنى أن العرب دائماً هم الذين ذهبوا إلى أفريقيا و عملوا على تغييرها و تحويلها من الوثنية إلى الإسلام والحضارة ، فيجب في مثل هذه المواد الدراسية تأكيد القواسم المشتركة بين العرب والأفارقة و الاتفاق أكثر من الاختلاف ، و إبراز دور الأفارقة في الثقافة العربية وإسهامهم في نموها و تطورها، تطوير الثقافة العربية من خلال الهجرة و العمل والاستقرار في شمال أفريقيا ؛ فمن حقائق الماضي و الحاضر في العلاقات العربية الإفريقية ، أن الأفارقة عملوا على نمو و تطور الثقافة العربية سواء في شمال أفريقيا أو أجزاء أخرى من الوطن العربي خاصة في منطقة الخليج والجزيرة العربية، فالأفارقة جزء من التكوين السكاني والثقافي والاجتماعي لكل الأمة العربية و هم يشكلون فضاءً واحداً في الماضي و الحاضر .

3 ـ معالجة القيود التي تضعها الكثير من المؤسسات التعليمية العربية أمام الطلبة الأفارقة في الجامعات و المدارس و إيجاد حلول للمشاكل التي يواجهها الطلاب الأفارقة في المؤسسات التعليمية العربية خاصة فيما يتعلق بالسكن و التعامل مع الأجهزة الإدارية ، فقد توصلت إحدى الدراسات حول الطلاب الأفارقة الموفدين إلى مصر إلى أن 70% ممن شملهم البحث قد واجهوا صدمة عنيفة بسبب أسلوب المعاملة التي تعرضوا لها ، و غياب ما كانوا يتصورونه من ترحيب و معاملة حسنة، و لا سيما بالمقارنة بما يلقاه نظراؤهم في الجامعات و الكنائس الغربية في أوروبا و أمريكا ، وكان الاستقبال الجاف من قبل الإدارة التعليمية أحد نماذج سوء المعاملة التي عانوا منها[7].

4 ـ معالجة النظرة السلبية للأفارقة السائدة تقريباً لدى كل العرب سواء في شمال أفريقيا، أو في بقية أجزاء الوطن العربي، و في ذات الوقت معالجة النظرة السلبية التي يحملها الأفارقة أيضاً نحو العرب ، فكثير من الأفارقة يرون أن العرب أجانب عن أفريقيا و الثقافة الإفريقية ، و هم بداخلهم أي العرب يعانون مشاكل و صراعات. إن الكثير من الأفارقة يعتقد أن العالم العربي عالم متخلف مثل أفريقيا ، و ضعيف ومنقسم على نفسه ، و بالتالي فهو سلبي تجاه شؤونه و شؤون الآخرين ، أي لا ينفع صديقاً و لا يضر عدواً ، كذلك فقد صورت الدعاية المضادة للعرب بأنهم انتهازيون يدفعون المعونات إلى الدول الأفريقية مقابل تأييدها السياسي للقضايا العربية ، و أن العرب لا تتفق أفعالهم مع أقوالهم ، و هذا يوضح أن هناك جوانب عديدة من سوء الإدراك لدى الأفارقة نحو العرب ، و بعض هذه الجوانب يرجع إلى مغالطات في دلالات و معنى ما هو عربي ، و ما هو إفريقي ، مع إبراز عوامل الانقسام و التعارض بينهما ، و بعضها الآخر يرجع إلى تشويه الصورة العربية في ذهن الأفارقة من خلال تضخيم بعض السلبيات التي حدثت في الماضي أو تحدث في الحاضر ، و في النهاية فإن ذلك سيؤدي إلى حصار و طرد الوجود الثقافي العربي من القارة[8]. و تستند مثل هذه المزاعم إلى تراث الماضي و بعض مواقف الحاضر ، فمن الماضي كتاب البخلاء للجاحظ، وألف ليلة و ليلة حيث يظهر الإفريقي الأسود في مثل هذه الكتب بصورة سلبية ، و أما في الوقت الحاضر فتستند هذه الدعوات كثيراً إلى ما تروجه دراسات و بحوث بعض الغربيين من أن العرب لا ينفعون صديقاً و لا يضرون عدواً و لا ينفذون وعودهم مع الأفارقة و يتصرفون في المحافل الدولية و النزاعات الإفريقية بهوية عربية، و كثيراً ما ينحازون إلى جانب إفريقي دون آخر بحسب مصالحهم ، و مصالح حلفائهم ، واضعين أفريقيا و مصلحتها في آخر اعتبارات تفكيرهم و سياساتهم[9].

إن الخطة المقترحة للتواصل الثقافي العربي الإفريقي ، لابد أن تعالج ضعف ثقافة الكثير من المدرسين العرب و الدعاة الإسلاميين بواقع أفريقيا و ثقافتها ، بمعنى أن الذين يأتون إلى أفريقيا لتعليم الدين الإسلامي و اللغة العربية أو أية أغراض ثقافية أخرى يأتون و هم يجهلون ثقافات و عادات الشعوب الإفريقية التي يأتون إليها ويتعامل

الكثير منهم باستعلاء مع تلك الشعوب ، و يقتصرون في الغالب على عملهم الرسمي دون تواصل حقيقي فعلي مع المواطنين الأفارقة ، فيضعون دائماً حواجز و حدودا ثقافية و نفسية بينهم و بين الأفارقة الذين جاؤوا للعمل الثقافي أو الديني معهم ، فكيف يمكن أن يتم التواصل الثقافي من طرف أو أطراف هي في الواقع لا تريد تواصلاً ثقافياً إلا من طرف واحد ، و من أعلى إلى أسفل ، أو تجعل هذا التواصل في أضيق الحدود وفي شكل و إطار يتصف بالرسمية و البروتوكولات(10). و على أية حال ، و مهما كانت الأوضاع ، فإن هذه الخطة المقترحة للتواصل الثقافي العربي الإفريقي لابد، كما ذكرنا من قبل، أن تسهم فيها المؤسسات الثقافية الإفريقية و العربية على حد سواء ، وأن تبني أرضية ثقافية مشتركة للفضاء العربي الإفريقي ، و تهدف بشكل أساسي إلى ما يلي :

1. تكوين رؤية ثقافية عربية إفريقية عصرية طويلة المدى و تترجم اعتبارات العرب واعتبارات الأفارقة الاجتماعية والثقافية و خصوصيات كل منهما .

2 - مراجعة السياسات الثقافية الإعلامية العربية و الإفريقية ، و العمل المشترك العربي الإفريقي معاً لتلافي ما يوجد بها من سلبيات و تأكيد الإيجابيات و الفرص المناسبة و دعمها و تأكيدها و ترجمتها إلى واقع عملي .

3 - إبراز ما هو مشترك و متداخل بين العرب و الأفارقة ، و تغيير و تطوير إدراك العرب لإفريقيا ، و العكس إدراك الأفارقة للعرب بطريقة إيجابية ، و بآليات و وسائل مقبولة للطرفين ، و بعيداً عن روح التبشير و منطلق أن العرب أفضل من الأفارقة ، وهم المحتاجون للعرب و أموالهم و نفطهم ، فليست المادة و الاقتصاد كل شيء ، فالتواصل الثقافي يبدأ و ينتهي بالقناعة و الاقتناع و التواصل و الحوار ، و غير ذلك فهو يسير في طريق مسدود لا يؤدي إلا لمزيد من الابتعاد و الانقطاع .

4. احترام الخصوصيات الثقافية لكل طرف عربي و إفريقي ، و هذا يسمح بمبدإ الأخذ و العطاء ، و قبول مبدأ التأثر و التأثير ، و الابتعاد تماماً عن أسلوب اعتاده العرب و هو أن هناك ثقافة أفضل من الأخرى ، فلا يمكن وضع الثقافة على ميزان

الأفضليات ، فالثقافة هي أسلوب الإنسان للتكيف و التفاعل مع محيطه الطبيعي و الاجتماعي مهما كان و سيكون هذا المحيط ، و هذا ما نجح فيه الغرب في تواصلهم مع أفريقيا ، و فشل فيه العرب في عملهم في أفريقيا . مرة أخرى ليس هناك ثقافة أفضل من الأخرى ، فالثقافة هي وجود الإنسان و عاطفته و هي هويته و ذاته ، فهل يقبل أي إنسان على الأرض تهديد وجوده و سلب عاطفته و مشاعره ؟ .

## 2 ـ مؤسسات العمل و تنفيذ مخطط التواصل الثقافي

إن المخطط أو الخطة المشتركة لتعزيز التواصل الثقافي العربي الإفريقي و على الأقل بين منطقة شمال أفريقيا و بقية أجزاء القارة الإفريقية لابد أن تعتمد كما طرحنا منذ قليل على أساس منطلقات ثقافية ، و هذه المنطلقات يمكن تحقيقها عملياً بعديد من الآليات و الوسائل و المؤسسات و البرامج التي يصعب تحليلها في مثل هذه الدراسة القصيرة المحدودة ، و لكن يمكن تقديم نماذج و أمثلة لها من أهمها ما يلي :

1ـ إشراك الأفارقة على المستويين الرسمي و غير الرسمي في وضع الخطة و سواء أكان ذلك في نطاق التواصل الثقافي بين بلدان شمال أفريقيا ، و باقي أجزاء القارة الإفريقية ، أو بين العرب و الأفارقة كفضاء و تجمع ثقافي ، فالمهم لا معنى لهذه الخطة ما لم يشارك فيها الأفارقة تخطيطاً و تنفيذاً ، و مرة أخرى فإن كل الدلائل تشير إلى أن أي خطة للتواصل الثقافي بين العرب و الأفارقة سوف لن يكتب لها النجاح ما لم يشترك في وضعها و تنفيذها العرب و الأفارقة معاً .

2 ـ استحداث مؤسسات للإنتاج الثقافي المشترك بين العرب والأفارقة ومؤسسات للعمل الثقافي العربي الإفريقي المشترك، و ليس من الضروري أن تكون هذه المؤسسات كبيرة وضخمة، فيمكن البدء بمؤسسة صغيرة ، تنمو و تكبر مع الزمن والعمل المشترك ، و يمكن أن تعمل هذه المؤسسة بشكل إقليمي أو إفريقي ، ثم بشكل عالمي و إنساني .

3 ـ دعم و إيجاد آلية لتحقيق المخطوطات العربية في إفريقيا و إبراز جهود المفكرين الأفارقة فيها و نشرها و الاستفادة منها الآن ، و في هذا السياق هناك ضرورة لإنشاء مكتبة أو قاعدة بيانات عربية إفريقية للتراث العربي الإفريقي ، تمد الباحثين بالبيانات و الدراسات و البحوث ، و تنشر هذا التراث بمختلف الطرق و الوسائل في الفضاء العربي الإفريقي و في العالم بأسره ، و بلغات متعددة .

4 ـ استحداث برامج للإنتاج الثقافي المشترك و دعمها مالياً و أدبياً ، و يمكن أن يتم ذلك في شكل مجموعات عمل أو فرق عمل أو مشروعات علمية و ثقافية مشتركة بين العرب و الأفارقة ، و تحت مظلة أو في إطار المؤسسات الثقافية القائمة في أفريقيا و البلاد العربية أو تستحدث مؤسسات جديدة لهذا الغرض .

5 ـ تشجيع و دعم و تنظيم تبادل البرامج الثقافية على كل المستويات الرسمية وغير الرسمية و عبر الأفراد و العلماء والمختصين من العرب و الأفارقة و تهيئة الظروف و المعطيات لنجاح هذه البرامج ، فكثيراً ما تبدأ برامج ثقافية عربية أفريقية و لكنها تختفي قبل أن تولد و تشب و تنمو و تكبر ، فهي تولد كما يقال ميتة ، لأنها تفتقد إلى الرغبة و الإرادة الحقيقية من الطرفين ( العرب و الأفارقة ) و تفتقد إلى التمويل اللازم ، و العمل المستمر و الصبر و المتابعة ، فكل شيء يظهر و يختفي و يولد ويموت بسرعة ، و يبدأ كبيراً ، ثم ينتهي صغيراً أو يصبح لا وجود له .

6 ـ تقديم المساعدة للأفارقة العابرين إلى العالم خاصة من منطقة شمال أفريقيا ، و ذلك بتقديم تسهيلات و تخفيضات في رسوم العبور أو الإقامة و المواصلات أو تقديم الإرشاد السياحي ، و سائر الخدمات الأخرى ، فلماذا لا يمكن الاستفادة من فكرة بيوت الشباب في أوروبا حيث يتنقل الشاب الأوروبي بسهولة ، و بأقل التكاليف ، و كذلك تقديم تخفيضات في تكاليف الفنادق و الاستراحات التي ترعاها الكنائس الأوروبية ، أو بيوت الطلبة ، أو روابط الأخوة المسيحية في أمريكا التي تساعد الطلاب الجامعيين بما في ذلك الأجانب منهم ، فمثل هذه الفكرة يمكن أن تنشأ في بلدان الشمال الأفريقي ، و تساعد على دعم التواصل الثقافي بين العرب و الأفارقة ، و في

ذات الوقت تنظم حركة الانتقال البشري الإفريقي و تجعله منتظماً ، و تمنع أو تحد من التنقل و الدخول الإفريقي غير القانوني و الذي تشكو منه الكثير من بلدان الشمال الإفريقي .

7 ـ الاستفادة من الطوائف الإسلامية الإفريقية مثل القادرية و التيجانية ، فهذه قبلنا أو لم نقبل مؤسسات دينية لها تاريخها و جذورها و تأثيرها و فعلها في الوجدان الإفريقي المسلم ، و هي تخاطب عقل و وجدان الإفريقي المسلم ، و تؤثر فيه ، و هي بغض النظر عن طبيعتها الدينية و الروحية فهي بالأمس و اليوم من آليات التواصل الثقافي الحقيقي و الشعبي بين الأفارقة و الإسلام ، بل إن سلطانها في أفريقيا كما نعرف جميعاً أقوى من سلطة الدولة الإفريقية الرسمية ، و فيها يجد الإفريقي المسلم الكثير من الأمل ، و مشاعر الأخوة و المحبة و الارتباط بالعالم العربي و الإسلامي ، و مهما نظرنا إلى الاقتصاد و الاستثمار و المادة فهناك دائماً جانب الروح و الوجدان والإنسان كائن روحي و ثقافي. و في إطارها ـ الطوائف الإسلامية الإفريقية ـ يتوفر للإفريقي المسلم البسيط جو من الروحانية و الراحة من متاعب الاقتصاد و المادة ، والأيديولوجيا المادية النفعية التي تحلل الإنسان دائماً ككائن منتج أو مستهلك .

8 ـ و أخيراً ؛ فإن من أهم مؤسسات العمل و التنفيذ في خطة التواصل الثقافي العربي الإفريقي إنشاء و استحداث مؤسستان هما :

1 ـ الجامعة العربية الإفريقية ؛ و هي جامعة أكاديمية على نمط الجامعات الحديثة تقبل الطلاب العرب و الأفارقة و تخرجهم بدرجات جامعية أكاديمية ، و يمكن أن يكون مقرها في أي بلد إفريقي ، و تمول و تدار بشكل مشترك تحت رعاية الاتحاد الإفريقي.

2 ـ المنظمة الإفريقية للتربية و العلوم و الثقافة ، و تكون هذه المؤسسة من منظومة الاتحاد الإفريقي ، و تعمل على التواصل الثقافي و التربوي و العلمي و تُبنى قاعدة مشتركة في هذه الميادين بين العرب و الأفارقة لدعم التواصل الثقافي العربي الإفريقي، و تطوير و إثراء التربية الإفريقية و الثقافة الإفريقية و العلوم و التقنية الإفريقية وبجهود مشتركة عربية و إفريقية ، و يمكن أن تبدأ و تنطلق هذه المؤسسة من شمال أفريقيا

وتتوسع بعد ذلك لتشمل كل قارة أفريقيا و تبني علاقات مع العالم بأسره . فالعرب والأفارقة في نهاية المطاف يشكلون فضاءً عربياً إفريقياً واحداً هذا الفضاء فيما نعتقد يجب أن يكون له ثقله و وزنه في الفضاء العالمي ، أو مقارنة بالفضاءات و التجمعات الإقليمية الأخرى في العالم ، فذلك أي الفضاء العربي الإفريقي فيما أعتقد هو الأمل الكبير في النمو و التنمية و دخول العرب و الأفارقة معاً إلى عالم و حضارة القرن الحادي و العشرين ، حضارة العلم و الثقافة و المعرفة و الاتصال و التواصل و الحوار بين جميع البشر ، مصداقاً لقوله سبحانه و تعالى " و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".

## خلاصة و ملاحظات ختامية

حاولت هذه الدراسة تحليل التواصل الثقافي بين العرب و الأفارقة ، منطلقة من تحديد طبيعة هذا التواصل ، و المقصود به في هذا السياق اتصال ثقافة بأخرى ، و هذا النوع من الاتصال يعتني و يتضمن التأثير و التأثر بين ثقافتين عريقتين في التاريخ هما : الثقافة الإفريقية و الثقافة العربية الإسلامية ، و لقد تم هذا الاتصال بحكم الجغرافية و الجوار ، و اعتبار أفريقيا و الجزيرة العربية إقليما جغرافياً واحدا قبل ظهور البحر الأحمر ، و أما معطيات التاريخ فلا تحتاج هي الأخرى إلى تحليل و هو تواصل العرب بالأفارقة بانتشار الإسلام بين أبناء أفريقيا ، و قد جاء هذا التواصل من خلال منافذ و مواقع متعددة من أهمها ؛ طريق بلاد اليمن و حضرموت و البحرين والإحساء(منطقة الخليج العربي ) إلى الساحل الإفريقي الشرقي حيث أخذت هجرات العرب المسلمين تتدفق على طول هذا الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدي، و أما الطريق الثاني ؛ فهو طريق أفريقيا الشمالية ، و الشمال الغربي من القارة الإفريقية، و ذلك بعد أن وصل العرب إلى مصر و واصلوا تنقلهم إلى بلاد المغرب الأقصى ، و من بلاد المغرب أو الشمال الغربي من أفريقيا ، هاجر العرب إلى كل منطقة غرب أفريقيا ، و حتى أعالي نهر النيجر أو ما يُعرف قديماً بالسودان الغربي ، و حالياً بتجمع بلدان الساحل و الصحراء ، و بذلك التقى خطا التواصل الحضاري الذي نجم عنه تغيرات اجتماعية و ثقافية واسعة من أهمها أن أصبحت هذه المنطقة من أفريقيا بلاد

إسلامية أو معظمها مسلمين ، و هذا الاتصال و التواصل كان له تأثيره الواسع على الأفارقة أنفسهم ، حيث هاجرت جموع كبيرة منهم و توطنت في الجزيرة العربية و شمال أفريقيا ، و شمالها الغربي بدوافع متعددة منها الحج ، و طلب العلم ، و الدفاع عن الإسلام من الغزوات الخارجية ، و العمل و التجارة و الاقتصاد أو مجرد الاستقرار ، وهم اليوم بعد مئات السنين جزء من التركيب البشري و الاجتماعي و الثقافي للوطن العربي بما في ذلك شمال أفريقيا ، و هذا إلى جانب الهجرات الإفريقية التي تمت قبل ظهور الإسلام خاصة في محيط الصحراء الكبرى التي كانت فضاءً حضارياً و منطقة استقرار عاش فيها أبناء أفريقيا من شمالها و جنوبها ، إلا أن التغيرات المناخية في هذه الصحراء أدت إلى انحسار الكثافة البشرية الموجودة فيها إما إلى الشمال أو الجنوب في القارة الإفريقية .

إن المعطيات السابقة تشكل فيما توصلت إليه هذه الدراسة الأساس التاريخي والجغرافي و الثقافي لما يطرح اليوم و يعرف بالفضاء العربي الإفريقي بالمعنى الشامل، و في إطار هذا الفضاء حاولت هذه الدراسة تحليل التواصل الثقافي اليوم بين ثقافتين و حضارتين هما العربية و الإفريقية ، و هما من أقدم حضارات و ثقافات التاريخ و لهما وزنهما و أهميتهما لا لذاتهما ، و لكن للحضارة الإنسانية بأسرها . وفي سياق هذه النتيجة تصل الدراسة إلى أن العلاقات الإفريقية بأوروبا و الحضارة الغربية عموماً محكومة إلى درجة كبيرة بكل تأثيرات و دور بلدان شمال أفريقيا في هذه العلاقات الإفريقية الأوروبية ، فشمال أفريقيا هي البوابة الجنوبية لأوروبا و الغرب، و لذلك فسكان شمال أفريقيا يعتبرون شركاء لأوروبا و يؤثرون فيها بشكل أو آخر ، وهذا من معطيات الجغرافية و التاريخ الماضي و الحاضر على حد سواء .

لقد حاولت هذه الدراسة استناداً إلى الإطار التاريخي السابق أن تحلل التواصل الثقافي بين العرب و الأفارقة ، و تشخص بعض مشاكله و تحدياته و توصلت إلى أن سياق هذا التحليل يؤكد أن التواصل الثقافي بين العرب و الأفارقة موجود و قائم ، ولكنه يواجه عقبات و تحديات من أهمها ما يلي :

1. تحديات الثقافة نفسها ، فحركة الثقافة تفرز مشاكلها ، فأفريقيا اليوم منقسمة إلى ثقافة غربية و ثقافة عربية إسلامية ، و ثقافة إفريقية طبيعية قديمة ، و هذا الانقسام فيما يظهر يعرقل التواصل الثقافي الإفريقي العربي ، و يتبع ذلك عقبات تعدد لهجات و لغات أفريقيا الوطنية ، إلى جانب وجود ثلاث لغات ؛ العربية و الفرنسية و الإنجليزية . و المشكلة ليست في اللغة في حد ذاتها ، بقدر ما يتبع هذه اللغة أو تلك من ثقافة و معايير و رؤى للتفكير و العمل و رؤية للحياة، فهناك كنتيجة لما سبق أنماط و أنواع من التواصل الثقافي بين الأفارقة و غيرهم من المجتمعات والثقافات .

2 ـ تحديات الأيديولوجيا بكل أنواعها و أطيافها ، فأفريقيا اليوم إن شئت جامعة تدرس فيها كل أنواع الأيديولوجيا الإفريقية الأصلية النابعة من التاريخ الإفريقي ، والأيديولوجيا الوافدة من مراكز الفكر و السياسة في الخارج ، و أمام هذه الأيديولوجيات فإن التواصل العربي الإفريقي عليه إما أن يعمل مع هذه الأيديولوجيات المختلفة أو أن مآله للانحسار ، و الواضح أن التواصل العربي الإفريقي يعتمد على التراث الثقافي و الروحي المشترك بين العرب و الأفارقة ، وهذا يواجه تحديات تراث روحي غربي له تأثيره و هيمنته على الأفارقة ، و بالتالي فإن التواصل الثقافي العربي الإفريقي عليه إما أن يعمل مع الغرب و أوروبا في أفريقيا ، أو يقبل الخروج من الساحة الفكرية و الثقافية الإفريقية ، أو أن يقبل الجمود وأبسط أشكال التأثير و الوجود ، و ترى هذه الدراسة فيما ترى بأنه من الأفضل للتواصل العربي الإفريقي أن يعمل مع الثقافة الغربية في أفريقيا ، فعالم اليوم أخذ و عطاء وحوار و تعايش .

و على أية حال ؛ فقد أنهت هذه الدراسة أطروحتها بأن التواصل الثقافي العربي الإفريقي هو حقيقة في الماضي ، و لكي يفعّل و يدعم في الحاضر لابد من إيجاد شيئين متوازيين أحدهما يعتمد على الآخر. الأول ؛ هو الوصول إلى خطة للتواصل الثقافي العربي الإفريقي ، و هذه الخطة يضعها بشكل مشترك العرب و الأفارقة معاً، و كل يسهم فيها برؤيته و خصائصه و حاجاته و تطلعاته ، و تتوجه أساساً

لإيجاد حلول للتحديات المختلفة القائمة الآن في وجه هذا التواصل ، و المهم أن تكون لهذه الخطة أهداف و غايات و تتحول من أن العرب هم الذين ذهبوا لأفريقيا حاملين إليها الثقافة و الحضارة و نظم الاجتماع إلى طرح آخر و هو أن العرب وإخوتهم الأفارقة معاً هم الذين بنوا الثقافة الإفريقية في طابعها و شكلها الإسلامي المتأثر بكل خصائص أفريقيا ، و بقدر ما أسهم العرب فيها فإن الأفارقة أسهموا أكثر من إخوتهم العرب ، فقد طبعوا الثقافة العربية بطابعهم الإفريقي و أغنوها بإبداعهم و عملهم و إنتاجهم ، و بذلك تطورت الثقافة العربية الإفريقية ، و هي تحمل في روحها و إنتاجها و إبداعها طابعاً إفريقياً متميزاً زادها ثروة و غنى ، فلهم أي الأفارقة الاعتراف بهذا الإبداع الإفريقي المحض .

وتأسيساً على النتائج و التحليلات السابقة لابد لخطة التواصل الثقافي العربي الإفريقي من أن تتضمن آليات و برامج و مؤسسات تعمل و تنمو مع الزمن ، و كأمثلة لهذه الآليات و البرامج لتنفيذ خطة التواصل الثقافي تقترح هذه الدراسة بعض المؤسسات و البرامج من أهمها ما يلي :

1. العمل الثقافي الرسمي و غير الرسمي .

2. إنشاء مؤسسات للإنتاج الثقافي العربي الإفريقي المشترك .

3. تحقيق و نشر المخطوطات العربية في أفريقيا مع التركيز على أعمال العلماء الأفارقة ، و العرب المسلمين على حد سواء .

4. تبادل البرامج الثقافية .

5. تقديم مساعدات للأفارقة العابرين من شمال أفريقيا إلى أجزاء أخرى من العالم .

6. الاستفادة من الطوائف الإسلامية الإفريقية في دعم التواصل العربي الإفريقي خاصة من الجوانب الروحية .

7. إنشاء جامعة أكاديمية عربية إفريقية .

8. إنشاء المنظمة الإفريقية للتربية و العلوم و الثقافة .

9. إنشاء المنتدى العربي الإفريقي للحوار و التواصل بين العلماء و المفكرين و الأدباء من العرب و الأفارقة .

10. تبادل المتخصصين و العلماء في مختلف مجالات التربية و العلوم و الثقافة .

و **أخيراً** ؛ فإن التواصل و الحوار هو الذي يبني الثقافة و الحضارة و السلام، والانقطاع و الابتعاد يهدم صرح الثقافة و الحضارة و يطفئ شعلتها و إشعاعها ، و خير ما نختم به قوله تعالى " :و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم " .

## الهوامش

(1) انظر د . مصطفى أعشى ( 2002 ) ، نماذج من التواصل الحضاري بين شمال أفريقيا والصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ ، في : مجلة الجديد للعلوم الإنسانية ، العدد السابع، 2001 ، ص ص ( 7 ـ 48 ) ، دورية علمية يصدرها المركز القومي للبحوث و الدراسات العلمية ، طرابلس ـ ليبيا .

(2) يرى الكثير من المستشرقين أن العرب جاؤوا في الماضي إلى أفريقيا كمستعمرين يستغلون مواردها و يستعبدون سكانها في شكل خدم و رقيق ، و أن هناك فروقاً عرقية و ثقافية و حضارية بين العرب و أفريقيا ، و طبعاً هذا رأي خاطئ الهدف منه فقط إبعاد العرب و المسلمين عن أفريقيا و التأثير فيها .

(3) د . حميد دولاب ضيدان ، 1993 ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، الطبعة الأولى، سبها ـ ليبيا ، منشورات مركز البحوث و الدراسات الإفريقية ، ص 112 .

(4) مصدر سبق ذكره ، د . حميد دولاب ضيدان ، ( 1993 ) ، ص ص ( 113 ـ 114 ) .

(5) نفس المصدر السابق ، ص ص ( 95 ـ 108 ) .

( 6 )انظر / د . عفراء الخطيب ( 2002 ) ، الثالوث الكوكبي المقدس أحد مظاهر علاقات المغرب القديم بشرقي أفريقيا و جنوبي شبه جزيرة العرب ، سلسلة بحوث و دراسات ، ( 9 ) ، الرباط ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس ـ الرباط ، و كذلك انظر د . مصطفى حنفي ( 2001 ) ، " ثقافة الصحراء أو العمق الإفريقي للهوية العربية الإسلامية" في : جامعة ناصر (2001)، أعمال المائدة المستديرة للأساتذة العرب بالجامعات و المعاهد العليا داخل الوطن العربي و خارجه ، الدورة الحادية عشر ( 2001 ) ، التكتلات في إطار الفضاءات الاتحاد العربي الإفريقي نموذجاً ، الجزء الثاني ، 23 _ 27 يوليو ، طرابلس ، منشورات جامعة ناصر .

(6) UNESCO, (1984), Historical and Socia-cultural relations between black Africa, and The Arab world from 1935 to the present: the general history of African studies and documents, (7), Paris, UNESCO publications.

(7) انظر محمد عاشور (1997) ، السياسة الثقافية المصرية في أفريقيا ، د . إبراهيم نصر الدين ( محرر ( 1997 ) (، مصر و أفريقيا مسيرة العلاقات في عالم متغير ، القاهرة ، في : منشورات معهد البحوث و الدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ص. (286)

(8) د . صبحي قنصوه (1998) ، قضية الهوية و أثرها على الإدراك الإفريقي للعالم العربي : دراسة قدمت إلى ندوة حول الثقافة في أفريقيا ، القاهرة ، فبراير 1998 ، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة .

(9) نفس المصدر السابق ، (1998) ، ص ص (181 ـ 218).

(10) نفس المصدر السابق ، د . صبحي قنصوه (1998) ، ص ص ( 181 ـ 215 ) .

## أهم مراجع الدراسة

### ـ باللغة العربية


1 ـ المركز القومي للبحوث و الدراسات العلمية ، طرابلس ـ ليبيا ، ( 2001 ) ، البناء الاجتماعي في تجمع دول الساحل و الصحراء ، التقرير الختامي للمشروع ، تقرير غير منشور (إعداد فريق الدراسة) .

2 ـ د . جمعة الزريقي ( 2002 ) ، التصوف :الحركة الصوفية في ليبيا ، محاضرة ألقيت في الموسم الثقافي للمركز القومي للبحوث و الدراسات العلمية يوم 19 / 11 / 2002 ، طرابلس ـ ليبيا .

3 ـ د . حميد دولاب ضيدان ، ( 1993 ) ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، الطبعة الأولى ، سبها ـ ليبيا ، منشورات مركز البحوث و الدراسات الإفريقية .

4ـ خديجة محمد سعيد امباكي ( 2002 ) ، التصوف و الطرق الصوفية في السنغال، الرباط ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، سلسلة بحوث و دراسات ( 14 )، الرباط ، معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس .

5 ـ دنيز يولم (1998) ، الحضارات الإفريقية ، الطبعة الثانية ، ( ترجمة نسيم نصر)، بيروت ، منشورات عويدات (الأصل باللغة الفرنسية) .

6 ـ د . صبحي قنصوه ( 1998 ) ، قضية الهوية و أثرها على الإدراك الإفريقي : دراسة قُدمت إلى ندوة حول الثقافة في أفريقيا ، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ، 25 ـ 28 فبراير .

7ـ د . عفراء الخطيب ( 202 ) ، الثالوث الكوكبي المقدس أحد مظاهر علاقات المغرب القديم بشرقي أفريقيا و جنوبي شبه جزيرة العرب ، سلسلة بحوث و دراسات ( 9 ) ، الرباط ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس .

8 ـ د . علي الحوات ( 2003 ) ، قاعدة بيانات خاصة عن أفريقيا ، ملف خاص بالباحث .

9ـ د . مصطفى أعشى ( 2002 ) ، نماذج من التواصل الحضاري بين شمال أفريقيا و الصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ في مجلة الجديد للعلوم الإنسانية ، العدد السابع 2001 ، دورية علمية يصدرها المركز القومي للبحوث و الدراسات العلمية طرابلس ـ ليبيا .

10ـ د . مصطفى حنفي ( 2001 ) ، ثقافة الصحراء أو العمق الإفريقي للهوية العربية الإسلامية في : جامعة ناصر ( 2001 )، أعمال المائدة المستديرة للأساتذة العرب بالجامعات و المعاهد العليا داخل الوطن العربي و خارجه ، الدورة الحادية عشرة 23 ـ 27 يوليه 2001، التكتلات في إطار الفضاءات :الاتحاد العربي الإفريقي نموذجاً ، الجزء الثاني ، طرابلس ـ ليبيا ، منشورات جامعة ناصر .

11ـ د . مارسيل بواز ( 1986 )، الإسلام اليوم ، باريس ، منشورات منظمة اليونسكو، الترقيم الدولي للكتب . ISBN 92-3-60-22-1

12ـ د . محمد المدني الحضيري ( 1993 ) ، الدين و التراث الديني ، محاضرة ألقيت بمناسبة افتتاح مكتبة الفكر الجماهيري بطرابلس ـ ليبيا ، يوم 2 /1993/3.

13ـ محمد عاشور ( 1997 ) ، "السياسة الثقافية المصرية في أفريقيا" في : د . إبراهيم نصر الدين ( محرر ) ( 1997)، مصر و أفريقيا مسيرة العلاقات في عالم متغير ، القاهرة ، منشورات معهد البحوث و الدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة.

14ـ د . محمد أبو العينين ( 1998 ) " المحددات العالمية لعلاقات العرب الثقافية مع أفريقيا " : دراسة قُدمت إلى ندوة العلاقات العربية الإفريقية ، القاهرة 18ـ 19 فبراير 1998 ، نظمت هذه الندوة جمعية الدعوة الإسلامية بطرابلس ـ ليبيا .

15. د . مصطفى عمر التير ( 2001 ) ، مشروع دراسة التواصل الاجتماعي و الثقافي بين شمال أفريقيا و بلدان ما وراء الصحراء الكبرى ، وثيقة مشروع الدراسة .

16. د . محمد المبروك يونس ( 1988 ) ، تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الإفريقية 1952 ـ 1977 ، الطبعة الأولى ، طرابلس ، مطابع الثورة العربية .

**ـ باللغة الإنجليزية**

1 - Ali A. Mazrui, Africa in the shadow of globalization: the costs and benefits management and conflict resolutions in the new millenium: the African experience in : ACARTSOD (2000) African Unity Lectures ( 2000 ), lecture series no ( 1 ), Tripoli -Libya, ACARTSOD publishing.

2 - National consulting bureau, Tripoli - Libya ( 2001 ), human development in Africa, prepared as a part of a research project on Africa by Ali El-Hawat ( unpublished report - in English ) .

3 - UNESCO ( 1984 ), historical and socia-cultural relations between black Africa, and the Arab world from 1935 to the present, the general history of Africa studies and documents ( 7 ), Paris-UNESCO publications

# المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء
# التحديات-التعاون

حسن الصادقي(*)

1. إن الحديث عن تحديات الحاضر والمستقبل بالنسبة للعالم العربي وإفريقيا، هو حديث عن العالم العربي الأسيوي وإفريقيا من جهة، وحديث عن العالم العربي الإفريقي وإفريقيا من جهة أخرى.

وبما أن المغرب ينتمي إلى إفريقيا فسيكون الحديث إفريقي _ إفريقي وهو الذي يهمنا في هاته الندوة.

2 ـ لابد من ترتيب البيت الإفريقي شماله وجنوبه شرقه وغربه، قبل فتح الباب على مصراعيه لبحث سبل الحوار مع الغير، وهذا ليس بدعوة إلى الانغلاق، فالإشكالية المطروحة هي إفريقيا وتحديات الحاضر والمستقبل. فلن يكون هناك تحدي إذا انعدم الحوار داخل البيت الإفريقي، ولن يكون هناك حوار مع الآخر إذا سدت سبل هذا الحوار.

3 ـ فكما أن لإفريقيا صحراؤها الكبرى والتي استطاع الإنسان التغلب عليها منذ القديم، فإن لها همومها الكبرى المتمثلة في :

الأمية، الفقر بمختلف أنواعه سواء الفقر الثقافي والفكري والاجتماعي والفقر المادي المذقع والذي يقابله الغنى الفاحش، وتفاوت الطبقات بعد استقلال القارة، البطالة سواء بطالة اليد العاملة، والبطالة الجامعية، المجاعة، التصحر، الجفاف، الرشوة، استغلال المرأة والطفل، الكسل، التعفن السياسي، الغش في الانتخابات، الهجرة، الأمراض الفتاكة سواء القديمة أو الحديثة. الاستغلال الجنسي والعبودية

*باحث أكاديمي مغربي، أستاذ بمعهد الدراسات الإفريقية بالرباط.

العصرية، الحروب الأهلية والإقليمية، الاستحواذ على السلطة، ....الخ. والمنازعات والتلاسن بين دول الجوار ضدا على حسن الجوار وعلى مبادئ الوحدة الإفريقية.

وكلها هموم مشتركة تتخبط فيها الأقطار الإفريقية بنسب متفاوتة.

ولقهر هاته الهموم وهاته التحديات لابد من التواصل والتحاور والتعاون البناء والإيجابي والجاد. ولن يتسنى ذلك إلا بتحكيم العقل وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، على أن لا يكون هناك ضرر على المصلحة الخاصة لأي بلد.

خاصة وأن الإنسان الإفريقي قهر صعاب الصحراء الكبرى وخرج من ربقة الاستعمار بفضل تعاون أقطاره على ذلك، وباستطاعته التغلب على التحديات السابقة الذكر.

4 ـ سعت الدول الإفريقية بعد الاستقلال، إلى التغلب على مشاكلها بطرقها الخاصة عبر اتفاقيات ثنائية أو جماعية، مع الدول العربية النفطية، أو الدول العربية الإفريقية.

فكانت هناك إعانات مادية وعينية لإفريقيا رغم غنى بعضها، إذ لا ننسى وجود النفط والفوسفاط والذهب والماس والحديد والرخام والأخشاب والثروات السمكية ... إلخ.

لو استغلت استغلالا جيدا وعقلانيا عن طريق التعاون والشراكة والتكامل ولو لم يكن هناك فساد وجشع واستحواذ على الثروات لخرجت إفريقيا من دائرة البؤس والأمية والمجاعة والهجرة والحروب.

5 ـ يشكل المغرب نموذجا حيا للحوار الإفريقي ـ الإفريقي فهو جزء من العالم العربي الإسلام دينا ولغة وحضارة، وجزء من إفريقيا موقعا ودينا وحضارة.

فرغم وجود الصحراء الإفريقية الكبرى التي تفصل ضمنيا وواقعيا، بين أقطار الشمال وأقطار الجنوب. لكنها لم تفصل بين الإنسان الإفريقي، ولم تقف في وجه التواصل بين الأقطار الإفريقية، وهذا الحوار والتعاون هو جانب إيجابي في وجه التحديات.

فماذا يمكن قوله عن المغرب والأقطار الإفريقية الواقعة جنوبه.

أقدم في هاته الورقات نماذج لهذا التعاون :

المغرب وغينيا (كوناكري) :

عقب اجتماع اللجنة المغربية الغينية في مدينة الرباط (30 أبريل، 02 مايو 2002) برئاسة وزيري خارجية البلدين.

خرج الاجتماع بالتوصيات التالية :

-تطوير المبادلات التجارية.

-تقوية التواصل بين الفاعلين الاقتصاديين، وتشجيع ومساندة مشاركتهم في التظاهرات الاقتصادية في كلا البلدين (زيارة رجال الأعمال المغاربة لغينيا في مايو 2002).

-تبادل المعلومات الاقتصادية، والخبرات في تدبير إنعاش التجارة الخارجية.

**الصناعة :** تقوية التعاون في جميع القطاعات الصناعية (اقترح المكتب المغربي للتنمية الصناعية تقديم الخبرة).

**التعاون المالي والبنكي :** توقيع اتفاقية حماية الاستثمارات، الزيادة في عدد وكالات البنك الشعبي المغربي الغيني.

**قطاع النقل :**

**النقل البحري :** الرغبة في إيجاد اتفاقية للتجارة البحرية، وفتح خط بحري الدار البيضاء كوناكري عبر شركة افريمار الغينية.

**النقل البري :** اقتراح إنشاء شركة للنقل الحضري في غينيا.

**النقل السككي :** اتفاقية تقنية وشراكة.

**النقل الجوي :** تعاون بين المكتب الوطني للمطارات ووكالة النقل الجوي الغينية، تكوين المراقبين وسلامة الطيران.

**التجهيز والأشغال العمومية :** مست جملة من القطاعات : أهمها الموانئ.

-اقتراح عقد اتفاقية للتكوين لصالح الغينيين.

-تعاون بين المختبر العمومي للبحوث والتجارب المغربي ومختبر المنشئات والأشغال العمومية الغيني.

**الماء الشروب :** يضع المكتب الوطني المغربي للمياه الصالحة للشرب إمكاناته في مجال الخبرة والتكوين.

-تعاون في مجال الطرق، السدود ، المياه .

**السكن :** تبادل الخبرات للقضاء على السكن العشوائي والسكن الغير اللائق، الخبرة في ميدان استعمال المواد المحلية.

**الفلاحة :** تكوين مهندسين غينيين في المؤسسات المغربية، معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة بالرباط، المدرسة الفلاحية بمكناس، المدرسة الغابوية للمهندسين بسلا.

تعاون في تقييم الغابة، السدود التلية، تربية الماشية، إنتاج البذور، البيطرة، تشجيع القطاع الخاص.

**الصيد البحري :** استعداد غينيا للسماح للبواخر المغربية بالصيد في مياهها.

**الطاقة والمعادن :** اتفاق على استغلال منجم ذهب كينيرو، تقديم المكتب الوطني للكهرباء، الخبرة التقنية والهندسية.

**الصحة :** التكوين في ميدان الصيدلة، محاربة الأمراض، تجهيز المستشفيات، إنعاش التعاون التجاري بين الصيدلية المركزية الغينية ومصانع الصيدلة المغربية، توأمة المركزين الإستشفائيين الجامعيين.

**استقبال بعثات غينية :**

-الشباب والرياضة : اتفاقية لتكوين الأطر.

**الشغل والشؤون الاجتماعية :**

-تبادل الوثائق والدراسات، تنظيم بعثات دراسية، تعاون بين العصبة المغربية لحماية الطفولة، والمؤسسة الدولية للتضامن الغينية.

-تبادل الخبرات في ميدان شؤون تدبير المعاقين وأوضاع المرأة والطفل.

**الشؤون الدينية :**

-تقوية التعاون في ميدان الشؤون الإسلامية عبر المحاضرات والمشاركة في الندوات.

-تبادل الخبرات في ميدان التعليم الديني.

-تمكين المساجد والمدارس الغينية من نسخ القرآن الكريم والكتب والوثائق الإسلامية التي تنشرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

-تبادل الخبرات والمعلومات حول شؤون الحج.

-منح دراسية من رابطة علماء المغرب للغينيين.

-تبادل الخبرات في ميدان التمدرس القروي، الرياضة المدرسية، تسجيل الطلبة الغينيين في التعليم الأصيل.

**التعليم :**

-تكوين الأطر الإدارية الغينية.

-التعاون بين المدرسة الوطنية المغربية للإدارة العمومية والمركز الغيني للإدارة.

**الإعلام والثقافة :**

تبادل البرامج الثقافية والفنية، والتسجيلات، تكوين إعلاميين غينيين.

**التعاون المغربي الغيني في ميدان التعليم العالي والبحث العلمي :**

يعتبر التعليم العالي والبحث العلمي من ضمن الأوليات التي حظيت بعناية البلدين، وبهذا الصدد عقد اتفاق موضوعه تنمية التعاون المباشر بين الجامعات ومؤسسات التكوين وذلك عن طريق التكوين، تكوين المكونين والباحثين، إرسال المدرسين واستضافتهم والعناية بهم (ورقة الطائرة، التعويضات، السكن، التنقل الداخلي)، تقديم المنح الجامعية للأساتذة والباحثين، تقديم الخبرة والاستشارة، تبادل المعلومات والخبرات، وتأطير الطلاب، نشر الأعمال في المجلات والنشر المشترك.

**التعاون المغربي- المالي** (الرباط 5 ـ 6 نونبر 2000)

**الدورة الثالثة :**

-التأكيد على روابط الأخوة والصداقة

-تقوية التعاون بمختلف أوجهه.

**التبادل التجاري** : تقوية هذا القطاع الضعيف.

-تبادل المعلومات لمعرفة وتقييم سوقي البلدين.

-إيجاد شركة مزدوجة مكلفة بالتنمية و البحث .

-إيجاد تعاون بين اتحاد غرف التجارة والصناعة والخدمات المغربية وغرفة التجارة والصناعة المالية.

-تنمية العلاقات بين الجمعيات المهنية والفاعلين الاقتصاديين في المغرب ومالي.

- تبادل الخبرات حول تنظيم التجارة الداخلية والسياسية المتبعة في تهييء الأسواق.

**إنعاش الاستثمارات** : تهييء مشروع اتفاق لإنعاش وحماية الاستثمارات المدروسة بين البلدين.

**التعاون الجمركي : إتمام مشروع اتفاقية المساعدة الإدارية.**

-تنمية برنامج التكوين الإداري.

-تبادل الخبرات الجمركية.

-توحيد المواقف الإقليمية والدولية خاصة تجاه المنظمة العالمية للجمارك.

**التجهيز** : استعداد المغرب لتقديم خبراته في ميدان البنيات التحتية خاصة في مجال إنشاء وإصلاح الطرق والسدود والماء الشروب.

- رغبة مالي في مساندة المغرب لها لدى البنك الإسلامي للتنمية خاصة في تمويل بناء سد كوساي، وطريق سكاسو وقنطرة في باماكو. وطلب خبرة المغرب في مقاومة التلال الرملية.

-استقبال تقنيين ماليين في وزارة التجهيز.

-تنظيم تدريبات حول المياه والطرق.

-إرسال خبراء مغاربة إلى مالي.

-اقتراح تكوين خبراء في الأرصاد الجوية.

**المناجم** : حصلت مجموعة أونا على رخصة استغلال مناجم الذهب. وجددت مالي طلب التعاون بين المكتب الشريف للفوسفاط. وشركة استغلال (فوسفاط تلمسي).

-تبادل الخبرات والخبرة المنجمية وتكوين منجميين ماليين.

**النمو القروي** : استعداد المغرب لإرسال شتلات النخيل إلى مزارع منطقة كيدال.

-تكوين مهندسين في مجال تنظيم المجال الفلاحي.

-تكوين في مراقبة المنتجات الفلاحية.

-محاربة التصحر.

**السكن** : إمكانية دراسة ملف بناء المغرب ل 2000 سكن اقتصادي.

-إنعاش مواد البناء المحلية.

-إنشاء شركة لتجهيز الأراضي الصالحة للبناء.

**التعمير** : اقتراح المشاركة في إنجاز دراسة عن العاصمة باماكو تبادل المأموريات لمسؤولي التهيئة والتعمير.

-تدريب خبراء ماليين.

**النقل الجوي** : رغبة الجانب المالي في توأمة مطار الدار البيضاء مع مطار باماكو ومطار مراكش مع تنبكت.

**السياحة** : تسجيل الطلبة الماليين في مؤسسات التكوين السياحي والفندقي.

-تنظيم تداريب قصيرة لأطر وزارة السياحة المالية.

**الصناعة التقليدية :**

-إنعاش التعاون بين الغرف الحرفية المالية وغرف الصناعة المغربية.

-تنظيم رحلات دراسية للمسؤولين الماليين للاستفادة من خبرة المغاربة في ميدان القروض الصغرى.

-إرسال مغاربة لتنشيط دورات تدريبية للصناع الماليين.

**الإدارة الترابية :**

-التعاون في اللامركزية.

**الجانب الاجتماعي :**

-تبادل المعلومات والوثائق والخبرات في ميدان محاربة الأمية، إنعاش دور المرأة، الوقاية الاجتماعية للمرأة، حماية الطفولة والأسرة، إدماج الأشخاص المعاقين، دور الخدمات الإنسانية.

**الخارجية** : رغبة مالي في الاستفادة من الخبرة المغربية في ميدان البروتوكول، مع طلب تنظيم تداريب للماليين.

**العدل** : الرغبة في تطبيق مشروع التعاون القضائي.

**الهجرة** : الاتفاق على إلغاء التأشيرة لتسهيل التنقل العادي للأفراد.

-تبادل المعلومات والخبرة حول جاليتي البلدين المقيمة في الخارج.

-استقبال ماليين للاستفادة من خبرة المغاربة فيما يخص تأطير الجالية المالية في الخارج.

**التوأمة** : توأمة فاس وجني _ مراكش وتنبكت.

**التعليم العالي** : توقيع اتفاقية تعاون بين الجامعات

- طلب الدعم التربوي من المغرب (وثائق دروس، أشغال تطبيقية، أشغال توجيهية).

-تكوين المكونين، توأمة الكليات والشعب.

-تقديم منح للبعثات العلمية.

**التربية** : بناء وتجهيز 4 مدارس في شمال مالي.

-إهداء كتب دراسية لتعليم اللغة العربية.

-تكوين المعلمين.

**الثقافة** : تنمية التعاون الثقافي

- مساهمة المغرب في تظاهرة تنبكت 2000.

**الإعلام** : التعاون السمعي البصري بين الإذاعة والتلفزة، تعاون وكالتي أنباء البلدين - التبادل السينمائي.

**الشباب والرياضة** : التعاون في ميدان تكوين الأطر، استقبال مرشحين في المعهد الملكي لتكوين الأطر.

**الشؤون الدينية** : استعداد المغرب لتكوين ماليين في ميدان الحج، تبادل الوثائق وزيارة العلماء، طلب ترميم ثلاثة مساجد في تنبكت.

**التعاون المغربي السنغالي**

وقع البلدان معاهدة صداقة وتضامن في الرباط في 15 شتنبر 1966، وكان آخر اجتماع للجنة في دكار ( 28 فبراير إلى 1مارس 2002 الدورة 12) تمخض عن تبني التوصيات التالية :

**التعاون الاقتصادي والتجاري والمالي :**

- تقوية المبادلات التجارية الضعيفة حاليا.

- إعفاء المواد المستوردة من غرب إفريقيا.

- مساندة السنغال لتوقيع المغرب لاتفاقية مع الاتحاد الاقتصادي والنقدي لغرب إفريقيا.

-تعاون بين المركز المغربي لإنعاش الصادرات والمركز الدولي للتجارة الخارجية (تبادل المعلومات. المشاركة في المعارض زيارة رجال الأعمال).

-إنشاء مجلس مشترك لرجال الأعمال.

-التوصية بإنشاء بنك مغربي سنغالي لتسهيل نقل الأموال ودعم العمليات التجارية ودعم الاستثمار (سنبك).

-دراسة ملف إنشاء وكالة التنمية المغربية السنغالية.

**النقل والملاحة التجارية :**

تعاون في ميدان النقل الجوي، دعم المطار الدولي لدكار، تكوين المراقبين والتقنيين ومسيري المطارات في أكاديمية محمد السادس الدولية للطيران المدني.

**النقل السككي** : التعاون بين المكتب المغربي والشركة السنغالية، الاستفادة من الخبرة المغربية.

**النقل البحري :**

-التفكير في إنشاء خط بحري

-التكوين في المعهد العالي للدراسات البحرية بالدار البيضاء.

**النقل البري :**

-مشروع الاتفاق على الاعتراف برخص السياقة.

-تنمية التعاون في مجال السلامة الطرقية.

التجهيز والأشغال العمومية:

-اتفاق تعاون تقني في مجال التجهيز والطرق والطرق السيارة.

-تجديد الرغبة في إنشاء طريق إفريقيا أوربا بين طنجة ولاكوس عبر نواكشوط ودكار.

**الموانئ** : تعاون لتهييء وتسيير الموانئ وتنظيفها من الأوحال.

**الفلاحة** : تطوير السقي، الإنتاج النباتي، إنتاج الحليب، البيطرة، تبادل المنتجات الفلاحية، تنظيم الواردات، التكوين في معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة.

التكوين في المجال الغابوي، محاربة التصحر، تهييء الأحواض والمشاتل، نقل الحيوانات البرية، التربية البيئية، دعم المغرب لزراعة النخيل.

**الصناعة** : تبادل المعلومات والمعطيات الإحصائية والخبراء.

**المعادن** : اقترح على المغرب التعاون على استغلال فوسفاط مطام لإنتاج الحامض الفسفوري، استغلال رخام كيدوكو وغيره، والحجر الأخضر في باكيل، استغلال الحديد، والحجر الجيري لإنتاج الإسمنت، الصلصال لإنتاج الآجر، الرمال الممتازة لإنتاج الزجاج، استغلال الذهب في الشرق.

**الطاقة** : تطوير الطاقة المتجددة كالطاقة الشمسية والهوائية وكذلك الطاقة الكهربائية وتبادل الخيرات.

**الصناعة التقليدية** : تبادل، التكوين، حضور التظاهرات.

**السياحة** : عدم استغلال اتفاقية 1968.

-التكوين، منح دراسية، تقييم المواقع السياحية و التاريخية.

**الصيد البحري** : الاستفادة من المغرب في مجال المراقبة و التغطية الاجتماعية ، تمويل قطاع الصيد البحري.

**الثقافة والتعليم** : التعاون لمعادلة الشهادات والرتب، تكوين الأطر، محاربة الأمية، التمدرس.

**الشباب والرياضة** : تبادل الأطر والخبرات، الفرق الرياضية، الحكام، الشباب، المعلومات، الطب الرياضي، المدربين، توأمة المعهد الملكي لتكوين الأطر والمركز الوطني للتربية والرياضة.

**الأشخاص المعاقون** : تقديم الوكالة المغربي للتعاون الدولي لمبلغ 40.000 دولار منحة للمعهد الوطني لتربية وتكوين المكفوفين.

**المرأة** : تبادل الدراسات والوثائق حول المرأة، محاربة العنف.

**الطفولة** : تبادل المعلومات حول حماية الطفولة، تشغيل الأطفال، الاستغلال الجنسي للأطفال، مساعدة المغرب للسنغال على إنشاء دور الأطفال الصغار.

**الشغل** : تقديم الخبرة في ميدان سوق الشغل.

**الصحة** : تبادل التجارب والخبرات والوثائق، محارب الأوبئة، التربية الصحية، تكوين أطر وزارة الصحة، التكوين المستمر في الطب والصيدلة.

**ملاحظات :**

1. لاشك أن أقطار جنوبي الصحراء تكن لأقطار شمالي الصحراء التقدير و الاعتبار، لكونها كانت سباقة للإسلام واللغة العربية والاستقلال وتكوين الدول، واكتسابها للخبرة والتجربة.

لذا نجد أن كل الاتفاقيات تؤكد على خبرة وتجربة المغرب في جميع ميادين التعاون، فكان من الطبيعي أن يتحمل المغرب جل ثقل متطلبات هذا التعاون.

2 . تطرقت نقط الاتفاقيات الثلاث إلى جل الموضوعات الحيوية.

تقديم خدمات إيجابية كالتكوين، تقديم المنح، الخبرة، إعارة المدرسين، إهداء الكتب، بناء المدارس.

3 . قدمت دول إفريقيا أطباقا شهية للمغرب مثل الصيد البحري، استغلال الفوسفاط، الذهب، الحديد، الرخام... الخ.

4 . هناك نقط مشتركة بناء طريق أوربا . إفريقيا، من طنجة إلى لاكوس.

5 ـ هموم مشتركة-المياه، التصحر، السكن العشوائي، الأمية، وضعية المرأة والطفل.

6 ـ ضرورة تقوية التعاون في مجال تدريس اللغة العربية بالأقطار الإفريقية حتى يقوم أهلها بإحياء التراث العربي الإفريقي المشترك الذي خلفه الأجداد.

7 ـ ضرورة تقوية التعاون في مجال تدريس اللغات الإفريقية في المغرب حتى يحصل هناك تكامل.

8 ـ التفكير في إنشاء مراكز ثقافية مغربية في هاته الأقطار.

9 ـ التفكير في التعاون على إيجاد حلول لبطالة الشباب الإفريقي للحد من الهجرة السرية.

10 ـ غاب عن الاتفاقية التطرق إلى مشكل الهجرة السرية الذي يقض مضجع الدولة المغربية، إذ أصبح المغرب بوابة هروب الشباب الإفريقي نحو أوربا قاطعا الصحراء الكبرى في ظروف صعبة، فقد كان الشباب الإفريقي سابقا يقطع الصحراء من أجل العلم أو التجارة والحج وأصبح الآن يقطعها منتحرا آملا في إيجاد ظروف عيش رغيدة في أوربا، وترتب عن ذلك مشاكل لحراسة الحدود والشواطئ وما تخلفه هاته الهجرة من انعكاسات سلبية ومآسي إنسانية.

لذا وجب التعاون على حل هذا المشكل عن طريق البحث عن أسبابه ودوافعه، والتعاون المستمر والبناء بين أقطار الضفتين خدمة للقارة الإفريقية جمعاء.

# الإنسان وتطوره بين إفريقيا والشرق الأدنى

مصطفى أوعشي(*)

إذا كان موضوع الندوة هو "العالم العربي وإفريقيا: تحديات الحاضر والمستقبل"؛ أي الحديث عن واقع الحاضر المر، وآفاق التعاون في المستقبل، فإن المحور الذي سأتناوله يستعرض جذور هذا التواصل المرتبط بزمن ظهور الإنسان وتنقله بين إفريقيا والشرق الأدنى. وتلاحظون أن عنوان عرضي يحمل عنوان : «الإنسان وتطوره بين إفريقيا والشرق الأدنى» لأن ما سيسمى بالعالم العربي خلال القرن العشرين لم يكن موجودا خلال المرحلة التي أتناولها.

والجدير بالإشارة هنا، أنه مما سهل عملية التواصل وتبادل التأثيرات بين المنطقتين، القرب الجغرافي، إن لم نقل التكامل، إذ أن الجيولوجيين يذكرون بأن شبه الجزيرة العربية كانت منذ حوالي ثلاثين مليون سنة، جزءا من القارة الإفريقية، قبل بروز البحر الأحمر، زمن حدوث الأخدود الإفريقي ليفصل بين المنطقتين.

ورغم هذا الانفصال الجيولوجي بسبب البحر الأحمر، فإن التواصل والعلاقات ظلت مسترسلة بين المنطقتين، إما عبر مضيق باب المندب، وإما عبر شبه جزيرة سيناء، أو البحر الأحمر بعد أن توصل الإنسان إلى ابتكار وسائل عبور البحر.

وهذا يعني أن التواصل بين إفريقيا والشرق الأدنى ليس وليد الحاضر أو القرون القليلة الماضية، بل ولا يرتبط فقط بانتشار الإسلام واللغة العربية، لأنه قديم قدم البقايا البشرية.

---

(*) باحث أكاديمي مغربي،أستاذ التاريخ القديم والآثار.

ولا بد من التذكير هنا كذلك، أن الصحراء الكبرى ووضعيتها المناخية الحالية، هي حديثة العهد نسبيا، إذ أن ظاهرة الجفاف تعود إلى أقل من سبعة آلاف سنة من يومنا هذا.

لقد لاحظنا من خلال أغلب العروض التي قدمت خلال الجلسات السابقة، أنها كانت تركز على نوع خاص من العلاقات، وهي العلاقات الأفقية بين منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا، أو العمودية بين شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وبالكاد يتحدثون عن شرق إفريقيا وخاصة إيثيوبيا وباب المندب باعتبارهما ممرا ومعبرا فقط، ولم يتحدث أحد عن إفريقيا الاستوائية، ولا عن جنوب إفريقيا. وفي الغالب يتحدث المتدخلون عن علاقات شرقية غربية أو شمالية جنوبية، وكأن التأثير يأتي دائما من الشرق أو من الشمال بينما الواقع التاريخي والحضاري يؤكد أن التأثيرات متبادلة ولم تكن يوما ما ذات اتجاه واحد.

ولذلك، فإن موضوع التواصل الذي سأحاول استعراضه سنبرز فيه تأثير الجنوب في الشمال والغرب في الشرق، وسنتحدث فيه عن بعض العناصر منها:

1 ـ تطور الإنسان بين المنطقتين.

2 ـ الصناعات الحجرية بين المنطقتين.

3 ـ جذور اللغة بين المنطقتين.

## 1ـ تطور الإنسان بين إفريقيا والشرق الأدنى:

فيما يتعلق بالبحث عن جذور الإنسان وتطوره بين المنطقتين، فإنه بإمكاننا أن نتعرف على بعض جوانبه، والفضل في ذلك يعود إلى الأعمال والأبحاث الأثرية التي أنجزها علماء ما قبل التاريخ منذ أكثر من قرن من الزمن.

والهدف من إلقاء هذه النظرة هو تقديم ملامح، أو الخطوط العامة لهذا التطور دون التعرض للخلافات المحتدمة بين علماء ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا والمتخصصين في التشريح.

وإذا تركنا جانبا التفصيلات المطروحة بكثرة في هذا الصدد واختلافات العلماء المتخصصين حولها، فاعتمادا على المعلومات العلمية المتوفرة لغاية سنة 2003، والتي تزداد يوما بعد يوم، نستطيع أن نوجز تطور الإنسان بصورة عامة في أربع مراحل:

*1.1-* الأسترالوبيثيك *(Australopithicus)* : أو الإنسان القردي الجنوبي:

ظهر في نهاية الزمن الجيولوجي الثالث ، وكانت بقاياه في بداية الأمر تنحصر إلى غاية 2001 في شرق وجنوب إفريقيا، حيث تم اكتشاف بقايا عديدة أهمها هيكل المرأة المعروف بلوسي سنة 1972 (3.5 مليون سنة) وبقايا بشرية في جنوب إفريقيا سنة 1998 (4 مليون سنة)، وفي يوليوز سنة 2001، تم استخراج أقدم هذه البقايا البشرية إطلاقا في صحراء شمال التشاد التي تعيد التقديرات الأولية عمرها إلى حوالي ستة ملايين سنة خلت. ولحد الآن لم يعثر على بقايا هذا النموذج لا في الشرق الأدنى ولا في شمال افريقيا، إلا أنه في المقابل تم اكتشاف نماذج عديدة من الأدوات الحجرية التي كان يستعملها هذا الإنسان في مواقع كثيرة في كل شمال إفريقيا بوفرة وخاصة في المغرب، في شماله وجنوبه وسطه وصحرائه.

وفي الشرق الأدنى فقد تم العثور في فلسطين المحتلة على بعض النماذج من الحصى المعدل جنوب بحيرة طبرية وفي العبيدية تعود للزمن الجيولوجي الرابع، و أن العثور على هذه المظاهر الحضارية بوفرة في المغرب وشمال إفريقيا يدفعنا إلى طرح فرضية وجوده في هذه المنطقة إلا أن الأبحاث والتنقيبات الأثرية والباليو نطولوجية لم تصل إليه بعد، أما بالنسبة للشرق الأدنى فإن العدد القليل من نماذج الحصى المعدل دليل على أن صانعها لم يكن موجودا بها وأن هذه الأدوات تم نقلها فيما بعد إلى هذه المنطقة.

1ـ 2 ـ الإنسان المنتصب القامة :(Homo Erectus) يمثل المرحلة التطورية الثانية للبشر على وجه الأرض بحيث يعتبر أكثر تطورا من سابقه. وأطلقت هذه التسمية على بقايا بشرية عديدة تم اكتشافها في مختلف أنحاء العالم القديم وخاصة إفريقيا شرقها وشمالها، وآسيا منها إنسان جاوه بأندونيسيا وإنسان كهف تشوكتيين بضواحي بكين بالصين. ولم يعثر لحد الآن على أي نموذج منه في الشرق الأدنى.

أما في المغرب فقد تم استخراج حوالي سبعة نماذج من الإنسان المنتصب القامة منها إنسان سيدي عبد الرحمان الأول الذي يعود تاريخه إلى حوالي 400000 سنة قبل اليوم، وإنسان الرباط حوالي 200000 سنة، وإنسان سلا وإنسان تمارة حوالي 170000 سنة، وإنسان سيدي عبد الرحمان الثاني المكتشف سنة 1998، حوالي مليون سنة، والبقايا المستخرجة من محجر طوما بالدارالبيضاء.

فإذا كانت بقايا الإنسان المنتصب القامة في أندونيسيا والصين يتراوح عمرها ما بين مليون وسبعمائة ألف سنة قبل الميلاد. فإن بقايا المغرب تغطي مرحلة زمنية تمتد ما بين مليون سنة ومائة وسبعين ألف سنة قبل الميلاد. وهذا يعني أن هناك استمرارا للوجود البشري في المغرب وشمال إفريقيا، بل وأن هذا الوجود كان مكثفا رغم قلة التنقيبات والأبحاث الأثرية، مما يؤكد أن المغرب من البلدان القليلة التي كانت مأهولة بالإنسان منذ أكثر من مليون سنة، وفي المقابل فإنه لم يعثر لحد الآن في كل الشرق الأدنى بما فيه اليمن على أية بقايا بشرية تعود لهذه المرحلة الغابرة.

1ـ 3 ـ إنسان النياندرطال في الشرق الأدنى وما يقابله في المغرب إنسان جبل إيغود .اكتشف أول نموذج بشري من هذا المخلوق سنة 1856م في وادي نياندرطال قرب مدينة دسلدورف بألمانيا. عاش هذا الإنسان ما بين مائتَيْ ألف وخمس وثلاثين ألف سنة قبل الميلاد. ويبدو أنه كان أكثر تطورا من سلفه الإنسان المنتصب القامة. وأن فرنسا هي وطنه حسب الاكتشافات المعروفة لحد الآن. ويظهر أن عدد هذا الإنسان يقل كلما اتجهنا نحو شرق وجنوب القارة الأوروبية. ففي الشرق الأدنى وصلوا إلى شمال العراق )كهف شانيدار) حوالي خمسين ألف سنة، والجليل بفلسطين حوالي مائة ألف سنة، ثم اختفوا حوالي 35000سنة قبل الميلاد. ولا يعرف أحد بالضبط سبب هذا الاختفاء، فهل جاءت نتيجة حرب مع الإنسان العاقل أم جاء نتيجة عدم تمكنه من التكيف مع الظروف المناخية الجديدة ؟ أم أن اختفاءهم كان نتيجة لندرة الطرائد مع بداية تغير المناخ، لأنهم على ما يبدو، كانوا أكلة لحوم فقط ؟ أم أنهم ذابوا في الإنسان العاقل العاقل ؟

وفي شمال إفريقيا لم يعثر على أية بقايا للنياندرطال، بينما استخرجت نماذج بشرية أخرى عاشت في نفس المرحلة وهي المعروفة في المغرب بإنسان جبل إيغود.

إنسان جبل إيغود : يعتقد عدد من الاختصاصيين الباليونطولوجيين أن الإنسان المعاصر (العاقل العاقل ) سليل الإنسان المنتصب القامة، غير أن المنطقة الجغرافية التي حدث فيها هذا الانتقال والمرحلة التي وقعت فيها، والظروف التي صاحبته لم يستطيعوا تحديدها. ويظهر أن المغرب بإمكانه أن يحتل مكانة متميزة في هذا الانتقال ذلك أنه في مجاله تم استخراج بقايا بشرية يمكن أن نعتبرها مؤشرا لمكان هذا الانتقال، وهي بقايا جبل إيغود التي تعود إلى أكثر من 130000 سنة قبل الميلاد حسب الباحث المغربي بنصر.

وإلى غاية سنة 1981 كان الكثير من المهتمين بالتطور البشري في المغرب، يعتقدون أن بقايا جبل إيغود المستخرجة من موقع يبعد بحوالي 30 كلم جنوب شرق مدينة آسفي، أنها بقايا نيانديرطالية وكان هذا هو المتداول منذ اكتشاف إنسان جبل إيغود سنة 1962، إلا أن التحاليل والدراسات التي تعرضت لها هذه البقايا بمتحف التاريخ الطبيعي بباريس، أبرزت أن إنسان جبل إيغود لا علاقة له إطلاقا بالنياندرطال سواء على المستوى الفيزيولوجي أو على المستوى الجماعي، إذ أن إنسان جبل إيغود يجمع بين سمات عتيقة يتوسط النوعين، وبالتالي يمكن اعتباره صلة وصل بينهما.

وأخذا بهذه الاعتبارات يمكن القول إن إنسان جبل إيغود يمثل :

أ - حلقة من حلقات تطور الإنسان المغربي.

ب - إن المغرب يتميز بتطور محلي للإنسان من الإنسان المنتصب القامة إلى الإنسان العاقل.

ج - عدم وجود فراغ في سلسلة التطور البشري بالمغرب.

وهذا ما يجعلنا نتساءل : هل يمكن أن نعتبر المغرب أحد مراكز تطور الإنسان أو أحد مهوده ؟

وهذه السمات والصفات لا نجدها في أي منطقة أخرى في العالم سواء في أوربا، أو في شرق إفريقيا، أو في الشرق الأدنى. مما يؤكد مرة أخرى أن المغرب بصورة خاصة وشمال إفريقيا بصورة عامة عرفت التعمير البشري وتسلسله منذ عهود سحيقة.

1ـ 4 ـ الإنسان العاقل العاقل بين إفريقيا والشرق الأدنى :يمكن أن نعتبر إنسان جبل إيغود في المغرب هو الإنسان العاقل العتيق، لأنه على ما يظهر هو الذي سيعطينا الإنسان العاقل العاقل الحالي، خاصة الإنسان صاحب الحضارة العاطرية التي عرفتها شمال إفريقيا ما بين 45000 و20000 قبل الميلاد. وقد عثر على إنسان هذه الحضارة في مواقع متعددة في المغرب منها على الخصوص كهف دار السلطان قرب الرباط وكهف المناصرة بتمارة وكهف تافوغالت قرب مدينة بركان، ومواقع محيطة بمدينة السمارة بالصحراء المغربية، وفي باقي بلدان شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، بل ويبدو أنه وجدت آثار هذا الإنسان في مصر وشمال شبه الجزيرة العربية وفلسطين.

وهذا الانتشار الكبير للإنسان العاطري ولحضارته يعكس مدى قوة هذا الإنسان وتفوقه الحضاري مما جعله يفرض وجوده على كل بلدان شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، بل وفلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية.

1ـ 4 ـ 1 : الإنسان الإيبيروموري: وهو إنسان عاش في شمال إفريقيا ما بين 20000 و8000 سنة قبل الميلاد وجدت بقاياه في مناطق متعددة من بلدان شمال إفريقيا، من المحيط الأطلسي غربا إلى ليبيا شرقا مع اكتشافات أخيرة في الصحراء المغربية وخاصة بمنطقة السمارة لمخلفات هذا الإنسان الحجرية مما يعني أن العلاقات والصلات بين شمال إفريقيا والصحراء ظلت مسترسلة ولم تنقطع إطلاقا.

4.1 ـ 2 ـ: الإنسان القفصي: يلي من الناحية الكرونولوجية الإنسان الإيبيروموري واكتشف هذا الإنسان لأول مرة سنة 1909، وقد أثير نقاش كبير حول أصل هذا الإنسان فهناك من يرى أنه أصلي، وهناك من يرى أنه شرقي أي آت من الشرق. وهناك من يرى أنه متوسطي )من البحر الأبيض المتوسط)، و هنا من يرى أنه صحراوي أي من الصحراء الكبرى. إن اختلاف هذه الآراء وتعددها راجع أساسا إلى المقولة السائدة بأن

أي إبداع أو ابتكار عرفته منطقة شمال إفريقيا آت من الخارج. فكيف يعقل أن يكون الإنسان القفصي أجنبيا ومنطقة انتشاره محدودة جدا في الزمان والمكان إذ لا يتجاوز المناطق الداخلية التونسية المرتبطة بالصحراء وشرق الجزائر. كما أن زمن ظهوره بدأ في الألف السابع قبل الميلاد. وهذا ما يدفعنا إلى افتراض أن الإنسان القفصي صحراوي في الأصل وأنه بدا يترك الصحراء بسبب تغير المناخ الذي بدا يحول الصحراء إلى منطقة جافة وقاحلة بالتدريج، هذا التغير الذي لا يزال مسترسلا إلى يومنا هذا.

وبعد الإنسان القفصي عثر على بقايا بشرية متعددة في كل من الشرق الأدنى وإفريقيا بصورة عامة وشمال إفريقيا والمغرب خاصة، غطت المرحلة الفاصلة بين 5000 سنة قبل الميلاد وبداية العصور التاريخية.

من خلال هذه النماذج البشرية وتطورها لاحظنا فراغ الشرق الأدنى من البقايا الأولى وخاصة الإنسان القردي الجنوبي والإنسان المنتصب القامة عكس إفريقيا سواء في شرقها أو في شمالها أو في صحرائها الكبرى، مما يؤكد سبق إفريقيا في ظهور الإنسان واعتبارها مهدا للإنسانية. وخلال المرحلة التالية من تطور الإنسان (النيانديرطال والإنسان العاقل العاقل)، فيلاحظ أن التطور متكافئ تقريبا بين المنطقتين رغم اختلاف في صنف البشر الذي استوطن كل منطقة.

## 2ـ الصناعات الحجرية بين المنطقتين:

لقد عاش الإنسان في منطقتي الشرق الأدنى وافريقيا بما فيها الصحراء وشمال إفريقيا خلال عصور ما قبل التاريخ عيشة تتلاءم والظروف البيئية المحيطة به، واضطر للتأقلم معها، وصنع منها أدواته الحجرية والعظمية والخشبية التي يحتاجها. وقد عرفت هذه الأدوات تطورا في تقنيات صنعها تبعا لتطور الإنسان الذهني ومدى تفاعله مع بيئته.

ومن أقدم هذه الأدوات الحجرية التي استعملها الإنسان بصورة عامة في إفريقيا وإنسان الصحراء وشمال إفريقيا بصورة خاصة تلك المعروفة لدى الباحثين باسم حضارة الحصاة أو الحصى المشذب أو المعدل.

2 ـ 1 ـ حضارة الحصاة أو الحصاة المشذبة : ( Pebble-Culture, le galet amenagé )

وهي أدوات حجرية وبدائية مصنوعة من الحصاة يرجع تاريخها إلى ما يزيد على مليونين ونصف مليون سنة، وذلك باستعمال طريقة البوتاسيوم أركون (KA) على بعض الأدوات المحتوية على مواد بركانية، وأقدم هذه الأدوات الحصوية استخرج من منطقة حوض نهر الأومو بإثيوبيا. وتتمثل في حصاة دائرية الشكل تنزع منها شظية واحدة أو عدة شظايا، مما يجعل جزءا من الحصاة حدا قاطعا. وقد استعمل الإنسان هذه الأداة الحجرية مدة طويلة من الزمن تجاوزت المليون ونصف المليون سنة. وعلى الرغم من أنه لم يعثر لحد الآن (2003م) على بقايا الإنسان صانع هذه الأداة في شمال إفريقيا والذي كان يعتبر أقدم الأنواع البشرية البائدة، فإنه في يوليوز 2001 تم اكتشاف بقايا من هذا النوع في صحراء التشاد تعود إلى ستة مليون سنة. وبناء على هذه المعطيات يجوز لنا انطلاقا من هذا وبجانب العثور على هذه الأدوات الحصوية في العديد من مواقع شرق إفريقيا والصحراء وشمال إفريقيا القول بأن الإنسان صانع هذه الأدوات كان موجودا في شرق وشمال إفريقيا والصحراء. بحيث تم العثور على الحصاة المشذبة في المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والصحراء. مما يدفعنا إلى القول بوجود علاقات حضارية وبشرية منذ البدايات الأولى للإنسان بين هذه المناطق. ويمكن أن نعتبر هذا مؤشرا على إمكانية وجود خلفية ذهنية مشتركة أو متقاربة أو متشابهة بين سكانها ،حدثت على ما يبدو،نتيجة تفاعل الإنسان مع بيئة متشابهة مما جعل نتيجة النفاعل بين البيئة والإنسان عبارة عن منتوج حضاري متقارب أو متشابه. أما في الشرق الأدنى فكما أشرنا سابقا فقد تم العثور على نماذج قليلة منها في بحيرة طبرية بفلسطين المحتلة.

وقد عرفت حضارة الحصاة تطورا تدريجيا في شكلها وفي طريقة صناعتها إلى أن أصبحت منذ مليون سنة تقريبا على شكل فأس يدوية سميت بذات الوجهين أو الحضارة الأشولية.

2 ـ 2 ذات الوجهين (Bifaces) : وهي أدوات حجرية تعتبر أكثر تطورا من الحصاة المشذبة، كما أنها كانت في الأصل حصاة نزعت منها شظايا عديدة بطريقة أكسبتها

وجهين متشابهين إلى أن أصبح لها شكل كمثري. وقد تم العثور على هذه الأدوات في كثير من المواقع بشرق إفريقيا وبشمال إفريقيا والصحراء، وتمتد الفترة التي غطتها هذه الصناعة من مليون سنة إلى حوالي مائة ألف سنة قبل الميلاد، أي مع نهاية العصر الحجري القديم الأدنى.

إن وجود هذه الأدوات الحجرية بوفرة، خاصة في شرق وشمال إفريقيا، دليل آخر على وجود تبادل للتأثيرات الحضارية واستمرار للعلاقات الحضارية والبشرية بين شرق وشمال إفريقيا في هذه المراحل العتيقة منذ بداية عصور ما قبل التاريخ.

أما في الشرق الأدنى فقد تم العثور في السنوات الأخيرة على نماذج من الصناعة الأشولية، إلا أنه حسب الباحثين فإنها من النوع الأشولي المتأخر، وخاصة الأشولي الأعلى في نهر الأردن، والبقاع، والعاصي، وفي فلسطين في كهوف التبون بجبل الكرمل، وأم قطافة وموقع يبرود بسوريا وقرب بيروت بلبنان، ومواقع في الهواء الطلق بشبه الجزيرة العربية.

ومع انتهاء العصر الحجري القديم الأدنى، وبداية العصر الحجري القديم الأوسط مع بزوغ الإنسان العاقل العاقل، عرفت تقنيات صناعة الحجر تطورا كبيرا تميزت بتنوع وتعدد الأدوات الحجرية، وبكونها أصبحت أكثر دقة نظرا لسيطرة الإنسان على تقنيات وأساليب صنع أدواته الحجرية، ومن أهم هذه التقنيات:

2ـ 3 ـ الفالوازية الموستريةإذ أخذت الأدوات الكبيرة تتلاشى، تاركة مكانها لأدوات أصغر حجما، وأكثر : التي تتميز فؤوسها اليدوية ذات الوجهين بتقلص حجمها، تنوعا مثل المكاشط (Racloirs) والمثاقب (Pointes) والشفرات والسكاكين .(les lames) وقد عرفت مناطق الشرق الأدنى وشرق شمال إفريقيا هذه الصناعة في العصر الحجري القديم الأوسط، إلا أن مواقعها قليلة، إذا ما قورنت بمواقع الفترات الأخرى. وتعود قلة وجود هذه التقنية إلى بروز تقنية صناعة جديدة ابتكرها إنسان الشمال الإفريقي، وغطت كل شمال إفريقيا والصحراء من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى التخوم الجنوبية للصحراء الكبرى جنوبا، تسمى التقنية الصناعية بالحضارة العاطرية.

2. 4 ـ الحضارة العاطرية : أخذت هذا الاسم انطلاقا من موقع بئر العاطر (Bir ALATER) الواقع شرق الجزائر والذي وجدت به ودرست فيه أدوات هذه الصناعة لأول مرة، وأول من تأكد أنها تقنية حضارية محلية هو الباحث الفرنسي ريكاس (Reygasse) الذي وصفها سنة 1922 في دراسته التي نشرتها الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم.

أما قبل هذا التاريخ، فإنه رغم العثور على نماذج من هذه الأدوات في مواقع متعددة بشمال إفريقيا والصحراء، إلا أن الباحثين الفرنسيين كانوا يطلقون عليها تسميات غامضة، كما يحصل مع كل اكتشاف أثري يبرز شخصية المنطقة وإسهامها في الحضارة الإنسانية، من هذه التسميات نيوليتي بربري ( Neolithique berbere)الذي أطلقه عليها الفرنسي بالاري (Pallary) سنة 1909.

ويحتل العاطري، في الوقت الراهن من البحث الأثري في شمال إفريقيا والصحراء، المكانة التي يحتلها الموستيري خارج المنطقتين، أما تسلسله الزمني، فقد أثبتت التنقيبات الأثري الطبقية، أنها تأتي بعد الموستيري في الزمن، بل وفي غالب الأحيان تحتل مكانته في شمال إفريقيا وأنها بالإضافة إلى ذلك سابقة على بداية العصر الحجري القديم الأعلى.

ورغم الصعوبة في تحديد المركز الذي نشأت فيه هذه الحضارة لأول مرة والذي انطلقت منه إلى باقي المراكز، عبر تركيز المواقع على الساحل الغربي في المغرب، واستمرار انتشارها في ليبيا ومصر، وتوجهها توجها قويا نحو الجنوب في الصحراء، إلى أن تتوقف بصفة عامة حول ضفاف ما تبقى من البحيرات في الصحراء الجنوبية، كبحبرة التشاد بعد مرورها من موريتانيا، يجعل من هذا التركيز في المغرب وتدرج قلة المراكز كلما اتجهنا نحو الشرق إلى غاية مصر، تجعلنا نفترض أن مهد هذه الصناعة كان في المغرب الحالي، ومنه انتشر في باقي شمال إفريقيا والصحراء. وهذا يعني أن هذه الصناعة فرضت وجودها في كلا المنطقتين، وأن العلاقات الحضارية هذه المرة، كان اتجاهها غربيا ـ شرقيا وغربيا جنوبيا شرقيا، أي أن الصناعة العاطرية كانت

المحرك الأساسي القوي التأثير في هذه المرحلة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن إرهاصات ما يمكن أن نسميه بالوحدة الحضارية بين كل شمال إفريقيا من جهة والصحراء من جهة أخرى تعود إلى هذه المرحلة.

وقد طرح نقاش حول طريقة وصول هذه الحضارة إلى الصحراء، ويقدم الباحث هوكو افتراضا ينطلق من أن التعمير العاطري للصحراء بدأ منذ حوالي 30000 سنة ق.م حين اتجهت موجات الإنسان، صاحبة الحضارة العاطرية، من بلدان شمال إفريقيا نحو الصحراء، وانتشرت في شمال الصحراء. واستقر أخيرا العاطري في المستوى الثالث على ضفاف البحيرات الجنوبية ووصل إلى المرحلة النهائية السابقة على العصر الحجري الحديث. ويعمتد هوكو في هذا الافتراض على التشابه الكبير بين الأدوات العاطرية النهائية في موقعي مغارة العالية بطنجة ودار السلطان قرب الرباط )وكلا الموقعين بالمغرب) ، العائدين إلى حوالي 25000سنة ق.م من جهة، وأدوات المستوى الثالث على ضفاف البحيرات الجنوبية بالصحراء، وعدم وجود صناعة ما قبل تاريخية أخرى بها بين الحضارة العاطرية والعصر الحجري الحديث من جهة أخرى.

وذكر الباحث المغربي بوزوكار في أحد اللقاءات العلمية بمعهد الدراسات الإفريقي أنه ليس من المستبعد أن تكون مجموعة بشرية عاطرية قد تمكنت من اجتياز مضيق جبل طارق، خاصة وأن هناك أبحاثا أثريه بدأت تتجه نحو تأكيد هذه الفرضية.

وتتميز أدوات الصناعة العاطرية بكونها أدوات حجرية خاصة نابعة من تقنية صناعة ذات الوجهين، التي استخرج منها رؤوس السهام والنصال الطويلة والمكاشط وأدوات مذنبة على شكل رأس يسهل استعماله.

ويبدو من خلال الدراسات الأثرية أن الحضارة العاطرية بدأت منذ حوالي 45000 سنة ق.م. واستمر وجودها إلى حوالي 20000 سنة ق.م لتخلفها الحضارة الوهرانية في شمال افريقيا .

2ـ 5 ـ الحضارة الإيبيروموريّة : إلى وقت قريب كان يعتقد أن هناك فراغاً حضاريا أو هوة (Hiatus)أركيولوجية تفصل بين الحضارة العاطرية والحضارة الوهرانية. ولكن التنقيبات الأثرية التي أجراها الباحث الفرنسي القس روش(l'Abbé Roche)في مغارة الحمام بتافوغالت بشرق المغرب، أثبتت أن المستويين الأثريين 17 و18 من مستويات المغارة والواقعين في أسفل الطبقات الأثرية يمثلان الحضارة العاطرية وبداية الحضارة الإيبيروموريّة في المستويات العليا انطلاقا من المستوى 16. وهذا ما يعني عدم وجود أية هوة بين الحضارتين العاطرية والوهرانية، وأن هناك استمرارية واتصالاً بين الحضارتين، وليس من المستبعد أن يكون للحضارة العاطرية أثر في الحضارة الوهرانية.

وتتميزالحضارة الوهرانية بأنها حضارة ساحلية تنتشر في شمال إفريقيا من المغرب غربا إلى ليبيا شرقا، عكس الحضارة القفصية التي كانت حضارة داخلية أي قارية. وأول من سماها بالاري (Pallary) الذي أطلق عليها اسم الحضارة الإيبيروموريّة معتقدا أنها صناعة قادمة من شبه جزيرة إيبيريا. غير أنه اتضح فيما بعد أن هذه الحضارة لا علاقة لها إطلاقا بإيبيريا وأنها حضارة محلية صرفة. وأعقب ذلك تحريات ودراسات وحفريات قام بها الباحث الفرنسي فوفري سنة 1932 في مواقع بالجزائر على الخصوص، مما حدا به إلى تسميتها بالحضارة الوهرانية.

ومن أهم سمات الحضارة الوهرانية صغر أدواتها الحجرية، ولا سيما النصال الصغيرة ذات الشكل الهلالي، والمكاشط المستديرة، وبعض الأدوات المستعملة لسحق الألوان، بجانب أدوات من العظام المصقولة المهندمة.

ويحدد الباحث الفرنسي روش تاريخ الحضارة باستعمال الكربون C14 ما بين 31100 _ + 400 و10900 +__ 400 من الآن، بينما يحدد تاريخها ماكبرني في ليبيا ما بين 14000 ق.م و10000 ق.م، وهذا يعني منها في شرقها، فهل هذه التقديرات المقارنة تسمح لنا بافتراض الأصل في المغرب، ومنه اتجهت بالتدريج إلى الشرق حتى وصلت إلى ليبيا ؟ هذا مع العلم أنه لغاية سنة 1999 لم يعثر على أي شيء

يشير إلى وجود هذه الحضارة في الصحراء. فهل هي حضارة مغربية صرفة ولا وجود لها في الصحراء أم أنها توجد بها ولكن معاول المنقبين لم تصل إليها بعد ؟ وعليه تشير البعثة الأثرية المكونة من أجانب ومغاربة التي قامت بتحريات وأبحاث في الصحراء المغربية أنها عثرت في منطقة السمارة على بقايا أدوات إيبيرومورية مما يعني أنها لم تعد ساحلية بل صحراوية أيضا فهل هي بداية انتقال للعلاقات بين الصحراء وشمال إفريقيا من علاقات عمودية إلى علاقات أفقية، أي من علاقات شمال ـ جنوب وجنوب ـ شمال إلى علاقات غرب ـ شرق وغرب جنوب شرق. أي أن العلاقات التي كانت صحراوية شمال إفريقية صحراوية ثم أصبحت في عهد الحضارة الوهرانية علاقة بين مناطق شمال إفريقية فقط لتضيق فيما بعد، في عهد الحضارة القفصية بحيث لن تتجاوز بعض المواقع في جنوب تونس وشرق الجزائر.

1ب ـ 2 ـ 6 ـ الحضارة القفصية : يلي من الناحية الكرونولوجية الحضارة الوهرانية، الحضارة القفصية. وهذه الحضارة بدورها كان قد أطلق عليها في بداية اكتشافها سنة 1909 بالحضارة والصناعة الجيتولية (Industrie getule) لكن التشابه بين أدوات هذه الصناعة وأدوات الأدوار الأولى من العصر الحجري القديم الأعلى في أوربا وخاصة الحضارة الأوريكنسية (Aurignacien)، دفع الباحثين إلى المزيد من التحري والتقصي وإعادة النظر في المكتشفات الأثرية. قام بها كوبير (Gobert) وفوفري (Vaufry). وقد ألقيا أضواء جديدة على الموضوع خاصة بعد استخراجهم للأدوات الدقيقة باستعمال الغربال، مما يوضح أن الإنسان القفصي كان يستعمل أدوات دقيقة شبيهة بالأدوات الميكروليثية التي تميز العصر الحجري الوسيط (Mesolithique ). مما دفع بكوبير وفوفري إلى إرجاع هذه الصناعة إلى العصر الحجري الوسيط. وإذا أضفنا إلى هذا أن مواقعها سطحية والكثير منها على هيئة تلال مكونة من تكديس الرماد وفضلات الطعام التي تركها الإنسان القفصي والمتكونة من الحلزون، مما جعل الباحثين يطلقون عليها الرماديات أو الحلزونيات (Les escargotieres).

ومن ميزات الحضارة القفصية أنها أقل انتشارا في المكان والزمان، إذ لم تتجاوز المناطق الداخلية بتونس، وخاصة جهتي قفصة وتبسة، كما تمتد إلى شرق الجزائر

وخاصة جهة سطيف وقسنطينة ولا تتعدى في الغرب جهة تيارت. ولم يعثر على أي أثر لهذه الحضارة لحد الآن في المغرب والصحراء. لكن يبدو أنه عثر على ما يشبه هذه الصناعة في الواحات المصرية وجنوب مصر وشمال السودان. أما من الناحية الزمنية، فقد أثبتت التحاليل المخبرية باستعمال الكربون C14 أن الحضارة القفصية ظهرت بعد الحضارة الوهرانية ولم تعمر إلا مدة قصيرة نسبيا تتراوح ما بين منتصف الألف السابع والألف الرابع قبل الميلاد (6450 ق.م + - 400 و3050 ق.م + - 100) أي أنها من الناحية الزمنية تدخل في إطار العصر الحجري الحديث. وتعود أهميتها الحضارية إلى أن رجال الآثار عثروا في مواقع ومواطن الحضارة على أدوات حجرية، تبدو أنها كانت تستعمل في الزراعة، مما يوحي بأن الإنسان القفصي عرف الزراعة وتربية الماشية.

### 3ـ اللغة بين الشرق الأدنى وإفريقيا:

يقر المهتمون والمختصون أن اللغة تعتبر من المكونات السياسية لشخصية الإنسان ولكيانه الاجتماعي والثقافي، إذ هي الأداة التي يتواصل بها مع وسطه وينقل بها أحاسيسه وانفعالاته وتجاربه داخل بوتقته الاجتماعية.

ولقد جرت العادة، عند الحديث عن اللغات التي كانت موجودة قديما في الشرق الأدنى وإفريقيا استعراض ما جاءت به التوراة والتي قسمت اللغات إلى سامية وحامية نسبة لسام ابن نوح وحام ابن نوح بل وأنهم يميلون إلى القول بأن اللغات السامية أقدم وأهم من اللغات الحامية لاعتبارات دينية وسياسية.

إلا أن الأبحاث التي بدأ الشروع فيها انطلاقا من منتصف القرن العشرين أعادت النظر في العديد من المسلمات في هذا الباب.

وللبحث عن جذور لغات هذه المناطق يبدو أنه من اللازم الاستعانة بعلم اللسانيات التاريخية بجانب الباليونطولوجيا البشرية والأركيولوجيا من أجل إعادة تركيب تاريخ هذه اللغات والوقوف على نوعية العلاقات والأواصر التي تجمع بينها.

ففي سنة 1926، نشر العالم كوردون تشايلد كتابا يحمل عنوان "الآريون" اقترح فيه أصلا جغرافيا للشعوب الهندوأوروبية، وذلك بتقديم فرضية تعتمد على معطيات لسانية مبنية على وجود مفاهيم لغوية مشتركة أساسية في أغلب اللغات المعروفة باللغات الهندوأوروبية. وفي سنة 1961 ومن خلال دراسته لشخصية عهد الأكليد (الملك) الأمازيغي مس ن إيزا (مسنيسا) استعمل الباحث الفرنسي كابرييل كامبس معطيات اللغة الأمازيغية اللسانية كمرجع إخباري حول المعطيات الاقتصادية والثقافية لإفريقيا الشمالية خلال العصور القديمة. وفي كتابه البربر الصادر سنة 1987 استعمل كامبس المعطيات اللسانية في بحث عن أصول الأمازيغ.

والجدير بالذكر هنا، أنه قد شرع في تأسيس اللسانيات التاريخية كعلم انطلاقا من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على يد كل من رينيش، وهومبوركير، وكان الهدف الأول هو مقارنة لغات العالم، والقيام بتجميعها في إطار عائلات لغوية أصلية. وتمتلك اللسانيات التاريخية مناهج خاصة بها للترتيب والتصنيف الجيني للغات، تبحث عن روابط القرابة داخل نفس المجموعة اللسانية. كما تعتمد هذه المنهجية على دراسة معاجم اللغة ومفاهيمها، والتدقيق في فونولوجيا الكلمات ومورفولوجيا جذورها وزوائدها، وتحليل القواعد والنحو كالضمائر الشخصية، وعلامات الحالة (علامات الإعراب)، وصيغ الجمع، و الخصائص التوافقية للفعل (توافق الفعل مع الفاعل)، واشتقاق الفعل، والتشابهات المعجمية والفونولوجية. ومن آخر الكتب في هذا المجال كتاب African languages, an Introduction من تأليف برناد هين وديريك نورس Derek Nurse Bernard Heine صادر في كامبريدج سنة 2000، وتجدر الإشارة هنا إلى أن البحث عن التقابل بين اللغات المعروفة، يتطلب الاعتماد على الفونولجيا لأن المكونات الفونولوجية للكلمات أكثر استقرارا واستمرارا من معانيها.

وفي سنة 1949-1950 اقترح الباحث الأمريكي جوزيف كرينبيرك من جامعة سطانفورد تصنيا للغات الإفريقية، وفي سنة 1963 تمكن من تحديد أربع عائلات لغوية لحوالي 730 لغة مستعملة في القارة الإفريقية، وقد ووجه هذا التصنيف في البداية بمعارضة، إلا أنه أصبح اليوم مقبولا من طرف أغلب علماء اللسانيات، وهذا التصنيف هو:

1.3 الكويسان (Koisan): وهي لغة المجموعات البشرية التي تسمى قديما البوشمن. وتعتبر هذه اللغة الآن أقدم لغة إفريقية.

2.3 النيلية الصحراوية: يسود الاعتقاد أنها تأتي في المرتبة الثانية من ناحية الأقديمة في إفريقيا.

3.3 النيجيرية الكونغولية الكوردوفانية.

4.3 الأفروأسيوية (المعروفة أيضا تحت إسم الحامية السامية في تصنيفات لسانيين آخرين).

وهذا الفرع الأخير من هذه اللغات هي التي تهمنا بالدرجة الأولى، لأنه على ما يبدو شكلت الأصل الذي انبثقت منه اللغات الحامية والسامية، ومن بين هذه العائلات اللسانية الأربع نجد ثلاثا منها على الأقل، كانت تستعمل في الصحراء الكبرى خلال العصر الحجري الحديث وهي : النيلية الصحراوية، والنيجيرية الكردوفانية والأفرو آسيوية.

العائلة الأفروأسيوية :تعد هذه الفصيلة من أقل الفصائل اللغوية في إفريقيا إثارة للجدل والخلاف، خاصة وأن كثيرا من لغاتها تمت دراستها منذ فترات طويلة. وتتميز هذه الفصيلة بأن بعض لغاتها يتحدث بها خارج إفريقيا مثلما الحال في آسيا، وبأن بعض شعوب هذه الفصيلة أثرت بشكل كبير في تاريخ البشرية، وأسهمت في صنع حضارة العالم مثل المصريين والأمازيغ والبابليين والفنيقيين. ومن المعروف أن مفهوم عائلة اللغات الحامية السامية كان قد تبناه مارسيل كوهين في أعماله في بداية القرن العشرين وذلك على الرغم من أن بعض اللسانيين ظلوا مترددين حول التركيبة الداخلية لهذه العائلة، من بينهم ويرنير فيسيشل الذي اعترض على التفريعات اللغوية المكونة لهذه العائلة.

ففي رأيه، نحن أمام مجموعتين متميزتين: المجموعة السامية، والمجموعة الحامية. ولن ندخل في نقاشات العلماء لأن الذي يهمنا هنا هو إثارة الانتباه إلى

التحفظات التي يقدمها بعض الباحثين، خاصة وأن البحث العلمي في هذا المجال لا يزال قائما على قدم وساق.

إن اقتراح تغيير التسمية القديمة (الحامية السامية) بالأفروأسيوية افتراض تقدم به الباحث جوزيف كرينبيرك وتم قبوله من طرف الاختصاصيين. وقد اعتمد في هذا التغيير على مجموعة من الأخطاء مرتبطة بالتسمية القديمة، وهي أخطاء أسست على الجانب الإيديولوجي والمرجع الديني. ومن المعروف أن الحامية السامية مرتبطة بحام ابن نوح وسام ابن نوح، وأن السامية كانت تحتل مكانة متميزة في هذه العائلة وذلك على الرغم من أنه يبدو أن السامية ليست إلا لغة واحدة من ضمن باقي لغات العائلة، هذا علاوة على أن اللغة السامية لا توجد في منبع هذه العائلة لأنها ليست إلا تفريعة من التفريعات الأخيرة لشجرة هذه العائلة.

وعليه، فإن اقتراح مفهوم الأفروأسيوية له ما يبرره، لأنه يتضمن لغات إفريقية صرفة كالأومو والكوشية والتشادية، كما أنه من جهة أخرى يرفض فرضية الأصل المشرقي الذي يوحي به مفهوم الحامي ـ السامي.

وفي سنة 1988، نشر العالم اللساني الروسي إيكور دياكونوف كتابا يحمل عنوان اللغات الأفرازية (The Afrasian Languages)، اقترح فيه استعمال مصطلح الأفراسي بدلا من الأفروأسيوي، وقد وافق الباحثون اللسانيون على هذا الاقتراح لأنه يتميز باحتفاظه بالمكونات الإفريقية والأسيوية لهذه العائلة.

تضم اللغات الأفراسية أو الأفروأسيوية لغة الأمو، واللغة الكوشية، واللغة التشادية واللغة المصرية من القديمة إلى القبطية، واللغة الأمازيغية، وأخيرا اللغة السامية. وحسب تقديرات كرينبيرك للغات الأفراسية، فإن لغة الأمو تعتبر الفرع الأكثر قدما وأن اللغات التشادية والأمازيغية لغات أحدث منها نسبيا.

وفيما يتعلق بعملية إعادة تركيب العائلة اللغوية الأفراسية، سواء على المستوى التاريخي أو اللساني، فيعود الفضل فيها إلى الباحث كريستوفر إيهريت الذي شرح في

كتابه الذي نشره سنة 1995 بعض القضايا اللسانية لسكان الصحراء خلال عصور ما قبل التاريخ، حيث عمل على إعادة تركيب وترتيب تواريخ مختلف التقسيمات اللغوية مما جعله يصل إلى تحديد مكان بروزها وتقدير قدمها.

**تفريعات اللغات الأفراسية:**

يبدو أن الموطن الجغرافي الأصلي للغات هذه العائلة، التي عرفت التقسيمات فيما بعد، كان يقع بين شمال السودان والهضاب العليا لأثيوبيا. وأن التقسيمات الأولى التي عرفتها هذه اللغة حدثت حوالي 15000سنة قبل يومنا هذا، وهذا ما يفترض أن اللغة الأولى كانت أكثر قدما من هذه الفترة. ويرجع الاختصاصيون تاريخ بروزها إلى حوالي 17000 سنة من يومنا هذا. وبما أننا في العصر الحجري القديم الأعلى يرى بعض اللسانيين أنه لا يمكن أن نعود في دراسة هذه اللغات إلى أبعد من 17000 و15000 سنة قبل يومنا هذا.

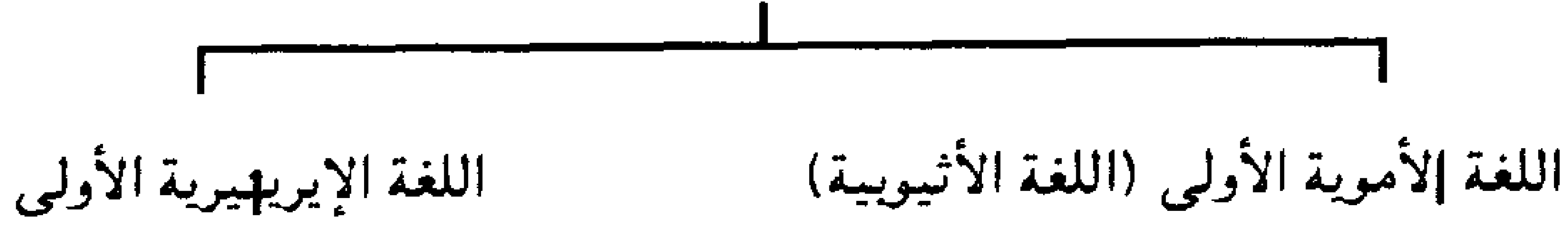
ويذكر اللسانيون التاريخيون أن أول تفريع للغات الأفراسية حدث في إثيوبيا وأعطى لغتين: لغة الأمو الأولى (لغات إثيوبية واللغة الإيريتيرية الأولى التي جمعت ما تبقى من العائلة الأفراسية).

أما التفريع الثاني فقد عرفته اللغة الإيريتيرية الأولى التي تفرعت إلى الإيريتيرية الجنوبية والإيريتيرية الشمالية حوالي 13000 سنة قبل اليوم، ويبدو أن الناطقين بالإيريتيرية الشمالية تحركوا بالتدريج نحو الشمال في اتجاه مصر، (انظر لوحة التفريعات المرفقة).

اللغة الأفراسية الأصلية

ظهرت ما بين 17000 و15000 قبل اليوم

حوالي 15000 بدأ التفريع الأول

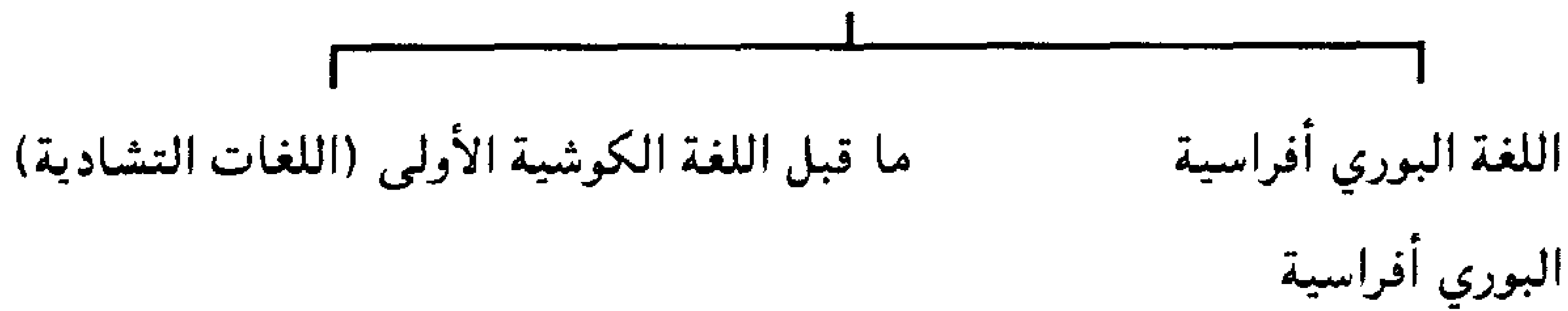


اللغة الأموية الأولى (اللغة الأثيوبية) — اللغة الإيريهيرية الأولى

حوالي 13000 قبل اليوم حدث التفريع الثاني

اللغة الإيريتيرية الجنوبية (اللغات الكوشية) — اللغة الإيريتيرية الشمالية الأولى

حوالي 10000/11000 قبل اليوم حدث التفريع الثالث



اللغة البوري أفراسية — ما قبل اللغة الكوشية الأولى (اللغات التشادية)

البوري أفراسية

حوالي 8000/9000 سنة قبل اليوم حدث التفريع الرابع



اللغة المصرية — اللغة الأمازيغية ـ وبعدها اللغة السامية

التفريع الثالث للغات الإريتيرية حدث حوالي 11000سنة و10000 سنة قبل اليوم، وخلاله تفرعت إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى اتجهت نحو الجنوب الغربي أي نحو الصحراء ومنها ستتولد اللغات التشادية.

والمجموعة الثانية حددت مواقعها حول النيل غير بعيد عن مصر، وقد أطلق عليها الباحث كريستوفر إيهريت البوري أفراسية الأولى التي ستتولد عنها بدورها ثلاث لغات هي:

اللغة المصرية الأولى أو الأصلية

اللغة الأمازيغية الأولى أو الأصلية

اللغة السامية الأولى أو الأصلية

وقد تم تحديد تاريخ هذا التفريع الثالث ما بين 11000و10000 قبل اليوم، وهذا يوافق لدى مؤرخي ما قبل التاريخ ظهور الإنسان الذي يسمونه الإنسان المتوسطي الأول (Protomediterraaneeens) الذي ينتمي إليه الإنسان الناطوفي في فلسطين والإنسان القفصي في شمال إفريقيا.

وآخر تفريع لساني للغات البوري أفراسية حدث ما بين 9000 و8000 قبل اليوم وهو الذي سيتولد عنه ثلاث مجموعات فرعية هي :

- اللغة المصرية
- اللغة الأمازيغية
- اللغة السامية

وبالنسبة لإيهريت، فإن هذا التفريع الأخير حدث في إطار كرونولوجي متدرج إذ أن المجموعة الفرعية المصرية الأصلية هي اللغة الأولى التي تفرعت، وجاءت بعدها اللغة الأمازيغية الأصلية ثم اللغة السامية الأصلية. لكن الأستاذ سالم شاكر يرى أن اللغة الأمازيغية ظهرت ما بين 10000 و9000 قبل اليوم، وبأنها لم تتفرع عن أي من اللغتين الأخيرتين )المصرية والسامية) حتى ولو كانت هذه العائلات اللغوية الثلاث (المصرية والأمازيغية والسامية) تتداخل في تعبيراتها المعجمية.

وهناك افتراض آخر يرى أن اللغة الأمازيغية هي التي تفرعت أولا من الكوشية ثم جاءت بعد ذلك اللغة المصرية، وفي آخر هذه التفريعات تأتي اللغة السامية.

وانطلاقا من مختلف هذه الآراء نحصل على فترة زمنية خاصة ببروز اللغة الأمازيغية تتراوح ما بين 10000و8000 سنة قبل الميلاد (أي ما بين 12000 و10000 قبل اليوم).

ولكي نتمكن من توضيح أكثر للرؤيا يبدو من اللازم أن نحاول القيام بالربط والتوفيق ما بين المعطيات اللسانية والمعطيات الباليونطولوجية والمستخرجات الأثرية وذلك حتى نتسطيع تحديد فترة زمنية أكثر دقة نوعا ما، هذا فضلا على إمكانية التعرف عن قرب على الناطقين الأوائل باللغة الأمازيغية.

من خلال هذا التقديم الأولي لجذور اللغات الأفراسية أو اللغات الحامية السامية يبدو أن أصولها يوجد بإفريقيا وخاصة في المنطقة المحصورة بين إثيوبيا والسودان ومنها انتقلت وانتشرت في باقي القارة الإفريقية وفي الشرق الأدنى، وليس في الشرق الأدنى أو في شبه الجزيرة العربية كما كان يعتقد من قبل، وهذا الافتراض تؤيده مظاهر أخرى تتمثل على الخصوص في أن إفريقيا هي مهد الإنسان، والصناعات الحجرية خلال عصور ما قبل التاريخ.

وباختصار فإن التواصل بين الأفارقة فيما بينهم (بين شرق إفريقيا ووسطها وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها) ليس وليد اليوم أو القرون القليلة الماضية لكنه قديم قدم البقايا البشرية ومخلفات المظاهر الحضارية.

وأن التواصل بين بعض الأفارقة ومنطقة الشرق الأدنى كان بين مد وجزر، فأحيانا تكون المبادرة من إفريقيا وخاصة خلال عصور ما قبل التاريخ عن طريق باب المندب وشبه جزيرة سيناء، وأحيانا تأتي المبادرة من الشرق الأدنى وخاصة عند نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط.

وأنه كلما توغلنا في القدم، ومع البدايات الأولى للبشرية، نلاحظ أن مبادرة التواصل آتية من إفريقيا باعتبار هذه القارة مهد الإنسانية لحد الآن.

لذلك وانطلاقا مما سبق، فإننا مطالبون ببناء العلاقات الإفريقية العربية على أسس ثابتة وقوية، تأخذ بعين الاعتبار كل هذه المعطيات، وأن نكون واعين بالظروف السياسية والاقتصادية والفكرية التي تعيشها القارة الإفريقية والشرق الأدنى؛ وأن نفكر بجد في تفعيل هذا التواصل التاريخي الحضاري، بمشاريع علمية وتنموية تعيد

الاعتبار لهذه العلاقات المتجذرة انطلاقا من قولة المرحوم ليوبولد سيدار سنغور:

«L'orgueil d'etre differend et l'honneur de vivre» ما معناه "الاعتزاز بالاختلاف والعيش بشرف".

## لائحة بعض المراجع الأساسية


- مصطفى أوعشي : نماذج من التواصل بين شمال إفريقيا والصحراء خلال عصور ما قبل التاريخ، مجلة "الجديد للعلوم الإنسانية"، عدد 7 سنة 2000، ص 7-48.

- مصطفى أوعشي : المدخل لتاريخ الحضارة"، مطبعة الساحل - الرباط 1949-1980.

- عبد الرزاق قراقب وعلى مطيمط: "حضارات ما قبل التاريخ، (تونس والبلدان المغاربية)، ط 2 منشورات البحر الأبيض المتوسط 1993.

- سلطان محيسن: عصور ما قبل التاريخ،دمشق 1989 - نخبة من المؤرخين والباحثين: تاريخ افريقيا العام، ج 1، المنهجية وعصور ما قبل التاريخ، تورينو 1983.

- عبد الجليل بوزوكار: ا نعكاسات الهجرة البشرية داخل الصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ :قراءة لآخر معطيات الأركيولوجيا، محاضرة ألقيت بمعهد الدراسات الإفريقية سنة 2001.

- Leroi Gourhan : la préhistoire , Nouvelle clio N°1, PUF, 1977.
- LeRoi Gourhan : Hommes de la préhistoire, les chasseurs , Paris 1955.
- Sonneville - Bordes, D. De l'age de la pierre, Paris 1961, Que sais-je ? N° 948.
- L. Balout, Préhistoire de l'Afrique du Nord, essai de chronologie, Arts et Métiers graphiques, Service des Antiquités de l'Algérie, Paris 1955.
- P. Biberson, le gisement de l'Atlanthrope de sidi Abderrahmane (Casablanca), Bulletin d'Archéologie marocaine, 1, 1956, p 39-92.
- ID le cadre paléogéographique de la préhistoire du Maroc Atlantique, publications du service des Antiquités du Maroc n°16 - Rabat 1961.
- ID. le paléolithique inférieur du Maroc Atlantique PSAM, N° 17 - Rabat 1961.
- Mc Burney c,bm, The Stone Age of Northern Africa London 1960.
- ID, The Hawa Fteah and the stone ago of South east Mediterranean, Cambridge 1967.
- G. Camps, les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord, ed Doin Paris 1954.
- L Balout, les hommes préhistoriques du Maghreb et Sahara libyca II, 1954.
- J. Roche, l'Ephipaléoliltique marocain, ed Fondation Lacouste Club Enkian Paris 1957.
- ID l'Atérien de la grotte de Taforalt, B.A.M, XI, 1978.
- ARuhlman, les Grottes préhistoriques d'Elkhenzira, P.S.A.M, 2, 1936.
- P Biberson, les terrasses des l'Ouedel Khemis, Bulletin de la société de préhistoire du Maroc, Nouvelle Série N° 3-4, 1er et 2ème semestre 1951, pp 9-39.
- O. Baouba, Mohamed Naffé, Robert Vernet, l'Archéologie de la Mauritanie au Musée de Nouakchott, IMRS - CRIAN. Nouakchott 2000.
- A.Debenath, le peuplement préhistorique du Maroc : données récentes et problèmes, l'Anthropologie, 104, 1, 2000 pp 131-145.
- O. Bates, The Eastern Libyans, Londres 1914.

- S.Gsell, histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, 8 volmes, 1913-1928.
- M. H. Fantar, Ff. Decret, l'Afrique du nord dans l'Antiquité, Paris 1976.
- Th. Tillet, l'Atérien du Sahara méridional, Thèse de Doctorat d'Etat et Lettres de l'Université Aix - Marseille I, 1993.
- D. Grebenart, La préhistoire du Sahara marocain septentrional et de ses bordures montagneuses. Etat des recherches en 1997, bibliographies, Préhistoire et Anthropologie Méditerranéennes, t. 6, 1997, pp. 121-1.
- A.Ruhlman, l'Homme fossile de Rabat, Hesperis XXXII, 1945, p 35-45.
- F.Z. Sbihi Alaoui, la vie préhistorique, Mémorial duMaroc, vol n° 1, Nord organisation 1983.
- Mostafa Ouachi, Origine des Nords Africains, Mémorial du Maroc, vol N° 1' Nord organisation 1983.
- Anati E, Palestine before the hebreux, New York 1963.
- G. Souville Atlas préhistorique du Maroc, 1, le Maroc Atlantique CNRS. Paris 1973.
- A.Weill, Origines de l'homme, ces découvertes qui boulversent notre histoire, le Nouvel Observateur n°1679 du 9 au 15 Janvier 1997, p 4-5.
- ID, Blancs, jaunes ou noirs, nous avons les mêmes ancêtres, le Nouvel Observateur n°1679, p 9-12.
- IAN Tattersall - Gay Matternes, Autrefois, nous n'étions pas seuls, pour la sciences, mars 2000, p 74-79.
- William Howells, Getting Here : The Story of Human Evolution, Compass Press 1997.
- M. Hachid, Les Premiers Berbères, INA-YAS, Episud AIX, en, Provence 2000, Alger 2001.
- L. Cavali-Sforza, des gènes, des peuples et des langues in les langues du Monde. Dossier pour la science, octobre 1997, pp 42-48.
- A. Ehert, Southern Nilitic History, north -Western University Press Evanston, Illenois 1971.
- ID. Reconstructing Proto-Afroasiatic (Proto-Afrasiens) : Vowels, Tone, consonants and vocabulary, University of California.

Publications in Linguistics, vol 126, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, London 1995.
- J. Greenberg, Classificaton des langues d'Afrique in Histoire générale de l'Afrique, Jeune Afrique / stock Unesco 1980, pp 321-338.
- Davidson, D., The story of prehistoric civillization, Londres, 1951.
- Childe, V.G, What happened in history, Harmonidsworch, 1952, Peinguin Books.
- ID, New light on the most ancien East, Londres, 1952.
- Howell, F. Clark, Upper Pleistocene stratigraphy and early man in the Levant, Proceedings of the American philosophical Society 103, n°1, 1959, pp 1-65.
- Cole S, The prehistory of East Africa, New York, 1963.
- Laeky, L.S.B, Olduvai George, A report on the evolution of the land - axe culture in beds I. IV, Cambridge, 1951.
- ID, Ilduvai Gorge, 1951-1961, Fauna and background, Cambridge, 1965.
- Robinson J.T, Masson, R.I, Occurrence of stone artefacts with Australopithecus at sterkfontein, Nature, 180, 1957. p 521-524.
- Philip Rightmire G, The evolution of homo Erectus, comparative anatomical studies of an extinct Human species Cambrige University press, 1993.
- Tobias, P.V. The antique of man : Human evolution in Human Genetics, A. The Unfolding Genome, eds, B. Bonné-Tami, T. Cohen et R.M. Gaodman, 195-214, New York 1982.
- Wood, B.A, The Oringin of Homo erectus, Courier Fors chungsinstitut senckenber, 69, 1984, p. 117-127.
- Brezillon :. Dictionnaire de la Préhistoire, Dictionnaires de l'homme du XXe siecles, Larouse, 1969

# الإبداع الأدبي جسر التقارب العربي-الإفريقي: رواية «مريم با» نموذجاً

فاطمة الجامعي الحبابي(*)

ونحن نعيش في غمرة مراسيم الاحتفاءات التي يشهدها المغرب باختيار الرباط عاصمة /عروسا للثقافة العربية لسنة 2003 ، لا يسعني إلا أن أغتنم فرصة اقتعادي كرسيا في هذه المنصة لأهنئ وزارة الثقافة في شخص أخينا العزيز الأديب والشاعر محمد الأشعري على تفوقها ولا أقول على نجاحها بل تفوقها بامتياز في اختيار ووضع برامج التظاهرات الثقافية والفنية من ندوات فكرية ومهرجانات شعرية ومعارض تشكيلية، لم يكن إسهام الفعاليات وأقطاب الفكر والفن على الصعيد الدولي والإفريقي بأقل من إسهام النخبة نظائرهم على الصعيد العربي، تظاهرات اهتزت لإشعاعها ربوع مملكتنا الشريفة و أدركت أبعادها الإيجابية الفئات الشعبية من مختلف طبقاتها.

إذا كانت ندوتنا هاته تسعى أساسا إلى خلق حوار صريح بين المثقفين العرب والأفارقة حول قضايا أساسية تلخص الإشكاليات التي تطرحها العولمة وتحدياتها إزاء الخصوصيات التي تحددها الهوية بموروثها الثقافي في جذورها التاريخية، فإني آبى إلا أن أجدد التهنئة للنخبة المسؤولة لاختيارها لموضوع "العالم العربي و إفريقيا"، إنه موضوع يعتبر ابن الساعة، لا على الصعيد العربي الإفريقي فحسب، ولكن أيضا، على الصعيد العالمي حيث سيتطرق ولا شك من سيتناولون الحديث ضمن المحور الثالث في الندوة عن تحديات الحاضر للكلام عن الثقافة العربية الإفريقية في ظروف العولمة و وسائل مواجهة تحدياتها.

---

*أستاذة جامعية وباحثة مغربية .

أليست الثقافة الجسر المتين الذي تتشكل مادته وهيكله من أحاسيس ومشاعر أفراد الأمة في تفاعلها مع ذاتها ومع ذات الآخر، ومن عادتها وتقاليدها وأعرافها ومعارفها ومعتقداتها الراسخة والمتجددة. فمهما تعددت وسائل الاتصال مع الآخرين عبر القنوات والشبكات التجارية والاقتصادية والسياسية يبقى الفن والإبداع بصفة عامة المحرك لديناميكية الاتصال والعامل على تقارب الأمم والشعوب والخادم في العمق لمصالحها وعلى رأسها تعميم السلام والأمن والعدالة والديموقراطية. إن حمولة أغنية أو رقصة أو مباراة في كرة القدم أقوى من حمولات ما يبذل من جهود في شتى المؤتمرات بما فيها تلك التي على مستوى القمم من أجل وضع قرارات وبنود يصادق عليها حينه وتظل مومياء في مقابر الملفات فوق رفوف مكاتب الهيئات والمنظمات والإدارات الوزارية بمختلف الدول.

**أيها الحضور الأفاضل،**

يأتي انعقاد هذه الندوة تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة محمد السادس نصره الله في سياق التوجه الذي سنه المغرب منذ استقلاله للحفاظ على روابطه التاريخية المتجذرة في إفريقيا والعمل على تنشيطها. لقد شكل المغرب النموذج لكل الأقطار الإفريقية في التمرد ضد المستعمر، اقتداء بثورة الريف/أنوال التي قادها الزعيم عبد الكريم الخطابي سنة 1926 ، وكان جلالة الملك المغفور له محمد الخامس بطل التحرير القدوة في النضال والكفاح يوم ضحى بعرشه في سبيل استرجاع المغرب لسيادته واستقلاله فاندلعت الثورة الفريدة من نوعها في تاريخ العالم حيث ثارت القيادة والشعب في آن واحد في تضحيات متبادلة، ولم يكن استقلال المغرب وبعض الأقطار الإفريقية سوى محرضا لشن سياسة التكتل الإفريقي، فكان مؤتمر الدار البيضاء التاريخي الذي حضره بعض رؤساء الدول الإفريقية وأسفر عن ميثاق الدار البيضاء الشهير الذي شكل قاعدة لقيام منظمة الوحدة الإفريقية، ولم تغفل قراراته وتوصياته النص عن في البند الخامس على ضرورة مضاعفة الجهود لتوثيق الروابط الثقافية حيث نقرأ:

"نحن رؤساء الدول الإفريقية المجتمعين من 4 إلى 7يناير 1961 ، الشاعرين بالمسؤوليات الملقاة على عاتقنا نحو القارة الإفريقية نؤكد:

..........................................

5 ـ نؤكد عزمنا على مضاعفة الجهود لإنشاء تعاون فعلي بين الدول الإفريقية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

كما قرر المؤتمر تدعيم حرية إفريقيا وبناء وحدتها وضمان سلامتها عن طريق تأسيس أربع لجن من بينها:

اللجنة الثقافية الإفريقية، وتضم وزراء التهذيب الوطني للدول الإفريقية المستقلة ومن مهامها المحافظة على الثقافة والحضارة الإفريقية وتنميتها ومضاعفة التعاون والمساعدة الإفريقية في الميدان الثقافي.

هكذا لم تكن تمر مناسبة دون العمل على ترسيخ هذا الاتصال عن طريق التبادل لزيارات على مستوى القمم وإبرام مواثيق ثنائية وضمنها النص على العلاقات الثقافية.

لا يرمي هذا العرض إلى إحصاء مختلف التظاهرات الثقافية والفكرية التي شهدها المغرب خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، في موضوع العلاقات العربية الإفريقية إن على الصعيد الأكاديمي الجامعي أو على صعيد الجمعيات الثقافية وبعض الأندية، يود أن يشير فقط و بعجالة إلى بعض التظاهرات التي كان لي شخصيا حظ الإسهام في المشاركة فيها أو الاطلاع على أعمالها ومنجزاتها من ذلك:

## I ـ على صعيد الجامعات :

-«اللقاء المغاربي الإفريقي» الذي نظمته كلية الآداب بنمسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، خلال شهر أبريل1991 .

-ندوة "المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء" الذي نظمته كلية الآداب، جامعة القاضي عياض بمراكش ، في غضون سنة 1992.

-ندوة دولية: "فاس وإفريقيا" ، الذي نظمته كلية الآداب فاس-سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، 1993 .

-أنشطة معهد الدراسات الإفريقية الذي تأسس 1989 ، وقد تحدث أمس أخونا السيد الوزير والأستاذ الجليل أحمد التوفيق مديره السابق عن بعض نشاطاته.

**II ـ على صعيد الجمعيات الغير الحكومية:**

1.بيت آل محمد عزيز الحبابي الذي نظم:

ـ حفل تكريم للرئيس الشاعر السنغالي ليبولد سيدار سنغور، في 16 يوليوز1984

ـ ندوة "ملامح الأدب الإفريقي" يوم 8 يونيو 1995 .

2. جمعية أبي رقراق: التي نظمت أمسية لتقديم كتاب سعادة سفير السنغال بالمغرب إبراهيم ينانغ قطار حياة، يوم 4 نونبر 1994 .

3. المنتدى العربي الإفريقي الذي يرأسه أخونا الفاضل السيد الوزير محمد بن عيسى بأصيلا الذي اشتهر بمواسمه الصيفية الزاخرة ونشطته التي تسعى لإبراز العلاقات الفنية والثقافية بين العرب وإفريقيا منذ عشرين سنة. من بينها:

-تكريم الرئيس ليبولد سيدار سنغور في 13 ـ 15 غشت 1990.

-الندوة التي عقدتها في صيف 1996 حول الكتاب الأفارقة.

4. جمعية الفلسفة بالمغرب التي كان يرأسها الفقيد الفيلسوف محمد عزيز الحبابي، وقد نظمت ندوة دولية تحت عنوان " المناظرة العربية الإفريقية: من أجل فكر ثالثي وغدوي"، بالدار البيضاء في الفترة ما بين 13و15 مارس 1986 .

**III ـ على صعيد الأنشطة البلدية:**

-أقامت المجموعة الحضرية لمدينة فاس حفل توأمة مدينة سان لوي بالسنغال وفاس، كمدينتين عريقتين في التاريخ لعبتا دورا هاما في ترسيخ القيم الحضارية الإنسانية المشتركة، وذلك في صيف 1980.

إذا كان الهدف من ربط هذه العلاقات وإقامة هذه التظاهرات الثقافية العربية الإفريقية يرمي أساسا على تعميق التعارف بيننا فذلك لأن من وظيفة المهرجانات الثقافية التقريب بين الشعوب وانفتاح بعضها على بعض في ماهو حميمي ومعيش يومي. إن ما يستطيع أن يزرعه شاعر بقصائد تتغنى بأهازيج ونغمات ذات أهداف إنسانية سامية، وأديب وفنان ملتزم بأسمى القضايا الإنسانية عبر إبداعه الأدبي الروائي و القصصي والتشكيلي والغنائي الذي يجمع بين سحر الروعة وعمق الامتاع وبين الحكمة في الطرح والبيان في بلوغ الهدف وتضافر الفكر المتأمل والمشاعر الإنسانية المتألقة لقمين بأن يقود الإنسان إلى طريق العدالة والفضيلة وتحقيق الآمال التي تنشدها مجموع البشرية.

إن حملة الأقلام المبدعة وأصحاب الأخيلة الرفيعة المرفرفة على جناح الفكر والتأمل في سماوات المثل والفضيلة أقدر الناس على أن يستثيروا ما في النفوس من كوامن الخير ويخلصوا الصدور من بذور الحقد والضعيفة. إن الأحاسيس الصادقة والأذواق المتألقة السليمة سلاح أبيض للقضاء على مختلف الشرور وعلى الميز بكل أشكاله والحقد و البغضاء التي تتألب على مجتمع أضحى يغرق في تدقيق حسابات الشركات المتعددة الجنسية للاستثمار وعمليات الدوس على كل القيم الأخلاقية من أجل الربح المادي المحض، بل الدوس على الإنسان والإلقاء به في دوامة التقتيل والانحدار والانتحار. إن مسؤولية المبدعين والنوابغ من الشعراء والأدباء والفنانين أضحت اليوم، أكثر من أي وقت مضى، ثقيلة وهامة وملحة لإنقاذ البشرية من ويلات الحروب والانفجارات والإرهاب، ولا أرى منقذا لها سوى دخول جنات الإبداع الصادق والجني من ثماره كيما، يسود من جديد، الأمن والسلام والاستقرار والسكينة في النفوس ويتمكن الإنسان من أن ينسجم بدأ مع نفسه أولا ثم مع أفراد مجتمعه ومع الشعوب كافة. إن مهمتهم لتعتبر في نظري أسمى مهمة وأجداها لمؤازرة سياسات القيادات والهيئات الدولية، ولا بد أن ينفتح لها صدر العالم إذا ما رغب في أن يكون له غد أفضل وينفلت من قبضة الانجراف الأعمى مع التيارات المادية الطاغية. ولنا في القرآن الكريم، المثل الأعلى الذي أوحى به الخالق جل علاه عبرة بمعجزته اللغوية البليغة وقصصه وأسلوبه وآياته البديعة عبرة ونموذجا للإصلاح.

فأي سمو يضاهي صرخة السماء لنبذ التفاضل بكل معاييره التي لا يعير الأخلاق ولا القيم الإنسانية أي اعتبار، صرخة السماء التي جاءت ضد كل ميز لوني أو عرقي بين البشر فأعلنتها حربا ضد استعباد الإنسان لأخيه الإنسان الذي تجسد خصوصا في استرقاق البيض للسود والانجراف مع غريزة الاحتقار والعنصرية المقيتة. ولئن سمت الحضارات التي عرفتها الأمم على مدى مراحل من تاريخ الإنسانية فإنها لم ترق إلى التحرر من ممارسات استعباد الإنسان الأبيض للملونين وظل سجين سلوك حس متخلف وعنصرية ضد الإنسان الإفريقي يقيد بالأغلال ويسخر جسده وطاقاته للأعمال الشاقة، للاستثمار الاقتصادي المربح. وباسم التحضير يبرر همجية واستعماره لإفريقيا السمراء "منتجة" العبيد ومنجم الثروات. وتصول أوروبا وأمريكا وتجول بفرض سيطرتها على الإنسان الإفريقي واستنزاف طاقاته.

لقد عانت القارة السمراء من الحيف والجور ضروبا مما يسجله التاريخ لعنات قذفها الإنسان الأبيض في وجهها، إذ شكلت محطة استعباده يشبع فيها غريزته الحيوانية بشتى طرق الاحتكار والكراهية والاسترقاق لإنسانها. وظلت معاناتها من تجارة الرقيق قروناً بلغت مداها حينما اعتقد مكتشفو القارة الأمريكية أن إفريقيا خلقت لتنتج العبيد، فبنوا قارتهم على جهود أهاليها السود، يسوقونهم إليها فكانوا يعانون من الميز العنصري بقدر ما يعانيه إخوانهم في بلدان إفريقيا من الاستعمار الاستيطاني. وانبلج الصبح من عتمة الظلام الدامس حيث بزغ فجر اليوم الذي وعوا فيه أن إنسانيتهم لا تختلف عن إنسانية أي آخر، وأدركوا قيمهم الأخلاقية وتميزهم الحضاري، وما حبتهم به الطبيعة الجغرافية من ثروات جوفية استجلبت أطماع المستعمرين، وتحققت حينذاك المعجزة الكبرى في تاريخ الإنسانية حيثما انطلقت الصيحة من أعماق إفريقيا تقول لا وألف لا للاستعباد، لا وألف لا للميز العنصري، انطلقت صرخة مدوية من أفواه مفكرين وأدباء وشعراء مبدعين برزوا من بين أضلع الأفارقة وآلوا على أنفسهم الخروج بإفريقيا من معاناتها، فكانت الحركة الزنجية على يد الشاعر إميل سيزار والشاعر ليبولد سيدار سنغور، يؤازرها عدد من الحركات المناضلة التي يتزعمها أفراد وهيئات محلية ودولية.

وقد تصدر الإبداع في كل أشكاله، الروائي والقصصي والشعري والتشكيلي حركة التمرد والرفض ضد عقلية الإنسان الأبيض في كراهيته واحتقاره للملونين وحقده عليهم تصدر الإبداع كأحد السبل لتأكيد الذات الإفريقية التي أضحت تعي قيمها الإنسانية وعطاءاتها في الحقل الاقتصادي والسياسي والثقافي، ووقفت وقفة صمود معلنة رفضها لكل استغلال، وإدانتها بقوة " للحس الحضاري" المتخلف أخلاقيا الذي يغرق فيه المستعمر المستعبد. عملت هذه الحركة الإبداعية على إيقاظ وعي الجماهير بحقوقها و تحفيزها للتمرد ضد القمع أنى كان مصدره، ومهما كانت مبرراته وذلك عبر ما كانت تصدره المطابع من كتابات إبداعية وفكرية ودواوين شعرية مناضلة، إذ تجلى أن الثقافة في مفهومها الشامل هي الحل الناجح لإيقاظ أبناء إفريقيا، وأن الرجل الإفريقي الأسود المثقف كفيل بأن يرفع عاليا هامة بني جلدته، ويجعل السواد الذي كان وصمة عار نجمة في أفق الكون. وفي ظرف وجيز تم على يد الحركة الزنجية وحركات أخرى تحقيق انتصارات احتضنت الكفاح من أجلها جمعيات مناضلة في عاصمة النور باريس، أخذت تصدر كتبا ومجلات على رأسها مجلة "الحضور الإفريقي" "Presence africaine" وتعالت الأصوات المفكرة المبدعة من هنا وهناك ضد النخاسة والاستعباد واستغلال الطاقات البشرية و المنجمية بالقوة العسكرية.

لم تتغيب عن الإسهام في هذه الحركة أقلام نسائية برزت في منتصف العقد الأخير من القرن الماضي، قامت ثائرة بدروها ضد كل أصناف الاستعمار الأجنبي وضد استعمار الرجل للمرأة استسلاما لتقاليد تفرض عليها الخضوع له وخدمته طوعا أو كرها. سمت أرواح بعضهم إلى سماء الفنّ فانقادت أقلامهن سلسة في مواجهة التخلف والرجعية الاجتماعية، تعبر بروعة فنية وإبداع كبير عن معاناة المرأة الإفريقية من قهر الرجل واحتكاره ومن ثقل التقاليد البالية. كما أعلنت تلك الأقلام إصرارها على الكفاح ضد الاستغلال الجسدي واغتصاب كرامتها، وعلى بذل الجهد لتحرير عقلية الإنسان الإفريقي، رجلا وامرأة على السواء، مما يقيدها من تلك العادات.

من بين الأقلام المبدعة التي حلقت في سماء الفن الأدبي الراقي قلم الروائية السنيغالية "مريم با" التي أبدعت نصا من أجمل النصوص الفنية: " رسالة طويلة جدا"

(Une si langue lettre) صدر سنة 1979 ضمن سلسلة "حوار الثقافات". شيء ما شدني إلى الكتاب فلم أتردد في اقتنائه، وحين انكببت على قراءة صفحاته الأولى وجدتني كلما أتممت صفحة اشعر بلهفة إلى قراءة الصفحة التي تليها، فلم أترك الكتاب إلا بعد أن أتيت على آخر صفحة منه.

كانت قراءتي لهذه الرواية أول لقاء لي بالإبداع الأدبي الإفريقي، لقاء جعلني أحس بشعور مزدوج: استغراب ممزوج بارتياح، أو إذا شئت قلت أسى يخفف من وطأته الانتصار على الجهل بهذا الإبداع، ذلكم الجهل الذي رسخه توجهنا، خارج نطاق الإنتاج الأدبي في البلاد العربية، بشكل تلقائي وبحكم السياق الثقافي الذي يسود بيئتنا عموما، إلى انتقاء قراءتنا من الإنتاج الأدبي الغربي والأمريكي والسوفياتي في لغاته الأم أو مترجما عنها إلى اللغة العربية، انسياقا من الموضة السياسية السائدة ومع شعارات الديموقراطية والاشتراكية. فلقد كانت الأمم في أعيننا المكانة العليا في جميع المجالات، ولم نعر اهتمامنا لأقطار القارة السمراء ولم نذر وجوهنا نحوها. على أننا جميعنا في الجنوب نشرئب بأعناقنا إلى الشمال "موئل الحضارة والمنقذ من التخلف" كما لقننا ذلك المستعمر. لم نلتفت إلى ما يميز موقع مغربنا الجغرافي الذي قال عنه جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني: "المغرب يشبه شجرة تمتد جذورها امتدادا عميقا في التراب الإفريقي، وتتنفس بفضل أوراقها التي يقويها النسيم الأوروبي. بيد أن حياة المغرب ليست عمودية الامتداد فحسب، بل إنها تمتد كذلك امتدادا أفقيا نحو الشرق الذي نحن مرتبطون معه بالتالد والطارف من الصلاة الثقافية،..."، (أنظر كتاب التحدي، ص. 295).

إن انفتاحنا على الغرب واطلاعنا على إنتاجه والاستفادة منه ضرورة أكيدة للتفاعل مع معطيات الحضارة المعاصرة، لكن دون أن ينسينا ذلك أن الحفاظ على حياة الشجرة وحمايتها من العواصف واليبس يستلزم أن يأخذ كل جزء فيها ما يحتاجه من مقومات حياتية تمكنه من القيام بدوره. فلا بد لجذور الشجرة أن تتغذى من تربة إفريقيا الخصبة التي تتلاقح فيها بذور غنية ومتنوعة.

من خلال قراءتي لهذه الرواية، لمست عن قرب بعض عناصر الجذور المشتركة بين الأفارقة التي تثبت الأواصر العديدة القائمة أثناء القارة وعلى رأسها أواصر الدم والروح والاقتصاد التي نسجها الدين و الرحلات المتبادلة منذ قرون بين المغاربة وبعض أقطار إفريقيا السمراء. فإلى بداية القرن العشرين كان العديد من أبناء الأسر الفاسية يتوجهون خاصة على السينغال وساحل العاج قصد التجارة فيتزوجون من بنات البلد وينجبون أطفالا، يعود بعضهم إلى المغرب ويظل البعض الآخر مقيما هناك. وبالمثل كانت البعثات الطلابية من هذه الأقطار تقصد مدينة فاس للدراسة بجامعة القرويين أو لزيارة الزاوية التيجانية التي ما يزال العديد من أبناء السنغال يحجون إليها إلى اليوم، وبالمناسبة أشير إلى مشروع إنشاء خط مباشر من دكار إلى فاس لتسهيل "الحج" أو الزيارة إلى الزاوية التيجانية. مما لا شك فيه أن كل ذلك كان له أثر كبير في رص أرضية خصبة للتلاقح المثمر، وبلورة العديد من الأعراف والتقاليد التي تطبع السلوكات الحياتية اليومية وتشكل تراثا ثقافيا غنيا ومتميزا.

عدت لقراءة الكتاب مرة ثانية فغمرني ارتياح كبير لا أذكر أنني شعرت به لدى قراءاتي الأدبية المختلفة. لقد حركت في لهيب المشاعر الإفريقية المتأجج أوراها بين أضلعي، ووجدتني منغمرة حتى الأعماق في ثنايا ما يزخر به من رؤى ومواقف ومن مشاعر وإحساسات تغور في أبعاد الذات _ الأنا والذات- الآخر، الآخر-الإفريقي، العربي، الغربي ....، الآخر- الإنسان في صراعه الأبدي مع الذات ومع كل ما هو خارج عنها.

قد يبدو أن تصنيف هذا الإنتاج الأدبي ضمن صنف الرواية المتعارف عليه لا يخلو من مجازفة لنهجه أسلوب السير الذاتية. لكن إحكام الحبكة وتوفر النفس الروائي الذي يسري في نسيج الفصول الثمانية والعشرين التي تشكل صياغة العقدة والعمل الفني تجعله في قمة الإبداع الروائي المتميز.

إذا كانت للأسرار حلاوة لا يتذوقها إلا من يحتفظ بها فإن مذاقها يزداد نكهة حينما تصبح بوحا، ولعل تلك هي الميزة الرئيسية التي تطبع رواية "رسالة طويلة جدا ."إنها

تعكس، بشكل تلقائي الطباع الإفريقية التي تميل إلى البوح عن طريق الحكي الشفوي. لقد لبست حلة رسالة طويلة جدا بعثتها رحمة الله إلى صديقتها أيساتو، وعبرها إلى جميع القراء تفضي لها فيها بأسرارها وتذكرها بمعاناتهما (معاناة المرأة الإفريقية عموما)، من المشاكل الزوجية وخاصة مشاكل تعدد الزوجات، وتبث فيها شكواها من بعض الأعراف والتقاليد التي ما يزال ينوء بها كاهل المرأة في بلدها، وتنتقد من خلال ذلك الضغوطات التي تقف دون انفتاح الشباب، ذكورا وإناثا، على المعطيات الحضارية واندماجه في بيئة تتطلع إلى التنمية الشاملة.

تفتقت الرسالة عن معاناة طويلة في صمت لم تخرج منه رحمة الله إلا بعد وفاة زوجها مودو الذي كانت قد تعرفت عليه في مدينة الطلاب، وبعد زواجهما تزوج صديقه ماودو المتخرج من المدرسة الإفريقية للطلب والصيدلة من صديقتها أيساتو التي كانت تدس معها في المدرسة العليا للمعلمين.

جاءت الرسالة لتبوح بأسرار طال كتمانها لها، وتثير ذكريات تخزنها ذاكرتها منذ طفولتها، وتستعرض مشاهد حرجة ومؤلمة من حياتها.

إن قضية المرأة السنيغالية ومعاناتها من سطوة الزوج وأسرته، وسلطة الرجل تشكل النسيج العام لهيكل الرسالة، عبره تثير قضايا مجتمعية خطيرة شغلت بالها، وتتناول وتنتقد الوضع السياسي الذي عرفته السينغال بعد الاستقلال. ١

لئن سمح التعليم للمرأة السينغالية بالتعرف على زملائها الطلاب واختيار شريك حياتها، فإن بعض التقاليد البالية، كتلك التي تكرس الطبقية، لم تكن لتقبل بحال أن يتنازل ماودو ابن أميرة، سليلة "ضيوف سين" فيتزوج أيساتو ابنة صائغ وضيع، رغم تعلمها، هكذا نرى أمه التي تعيش بذهنية ماظوية، رغبة منها في الحفاظ على فصيلة الدم التي تحمل عناصر الفضيلة المتوارثة تبذل قصارى جهدها لأن تزوج ابنها، "رجلها الوحيد"، من ابنة أخيها سميتها "نابو الصغيرة" التي حرصت على تربيتها وتلقينها مبادئ الطاعة الزوجية وبذلك سيطمئن قلبها لما سيتوفر لأولاده من عناصر النبل التي يفتقدها أبناء ابنة الصائغ.

وبالمثل ينسى ماودو، عشقه القديم لزوجته رحمة الله لها وهيامه بها وتفضيله لها على كل الشقراوات اللاتي تعرف عليهن أيام دراسته بباريز، ويقع في أحبال غريزته الحيوانية فيعشق الصغيرة بينيتو التي كانت تتردد على بيته لتهيئ امتحان البكالوريا مع ابنته دابا فيتزوجها. إن رفض أيساتو ورحمة الله اللتين تنتميان إلى نفس البيئة المجتمعية وتلقتا نفس التربية والتعليم، لتعدد الزوجات رفضا باتا لم يوحد موقفهما في كيفية التعامل نعه. فبينما تفضل الأولى الافتراق عن زوجها ومقاطعة أسرته التي كانت تنظر إليها من علياء نبلها وتجردها من كل قيمة إنسانية تختار الثانية البقاء مع مودو رغم معارضة أبنائها ونصح أسرتها لها وإلحاحها عليها لأن تطالبه بالطلاق، معترفة بأنها من النساء اللواتي لا يمكنهن أن يحققن ذاتهن ويتفتحن إلا في حضن الزوجية، فلا سعادة خارجه، لذلك فضلت الاستظلال في كنف الزوج وتحمل مزاجه المتقلب في تكتم وتسلح بالصبر والحكمة، تبتلع غصتها وتسهر على تربية أبنائها إلى أن بلغها نبأ وفاته، وبذلك انتهت مرحلة من حياتها لتبدأ أخرى جديدة، وحلت لحظة الخروج من الصمت الطويل الذي دثر جميع سلوكاتها، وأسلمت العنان لقلمها الذي انطلق يحكي عن سوء معاملة أسرة زوجها لها ومكائد الضرة وأمها والمآزق النفسية والمادية التي كان مودو يتخبط فيها، وهو لا يختلف في ذلك عن الأزواج الذين يقعون في حبال تعدد الزوجات.

لقد خط مودو لمستقبله وجهة أخرى، واختار نمطا جديدا للحياة ولم يعرها وأبناءها أي اعتبار، تقول : "لعلك لا تعلم شيئا عما يعانيه الأزواج الذين يتزوجون امرأتين أو أكثر من مضايقات (...) إن ما يلجأون إليه اضطرارا من كذب وخديعة وما يركبونه من جور في حق زوجاتهم لإشباع لذة عابرة رغبة في التغيير، يعذب ضمائرهم، إنهم يتخبطون في الحيرة ويفقدون القدرة على حسن التصرف". كان مودو يتقمص أدوارا متناقضة لهثا وراء سعادة مكذوبة وإرضاء لغريزة حيوانية متحديا شيخوخة تعطل بعض أجهزة الجسم، ومستجلبا شابا متوهما ولى إلى غير رجعة. وتبقى المرأة، في جميع الأحوال، وهي الضحية، أولى كانت أم ثانية أم ثالثة أم ... إنها بكل المقاييس الخاسرة في اللعبة، تباع وتشترى في أعز لحظات عمرها إرضاء لمطامع أسرة لا تفكر سوى في مصالحها المادية دون أن تعير مستقبل ابنتها أي اهتمام، فتقدمها ضرة ثانية أو ثالثة

أو فريسة لإشباع شبق موهوم لخطاب مسن، وبين هذا وذاك تضيع فتوتها وتنهار آمالها في التمتع بحياة زوجية سعيدة.

إن طمع الرجل في أن يتزوج مرة أخرى قد تثيره الرغبة في التدلل والعيش في حضن امرأة تشتغل من أجل دخل يفي بحاجيات الأسرة ويكفي الزوج هم الشغل والتفكير في نفقات العيش. هذا ما تسجله بعض أحداث المرحلة الجديدة في حياة رحمة الله، بعد وفاة زوجها تقدم إليها، حينا، أخوة تمسير يطلب الزواج منها.

تعتمد الروائية في الحديث عن معاناة المرأة المقارنة بينها وبين الرجل لإبراز بعض الخصائص التي تميزها، مثل الوفاء للزوج مهما كانت الظروف، فمرور السنين يجعلها تزداد تعلقا برفيق حياتها رغم الشيخوخة و ... ، وعلى العكس من ذلك، يشجع الرجل على أن يقلص حقل حنانه فيمد بصره بأنانية إلى المستقبل البعيد ويضرب صفحا عن واقع زوجته وأبنائه، هكذا نجد العديد منهم يحتقرون زوجاتهن أو يهجرونهن أو يستبدلوهن ويلقون بهن كما يلقى بخرقة أبلاها الاستعمال أو تجاوزتها الموضة.

يتخلل الحديث عن مآسي تعدد الزوجات نقد لما تقع فيه بعض النساء من خلط بين التقاليد القديمة والتعاليم الدينية، كالإصرار مثلا، باسم الدين، على سكب الحليب في مجاري المياه تحت الأرض تهدئة للأرواح التي لا ترى، كما تتخلله ثورة ساخرة مرة على ما يسود بعض الأوساط النسوية من اعتقاد في السحر وإيمان بنجاحه في قضاء بعض المآرب خاصة إرجاع الأزواج إلى البيت وإقصاء الضرات/الفاسقات بكل ما يستلزمه ذلك من مكابدة أتعاب السفر.

والواقع أن الوقت لا يسمح بتقصي العديد من المواقف التي جاءت في رواية "مريم با" تعبيرا عن معاناة المرأة الإفريقية وتوصيفا للوسط الإفريقي الذي يختلف عما تتخبط فيه الأوساط العربية عموما. وبفضل هذا الإبداع الأدبي الفني أمكنني شخصيا، وأعتقد أن ذاك أمر طبيعي أن أتأكد من أن الإبداع جسر متين يقوي الروابط بين الأمم والشعوب وأنه الوسيلة المثلى للتقارب والتفاهم وسيادة المحبة والوئام بينها. إن دوره أكيد وهام في بسط جو من السلام والأمن والصدق والمصداقية.

فلتكن ندوتنا قطرة زكية في نهر المحبة بين العرب والأفارق، وشذى يعطر الأجواء وينشر عبيره عبر العالم.

# الواو الفاصلة بين العرب وإفريقيا هي التحدّي الأكبر[1]

عبد الباسط عبد المجيد*

في البداية لابد أن أقف وقفة قصيرة، أؤدّي بها حقاً واجباً للمغرب العربي. فبيننا في السودان وبين المغرب أواصر النسب، ووشائج القرابة، ومصالح الدنيا التي تجمع بيننا؛ فقد كنا ذات يوم مأمن خائفهم، ومهجر وافدهم، ومعبر حاجِّهم، وممر تجارتهم، وكان السواكن وعيزا والبحر الأحمر هي صلتهم بالجزيرة العربية وبالهند وبالصين، وكانوا لنا رُسل خير، وسند علم ، عنهم أخذنا المذهب المالكي فقهاً، وأخذنا الأشعرية عقيدة، وأخذنا الصوفية طريقة ، وأخذنا عنهم علوم الآلة كلها وعلم القراءات ،فنحن بحمد الله الآن في السودان نقرأ حفص والدوري وورش، وهي معظمها منكم، ومن هنا يتصل سندنا بكم في المغرب. فهذا المدد المغربي لم يكن حكراً علينا في السودان، بل كنا معبراً لهم أينما وقعت الأقدام المغربية، حيث يشع نورها في مناحي إفريقيا حتى تصل إلى هناك إلى ملتقاها . فشكرا لكم وجزاكم الله عنا كل خير، ومالي لا أشكر أخي الكريم الأشعري وقد شكر قبلي رسول الله (ص) اشتراكية الأشعريين.؟

سوف يتحدث إخواني الباحثون عن تحديات كثيرة منها العولمة والتنمية والمعرفة والعلاقة والصلة والتواصل وغيرها من التحديات... كل ذلك حق، ولا أستطيع أن أفصل فيه أكثر مما يفصلون؛ لكني أرى تحديا أشعربه، وأحسه، وأظنه يبلغ درجة من التبسيط والسذاجة ، ولكن عزائي أنني أومن به على رغم بساطته وسذاجته، أظن أن التحدي الأكبر يكمن في هذا الواو، الواو الفاصل بين العرب وإفريقيا، إن شئت واو عطف أو واو معية أو واو صلة؛ لكنه دليل اثنينية في كل الأحوال، هو يربط بين شيئين، ويفصل بين شيئين، ويجمع بين شيئين هذا الواو هو المشكلة. كيف نستطيع أن نزحزح هذا الواو عن مكانه ونقول العربي الإفريقي تصدقني في ذلك حقائق التاريخ والجغرافيا والأرقام؟

*) الدكتور عبد الباسط عبد المجيد، وزير الثقافة بجمهورية السودان.

1) استخرجت هذه الكلمة من شريط التسجيل الصوتي الخاص بأعمال الندوة.

أما التاريخ فقد تحدثتم عن رحلات قديمة ما قبل الإسلام بين العرب وإفريقيا ، بل ويتحدث الإسلام عن صلات إفريقية حتى في بداية النبوة، وتحدثتم عن تجارة وعن غزوات وعن اتصال وعن روابط بين أجزاء من إفريقية، وعن هجرات بين أجزاء من إفريقية وأجراء من الجزيرة العربية ، وهذا كله حق.

ففي إفريقيا تقول الأرقام أنها حوالي 832 مليون نسمة، بينهم 426 مليون مسلم ويعادلون 59% من سكان إفريقيا ، وإذا قلت مسلم أقول ثقافة عربية وأقول ثقافة إسلامية، لأن الإسلام هو ثقافة العرب في إفريقيا ، وأستسمح أستاذي عبد العزيز خوجة في القول إن العرب في إفريقيا أكثر من العرب في الجزيرة العربية، فتعداد العرب هو 291 مليون منهم 204 مليون في إفريقيا ينتمون إلى مصر والمغرب وتونس والجزائر والسودان وليبيا وموريتانيا وجيبوتي والصومال، كلها دول عربية إفريقية في إفريقيا . إذن الحديث يكون عن تحديات العرب الإفريقية، هؤلاء العرب الأفارقة يشكلون 26% من سكان إفريقيا ، فكل 4 أفارقة بينهم عربي، وتشكل هذه الدول 70 % من مساحات العالم العربي ، وتزيد عن 60 % من سكان العالم العربي.

إذن المشكلة / التحدي هو الموقف الذي ينبغي أن ننظر إليه وأن نخلص إليه هو أن نقنع أنفسنا بأننا أفارقة وأن نقنع إفريقيا أن ثقافتها عربية وأن اللغة العربية لغة إفريقية، لغة استوطنت ما يزيد عن 1400عام في إفريقيا ودخلت في كل لغات إفريقيا بعضها بنسبة 71% وبعضها أقل من ذلك هي في الهوس، هي في العروم، هي في السواحل هي اللغة القمرية والسلوبية هي في مجموعة من اللغات.

فالتحدي الذي أحسه وأشعر به وأبسطه إلى درجة السذاجة هو إزالة هذا الواو ، وبارك الله فيكم.

# بعض قضايا الجدل الثقافى العربى الأفريقى
# فى ظروف العولمة

حلمى شعراوي*

ليست العولمة ظاهرة جديدة فى التاريخ الإنسانى القريب على الأقل، فقد حاولت الثقافات الكبرى والنظم الاقتصادية الاجتماعية المؤثرة أن تمتد إلى الفضاءات "الأخرى"؛ بعضها بمنطلق دينى والأخرى بالمضمون الثقافي، حتى توفر للرأسمالية الحديثة من الآليات الاقتصادية ثم العسكرية، ما جعل امتدادها شموليا وقهريا فى آن، وحوّل الثقافة إلى أداة من أدوات هذا التمدد لفترات طويلة من التاريخ الحديث، لكن قوة الجدل الثقافى وطاقات الشعوب فى المقاومة ثم الحوار تفرض دائما منتجا متجدداً ليس بالضرورة فى اتجاه التعارض، أو المواجهة وإنما قد يكون فى اتجاه مختلف وبإبداع مختلف لفضاءات متفاعلة، تكون فى حد ذاتها أداة الصمود أو التمهيد لعولمة أخرى.

فى هذا الإطار يتصور هذا المقال أن ثمة طويل عرفته المنطقة العربية والأفريقية، تخلقت خلاله فضاءات التأثير والتأثر، بدا متجاوزا حدود الاقتصادى والاجتماعى، بل وكتب له الاستمرار فى غياب العلاقة الاقتصادية والاجتماعية لفترات ليست قصيرة مما يجعل "السؤال الثقافى" مطروحا دائما بثقله الإيجابى والسلبى على السواء.

ولقد أدت الهيمنة الأوربية الشاملة لفترة طويلة بدورها إلى تغييب إدراكنا لعمق ما تم من جدل بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية، بل وأدى الاحتواء الاستعماري المشترك للمنطقتين إلى "خلق نظام معرفى غربى موحد" للعالم، بل وبتلويناته الوطنية نفسها (انجلو فونى/ فرنكفونى...)، بحيث أصبحت شعوب الجنوب ومثقفيها كتلة

*) باحث أكاديمي مصري، مدير مركز البحوث العربية والأفريقية ـ القاهرة.

من العوالم "أمام" آخر واحد، بل الأجدر وأن تقول أننا أصبحنا "الآخر" المغترب ما لم يكن الوحشي.

ولأن الثقافة العربية قد ارتضت مبكرا غلالتها الإسلامية الفضفاضة، وحدها فإنه لم يتح لها تفعيل جدلها- كثقافة- فى عملية منفصلة مع المجتمعات الأفريقية الإقليمية التى لم تقل بعض مناطقها اتساعا عن الساحة العربية، بسبب قدرة الإسلام نفسه على المواطنية من ناحية- كما يسميها عثمان كان- ثم تدخل الآليات الاستعمارية ضدها وليس ضد الإسلام من ناحية أخرى، مما أدى إلى تماهي الديني مع الاجتماعي وحده في فضاء واحد، يحسبه البعض خيار الدنيا والآخرة، ويتوقف البعض الآخر عند الدنيوى الذى يريد أن يتعرف منه على وقائع حياته وتطويرها بالحداثة تارة أو التبعية تارة أخرى. ولذا يسهل علينا دائما ملاحظة النفوذ الواسع لجلال السيوطى أو ابن أبى زيد القيروانى على المستوى الشعبى الأفريقى مقارنا بالنفوذ المحدود للجغرافيين أو الرحالة أو المعارف الدنيوية على مستوى النخب.

لم يلاحظ الكثيرون انبعاث سؤال "الثقافة الوطنية" متأخراً يعد غلبة مرحلة التحرر السياسى فى الستينيات، وكانت الوطنية قد رسخت شعبياً إلى حد كبير، بينما ظلت الحداثة والتقليد فى مغالبة لم تتوقف. كان ذلك فى السبعينيات وهى نفس الفترة التى عرفت جدل العلاقات العربية الأفريقية، والتعاون أو التضامن العربى الأفريقى... الخ كانت الكتلتان تبحثان عن قدر من التميز فى نفس الوقت خاصاً بكل منهما إزاء عودة التسلل الاستعمارى ومبادرات العولمة الجديدة. وأتاح أفريقى أصيل هو "مختار مبو" سؤال الثقافة الوطنية فى ساحات اليونسكو، وأعدت الكثير من الوثائق لمؤتمر اليونسكو بالمكسيك عن "السياسات الثقافية". وهنا طرح السؤال نفسه ما هو "الأصيل" وما هو "المعاصر" فى ثقافتنا الوطنية؟ بل ما هو الاقليمي والعالمي أو المتعولم فى هذه الثقافات وبرزت أخطر التيارات من حيث لا ندري على الساحتين العربية والأفريقية، راح العرب يناقشون ثنائية "القومى" و"الإسلامي"، وراح الأفارقة يناقشون ثنائية "الشعبي الأصيل" والوافد... العربى. وتغلبت أحياناً تيارات سلفية مغرقة فى أممية الإسلام لا عروبته، كما تغلبت أفكار أقرب للتشدد العنصري لا القومي

على المستوى الأفريقى وغاب عن الطرفين اللذين حاولت روح التعاون ومؤسساته أن تلم شملهما، أن ثمة عملية خطيرة فى طريقها لاستيعابهما معاً هى العولمة الزاحفة، التى ضحت أمامهما "بمختار مبو" وفرضت تدريجياً قواعد "السيولة الاعلامية" و"منطق القرية الواحدة" ونهاية التاريخ، وبرأت الصهيونية العالمية....، ونفت الهويات الوطنية أمام التفتيت والتعولم، حتى جعلت وزير الثقافة الفرنسى، جان لانج نفسه يصرخ ضد "الإمبريالية الثقافية".

لقد فوجئت الثقافة الوطنية نتيجة عدم الاجتهاد الفكري الدؤوب بأن ثمة عودة لمرحلة "النفى من التاريخ" التى صاحبت مرحلة الاستعمار التقليدي والاستيطاني من قبل، يوم رفعت شعارات المهمة الحضارية للغرب، وصورت بلادنا "كأرض بلا شعب" أو شعوب لم تدخل التاريخ أو لم تتخلق كأمم ودول... كل ذلك أصبح مطروحاً بلغات أخرى فى ظل القرية العالمية، وحتى عندما فرضت بعض التيارات وجودها هنا وهنالك انبعثت مقولات "الصراع الحضارى" على مستوى عالمى، و"الصراعات العرقية على مستويات محلية، وبدا "الاقليمى" اقتصادوى فحسب، غير قابل ولا مقبول أن يكون ثقافياً أو قومياً أو حتى قارياً. وفى هذه الأجواء من الطبيعى أن تنتقى معالم العلاقات أو مؤسسات التعاون العربية الأفريقية.

فى تقييم مسيرة العلاقات العربية الأفريقية، خاصة وهى تواجه تحدياتها الحديثة ظل الركون إلى المقدس، الأيديولوجي الديني، ملجأ لحماية هذه العلاقات من عدوانية الهجوم الوافد من الظاهرة الاستعمارية القديمة أو العولمة الحديثة. ورغم قيمة المقدس فى التماسك الاجتماعى، وتراثه فى العلاقات بين شعوب المنطقتين، إلا أن ذلك لا يعفي من أهمية الانتباع لاعتبارين آخرين.

أ-أن القوى الاستعمارية استطاعت القضاء على التيارات المقاومة والإصلاحية فى الحركات الدينية، وجبلت قوى دينية ذات أصالة إلى مواقع التعاون معها بحجة مواجهة العملية التحديثية التى بثتها هذه القوى الاستعمارية نفسها لتكوين نخب موالية بشكل آخر وفى نفس البلدان (السنغال- نيجيريا مثالاً).

ب- أن مثقفى وقيادات البلدان العربية والأفريقية لم ينتبهوا إلى أهمية المعالجة التاريخية والتحليل الاجتماعى للعلاقات العربية الأفريقية، بل وقع معظمهم في مزالق اللاتاريخية للأنماط المطروحة من المراحل السابقة، أو التى روجتها المدارس الاستشراقية والأنثروبولوجية عن الشعوب وتطوراتها وأهدافها.

لقد أدى التحليل اللاتاريخى Ahistoric إلى وقوع المثقفين والعلماء العرب والأفارقة في عملية من النفي المتبادل أتخذ صوراً جديرة بالمراجعة، ليس أبسطها تلك الأدبيات الوفيرة عن انتشار العروبة والإسلام في أفريقيا، وقراءة كتب الرحالة والجغرافيين العرب من هذه الزاوية وحدها، أو ما كتب عن التأثير العربي في اللغات والثقافات الأفريقية، والدخول في معارك مع كتاب الأنثروبولوجيا الكولونيالية من هذه الزاوية وحدها فهو كثير أيضاً وهنا أصبحت صورة الأفريقي في العالم العربي هي الصورة التي يريدها العربي له مستكينا للمعتقد الديني وليست صورة المجتمعات المتطورة بدورها تتطلب الحوار عن الاختلاف والاتفاق والتنوع الذي يفرضه الواقع الأفريقي قديماً وحديثاً. ورغم توفر أعمال كبرى عربية بل وأوربية مترجمة بلغتها الأوروبية والأفريقية عن ذلك الواقع الأفريقي المتنوع، فإن الثقافة المهيمنة تعليمياً وإعلامياً في العالم العربي - في حالة توفرها النادر أصلا - تقدم هذه الصورة المرضية للذات، أو المتمركزة حول الذات إن شئناً الدقة. ولم تؤثر ثقافة التحرر الوطني ولا الدعاية السياسية التي صاحبتها - ونأسف لاستعمال كلمة الدعاية بدل الثقافة - لم تؤثر بحكم طبيعتها تلك - ربما - في تغيير كثير من الصور التقليدية التي لم تشجع كثيراً على الاقتراب الاجتماعي والفكري في المنتج الفني والأدبي العربي والإفريقي على السواء. وسوف نرى تأثير ذلك على مشكلات التعاون العربي الأفريقي في مرحلة تالية ومع انطلاق الكتلتين فى عصر العولمة نحو الشمال والتبعية وليس الالتقاء والتعاون.

وفى المقابل أثرت الأنثروبولوجيا الكولونيالية على الجانب الأفريقى فى صياغته للهوية أو الذاتية الأفريقية، فراحت ترجع جذور هذه الهوية لما قبل الإسلام بوجه خاص كما صاغتها مدرسة "النجريتيد" أو فى صور أنثروبولوجية لمجتمعات اللادولة والقبيلية الفاقدة للتاريخ الاجتماعى كما فى الأنثروبولوجيا البريطانية. وتجاهلت هذه المدارس

"الحديثة" التى راجت لدى المثقف الأفريقى، تاريخاً طويلاً من التفاعل العربى الأفريقي، ومن الواقع الاجتماعى التاريخى نفسه. لم يهتم أي منهم بتحليل تاريخ الممالك الأفريقية "الإسلامية" لحوالي عشر قرون، ولا معنى وجود المنتج الفكري الإسلامي الوطني والكتابات الأفريقية مما سماه العرب أنفسهم "بالعجمي" ودلالته الاجتماعية، وانطلق هؤلاء المثقفون يسايرون التحليلات الكولونيالية حتى وقت قريب ومع أن التيارات الاستعمارية القديمة تكاد تختفي في عصر العولمة على يد المحاولات الجديدة للتحليل إلا أن المدارس الأكثر حداثة ما زالت تبث نوعاً من النزوع العنصري المضاد الذي لا يتوقف عند التحليل التاريخى الاجتماعى الأفريقى وجدله. ويفسر البعض ذلك أنه انكفاء جديد على الذات نتيجة مخاوف العولمة مثلما تدفع هذه المخاوف نفسها التيارات الأصولية المنغلقة أحياناً إلى الانكفاء على الذات على المستوى العربى.

إن قراءة التطورات الاجتماعية الثقافية منفصلة على الجانبين هى التى تؤدى أحياناً إلى التفسيرات الانعزالية لعلاقة الكتلتين العربية والأفريقية، وما ينتج عن ذلك من انكفاءات أو توترات. فالتطور فى شكل الدولة العربية الإسلامية لم يكن يمضى وحده، بالتأثير دون التأثر. ونحن نعرف أن دولة "غانا" التى كانت على مشارف المنطقة العربية المغاربية تحديداً تمتد من القرن الثالث أى ما قبل الإسلام إلى القرن الحادى عشر تقريباً. ثم مضت الصراعات والتفاعلات من هذه المنطقة فى حيوية ملفتة، بل ومختلفة عن ذلك الذى جرى على الساحل الشرقي لأفريقيا، وعما جرى مع ممالك أفريقيا الوسطى.

وكانت التفاعلات المغاربية إزاء وادى النيل تجرى مثلما تفاعلت غانا ومالى وصنغاى مع المغرب ومثلما تفاعلت ممالك اكسيوم ممتدة إلى مناطق كوش والنوبة ومروى ونبته قبل وخلال المرحلة المسيحية التى بدا فيها نفوذ الكنيسة مماثلاً لنفوذ الأزهر وجامعة القرويين بعد ذلك.. الخ. ومثلما كانت بعض الحضارات الأفريقية الكبرى على مشارف العالم العربى وبالتفاعل معه، فقد كانت حضارات أخرى غنية تتفاعل فى أنحاء القارة، من ممالك بنين واليوروبا غرباً إلى ممالك الزولو ومتابيلى

وموتابا (زيمبابوى) جنوباً إلى ممالك الباغندة و"باتا" شرقاً وقد خلق كل ذلك من الصحراء.والأنهار وسائل اتصال وتفاعل هى التى نتحاكى عنها حتى الآن، وكأنها قاصرة على الماضى وحده مع أنها تحمل من إمكانيات المستقبل الكثير.

لقد ساهمت مدارس الفكر المتمركزة حول الذات عربياً أو الذاتية الاقصائية أفريقيا إلى أشكال من النفي المتبادل التى تحدثنا عنها ، فلم تعتني الثقافتان بما يعزز هويتهما على أساس من التبادل والتفاعل بقدر ما حدث الانكفاء حتى تم الانفتاح على "الحالة الاستعمارية" ثم "حالة العولمة" بعد ذلك. ويعتبر تناول مسألة "تأثير العروبة والإسلام" من جهة "والرق العربى" فى أفريقيا من جهة أخرى مثالاً لهذا الانحراف الفكري على الجانبين. فالعرب لم يتعرفوا جيداً على المنتج الذاتي الأفريقي باللغة العربية وغيرها ممثلاً فى زوايا وجامعات تومبكوكتو وسانكورى وتأكيده، من مخطوطات عربية و"عجمية".... ومساهمات فى كتابة التاريخ الاجتماعي الأفريقي، مثلما كتبوا فى الفقه الإسلامي، وهم لم يبالوا كثيراً بالمعنى الاجتماعى لعدم إقامة "الدولة العربية" فى الصحراء حيث تطورت المملكة والمدينة الأفريقية تطورها المستقل، ولم ندرس فى العالم العربي الدلالة الاجتماعية للتفاعل فى هذا الفضاء الجغرافي الواسع للغات الهوسا أو السواحيلية كأحد معانى التفاعل الاجتماعى وليس التأثير القسري الذي يبعثه القول "بنسبة الكلمات العربية فى لغة الهوسا أو غيرها" مما جعل السواحيليين يرهقون أنفسهم فى القول بالأصول البانتوية وليس العربية للسواحيلية مثلاً. وكان ثمة معنى أغنى كذلك للقول بأن هناك حوالي عشرين لغة أفريقية تبنت الحرف العربى لكتابة أدبياتها فيما يسمى عربياً "العجمي" بدلاً من الاستسلام لمقولات "الأفريكانست" الغربيين عن شفاهية الثقافة الأفريقية. كان هذا القول بالتأثير المتبادل أجدى على المثقفين العرب لاكتشاف مناطق حضارية تساوق تطورها مع تطور الممالك الأوروبية والعربية نفسها بدلاً من الاقتصار على التفاخر بالتأثير من جانب واحد لنفي هوية أفريقية لها تاريخها المتوازي مع هذه التواريخ الماجدة.

يتوجب هنا ألا ننسى أن عصر التحديث الاستعمارى بل وما تلاه من عصر العولمة، ترك هامشاً ملحوظاً ـ إلى جانب الإدماج ـ لفلسفات أو مطالب الهويات الوطنية، وقد

كان يجدى أن يتم الدعم العربي الثقافي لهويات الثقافات الأفريقية الكبرى مثل الهوسا والسواحيلية وغيرها لو أن الصياغة المبكرة للمعاني قد مضت على نحو سليم ومتكافىء، لكن الثقافة العربية مضت فى مشروعاتها الكبرى (نشر العروبة والإسلام) (وجمع المخطوطات العربية والتراث العربى الإسلامي فى أفريقيا) بطريقة لا تخدم تطوراً ذاتياً ومتفاعلاً مع العرب فى نفس الوقت على الصعيد الثقافى والفكري على الأقل.

من ناحية أخرى، استسلم الجانب الأفريقى طويلاً للمقولات الكولونيالية حول مسألة الرق وعلاقة الاستغلال العربى لأفريقيا وساهم الموقف الدفاعى العربى الدائم بل والتعذيرى أحياناً فى استمرار هذه النغمات المتبادلة.

غابت منهجية التحليل الاجتماعى للتطورات الأفريقية والعربية عن المثقف الأفريقى، كما غاب تطور أدوار المجتمعات العربية فى المراحل التاريخية المختلفة حتى إذا أخذنا مجتمع دون أخر فى عملية التحليل. وساعدت _كما قلنا _ منهجية الدفاعية العربية فى وهج شعلة التضاد. إن صراع الممالك والثقافات الأفريقية نفسها فى أوضاع شبه إقطاعية وشبه عسكرية طوال قرون التداخل العشرة كفيلة أن تنتج ظاهرة الرق على الجانبين ولا يجوز إنكار تجارة العرب مع الطبقات الحاكمة الأفريقية فى الرقيق... وفى التبادل التجاري على أساس استغلالي لثروات الشعوب على الجانبين، ولابد أن نعترف بطبائع الظواهر الاجتماعية والسياسية فى حينها بمعنى أن الرقيق كان ظاهرة آسيوية وعربية وأفريقية، كما كانت الثورات الاجتماعية والتحولات الكبرى ظاهرة آسيوية وأفريقية وعربية، وعرف العالم العربى كافور الأفريقى ومحمد علي الألباني، وحكم الشركس والتركمان، بينما لم تعرف أفريقيا مثل هذا التحكم من قبل سلطة عربية حيث قامت ممالكها من غانا للصنهاجة إلى كانم وبورنو بيد أبنائها وامتلأت جامعاتها ودوائر الثقافة فيها بعلمائها البارزين الذين سيطر بعضهم على السلطة أمثال "عثمان دان فوديو" وعمر تال وغيره، وضمن عملية صراع محلية بين الهوسا والفولا مثلما تتابع حكم المدارس الفكرية العربية من الموحدين والمرابطين.... الخ.

وفى مرحلة تاريخية أخرى أدى التطور السياسى والاجتماعى إلى بروز الدولة الوطنية التى تجاوزت أساليب الاقتصاد والاجتماع القديم لتشهد ثورات الريف والمدن والجبال المغاربية، وثورات الأزهر والعسكرية الوطنية المشرفية وتحررت ملايين الرقاب من الاسترقاق الاستعمارى إلى حركة تحرر امتدت من الكاب للقاهرة ومن الرباط لدمشق ومن مقديشو لداكار، بتعاون وثيق بين شعوب الكتلتين، خلافاً لذلك الاسترقاق الغربى للملايين عبر الأطلنطى والذى يحاولون نسيانه مع استمرار مظاهر التمييز العنصرى واسترقاق شعوب العالم الثالث واستغلالها، وهى معركتنا المشتركة فى ظروف الهيمنة الدولية القائمة.

إن المشكلة بين الأفريقيين والعرب تظل للأسف فى إطار الثقافة السياسية السائدة، وعدم قدرتنا معاً على تجاوز المرجعية التحديثية التى جعلت التحليل الغربى الرأسمالى مصدراً وحيداً للمعرفة بذاتنا عبر الاستشراق والانثروبولوجيا، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن جهوداً كبيرة يتم القيام بها فى أكثر من ميدان وكادت تنطلق من مخزون التحرر الوطنى، إلا أن سرعة الاحتواء الغربى الجديد منذ السبعينيات التهمت آثارها وما زالت عبر إحلال الإعلامية المهيمنة بدورها محل الثقافة السياسية الوطنية.

العرب والأفارقة بين التهميش والاندماج فى عصر العولمة؟ يبدو هذا التساؤل هو الملح فى معظم الساحات الثقافية والاجتماعية فى المنطقتين فى الفترة الراهنة. والمرجعية هنا هى لعملية العولمة، وليست فى البحث عن الهوية فى عصر العولمة. ويعلن الساسة العرب والأفارقة دائماً توجههما المخلص للعمل على "الاندماج" في السوق العالمي وعملية العولمة مقابل شكوى الاقتصاديين والمثقفين من عملية التهميش. وقد نعرف أهداف السياسيين من عملية الاندماج خوفاً من مغبة الخروج من ساحة الشرعية الدولية السائدة، ولكن الملفت هو تزايد مخاوف الاقتصاديين بينما تقوم بلادهم على أكبر الثروات فى العالم، بل وتبرز بعض تنظيماتهم الاقتصادية مثل "الأويك" بين أكبر التنظيمات المؤثرة وذات الصوت والكلمة على الصعيد العالمى.

ومن ثم فأولى بهم أن يتحدثوا عن قدر من الاستقلالية والاعتماد على الذات والتنمية الشاملة فى ظل تبادل عادل، وقد عرفوا لفترة كل هذه المصطلحات ومارسوها ونمت بلادهم بدرجات مختلفة منطلقة من هذه المفاهيم، وهى منطلقات مادية ذات أبعاد اجتماعية وثقافية غير متكررة فى تأسيس الهويات الوطنية نفسها.

لكن لأن بحثنا هنا معني بالأساس بالمسألة الثقافية فسوف ندع المسائل الاقتصادية لأصحابها مع تسليمنا بأهمية الرؤية المتكاملة للموقف كله.

قد تساعدنا وقائع التاريخ البعيد والقريب على بعض ما نريد تأكيده فى العصر الحالي. فمن قبل سيطر الاستعمار والاقتصاد الرأسمالي وأساليبه في التحديث، بقيت مدارس التراث واللغات العربية والأفريقية والمخطوطات العربية والأعجمية، والطرق الصوفية تحمل التاريخ المشترك إلى أبناء عصرنا.

لكن أخطاء مثقفي العصر لم تعالج بالحكمة العصرية متطلبات العمل المشترك لمواجهة الآثار الاقتصادية والسياسية لعمليات الاندماج فى السوق العالمى، أو "الشرعة العالمية الجديدة". فقد راحت هيئات الثقافة والتعليم العربية تتصور أن مهمتها مع الأفارقة هى المحافظة على القديم الذى بات فى حاجة للتطور الشامل، حتى يشارك فى الجدل العصري للثقافة، وراح مثقفو الحداثة فى أفريقيا ينكرون مرجعية كل ذلك التراث المدون والشفاهى الأفريقى فى بلادهم كمصدر لتكوين الهوية الوطنية الحديثة أو أحد المصادر على الأقل حتى تنضج الشخصية الوطنية على أساس سليم، وباتت المرجعية الأساسية بعد تغيير حرف الكتابة الأفريقى من تراث "العجمى" إلى الحرف الرومانى وكأن تلك المجتمعات جميعاً بدون تأريخ ثقافي يذكر، لتصبح الأدبيات الأوربية- حتى للتعريف بالبلدان الأفريقية وماضيها هى المصدر الذى لم يراجع إلا فى نماذج قليلة معروفة.

فى هذا الإطار الفكري المتبادل الذي لم تغيره مرحلة التحرر الوطني قفزت مرحلة التعاون العربي الأفريقي بعد أزمة البترول فى السبعينيات، ومحاولة العرب التعاون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من آثار تلك الأزمة. لكن معالجة العلاقات التاريخية والودية

فى هذا الجو المأزوم دفعت العلاقات إلى دائرة الاقتصادوية بأكثر مما دفعت بالبعد الثقافي، بتجديده أو تعميقه. وبدت الأجهزة الثقافية للتعاون العربي الأفريقي هي الأضعف بين قرنائها، من بنوك وصناديق ولجان سياسية. وسرعان ما احتوت الأزمة السياسية عقب كامب ديفيد 1979 مبادرات التعاون الجماعية فقضت السياسة على الاقتصادى والثقافي معاً إلى حد كبير.

ولا شك أننا نستطيع أن نرصد مبادرات ثقافية عربية ثنائية حاولت تجاوز التهميش السياسى والاقتصادي للثقافة، ولكن ما تواجهه هذه المبادرات من صعوبات مالية وفنية كفيل أن يدعم ما نشير إليه بأكثر ما يبشر بمستقبل مختلف للمحاولة. لقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى تونس بتبنى الجانب الثقافى للتعاون العربى الأفريقى، فأقامت "جهاز التعاون الدولى لتنمية الثقافة العربية الإسلامية" وكان هذا المسمى بعد جدل داخلي ملفت مع تصميم البعض على "تسميته لفترة جهاز نشر الثقافة العربية الإسلامية بالخارج". ويمكن تصور المعركة الفكرية التى قادها الراحل محيى الدين صابر مدير عام المنظمة وأحد رعاة ملتقى الثقافة العربية والأفريقية ليقنع إخوانه المحافظين بأهمية الصياغة الدولية للعلاقات المتجددة، فى المسمى والمفهوم على السواء ومن هذا المنطلق الذى رسخه محيى الدين صابر عملنا معه على تعميق الاتصال بالجامعات الأفريقية الحديثة، وتحديث قواميس اللغات الأفريقية فى صلتها بالعربية، والاهتمام بتراث اللغات الأفريقية، لكن ذلك لم يعف من تحيز مشروع تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وتزايد المنح الدراسية بجامعات البلدان الإسلامية، وقيام جمعيات وروابط ذات وزن كبير فى المنطقة العربية ومحورها دعم العلاقة على أساس دينى عروبى بالأساس وهذا ما يثير الكثير من مواقع الثقافة والفكر الأفريقى معاهد وباحثين.

وأعتقد أن منظمة المؤتمر الاسلامى للتربية والعلوم والثقافة، والتي تقوم بدورها وفق مفاهيم ترتبط مباشرة باسمها ومضمونها، تواجه نفس الخيارات الصعبة ما لم ننتبه جميعاً لتطوير المفاهيم وتحديثها عبر حوارات مباشرة مع المعنيين الأفريقيين التحديثين حتى لا يظل الانفصال قائماً بين التقليد والحداثة على حساب الكتلة التاريخية للعرب والأفارقة فى عصر العولمة.

وقد تكون دوائر التعاون العربى الأفريقى قد حاولت تجاوز هذه المشكلات بصياغات أكثر اقتراباً، فكانت اتفاقية إقامة "المعهد الثقافى الأفريقى العربى" والتي وقعت مبدئياً منذ عام 1983 وظلت الخلافات والمعوقات المالية تؤخر هذا المشروع الهام حتى تم ذلك على أرض "مالى" عام 2002 بأقل الامكانيات المتاحة ولكنه يظل ذا دلالة إذا دفع بخطته فى إطار الاتفاقية الموقعة.

ولعل الروح تنبعث مؤخراً فى الاتجاه العربى نحو أفريقيا بقيام الاتحاد الأفريقى وكذا ما ينبعث فى بعض العواصم من أحاديث حول مشروعات "النهضة الأفريقية" أن تبعث فى البعد الثقافى للعلاقات العربية الأفريقية روحاً جديدة تنافس الخطاب السياسى أو الاقتصادوى المسيطر. وقد كان مما يلفت النظر أن دفع رئيس جنوب أفريقيا ورئيس مالي لاتفاق جديد بينهما فى زيارة الأول "لمالى" عام 2001 حول العناية بمخطوطات تمبوكتو، العربية والأعجمية فى إطار عناية رئيس "مالي" وقتئذ (المفوض العام للاتحاد الأفريقى حالياً (2003 بالتاريخ، ورعاية رئيس جنوب أفريقيا لمشروع "النهضة الأفريقية". فإلى أي حد، يمكن أن نرى خلال الزيارات العربية والأفريقية المتبادلة توقيع مثل هذه الاتفاقيات، لإقامة مؤسسات عربية أفريقية فى عواصم المنطقتين، مثلما رأينا فى مسارعة الأمانة العامة للفرنكفونية بإقامة "جامعة سنغور" بالاسكندرية، ناهيك عن انتشار الجامعات الأوروبية والأمريكية بأسماء بلدانها مباشرة فى أكثر من عاصمة عربية وأفريقية!.

إن العولمة لا تعنى بالضرورة تكرار عملية الإلحاق الاستعمارية ثم الإمبريالية على النسق القديم، ولكنها يمكن أن تشهد جدلا إقليمياً جديداً حول حضور الذوات الإقليمية فى عالم حديث يضمن التقدم لجميع أطرافه وشركائه، ومن ثم يصبح العمل الثقافي العربي الأفريقي جزءاً من عمل لدعم الذات الوطنية من جهة، ودعم كتلة بلدان الجنوب مجتمعة فى مواجهة الاحتواء الزاحف بعنف من قبل النظام العالمى الذى أصبح إمبراطوريا دون منازع، والإمبراطوريات لم تنته فى التاريخ الذى نعرفه إلا بأقسى عمليات التخريب، وقد تتهدم خلال هذا التدمير دول وقصور ولكن تبقى تفاعلات الثقافة وجدلها هى التى يمكن أن تلملم الأشلاء المبعثرة وهذا ما نتأمله فى خطاب عربي أفريقي جديد.

## المراجع:


-Kane, Ousmane, Intellectuels non enrophone CODESRIA - Dakar 2003

ـ حلمى شعراوى: فى ثقافة التحرر الوطنى- القاهرة- دار مدبولى- 2001.

ـ العرب والأفريقيون وجهاً لوجه _ القاهرة _ دار الثقافة الجديدة- 1984.

ـ صورة الأفريقى فى الثقافة العربية: فى: الطاهر لبيب: (محرر) صورة الآخر: مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1997.

ـ محى الدين صابر: معالم الحضارة العربية الاسلامية فى أفريقيا- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس 1981.

ـ محمد عمر بشير

Beshir: M. O. Terramedia. Themes Afro- Arab- Relations - Londan. Ithaka- 1982.

ـ كى ـ زيربو: تاريخ أفريقيا العام ـ باريس ـ اليونسكو 1980.

-Davidson, B. Africa in History- London- Plaladin 1984.

-Prah K. African Languages. Bonn 1995.

والترجمة إلى العربية : حلمي شعراوي : اللغات الأفريقية وتعليم الجماهير القاهرة- دار الأمين.

-رؤوف عباس (تحرير) العرب فى أفريقيا- دار الثقافة العربية- القاهرة 1987.

# العرب والأفارقة في مواجهة تحديات العولمة

السيد فليفل*

تطرح ورقتى رؤية خاصة حول العولمة تقوم على أن هناك مفارقة واضحة بين معطيات التقدم الإنسانى الذي اصطلح العصر على تسميته العولمة، وبين معطيات المحاولات الأمريكية للهيمنة على العالم .

ثم تحاول الورقة تلمس بعض مواقف بعض الباحثين والمفكرين من العرب وبعض الباحثين والمفكرين من الأفارقة، لتبحث عن الاتجاه العام لكل من الفريقين، ولتنظر هل يلتقيان أم يتقاطعان؟

## أولا - بين العولمة الموضوعية والهيمنة الأمريكية :

خلال الثلث الأخير من القرن العشرين راح فريق من المؤرخين يتابعون الحالة "المستجدة للحضارة الإنسانية في ظل ما أنجزته ثورة المعلومات والاتصالات، وما تحقق من سرعة في وسائل المواصلات، وانسيابية في تنقل البشر عبر الدول والقارات، وتعاظم دور وسائل الإعلام في نقل الأخبار والأنباء ودور السياحة في ربط الأمم بالشعوب . ولفت انتباه المؤرخين سرعة الاستجابة العالمية لموديلات الموضة، أو الانتفاضات العمالية، والمظاهرات الطلابية، كما حدث في أواخر الستينات وانتقال آثار هذه الاستجابة من بلد إلى آخر، إلى حد دفع بعض الحكومات إلى إغلاق سماواتها أمام الإعلام الخارجي. بيد أن ذلك لم يعد يفيد هذه الحكومات، ولاعاد بوسع أي منها أن تنفرد بشعبها تمارس ضده تسلطها ، باعتبار ذلك شأنا داخليا لايحق لأحد أن يتدخل فيه، فقد صارت صورة النظم السياسية معروضة على وسائل الإعلام أمام ضمير عالمى متابع وبالرضا والقبول أو الرفض، والقلق .

*عميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة / مصر

وقد عتب البروفسور علي المزروعي، المؤرخ الأمريكي الجنسية الأفريقي والعربي الأصل، على مثال واضح لهذا التناقض الذي تقع فيه نظم الحكم المعاصرة، وهذا المثال هو إيران الثورة ، منذ نجاحها المبهر في عام 1979، حين راحت تسعى لنشر مبادئها الثورية وفكرها الشيعي عبر حدودها، مهددة سيادة الدول المجاورة لها، بينما هي في نفس الوقت تغلق حدودها أمام المؤثرات الخارجية، وتمنع المواطنين من استخدام الأطباق المستقبلة للقنوات الفضائية .

وبعد عقد من الزمان على إزاحة الثورة الإيرانية الحكم الإمبراطوري، راحت الأنظمة الشيوعية في دول شرق أوروبا تتهاوى بينما كانت "بريسترويكا" جورباتشوف في الاتحاد السوفيتي تفكك الإمبراطورية السوفيتية، كما أدت سياسته لإعادة البناء إلى تفكيك الممارسة الشيوعية للفكر الماركسي، بعدها استبان عمق الأزمة التي تعيشها البلاد، ولاسيما على ضوء الهزيمة أمام المجاهدين الأفغان .

وبهذا بدا للحظة أن الشيوعية قد انهارت، وأن الرأسمالية باقية. وفي هذه الأجواء المواتية قامت قوات ما يسمى بالتحالف الدولي، مدعومة بموافقة الشرعية الدولية في الأمم المتحدة، وتحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية، بشن حرب ضد العراق، عقابا له على اجتياحه الكويت في أغسطس .1990وقد كانت الحرب نموذجا للمواجهة بين قوة عسكرية تقليدية، وقوة عسكرية تستند إلى العلوم العسكرية المعاصرة وتكنولوجيا المعلومات، فقنابل محمولة على أشعة الليزر، وصواريخ موجهة بالأقمار الصناعية، وهكذا. وبينما عادت العراق للعصور الوسطى، أعلن الرئيس جروج بوش في 17يناير 1991 تدشين ما أسماه بالنظام العالمى الجديد New World Order مستخدما لفظة Order، وفيها من القسر والتوجية والأمر ما ليس في كلمة System أو Institution أو غيرهما . وكأنما أراد الرئيس الأمريكى أن يوحى بأن النظام المدعى - وبلاده على رأسه - قد أسقط كل قوة معارضة للتوجهات الرئيسية لبلاده، وهى الليبرالية والرأسمالية والديمقراطية، وتبع هذا تعميق الكتاب لاستخدام مصطلح " النظام العالمى الجديد "ولمصطلح" العولمة" لتجسيد معنى التفوق الأمريكي آنف الذكر .

ومن أبرز المؤرخين الذين خدموا في هذا الاتجاه المؤرخ الأمريكى ـ اليابانى الأصل ـ فوكوياما وكتابه "نهاية التاريخ"، والذي ظن التاريخ متجمدا عند منعطف تاريخى معين لايبرحه. هذا بينما جاءت الأيام بتغيرات في الأداء الرأسمالى الأوروبى نفسه تتناقض مع الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب، فإذا الأحزاب الشتراكية تقفز على كراسى الحكم في غرب أوروبا، وإذا سياسيو الرأسمالية يطرحون لها "طريقا ثالثاً" لعلاج سلبياتها، وتصحيح مسارها، وإعطائها قدراً من العدالة الاجتماعية.

وفي لحظة التفوق الأمريكى هذه، كتب المؤرخ صمويل هنتجتون كتابه "صدام الحضارات" من منطق تفكيك العالم إلى شظايا حضارية متصادمة، وإدخاله في دوامة صراعية لا تنتهى، ربما على أمل أن يكون صدام تلك الشظايا مدعاة لبقاء الولايات المتحدة محورا للأداء العالمي، ومجمعا لوحدة القرار الدولي، وبهذا ظن المؤرخان أن المركزية الأمريكية هى نفسها النظام العالمي الجديد، وهى نفسها العولمة.

وقد دفع هذا بعض الكتاب والمفكرين إلى احتكار النظام العالمي الجديد والعولمة للولايات الأمريكية، بينما اندفع بعض آخر ينكر عليها ممارساتها إلى حد إنكار أن العالم يشهد ظاهرة العولمة أصلا، حتى ظهرت في كتابات البعض منهم "فخا"، كما ذكر هانس مارتن وهارالد شومان، أو كما ظهرت "صناعة للجوع" في رأى البعض الثالث. وهكذا فهي ليست إلا هيمنة قيم وقوى الغرب الأوروبي والأمريكي في إطار مركزية واحدة: European Centralism.

وبينما رأى البعض في العولمة وميضا من الخيرات المقبلة بقيم حقوق الإنسان والديمقراطية، وباتصال الأسواق ووحدة المنتجين ، وصولا إلى سوق عالمي واحد، ينال البشر فيه الأجود والأرخص ، ويرتفع به مستوى الفقراء، وتعم من خلاله التكنولوجيا بلدان الجنوب كما الشمال، رأى البعض الآخر فيها شرا مستطيرا، وهيمنة من المتقدمين الأغنياء في الشمال على المتخلفين الفقراء في الجنوب. وسرعان ما اصطف دعاة العولمة في ناحية، ومقاومو العولمة في أخرى، وشهدت مؤتمرات ديفوس وديربان وغيرها مواجهات متتابعة بين الفريقين، على نحو جعل البعض يعتبر العالم مكونا من

قطب عولمي وآخر رافض له، وأن الولايات المتحدة على رأس القطب الأول هي قوة استعمار جديد، تستخدم آليات مثل الشركات متعددة الجنسية، وتتحكم في إيقاع الاقتصاد العالمي، وهى التي عوقت الاقتصاد الآسيوي ـ و الإسلامي منه بصفة خاصة، ثم هي تشرف على تعويق نقل التكنولوجيا ، ومن شأن أفعالها هذه أن تزيد الفجوة بين من يعلمون ويملكون، ومن لا يعلمون ولا يملكون. بينما الرافضون يصطفون في إطار جمعيات المجتمع المدني يقاومون ويلاحقون مؤتمرات العولمة من بلد إلى آخر .

وشهد العالم حالات غضب في الجنوب تبلورت في مؤتمر ديربان أغسطس/سبتمبر 2001 على نحو غير مسبوق، وهزمت كافة مشروعات الولايات المتحدة في المؤتمر في لقاءات المنظمات غير الحكومية، بينما سيطرت هي على كافة اتجاهات المؤتمر الحكومية، مما يعكس تعرض الحكومات لضغوطها من ناحية، ويعطى انطباعا بأنها مسوقة للعولمة المهيمنة تحت القيادة الأمريكية ، بينما ترفضها جماهيرها.

ومن الملاحظ أن مقاومي العولمة ظهروا أول الأمر في الدول المتقدمة ، وهو ما أكد أن مقاومة العولمة ليست حكرا على الفقراء، وأن ضحاياها ليسوا من الجنوب وحده. لكن أحداث 11 سبتمبر عكست تصورا غير صحيح أن مقاومة العولمة إسلامية فقط، ووصمت بالإرهاب والتخلف . والحقيقة أن العولمة بصورتها الأمريكية ليست سوى هيمنة قوة واحدة على مقدرات الأمور، وأنها غير مرتبطة بالعولمة الإنسانية التى هى: ظرف تاريخي تطوري تقدمي يجمع البشر، ويوحدهم، ويربط بينهم ولا يفرقهم. بينما العولمة الأمريكية ـ كهيمنة يمينية صهيونية حليفة لإسرائيل، هى نمط أمريكي مرفوض ليس عربيا وإسلاميا فقط، بل أوروبيا وصينيا وروسيا وإفريقيا ولاتينيا .

وقد أدى الخلط بين العولمة الموضوعية، والعولمة الأمريكية المتسلطة، وبخاصة بعد 11سبتمبر إلى ظهور رافضين جدد حتى للعولمة الموضوعية. وأدى إهدار الشرعية الدولية في أفغانستان والعراق وفلسطين إلى تنامي الإحساس بالخطر، تحت ضغط صهيوني أمريكي/إسرائيلي عدواني، جعل الجميع لا يفكرون جيدا في العولمة الموضوعية، درجة من درجات التواصل الإنساني-إعلاميا وتجاريا ومعلوماتيا- إلى

حد الرفض، وربما لو لم تكن 11سبتمبر والحرب ضد الإرهاب ـ مع تقديرنا لكافة المحاذير المنهجية لاستخدامنا لو ـ لأمكن للإنسانية أن تدير حوارا عقلانيا حول العولمة، يتيح لها رشد الفهم، ويصحح المواقف، ويقرب بين الغارمين والرابحين، ويوسع من دائرة المشاركة في هذا التطور الإنساني المستجد، ويعقل جماح الرسملة والصهينة والتطرف اليميني جميعا معا، لصالح العولمة الموضوعية التي هي نتاج جهد إنساني، وتمثل تطورا جديدا؛ ومثلما كان عصر البخار والكهرباء أو الفضاء إضافة للإنسانية رغم كثير من المخاطر المحدقة التي صاحبت كلا منها، فإن عصر الحاسبات وتكنولوجيا المعلومات والتجارة الإلكترونية هو إضافة جديدة ، رغم ما يصاحبه من تهديد للقيم الأخلاقية ومن خطر التنميط. وبوسع المنصف أن يقطع بأن البشرية سوف تتوازن أمام ذلك كله ولا تخسر نفسها، بل تحقق التقدم العلمي من ناحية، وتحفظ القيم والذات الإنسانية والقومية الوطنية من ناحية أخرى . ولعل في قول المفكر المصري السيد يسين إن العولمة فرص ومخاطر هو ملخص دقيق لهذه الحالة التي تعيشها البشرية.

ولقد أدت عسكرية السياسة الخارجية الأمريكية وسياسة الحروب الوقائية، وانتقائية المواقف، وازدواجية المعايير، ثنائية مكيال الهيمنة الأمريكية بين العدو والصديق، إلى حالة رفض جماعي لأي مفهوم متسامح مع العولمة لدى المطحونين في عالمنا، وقد جمع هذا الرفض إلى حد كبير بين العرب والأفارقة.

أما المؤرخ الرصين بول كيندي في عمله الإبداعي "الإعداد للقرن الحادي والعشرين" Preparing for the 21 th Century فإنه راح يدرس ظاهرة إنسانية تطورية وتقدمية، خرجت من رحم حس إنساني وحدوي راق، وتولدت من رحم الثورات الصناعية المتعاقبة، ولا سيما الثورة الإلكترونية، وثورة المعلومات والاتصالات، والهندسة الوراثية، وثورة المواصلات، وهى الثورات التي اختزلت المسافات، وضيقت الفجوة بين الخلافات الحضارية والأيديولوجية، ويسرت فرصة السفر والسياحة، وجعلت الحدود السياسية وسيلة تنظيمية، وليست عقبة عسكرية، ويسرت انتقال رؤوس الأموال ، والأفكار، ونقل التكنولوجيا والموديلات. كما جاءت ظاهرة تلوث البيئة لتواجهها

مطالبة دولية بصيانة ووحدة الأداء البيئي في "عالم واحد"، مؤكدة أن هذه الصيانة تعنى نضج البشرية في التعامل مع الموارد الطبيعية، من ماء وهواء وتربة ومعادن وأشجار ونباتات، في إطار من التناغم البيئي، باعتبار أن الإضرار بغابات الأمزون أو الكونغو يعني الإضرار بالعالم كله. وهكذا صار الإحساس بوحدة العالم مقدمة لإدراك قيم بشرية واحدة، وهو ما يمكن تسميته"العولمة" كظاهرة بشرية ومعرفية وموضوعية تعيشها الإنسانية بقدر نصيبها من المؤثرات آنفة الذكر، وهو ما جعل البعض يتحدث عن "القرية الصغيرة " إشارة إلى كل هذه الحقائق الجديدة .

وبذا فقد نظر المؤرخ بول كيندي للعولمة في مضمونها الموضوعي، باعتبارها حالة تاريخية ناتجة عن تطور عام للبشرية ككل، أسهمت فيه كافة حضاراتها وشعوبها. ومن ثم فالعولمة الموضوعية ليست قرينا للعولمة الأمريكية، التي هي نمط من الهيمنة سوف يتعاظم رفض العالم له. بل إن بول كيندى يعتبر الولايات المتحدة أعجز من الاستجابة للعولمة الموضوعية بكامل مفرداتها في الوقت الراهن. فلا هى قادرة على إنهاء مشروعاتها الملوثة للبيئة ، طبقا لمقررات قمة ريودى جانيرو 1992، ولا هي قادرة على فتح أسواقها أمام سلع اليابان، والصين، وأوروبا، بل هي تتخذ إجراءات جمركية حمائية ، معادية لمقررات منظمة التجارة العالمية .

على أنه إذا كانت المركزية الأوروبية قد احتلت مكانا متميزا في صناعة التطور الذي تسير فيه البشرية صوب العولمة، فإن هذه المركزية-على حد قول بيتر جران في كتابه " ما بعد المركزية الأوروبية " لم تكن وحدها الطرف الفاعل في هذه الصناعة، ولا أن هذه الصناعة تعني " الرسملة " أو نشر السيطرة الرأسمالية _ من خلال الشركات متعددة الجنسيات _ على أرجاء الكون ؛ وذلك لسببين : أولهما : أن الدقة الإلكترونية اليابانية، وصناعة الفضاء السوفيتية وعولمة التجارة الصينية كانتا شريكين في صناعة العولمة، وثانيهما: أن المركزية الأوروبية على حد قول المفكر المصري الدكتور/ سمير أمين توشك أن تغادر مكانها المتميز في قمة النظام العالمي لتفسح هذا المكان لقوى وأطراف عديدة مؤهلة للمشاركة في حركة العولمة والنظام الدولى.

ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمر عام 2001، لتجد الولايات المتحدة نفسها لأول مرة في تاريخها عرضة للهجوم المباشر عليها، وهى التي ظنت أنها متحصنة بدروع صاروخية، وأسلحة نووية، ومحمية بمحيطين ضخمين. ثم إن رموزها الكبرى قد تعرضت للمهانة كالبنتاجون، أو الإزالة كمركز التجارة العالمي، مركز إدارة الرسملة الأمريكية ، وقاعدة حصار اقتصاديات الأعداء، وبؤرة الهيمنة المالية.

وكأنما كانت الخطط جاهزة ، لتندفع الولايات المتحدة إلى حرب الإرهاب، محدثة حالة من الرعب والذعر والجلبة في أرجاء الأرض جميعا ، "فمن ليس معنا فهو ضدنا"، ثم تصدر قائمة تضم ستين دولة، تنتقى منها عددا أقل من الدول المارقة، ثم تستهدف منها دولا بعينها باعتبارها محور الشر، ثم تتقدم، وفي أقل من عامين، لتبتلع أفغانستان والعراق.

إن أخطر ما في العولمة بالمفهوم الأمريكي أنها انتهازية، تريد اهتبال الوضع الدولي الحالي لاقتياد العالم صوب مصالحها، ولتفرض عليه. مشيئتها . وهنا تكمن خطورة العولمة الأمريكية في محاولتها تنميط العالم وأمركته. وأخطر ما في هذه الأمركة هو قيمها، تلك القيم القائمة على مبدأ حرية الفرد المطلقة أو الفردانية Individualism، والتي باتت تهدد المجتمع الأمريكي نفسه من الداخل، وتؤدى إلى تفكيكه، وتحيله إلى جحيم اجتماعي متصارع ومتصادم، كما يشير لذلك العنف والإجرام المتنامي في هذا المجتمع، وعنف المواجهة بين الزنوج والإسبانيوليين من ناحية، والجماعة الأوروبية الأنجلو سكسونية المهيمنة على مقدرات الأمور في المجتمع الأمريكي من ناحية أخرى، أما الأداء الرأسمالي الأمريكي فقد جعل طبقة محدودة من الأفراد والأسر الأمريكية تهيمن على مقدرات البلاد. واستغل 11سبتمبر داخليا لتكبيل الحريات، التي هي درة الحياة الأمريكية التي صارت جحيما لا يطاق، وجسدت معسكرات جوانتانامو مهزلة أخلاقية وقانونية غير مقبولة عالمياً.

ومن عجب أن قدرة الولايات المتحدة العولمية ـ لاسيما في مجال الإعلام ـ تؤكد سلبيات القيم الأمريكية، وأدت إلى إجماع الدول والشعوب على عدم أهلية الولايات

المتحدة لقيادة العالم على الأقل من الناحية الأخلاقية، ثم جاءت الممارسات الأمريكية الأنانية، وكيلها بمكيالين في قضايا الصومال وأفغانستان والعراق وفلسطين وغيرها، لتؤكد للعالم أن الخلل هيكلي جوهري، وأن مرجعه إلى تصادم القيم التربوية الأمريكية مع قيم التماسك الاجتماعي والروح الأبوية السائدة في المجتمعات العربية والأفريقية والآسيوية، بل والأمريكية اللاتينية والأوروبية، ومن هنا بدأ المهتمون بهذه القيم يجابهون الموجة التحليلية والاجتماعية والخلقية الأمريكية، ويؤكدون أن الموقف الإنساني لا يجب أن يكون تراجعا وانهزاما أمامها.

وإذا كان العالم يقبل مبادئ العولمة الأساسية من الإقرار بحقوق الإنسان، والديمقراطية السياسية، والشفافية، ووحدة الأداء الاقتصادي، فإن أهم انتصار لهذه المبادئ الإنسانية الراقية هو صياغة نظام دولي ديمقراطي حقيقي، يوزع الأعباء كما يوزع الأرباح، ويمارس الاعتماد المتبادل ، كما يمارس فرض فتح الأسواق، ويشترك الجميع فيه على قدم وساق، دون إرغام من ناحية وإذعان من أخرى.

فهل تقبل الولايات المتحدة الأمريكية الانتصار لأعلى القيم منزلة، تلك التي تتبناها منزلة - أعني الديمقراطية - وتسمح بمشاركة دولية حقيقية في صياغة نظام عالمي جديد"حقا" وديمقراطي "صدقا"؟

هذا هو السؤال التاريخي الذي على الولايات المتحدة أن تجيب عليه، وعلى العالم أن يضعها في قابل الأيام في موقف الإجابة عليه، وأظن أن مستقبل النظام العالمي سيرتبط إلى حد كبير بالإجابة على هذا السؤال .

أما العولمة الموضوعية وتقدم البشرية نحو الوحدة والتعايش والترابط، فمن اليقين أن تتسارع خطاها في ظل الثورة المعلوماتية الاتصالية، ولكنها في اعتقادي ستترك مجالا رحبا لتوازن اتجاه الوحدة والترابط، مع اتجاه التميز-لا التمايز _ بين الأمم والشعوب. فسيبقى للثقافات والحضارات بريقها وعطاؤها في ظل العولمة، كما بقيت هذه الحضارات رغم وجود الأديان السماوية، إذ ظل العربي والأفريقي والصيني على تميزهم الحضاري ، رغم اشتراكهم في الانتساب للإسلام، وكذا ظل الأوروبي والإفريقي والهندي الأحمر رغم اعتناقهم المسيحية.

أما الاتجاهات العنصرية القائمة على التمايز والتحامل والكراهية، كالعنصرية الصهيونية، واليمين الأمريكي المتطرف، والصهيونية الإسرائيلية، فهي إن اتسقت مع العولمة في جانب التقدم التقني بالنسبة للدول ، فإنها تتصادم مع قيمها ومبادئها القائمة على الترابط والتعاون، ومن ثم فلا أرى لها مستقبلا في ظل العولمة. ولعل هذا هو السبب في فشل مشروع السوق الشرق أو سطية، وفي فشل مشروع القرن الأفريقي العظيم، وكلاهما وقفت الولايات المتحدة الأمريكية معضدة له، ودافعة كل القوى إليه في الشرق الأوسط وأفريقيا ، وذلك لأنهما كانا يقفزان على الواقع الاقتصادي والاجتماعي من ناحية، ويجسدان الهيمنة الأمريكية من ناحية أخرى، ويتجاهلان قوى إقليمية فاعلة ـ مثل مصر وليبيا وغيرهما ـ هي من رؤوس النظامين الإقليميين العربي والأفريقي من ناحية ثالثة .

ويبقى ـ بعد ـ سؤال : ألا يوحي فشل المشروعين، رغم انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقمة العالم، بأن القوى الإقليمية المترابطة يمكن أن تقول لا للهيمنة الأمريكية؟ ثم ألا يعنى هذا أيضا أن التناقض جوهري بين العولمة الموضوعية العولمة الأمريكية؟

أوليس من الأجدر بنا ـ أخيراً ـ أن نملأ إطارنا الإقليمى العربى والأفريقى، بالعمل والعلم والتقدم، وأن نسعى نحو قيم العولمة الموضوعية، نحيط بها ، ونلم بتجلياتها المعاصرة، ونشارك فيها ، وحتى يكون لنا قول مسموع في شئون العالم، يمنع أصحاب القيم العولمية الانتهازية، من فرض أنفسهم وحلفائهم علينا ، ومن التأثير على أوضاعنا ، وحتى يستمر أداؤنا الحضارى متميزا ومؤثرا في المستقبل الذي انبلج فجره؟

## ثانيا ـ العرب والعولمـة :

إذا ما حاولنا تصفح المواقف العربية من العولمة لبعض المفكرين والباحثين، في مقابل المواقف الأفريقية لنظرائهم، مع إقرارنا مبدئياً بأن كثيراً من العرب أفارقة، ومع الرفض مبدئيا ـ أيضا ـ بأى تقسيم لأفريقيا عبر الصحراء، فسوف نجد بعض المفكرين العرب رأى في العولمة جوانب هيمنة رأسمالية سلبية وقد جاءت الدول العربية

والأفريقية على رأس الخاسرين من التحولات المتسارعة التى شكلتها عولمة الهيمنة فقد اضطرت هذه الدول ـ وهى حديثة التكوين غالباً ـ إلى الاستجابة لمطالب صندوق النقد والبنك الدوليين من تفكيك وبيع مصانعها العامة، ورفع يد الدولة عن التحكم في برامج التخطيط الاقتصادي، وإضعاف سلطتها إزاء الخدمات الاجتماعية، ليفاجأ الإنسان العربي والأفريقي بحجم هائل من البطالة، في نفس الوقت الذي أدت فيه القنوات الفضائية إلى مشاهدته مدى التقدم الذي يعيش فيه الغرب وبنوه ، ولم يجده كثيراً أن يدخل أبناء كل إقليم في محاولة تكاملية ، وذلك أن تلك المحاولات كانت مربوطة من أعلاها بيد قوى الهيمنة في حالات، وعرضة للإيقاف والهجوم والتفكيك في حالات. (د. سعد حافظ محمود : مفهوم العولمة من منظور تطوري).

ويرى البعض الأخر، (السيد يسين، الثورة الكونية وبداية الصراع حول المجتمع العالمى/ وكذلك "حوار الحضارات في عالم متغير"، أن العالم يمر بمرحلة تطورية راهنة تقتضي التوفيق بين ما هو محلي وما هو عالمي، وأن هذا التوفيق سوف يكون سمة القرن الحادي والعشرين، وأن التغير يسير في اتجاهات تكاد تكون محددة، ولكن ليس بدون مقاومة.

ـ اتجاه نحو التسامح الثقافي في مواجهة العنصرية والمركزية الأمريكية والأوروبية.

ـ اتجاه نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان والمشاركة وإنعاش المجتمع المدني في مواجهة الديكتاتورية والقمع.

ـ اتجاه التوازن بين القيم المادية، والقيم الروحية والإنسانية.

ـ اتجاه نحو الاعتماد المتبادل ووحدة المنتجين والمستهلكين نحو الأجور والأرخص، مقابل الهيمنة والسيطرة الاقتصادية .

ويطرح السيد يسين بأن الإنسانية بصدد تشكيل حضارة عالمية جديدة شعارها "وحدة الجنس البشرى"، وذلك في عملية تاريخية كبرى تحفر مجراها بشدة في التاريخ الإنساني الراهن، لتجسد سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق العالمي.

ويرى بعض المفكرين العرب أن معركة العولمة تطرح على الأمة أسئلة صعبة على النحو التالي:

ـ هل النخب العربية الحاكمة مستعدة للاستجابة إلى متطلبات الديمقراطية وحقوق الإنسان ؟

ـ هل هى قادرة على الانتقال من نقل التكنولوجيا إلى توطينها ؟

ـ هل يحسم العرب مسألة الهويات المناطقية والجهوية، ويعملون معاً، خليجيين ومتوسطيين ، ونيليين ومغاربيين في إطار إقليمى عربى؟ وهل ينضمون لأقرب جار : الأفارقة ؟

ـ هل يستسلم العرب لطروحات الإقليمية الأمريكية المقترحة حول الشرق أوسطية، أم يستسلمون لطروحات الإقليمية الأوروبية المقترحة حول البحر متوسطية؟ أم يوازنون بين طروح الطرفين؟ أم يختارون مظلة عربية تتفاوض مع الكل من منطلق "الاستقلال" لا "التبعية"، وفتح التعاون مع كافة المراكز الفاعلة في العالم، لا بيع النفس للهيمنة الأمريكية / الإسرائيلية؟

ولقد أرى شخصيا أن مقاومة الشعوب العربية لهذه الهيمنة كانت أقوى من مقاومة حكوماتهم، بيد أن نجاح هذه المقاومة تقتضي مصالحة سياسية واسعة تجذب إلى الحكومات مشاركة قطاعات واسعة من الجماهير، وتكسبها تعاطف الرأى العام، وهذا يقتضيها أن تقوم بعملية تطهر ذاتى، تلفظ فيها المأجورين والمنتفعين، وتقدم عليهم العطائين والمخلصين، وتفتح الفرص على مصاريعها أمام المنتجين. وعندئذ فهذه الحكومات ستحظى بالشرعية الدولية، وبالمشروعية الداخلية معا، ويسهل عليها حينئذ أن تنال شهادة حسن سير وسلوك ليس من قطب الهيمنة الأمريكيه الذي يذلها، بل من شعوبها التى سوف تتكتل خلفها، وسوف يساعدها هذا في الحفاظ على وجودها ويجنبها القبضة الأمريكية والاتهام باختراق حقوق الإنسان، أو غير ذلك من التهم التى تكال بسهولة هذه الأيام .

لكن البعض الآخر، (د. عبد الفتاح أحمد الفادي: عنصرية الغرب والبعد العربى الغائب ص 755وما بعدها في: الإسلام والغرب حوار أم صراع ؟ المؤتمر الدولى السابع للفلسفة الإسلامية 2002كلية دار العلوم جامعة القاهرة)، يرى أن أكثر الناس تفاؤلا لا يستطيع أن يتنبأ بأن العرب سيحافظون على وضعهم الحالي مع ما هم فيه من تهاون وتمزق، وأنهم مؤهلون للاحتواء والسيطرة عليهم وابتلاع ثرواتهم بصورة أشد قسوه وألمامن صورة الاستعمار التقليدي.

وقد عزا ذلك إلى خوف الحكومات من شعوبها، وإلى الخلافات العربي أي حوار أو تفاوض، ما لم يتحدوا ويدخلوا في حوار عربي/ عربي يضع تصورا للمستقبل يتحرك إليه الجميع حكاماً ومحكومين. وأول قضايا هذا الحوار هي قضية الموقف من كل من العولمة والتقدم الإنساني كيف نلاحقه ، والهيمنة وكيف نتصدى لها .

ولعل من خلل تقييم العرب لموقفهم في ظل العولمة أن بعض باحثيهم، (محمد بن سعد التميمي : العولمة وقضية الهوية الثقافية، ص 166)، يطرح التعاون الدولي والإقليمي أمراً أول مطلوبا لنهضة العرب في مجال البحث والتطوير، ثم يطرح من بعده تسخير التقنيات الحديثة وآليات النمو الاقتصادي، بدلا من طرح النهضة الشاملة المدركة لكافة التحديات التي تحيط بالعرب، ويأتي في مقدمة ذلك وحدة العمل العربي على الأصعدة كافة.

وهو يرى أن العولمة تفتح الباب أمام الشركات العملاقة ـ من مراكزها الحاضنة في الدول الغربية ـ التي ستسعى لعولمة السياسة في البلدان العربية، وأنها سوف تقوم باختراقات في الدول العربية، قد تحدث خللا في الهياكل الأساسية لهذه الدول . ثم يتساءل في غير ثقة: فمن يا ترى يقوم بمقاومة هذا الطوفان؟ ويمضي في تأكيد عجز العرب عن القيام بأي "تنمية مستقلة" لأن ذلك يقود إلى "التخلف المستقل"، دون أن يتبصر بتجارب دول مثل الصين والهند وماليزيا وغيرها ، ثم إنه يطرح الهزيمة الاقتصادية العربية منذ البداية كأمر حتمي. وهو على الصعيد الثقافي (ص 249) يطرح عنوانا بفصله الثالث "أثر العولمة في اضمحلال الثقافة العربية الإسلامية" مؤكداً أن

الاضمحلال واقع، مع أن هذه الثقافة متحصنة بالقرآن الكريم، وغير قابلة للاضمحلال على النحو الذي يعرضه، بل لا أكون مغالياً إن قلت إن جماع مقاومة الهيمنة الأمريكية هو الوطن العربي، وأن حصن الدفاع هو الثقافة الإسلامية، التي أراها تستعصي علي الذوبان والاضمحلال، بل أري إن مقومات العولمة من ثورة معلومات واتصالات قد تفتح له فتحاً جديداً، لكن الفتح لا يكون للمتقاعسين . والمهزومون من الداخل لايستطيعون فرض شيء من الاحترام على غيرهم، لأنهم يفتقدونه لأنفسهم .

وقد ظهرت العولمة عند عدنان شومان (على حد وصف المفكر أحمد صدقي الدجاني: زلزلة في العولمة وسعي نحو العالمية ـ تحرير وعدل وسلام، ص 21) باعتبار أن فيها رابحين "دوما" وخاسرين "دوما"، وأن لها قدرة علي تنميط البشر وقولبتهم في القالب الأمريكي غالباً. وكذلك رآها محمد عمارة،(ص 29) رؤية غربية، ينزع أصحابها للهيمنة، بعكس الاتجاه إلى العالمية، وهو اتجاه يخص القيم والحريات وحقوق الإنسان والديمقراطية. وتكفي نظرة فاحصة للصين الكنفوشيوسية وكيف نجحت، ولماليزيا المسلمة وكيف تفوقت لنتأكد أن الأبدية والدوام لله وحده وليس للولايات المتحدة ، التى ليس بوسعها أن تربح دوما إلا في نظر الخاسرين دوما.

ويرصد أحمد صدقي الدجاني في كتابه السابق (ص 37 ـ 50) موقفين لا يليقان بنا، هما موقف " الانغماس " في مظاهر العولمة دون فهم، وموقف " الانكماش " والعزلة الرافضة لكل شيء، ويحبذ لنا موقف " المستجيب الفاعل " الذي له العقل الحصيف، والفكر الرشيد الذي يأخذ ما يناسبه من خيرها ، ويترك ما لايليق به من شرها ، ثم يوظفها للعقل والفكر في إطار مصلحة الوطن والأمة. وهكذا يكون فكر هذا المؤرخ الشيخ الحكيم أكثر شبابا من شباب العصر في إقباله على التفاعل الحى الخلاق، وعلى الإقبال على التأثير في العصر، وليس الاكتفاء بلعنه أوالتأثر به، وذلك وصولا إلى تعاون الحضارات من أجل تحقيق السلام والأمن والعدل، والرفض التام للهيمنة الأمريكية، التى يراها نابعة من شركة مساهمة تضم رجال النفط ورجال السلاح ورجال المال الصهاينة اليمينيين المتعصبين في الولايات المتحدة الأمريكية ( ص 104، 391)، بل إنه يدعو إلى عدم القبول باتجاه هذه الدولة لتعليمنا ثقافة جديدة غير ثقافتنا

التي تراها إرهابية، ويرى أن الولايات المتحدة الأمريكية أحق منا بدروس ثقافة السلام، تشرح لها مَنْ الأرهابى الحقيقى، عسى ذلك يكبح جنوحها إلى الحرب والعنف والتدمير. وهو يورد نصيحة المؤرخ الأمريكي بول كيندي لبلاده بأن تتذكر مصير سبرطة وروما وأن تكف عن استخدام القوة الخشنة من جيش واقتصاد ، وأن تلجأ إلى القوة الناعمة، من ثقافة وقيم، لكى تكون أكثر تحصنا من الداخل وأكثر قبولا في الخارج (ص 401-405)، وإن كانت - على حد كولين باول - ( مصر والأمة _ ماذا بعد العدوان على العراق _ مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة ، 2003 ص 49) لم تتوقف عن استخدام أي من القوتين الناعمة والخشنة Soft & Hard Powers.

ويقدم المؤرخ المصري عاصم الدسوقي - في مقاله (11 سبتمبر2001ووهم الصراع الديني في: ( عبادة كحيلة : التقاء الحضارات في عالم متغير، حوار أم صراع - القاهرة 2003، ص 331وما بعدها) - يقدم استخلاصا واستنتاجا لمسيرة الاقتصاد العالمي في ضوء هيمنة الغرب وتأثير ذلك علينا فيقول: " إنه لكي يحافظ الغرب على تفوقه الإنتاجي ويضمن سلامه الاجتماعي على أرضه، يتعين عليه المحافظة على بقاء الشرق سوقا تجارية، وحجب أسرار التقدم العلمي عنه، بإثارة النعرات الطائفية والعرقية، حتى يكره أهله بعضهم بعضا، ويتدخل الغرب للمصالحة والتحكيم، ومن ثم ينتهز فرصة وجوده ليبقى جاثما على صدر الشرق، بحجة الخوف من تجدد النزاع والخصام، ويقوم بتجديد المنازعات، لتفتيت القوى القومية ... "

ويضيف جمال معوض شقرة في بحثه: ( التهديد الإسلامى للغرب المعاصر بين صامويل هنتنجتون وجون اسبوسيتو ) بعد أن يفند ادعاءات الأول، وردود الثانى على تلفيقاته حول هذا التهديد المزعوم، إن الولايات المتحدة لا ترفض الشرق الإسلامى وحده، بل تخشى الشرق الكونفو شيوسى الصينى بالذات، وتعمل على حصاره وجمعه مع الإسلام كعدو محتمل، ويذكر على لسان هنتنجتون نصائحه لصانع القرار الأمريكى (ص 293ومابعدها ) بضرورة دمج المجتمعات الأوروبية على اختلاف القارات، بينما يدعو إلى إثارة الصدام الكونفوشيوسى الإسلامى، وتفتيت الحضارات غير الأوروبية من الداخل .

**ثالثا ـ رؤية الأفارقة للعولمـة :**

وإذا انتقلنا إلى رؤية الأفارقة للعولمة، فإننا نكاد نجدهم يرونها ظاهرة متوحشة تفترس القارة الأفريقية، وتسعى للسيطرة على اقتصادها وعلى مقدراتها، بينما هى لاتعبأ بمصير مئات الملايين من الأفارقة، وتستمر في استعمارهم واستغلالهم، ولاتبدي أي قدر من الندم على عصري الاسترقاق والاستعمار. بل إن للعولمة جانبا آخر يراه ـ حلمي شعراوي ـ الذي أورده هنا كمفكر أفريقي من القارة بحكم الخبرة والحس معا هو عولمة الفساد، وهو ما يظهر جليا في صلات الدول الرأسمالية بكل من ليبيريا وسيراليون وأنجولا، عبر ريتشارد تايلور وأصدقائه في فريتاون ونظيره سافيمبى في أنجولا بالجنوب، كما يشير في كتابه: أفريقيا في نهاية قرن (ص 24وما بعدها ) إلى صلات مؤسسات الفساد الدولية بقيادات الدول ومؤسساتها الاقتصادية ومديري بنوكها، وإن ذلك يؤثر على صادرات أفريقيا حجما وتسعيرا، وعلى إرادتها السياسية، بشكل لايحقق مصلحة الإنسان الأفريقى، وهو ما يؤدي إلى تعظيم دور العامل الخارجي في المشاكل الأفريقية، بما يوجب على الأفارقة مراجعة الأجندة الأمريكية والأوروبية، بدءا من سياسات استنزاف العقول والودائع، إلى سياسات الهجرة ومعاملة العمالة المهاجرة، إلى السيطرة الاستراتيجية لحلف الأطلنطى، وبرامجه للتمدد جنوبا، وتهديد السيادة الوطنية للدول العربية والأفريقية، وإهدار دور التنظيمات الإقليمية على المستويين العربى والأفريقى.

ويصل حلمي شعراوي ( ص 39) إلى استنتاج أن العنف الذي تمارسه الولايات المتحدة على مستوى العالم الثالث وبلدان الجنوب، وعلى الأخص العربية منها، ليس مجرد صلف القوة، بل هو نمط من الاسترقاق الأمريكي المرتبط بتجربة البيض مع الهنود الحمر، ولهذا تحظى سياسة التهجير والترانسفير والتدمير الإسرائيلية في فلسطين برضا واشنطن، لأنها لا تعترف بآدمية " الغير ". ثم يقول بأن الإفريقي يدرك أنه مستهدف منها إلى حد " الفريسة "، ويصف الحوار الأوروبى الأفريقي بأنه حوار طرشان غير مسموع في أى لقاء مشترك .

ويشكو المؤرخ الكنغولى موتامبا ماكومبو ـ في ورقته إلى مؤتمر رابطة المؤرخين الأفارقة، باماكو، سبتمبر 2001 من اتجاه القوى العولمية إلى تهميش أفريقيا، واستهدافها بكل شر، ويرى أن أفريقيا مطالبة بالتصدى لهذا التهميش ولتلك القوى .

ويؤكد جلبيرت تاجويم فاه من جامعة نجاوندرى الكاميرونية في ذات المؤتمر، أن أفريقيا هى ضحية العولمة أكثر من كونها مشاركا فيها، ويعطى مؤشرا على ذلك لهيمنة الغرب على صناعة المعلومات، ويطالب بضرورة كسر احتكار المعرفة، واستقطاب أفريقيا لبنيها من العلماء العاملين في كل مكان لإخراجها من حالة الحرمان المعلوماتية التى تعيشها .

وفي رفض مباشر للعولمة، ولأي اتجاه تحديثى مرتبط بها، يقول المؤرخ الجزائري شنتوف أن التحديث هو الاستعمار، ومن ثم فمن رفضوا الاستعمار وقاوموه مقاومة جماعية، عليهم مجابهة العولمة مقاومة جماعية .

ويتفق مع هذا الرأى كلود ايتين سيساو والذي عرض لورقة مهمة حول أفريقيا في التصنيف الاقتصادي العالمي، فيقول إن الواقع ضد مصلحة القارة في مطلع القرن الحادي والعشرين، مثلما كان الاستعمار ضدها في القرون السابقة، وهو يدعو إلى الوحدة والتحالف بين شعوب ودول القارة، لاسترجاع دور أفريقي نشط في السياسات الدولية . ولكن هل يكون ذلك إلا بمبادرات شجاعة للوحدة والتنمية، التي تملأ الفراغ، وتصد الهيمنة الاستعمارية الجديدة .

ويتساءل موسى ديالى بانتنجا من جامعة واجا دوجو / بوركينا فاسو، لماذا تنجح فرنسا في تأسيس مجموعة القطن والتنمية الفرنسية، للتنسيق بين شركاتها العاملة في هذا المجال، ولتضمن لنفسها حصة من تجارته العالمية، ولتحفظ لنفسها ولشركاتها مكانا بين الدول والشركات المتاجرة فيه، بينما الدول الأفريقية المنتجة للقطن لا تتشاور ولا تتفق ولا تنسق سياساتها في مقابل من يحصلون على قطنها بأرخص الأسعار ، ويبيعون إنتاجه بأعلاها وأغلاها .

أما المؤرخ عثمان سو / من جامعة مالى فيذكر أن الفقراء قد انكشفوا أمام الرأسماليين بعد سقوط القوى الاشتراكية، وأن العولمة تعني الانتصار للأيدلوجية الليبيرالية، التي تسعى الآن لإقناع الشعوب الفقيرة بأن حكوماتها سيئة، بينما قواعد السوق صالحة، ومن ثم فلابد أن تتراجع سلطة الدولة في الدول الفقيرة، وتكف الدولة عن تقديم أية مساعدات لصالح مصانعها ومنتجيها ومرضاها ومتعلميها. والغريب أن يحدث هذا الضعف للدولة في البلاد التى تحتاج إلى حكومات قوية تراعي مصالح الأغلبية، بينما تزداد الدولة سلطة وقوة في البلدان التي تقود العولمة في الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا. وعلى هذا فهو يطالب بوحدة التحرك الأفريقى صوب امتلاك مصادر القوة، والتخطيط الاقتصادى، وتوزيع الأدوار الأفريقية على القوى الفاعلة في الأقاليم الأفريقية، للعمل كقاطرات للتنمية في القارة.

ويقدم مامادو دياوارا، من مالي وجهة نظره بشأن برامج التحديث، فيرى أنها مرتبطة بالأساس ـ لا بمصلحة الشعوب ـ وإنما ببرامج الدول الكبرى، بغرض صناعة صفوة تعمل معها من أجل مصالحهما المشتركة، وتحل محل القوى القديمة والتقليدية في المجتمع، وهى أولا ـ الزعماء الآباء المؤسسون المناضلون خلال عصر تصفية الاستعمار، ثم القادة العسكريون خلال عصر الاستقلال، الذين لم يعودوا يجدون فرصة جديدة للانقلابات العسكرية في ظل المناخ الجديد الذي فرضته العولمة، ويدور حول الديمقراطية وآلياتها. وهو يرى أن كل ذلك يخدم المركزية الأوروبية، ويمكنها من إدارة شئوننا من خلال نمط من التحديث لا يصب في مصلحة الجموع، بل يستهدف صفوة من رجال الأعمال، لا خبرة لها في إدارة الأعمال الحقيقية، ولا تعرف عن دور المال الاجتماعي شيئا. وهو يرى أن الحل الحقيقي لمواجهة تسلط الغرب وهيمنته من الخارج، ومنع الصفوة الطفيلية من الهيمنة في الداخل، هو الاهتمام ببرامج التنمية البشرية، لأن الإنسان المتعلم المستقل صحيح العقل والبدن، سوف يقاوم بنجاح الهيمنة المزدوجة هذه. ثم ينهى استخلاصه بالقول إن مشكلة إفريقيا ليست في رؤوس الأموال بل في الإبداع والعقلية المنهجية not capital but mentality.

وينعى بليس جاكين ناكين / من جامعة ياوندي بالكاميرون، ممارسة الدول المتقدمة لحق التدخل "الإنساني"، ويتساءل أسلحة مَنْ تلك التي يتقاتل بها الأفارقة؟ أليست أسلحة الدول المتقدمة ؟ إن الأمر أبسط من تكبد مخاطر التدخل، إنه لا يزيد على مجرد الامتناع عن بيع السلاح وتهريبه مقابل ماس وذهب ويورانيوم أفريقيا. وعلى ذلك يخلص إلى أن التدخل المسمى الإنسانى هو مجرد آلية جديدة للغرب، وأنه إنتقائى ويتساءل: أين التدخل الإنسانى لحماية الشعب الفلسطينى؟ وبسلاح من يقتل؟

**رابعا _ تداعيات الهيمنة :**

أما عن تداعيات الهيمنة الأمريكية المقرونة بالتوجهات الصهيونية والإسرائيلية على العرب والأفارقة، فإن إسرائيل تشكل تحديا هائلا أمام العرب، ليس فقط لأنها تحتل أراضى ثلاث دول عربية، بل لأنها تسعى لاحتلال عقولهم، وإقناعهم بأنهم أمة فاشلة وساقطة، وليس لها مجال في عصر العولمة، لأي فعل أو حول، وأنها خرجت من التاريخ، وأن لا أقبل لها بعصر الحواسب الآلية. ويظاهر إسرائيل في هذا سياسة أمريكية وأوروبية تقوم على حرمان العرب والأفارقة من أي نصيب في التكنولوجيا ، بغرض إخضاعهم للهيمنة، وجعلهم سوقا لمنتجاتهم ليس إلا.

وتقوم سياسة إسرائيل في أفريقيا على عدد من الركائز التى تضر بكل من العرب والأفارقة معا، ومنها :

1. البحث عن قبائل وجماعات إثنية لديها خبرة مشابهة للخبرة التاريخية الإسرائلية والادعاء بأنهم يهود أصلا، لتوثيق الصلات من خلالهم مع إسرائيل واتخاذهم رأس جسر إسرائيلي في بلادهم (نموذج الدنكا، والصلات مع بعض فصائلهم ، ونموذج التوتسي والهوتو في هضبة البحيرات ).

2. تهجير بعض الشعوب كالفلاشا من إثيوبيا ووضعهم كدرك أمامي في مواجهة الفلسطينيين توفيرا لدماء اليهود الأوروبيين التي تنزف أمام الانتفاضة الباسلة.

3. حصار بعض الدول الأفريقية المؤيدة للحقوق الفلسطينية ومضايقتها وتحريض الولايات المتحدة ضدها ، وذلك للظهور بمظهر القوة المؤثرة على القرار الأمريكي، حتى تصبح إسرائيل هي طريق الأفارقة وغيرهم إلى واشنطن .

4. ابتداع آليات غير تقليدية للحصول على الصوت الأفريقى في المنظمات الدولية، وذلك مثل مشروع الأخدود الأفريقي العظيم، الذي تدعو اليونسكو وهيئات البيئة الدولية إلى اعتباره منطقة محمية، ونقطة تركيز في التراث العلمي، ليس رغبة منها في حماية البيئة والتراث، فهي تدمر البيئة والتراث في فلسطين كل ساعة، ولكن للوصول إلى آلية جديدة، تجمع بين دول هضبة البحيرات الأفريقية والبحر الأحمر وتضمها معها باعتبارها الدولة الواقعة عند الحد الشمالي للأخدود الأفريقي ، وذلك لربط هذا التجمع بالمشروع الإسرائيلي الخاص بربط البحر الأحمر بالبحر الميت، والطرق البرية التي تخدم التجارة الدولية عبر إسرائل لمنافسة قناة السويس، أو للحصول على جزء من التجارة المارة بها. وهذا المشروع يضر مباشرة بكل من دول هضبة البحيرات الأفريقية، والقرن الأفريقي والسودان ومصر والسعودية ويطوقها بوجود إسرائيلى أمريكي ضاغط من ناحية بما يظاهر الوجود الأمريكي في بعض دول الخليج والعراق من ناحية أخرى.

وفي نفس الوقت تركب إسرائيل الآن جواد الشركات الغربية عابرة القومية، لتدخل إلى أفريقيا بشكل غير مباشر ، مادامت بعض الشعوب حساسة لدخولها المباشر.

وفي نفس الوقت فإن إسرائيل تتفاعل مع العولمة الأمريكية بأسلوب استراتيجي واضح ـ ونجد دليلا على ذلك هذه المحالفة الجديدة مع الهند، وهى موجهة أصلا إلى باكستان النووية ـ كدولة مسلمة، وإلى إيران الساعية إلى امتلاك القوة النووية على حد زعمهم، ويكاد يكون مشروعها للأخدود الأفريقي الذي تتحكم في شماله ويرتبط بمشروع القرن الأفريقي الأمريكي، ويشكلان معا اتجاها يمزق العلاقات والروابط العربية الأفريقية. ومن ثم فالاختراق الإسرائيلي لقلب أفريقيا ، هذا الاختراق المتحالف مع الولايات المتحدة، والمرتبط بحلف الأطلنطي، يشكل خطرا هائلا على

علاقات العرب بالأفارقة، ويستهدف جعلهم ـ من حيث لا يخططون ولا يرغبون ـ طرفا في مواجهة إسرائيل مع العالم العربي والإسلامي . والمشكل هنا هو أن هذا الاختراق يهدد وجود الاتحاد الأفريقي الوليد باعتباره فضاءً جامعا للعرب والأفارقة يواجهون به عصر العولمة ، ويخترق تكتلاتهم الإقليمية الوليدة ( كوميسا ، وسادك، وغيرهما ).

ومن التحديات التي تفرزها العولمة الأمريكية أمام الأفارقة ما تلجأ إليه الولايات المتحدة الأمريكية الآن من تركيز على بعض القوى الإقليمية الكبيرة التي جسدتها زيارتا كل من الرئيسين الأمريكيين كلينتون في 1998وبوش في2003، وظهرت فيها كل من أوغندا ـ فضلا عن كينيا في الشرق، والسنغال ونيجيريا في الغرب، ورواندا في الوسط، وجنوب أفريقيا في الجنوب، كمراكز إقليمية لنقل الحركة الأمريكية عبر القارة. ومن الملاحظ أن هذا الاختيار يعكس رغبة أمريكية دقيقة للوصول إلى أهداف محددة : أولها ـ فرض تقسيم جديد عبر الصحراء بين العرب والأفارقة، والدليل على هذا هو عدم إشراكها مصر أو أية دولة عربية في تسوية مسألة جنوب السودان. وثانيها ـ هو التحكم في إيقاع التنمية الأفريقية، وإجهاض فكرة الاتحاد الأفريقي ومبادرة نيباد إن أمكن، أو توجيهها للحركة في إطار المصالح الأمريكية، وثالثها ـ هو منافسة الدور الأوروبي ـ والفرنسي منه بالأساس ـ والانطلاق من السنغال بصفة خاصة إلى المجتمعات الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية، لإزاحة الدور الفرنسي في أفريقيا ، أو على أقل تقدير عدم الاعتراف بمنطقة نفوذ ثقافي فرنسي، وذلك على طريق فرض العولمة الأمريكية، وانفراده بالعمل والتأثير على أرضنا العربية والأفريقية .

وثمة مؤثرات على وحدة الفكر الصهيوني بين الأمريكان والإسرائيليين، حيث ينكر الأوائل أي دور حضاري للعرب والمسلمين في تاريخ الإنسانية، بينما يسطو الآخرون على تاريخنا فيزعم بعض باحثيهم أن اليهود هم بناة الأهرام في مصر، وهم مؤسسو تنكيت قاعدة الحضارة العربية الإسلامية في غرب أفريقيا، بل وزعم زاعمهم أنهم انتصروا في حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر 1973وغير ذلك من الترهات التي لا تصمد أمام أي تحليل، ولا تحتاج إلى دليل.

ولعل موقف إسرائيل من التاريخ العربى ومحاولتها سرقته ونسبته لنفسها يتسق تماما مع موقف الولايات المتحدة من هذا التاريخ، وهو ما يطرح علينا تحديات هائلة على المستوى الثقافي. ونظرة متأسية إلى آثار العراق وما فعل بها، والبدء بسرقة لوحة الأسر البابلي من متحف العراق القومي، تكفي للدلالة على حقنا في جمع الصهاينة والأمريكيين في سلة واحدة من حيث العداء لتراثنا. ويكفي ما قدم الرئيس الأمريكي جورج بوش للقائد السفاح أريل شارون رئيس وزراء إسرائيل من هدية رمزية تشير إلى سيطرة أمريكا ومعها إسرائيل على الفرات، فهل يبقى بعد ذلك لقيام إسرائيل الكبرى إلا النيل .

ولعل هذا العداء يفرض على مؤرخي العرب وأفريقيا الشروع في كتابة تاريخهم بأقلامهم من ناحية، والتوصل إلى كتاب مشترك للتاريخ العربي الأفريقي، تحقيقا لمبدأ السيطرة على التاريخ الوطني في الدولة الأفريقية الحديثة، والبحث عن علاقاته الإقليمية والحضارية انطلاقا من مراجعة للمصادر الذاتية، صونا له من عبث العابثين، وتعميقا للجذور التاريخية للتواصل العربي الأفريقي، الذي ينبني عليه الاتحاد الأفريقي.

كما يجب دعم التواصل الثقافي والإعلامي العربي الأفريقي، كي نرى أنفسنا كما نحن، وبشكل مباشر، وليس من خلال الآليات الغربية، مع الاستحواذ على أعلى قدر من الثقة بالنفس ، لتكوين المناعة ضد برامج إفراغ عقولنا من وعيها، ووجداننا من إيمانه. وهذا هو المدخل لمقاومة الهيمنة، أي هيمنة، وهو السبيل للبدء في وضع استراتيجية للعمل المشترك لمواجهة هذا العصر بكل تحدياته.

ويجب أن يستند التواصل إلى علاقات اقتصادية حقيقية، مثل المشروعات المشتركة، من ناحية، وتعظيم التبادل التجاري البيني العربي الأفريقي، فضلا عن تأسيس بنية أساسية في النقل والمواصلات والمعلومات وتكنولوجيا الاتصال تقرب بين أبناء أفريقيا والوطن العربي.

## الخاتمـة

ونخلص من هذا إلى أن غالبية مفكري العرب والأفارقة لم يفرقوا تماما بين العولمة التطورية الإنسانية الموضوعية، وبين الهيمنة الأمريكية التي تقتاد العولمة، وتأسرها لمصالحها، لتنفرد بقمة العالم، كما تريد، أو قد تدخل في تفاوض مع رفاق التقدم الأوروبيين لتحديد الأنصبة الصغرى. ويتفق العرب والأفارقة على أنهم خاسرون من العولمة والمركزية الأوروبية الأمريكية القائدة للعولمة المهيمنة، وأنها لم تضع في حسابها مصالحهم.

وأخيرا، فقد ألحظ أن الأداء العربي اختلف عن الأداء الأفريقي في مواجهة عصر العولمة، فبينما تعرض العرب لفقدان استقلال إحدى دولهم الكبيرة، فضلا عن الاستمرار في انتهاك حقوق شعب آخر منذ عام 1948حتى اليوم، فقد أخذت الجامعة العربية تتعرض لضربات بأيدي أبنائها جعلتها تترنح .

أما الأفارقة فقد نجحوا في زمن قياسي في الانتقال بمنظمتهم الإقليمية _ التي تم تأسيسها بعد جامعة العرب بقرابة العشرين عاما _ إلى الاتحاد الأفريقيي. كما حققوا نجاحات محترمة على صعيد الانتقال السلمي للسلطة عبر ممارسة ديمقراطية وانتخابات نزيهة (نموذج السنغال وزامبيا) ؛ ورغم معضلات الاتصال الأفريقي، ومشكلة اللغة فإن الأفارقة يواصلون بناء تجمعهم الإقليمي بثبات، ونجحوا في طرح مبادرة للنهضة التنموية الشاملة (نيباد)، وحافظوا على دورية قممهم بإصرار، يدعو إلى الإعجاب .

ولعل تفسيرنا للفارق بين أداء العرب والأفارقة لايرجع إلى غياب الفهم والإدراك، بل إلى غياب الإرادة السياسية، والبون الشاسع الذي يفصل بين الحكام والمحكومين في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وربما أمكنني أخيرا أن أشير إلى ما تقدمه أفريقيا للعرب من قدوة واجبة الاحتذاء، وأن أدعو العرب أيضا إلى التفكير في برامج التعاون العربي الإفريقي كطوق نجاة لهم، عبر الانضمام إلى أقرب جار من ضحايا العولمة المتأمركة، فإن المصائب يجمعن المصابين. ومن ثم فعلينا أن ندرك العولمة الموضوعية لأنها روح التقدم في العصر، وأن نقاوم الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية، وإلا فإنني على حد قول شاعر الأمويين :

أرى تحت الرمـاد وميض نـار وتوشك أن يكون لها ضـرام
فقلت من التعجب ويح نفسي أأيقـاظ أميـة أم نيـــام؟

# العولمة وتعميق الفروقات بين المجتمعات في الاقتصاد وفي المعرفة العلمية وتطبيقاتها التقانية : حالة العرب وأفريقيا

مصطفى عمر التير*

## 1.مقدمة :

العولمة ظاهرة قديمة جديدة، فهي قديمة بمعنى أن التاريخ البشري سجل عددا كبيرا من العولمات، وهي جديدة من حيث أنها تحظى هذه الأيام باهتمام كبير بين الباحثين ورجال السياسة والصحفيين وغيرهم. وينظر البعض إلى التلازم بين هذه الظاهرة والنظام العالمي على اعتبار أن العلاقات بين البلدان المختلفة خلال أي فترة تاريخية تخضع لنظام له قواعد تحدد قيما من القوة والأهمية لكل بلد، وتتدخل في طبيعة الدور الذي يمكن أن يلعبه في منظومة العلاقات الدولية (التير، 2001). ومن جهة أخرى يقدم الفرض الذي يقترحه جلال أمين (أمين، 1998: 60 ـ 63) والذي يربط بين العولمة والتقدم التكنولوجي مساهمة مفيدة في تتبع موجات العولمة التي حدثت خلال حقب تاريخية مختلفة. فانطلاقا من هذا الفرض سهل كل تقدم تكنولوجي مهما كان متواضعا من عملية الاتصال سواء على الأرض أو في الجو أو عبر الأثير ، وكل تقدم في وسائل الاتصال ساهم بقدر في التقريب بين الناس والمعاملات والأفكار والثقافات. لقد استغلت بعض الشعوب هذه التقدمات لصالحها توظيفات متعددة أخذ بعضها شكل استغلال الآخر والسيطرة عليه بمختلف الأشكال. ونظرا لارتباط مفهوم العولمة بسهولة انتقال المواد والأفكار والبشر فوق سطح الكرة الأرضية يقترح البعض بأن أول موجة من موجات العولمة بدأت مع ما يسمى بنشاط الاكتشافات، وخصوصا تلك التي قادها فاسكو دي غاما وكولومبس.

*أستاذ علم الاجتماع بجامعة الفاتح، وأكاديمية الدراسات العليا بليبيا، ورئيس الجمعية العربية لعلم الاجتماع.

فقـد أدى هـذا النشـاط إلـى أول انتقـال علـى نطـاق واسـع عرفتـه البشريـة وشمل الإنسـان، والحيوان، والنباتات، والتقانة، والتبادل التجاري، وحتى الأمراض (Williamson, 2000 :1).

يعني الكلام السابق بلغة أخرى أن العولمة ظاهرة متكررة وتحدث في موجات. لذلك يمكن القول إن لكل عصر أو حقبة تاريخية عولمتها وللحقبة الزمنية الحالية عولمتها . ويمكن القول أيضا بأن العولمة التي تحظى باهتمام متحدثي الوقت الحاضر هي الموجة التي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر. وفي داخل هذه مراحل فرعية، والتي تحظى بالاهتمام الأكبر هي تلك التي بدأت خلال الربع قرن الأخير. وهي التي حدثت فيها تغيرات هامة وبسرعة فائقة لم تعرف في تاريخ البشرية سابقا. تغييرات في مجال تراكم المعرفة وفي تطبيقاتها التكنولوجية . فهي عولمة تميزت على سابقاتها بتسارع معدلات التغيير في صالح تقريب المسافات، واختصار الزمن، وتخفيض التكاليف المتصلة بكل هذا. والحديث عن عولمة الوقت الحاضر كثير ومتنوع ومتشعب، ينصب بعضه حول المفهوم وحدوده ومعانيه وتجلياته. وهو حديث يصادفه المرء ويقرأ عنه في جميع التخصصات المعرفية، وفي مختلف وسائل الاتصال المكتوبة من صحف ومجلات ودوريات. ويسمع عنه يوميا في مختلف وسائل الاتصال التي تخصص جانبا من برامجها للحديث عن الأنشطة ذات البعد العالمي والمنتديات والندوات التي تخصص للحديث عن كل ما يتصل بالظاهرة. جانب كبير من هذا الحديث عبارة عن نقاش لا تبدو له نهاية بين المؤيدين والمتخصصين في بيان الفوائد والمؤكدين على حتمية الظاهرة وبين المعارضين المفتشين عن مختلف الجوانب السلبية.

لقد ارتبط توظيف المفهوم في استخداماته الحالية بعدد من المفاهيم ذات العلاقة مثل : العالم القرية، والاعتماد المتبادل ، والشركات متعددة الجنسية، والمنظمات الأهلية متعددة الجنسيات، واقتصاد الرفاه الخ.. ولكن لابد من التأكيد على أن للمفهوم معاني متعددة بتعدد المجالات التي تستعمل فيه.

## 2 ـ الاقتصاد والعولمة

ففي مجال الاقتصاد مثلا تعني العولمة علاقات خارج سيطرة الدولة الوطنية. إذ تشيــر إلى سوق تجارية بدون حدود، وأفراد تجمعهم مصالح متبادلة، متحررين من صفة الوطنيــة أو القومية. ويفترض أنهم يتشابهون فى ظروف الحياة، وفى القيم التي تتحكم في الحياة الاقتصادية، بحيث تتوحد أذواقهم وطموحاتهم وتوقعاتهم . وتعنى أيضا فى هذا المجال أن الأفراد بغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية يدخلون فى حالـة تنافس فى الإنتاج وفى التسويق.

وقد يبدو كل هذا أمراً عاديًا، وقد يراه البعض جيدا ومفيدا. وهو كذلك لو أن المشاركين في النشاط يتساوون من حيث الإمكانيات والظروف التي يتطلبها النشاط. لكن الواقع غير هذا، فأعضاء المجتمع الدولي غير متساويـن لا في المعرفـة والخبرة، ولا في الإمكانات المادية، ولا في الظروف المحيطة. لذلك فرض عدد صغير من البلدان الغنية والمتقدمة تكنولوجيا سيطرتها على موارد ومصادر تخص أقطارا أخرى إلى جانب تلك التي لا تخص قطرا بعينه أو جماعة بشرية واحدة، بل تخص جميع البشر وجميع الأقطار ، ووضع الجميع أمام الأمر الواقع، كما يلاحظ في حالة استغلال الفضاء الخارجي، والقارة القطبية، وأعالي البحار الخ... وقد ساهم مثل هذا النشاط في تعميق الفجوة بين المجتمعات التي تسمى غنية والأخرى التي يشار إليها بالفقيرة.

لم تكن مجتمعات العالم متساوية في الإمكانيات الاقتصادية خلال أي حقبة تاريخية، إلا أنه يمكن القول إن الفروقات بين المجتمعات في هذا المجال لم تكن كبيرة خلال حقب التاريخ التي سبقت عصر الصناعة. لكن الفجوة أخذت تتسع فيما بعد، وتسارعت معدلاتها خلال الحقبة الأخيرة للعولمة . وقد اقترح عدد غير صغير من علماء الاقتصاد أن العولمة تتحمل قدرا كبيرا من مسئولية تفاقم سعة الهوة بين الأغنياء والفقراء في داخل القطر وبين الأقطار (Richardson,95; Wood, 95: Higgins and Williamson, 99).

بينما اهتمت تقارير التنمية البشرية التي تصدر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية البشرية بتقديم ملخصات واضحة لهذه الظاهرة كما تتمثل في عدد من المؤشرات. فمثلا توضح البيانات المتراكمة حول مختلف البلدان وخلال فترات زمنية مختلفة أن الفجوة في الدخل بين خمس سكان العالم الذين يعيشون في أغنى البلدان وبين الخمس الذي يعيش في أفقرها كانت في العام 1960 تعادل: 30 إلى1، ارتفعت هذه النسبة في العام 1990 إلى 60 إلى 1، ثم ارتفعت النسبة في العام 1997 إلى 74 إلى 1) تقرير التنمية البشرية ، 1999 : 3). مثل هذه النتيجة ظهرت واضحة في دراسة امبيريقية مبنية على البيانات التي توفرت من عدد كبير من مسوحات الأسرة التي جرت في 91 بلدا وأجريت في عام 1988ثم أعيدت ثانية في العام 1993 . أوضحت هذه البيانات أن الفروقات بين أغنياء العالم وبين فقرائه في تزايد مستمر فمثلا بينما كانت النسبة بين متوسط دخل الفرد بين أغنى 5% من السكان الذين شملتهم الدراسة وأفقر 5% عبارة عن 78:1 في العام 1988،ارتفعت إلى 114:1 في العام 1993( Milanovic, 1998:51).

تعكس هذه البيانات تسارع اتساع الفجوة بين من يملك وبين من لا يملك، كما تعكس صورة قاتمة لحالة عدم المساواة التي تسود عالم اليوم . ففي هذا العالم، يعتبر المال هو المتغير الأهم لتحديد حالة مختلف المتغيرات المتعلقة بحياة الفرد من ظروف السكن، إلى مقتنياته، إلى حالته الصحية، إلى فرص الحصول على قسط من التعليم، إلى حصوله على موقع عمل ثابت إلخ.. وقد تتضح هذه الصورة بشكل أفضل عند استعراض بعض الأرقام المتعلقة بالناتج القومي للبلدان وثروات عدد من أغنياء العالم . ففي الوقت الذي وصل فيه الناتج الإجمالي القومي للولايات المتحدة في عام 2000 وهو الأكبر عالميا إلى (9،613) بليون دولارا، وبلغ سادس أكبر دخل ( 1،363) بليون دولارا ، لم يتجاوز أكبر دخل أفريقي 126 بليون دولارا، وأكبر دخل عربي 173 بليون دولارا. أما بعض الأقطار العربية والإفريقية فإن ناتجها الإجمالي في العام 2000 لم يتجاوز خانة الآحاد. كما تشير البيانات العالمية أن حصة الخمس الأغنى لسكان العالم بلغت في أواخر عقد التسعينات 86 %من الناتج المحلي العالمي في مقابل 1% فقط حصة خمس سكان العالم الذين يعيشون في المناطق الأفقر (تقرير التنمية، 1999: 3).

ويعني هذا أن الأغنياء يستأثرون بقسط كبير مما توفره الحياة الحديثة من إمكانات تقود إلى مستوى حياة مريحة، في الوقت الذي يعجز فيه ملايين بل بلايين البشر عن توفير أهم وأبسط الحاجات الرئيسية.

والأدهى من كل هذا، أن الثروة في داخل العالم الغني أصبحت تتكدس في نطاق ضيق من الشركات الكبيرة بل وفي أيد عدد صغير من الأفراد . وتشير البيانات إلى أن ثروة أغنى ثلاثة من أغنياء العالم تزيد عن الدخل الذي تحققه جميع البلدان الأفقر في العالم والتي تضم حوالي 600 مليون من البشر. صحيح أن القارة الإفريقية بحجمها وبعدد سكانها وبعدد بلدانها تنتج حوالي ثلث ما ينتجه العالم من المواد الأولية، ومع ذلك فإن حصتها في حجم التجارة العالمية وهي المؤشر الرئيسي لتحديد مكانة البلدان الاقتصادية لا تزيد عن ثلاثة في المائة، وأن هذه النسبة تساوي تلك التي لتلك الجزيرة الصغيرة التي تقع في الطرف الجنوبي لأندونيسيا والتي لا يتجاوز عدد سكانها الأربعة ملايين نسمة. ثم إن نصف الحصة الإفريقية هي من نصيب الدولة ذات الاقتصاد الأكبر وهي جنوب إفريقيا، وأما بقية عدد الأقطار المستقلة التي تجاوزت الخمسين فحصتها مجتمعة لا تتجاوز الواحد والنصف في المائة. وكما توضح البيانات الدولية أن حوالي 30000 طفلا يموتون يوميا بسبب عدم توفر الأدوية التي تحارب المرض، وأن حوالي السبعين في المائة من هؤلاء يتواجدون في القارة الإفريقية.

في الأزمنة القديمة كانت البلاد الغنية هي تلك التي لها موارد طبيعية جيدة أو التي تمكنت من نهب ثروات بلدان أخرى ، لكن الزمن تغير وأصبحت البلاد غنية بقدر ما يتوفر للمواطن فيها من إمكانات تجعل منه متعلما وسليما ومنتجا. فالتعليم الجيد يساعد على إيجاد الظروف المناسبة لاستمرار التقدم العلمي، وهذا بدوره يعمل على تنشيط حركة توظيف المعرفة العلمية عمليا لخدمة الإنسان عن طريق توسيع مداركه لمعرفة ما يدور حوله وما يتسبب في مشاكله الصحية وغيرها ، ثم تطوير تكنولوجيا تخدم راحة الإنسان وتعمل على الرفع من رفاهيته وتساعده على توليد الدخل العالي . لذلك فإن المجتمع الذي يبادر إلى اكتشاف معرفة ثم يبادر إلى توظيفها عمليا يكون مرشحا للاستفادة من عائداتها بنسب تفوق تلك التي ستكون لبلدان ستلحق فيما بعد.

حدث هذا في حالات الاستكشافات المبكرة بما في ذلك ما يبدو منها بمستوى تكنولوجيا الوقت الحاضر جد بدائية كاكتشاف العجلة أو تسخير قوة البخار. وقد تقدم خدمات شبكة الاتصالات العالمية أوضح مثال حديث لتعظيم فوائد البلد الذي أحرز قصب السبق في مجال معرفي وتوظيفه عمليا. كانت بدايات البحث والتطوير والتطبيق أمريكية ولكن بقية العالم التحق بسرعة بالمسيرة. قد استفادت أمريكا من هذه البداية، وعلى الرغم من الانتشار الواسع لهذه الخدمة، ومع أن نسبة سكان الولايات المتحدة الأمريكية لا تتجاوز (5%) من سكان العالم فإن حوالي (60%) من مستخدمي شبكة الاتصالات العالمية هم من سكان الولايات المتحدة، ويتوزع الباقون بين أوربا وآسيا . وأما حصة أفريقيا فهي (0.01%)، وحصة العرب عبارة عن (0.008%). ولا تساهم في هذا التباين حالة الجهل بوجود هذه الخدمات ، ولا حالة الرغبة من الاستفادة منها. عندما كانت وسائل الاتصال بين أجزاء العالم غير متوفرة كان بالإمكان أن يعيش الملايين من سكان الكرة الأرضية لا يعلم جزء منهم شيئا عن أحوال الجزء الآخر. كما سادت ولقرون كثيرة أفكار تتمحور مقولة ( ليس بالإمكان خير مما كان ) . وبذلك عاشت الملايين في ظروف حياتية متواضعة أو فقيرة راضية بما قسم لها وعلى اعتبار أن هذا هو الموجود أو أن هذا هو الممكن. لكن ثورة الاتصالات أدت إلى نشر مختلف الأخبار، وأصبح ـ نظريا ـ في مقدور الفرد بغض النظر عن مكان تواجده على سطح الكرة الأرضية التعرف على أشكال ومظاهر الحياة في بقية بلدان العالم . أدى هذا إلى أشياء كثيرة من بينها توحد تطلعات الأفراد وخصوصا فيما يتعلق باقتناء معدات وأدوات الحياة الحديثة. ولكن الحصول على هذه الأشياء يحتاج إلى المال الذي لم يتوزع في يوم من الأيام بين أبناء الكرة الأرضية بالتساوي. ويبدو أن الفروقات المشاهدة اليوم بين من يملك ومن لا يملك على مستوى البلدان مرشحة للتوسع وليس للانكماش . ومع ما يروج له مؤيدو العولمة من فكرة العالم القرية، يبدوا أن الجانب الوحيد الذي أخذه عالم اليوم من خصائص القرية هو سهولة التواصل. وحتى هذا فهو تواصل موجه ويسير في طريق ذي اتجاه واحد، بحيث تتواصل البلاد الغنية مع بقية العالم بالكيفية التي تقررها ، كما توصل البلدان الغنية إلى بقية العالم ما تريد توصيله ولا تستطيع البلدان ذات الإمكانيات المحدودة أن تقوم بالمثل، ولا حتى اتخاذ قرار المقاطعة وغلق النوافذ لمنع تدفق ما يرسله العالم الغني.

تولت بعض المؤسسات الدولية مهمة توفير بيانات حول الناتج القومي الإجمالي لكل بلد من بلدان العالم. وقد حافظت هذه المؤسسات على تجميع هذه البيانات عبر السنين. ولذلك توفرت قاعدة بيانات وظفها الباحثون في كتابات متنوعة ومن بينهم ذلك النفر الذي اهتم بدراسة العلاقة بين ظاهرة تنامي العولمة وظاهرة تنامي اتساع الهوة الاقتصادية بين البلدان. لاحظ بعض الاقتصاديين بأن معدلات النمو الاقتصادي لعدد من البلدان الفقيرة أو المتوسطة أعلى بكثير من مثيلاتها في البلدان الغنية، فتنبأ أن الهوة بين هذه البلدان الأقل نموا وتلك الغنية ستتضاءل عبر السنين. وقد تمكنت بعض البلاد من تضييق الهوة بالفعل كتلك التي سميت خلال فترة تاريخية بالنمور الأسيوية أو مثل ما حدث في الصين بعد أن أخذت ببعض قواعد السوق. لكن هذا الأمر لا ينطبق على غالبية البلدان الإفريقية والعربية بما في ذلك التي عرفت معدلات نمو عالية نسبيا خلال عدد من السنوات . ولا تزال هذه البلدان تحتل المراكز الدنيا في المقارنات العالمية لمختلف المؤشرات ذات العلاقة بالاقتصاد.

دأب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي على نشر تقارير تتضمن مقارنات لبلدان العالم بالنسبة لعدد كبير من المؤشرات . لعل أهم تصنيفات هذه التقارير تلك التي تقسم بلدان العالم إلى ثلاث فئات : بلدان توصف بأنها ذات تنمية بشرية عالية وتضم البلدان الغنية، ثم التي توصف بذات التنمية البشرية المتوسطة، وأخيرا ذات التنمية البشرية المنخفضة . تبين أحدث هذه التقارير أن أربعة بلدان عربية مصنفة ضمن الفئة الأولى وجميعها بلدان خليجية نفطية وبها عدد بسيط من السكان. وصنفت كذلك فقط لوجود عدد صغير من السكان ولدخل عال من تصدير النفط الخام . وعلى الطرف الآخر 29 بلدا من مجموع 36 بلدا صنفت كبلدان ذات تنمية بشرية منخفضة هي بلدان أفريقية .

ترتفع أرقام الناتج المحلي القومي لبلدان كثيرة من عام إلى عام. عند حساب الارتفاع السنوي لهذه المعدلات لحقبة زمنية تمتد مثلا لعشر سنوات يلاحظ أن هذه المعدلات السنوية في حالة البلدان الغنية ليست عالية وتتراوح في العادة بين1% و3%، بينما تجاوزت هذه المعدلات في حالة عدد من البلدان التي مرت بحالة تغير اقتصادي جذري كحالة الصين مثلا التي بلغ المعدل السنوي لنمو دخل الفرد فيها خلال

فترة 1990 إلى 2000 ( 9.2%). لكن بلدانا كثيرة لا تحافظ على دخلها بل تسجل انخفاضا وتدهورا باستمرار. وفي آخر هذه التقارير تبين أن حوالي 47 بلدا كانت نسبها بالسالب ، ومن بين هذه 27 كانت أفريقية أو عربية. بل إن أعلى درجتين سلبيتين كانتا من نصيب أفريقيا وهما: الكونغو (8.2 -) وسيراليون (5. 6)*(تقرير التنمية البشرية للعام 2002 :189 ـ 192).

يستحضر الباحثون الذين يناقشون حالة التمايز في الدخل بين بلدان العالم عندما يربطونها بظاهرة العولمة البيانات المتعلقة بنمو الدخل الإجمالي المحلي لكل بلد على حدة .

(Madison,1995; Pritchett,1997; Bourquignon and Morrison,2000 )

وفي بعض هذه الدراسات ظهرت الفجوة بين البلدان كبيرة، بينما تقلصت الفجوة بين البلدان في حالة دراسات أخرى. وقد أثار تباين النتائج حالة من الشك عند البعض بوجود علاقة بين العولمة وحالة تزايد الفروقات في الدخل بين الأغنياء والفقراء. لكن، قد يرجع السبب في تباين هذه النتائج إلى طبيعة البيانات المستخدمة في التحليل، ولخصائص البلدان التي أخذت كعينة، ولحجم عينة البلدان المستخدمة في التحليل. وقد قدم عالم الاقتصاد المعروف جيفري وليامسون اقتراحا يسهل عملية تفسير هذا التباين عندما عمد إلى التمييز بين أربع موجات للعولمة تتعلق الأولى بالسنوات 1492ـ 1820، والثانية هي فترة 1820ـ 1913، بينما ثالث موجة هي التي بدأت قبل الحرب العالمية الأولى وانتهت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أي للسنوات 1913ـ 1950، وبدأت الموجة الرابعة والأخيرة للعولمة بالعام 1950 ولاتزال مستمرة حتى الآن. ثم قسم هذه الموجات إلى فترات مختلفة، ثم تتبع مؤشرات العولمة خلال كل فترة وخصوصا تلك المتعلقة بسهولة انسياب البضائع بين البلدان مع وجود ضرائب بسيطة أو بدون ضرائب، ومراقبة تطور الناتج المحلي لكل قطر له علاقة بالعولمة، ومقارنة النواتج الإجمالية .(Williamson , 2000 : 2-7). ويلاحظ أن هذا النقاش الذي تكاثر

*استثنيت البلدان الجديدة التي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي والتي لبعضها أرقام سالبة تفوق الرقمين الإفريقيين على اعتبار أن هذه البلدان التي سميت المستقلة حديثا تمر بظروف خاصة.

خلال السنوات الأخيرة لم يعتن كثيرا بتسليط الضوء على حالة التفاوت في الدخل في داخل البلد الواحد، والتي توجد أدلة كافية على أنها في ارتفاع مستمر على الرغم ممّا تعلنه السلط السياسية من التزامها بتنفيذ برامج اقتصادية تقود إلى تخفيض الفروقات في توزيع الدخل.

لا شك أن أفراد أي مجتمع قد عاشوا فترة لم تكن هنالك فيها فروقات في الدخل. ولكن بمجرد أن استقر الإنسان في مكان جغرافي محدد، وزاول نوعا من تقسيم العمل، ظهرت الفروقات في الإمكانيات ذات المدلول الاقتصادي. وعرفت المدينة القديمة طبقة من السكان المرفهين وكان هؤلاء في أغلب الأحيان من المشتغلين بالتجارة، ومن كبار ملاك الأرض الزراعية، ومن المحتلين للمراكز العليا في السلطة السياسية . لكن لم تكن الفروقات بين أبناء المجتمع الواحد عالية بالدرجة التي يتم رصدها في الكثير من بلدان العصر الحاضر، التي تخصص بعض الباحثين في رصدها وقياسها. وقد يكون المجتمع الأمريكي قد أخذ قصب السبق في هذا المجال حيث أتاحت حالة شدة التمايز بين الطبقات الاجتماعية فرصة جيدة للباحثين في التخصص في دراسة أسباب ونتائج هذا التمايز. وتشير البيانات أنه في بلدان كثيرة أخذت الفجوة في كميات الدخل الفردي تتسع بين العمال غير المهرة وبين العمال المهرة في مجالات بعينها. وتقدم الثروات الضخمة التي حققها بعض أفراد المجتمع الأمريكي الذين بادروا في مجالات تطوير برامج الحاسب الآلي وفي تقنيات الإنترنيت في زمن قصير مثالا حيا لهذا. وتوضح دراسة حديثة لبلدان منظمة التعاون والتنمية أن الفروقات في الدخل كانت واضحة في عشرين بلدا من أصل 21 بلدا (Williamson, 2000 : 12). كما أن الدراسات التي اعتمدت على بيانات من مناطق مختلفة مما كان يسمى بالعالم الثالث وجدت علاقة بين سياسات الانفتاح الاقتصادي - أي الدخول في العولمة - وتباعد مستويات دخول الأفراد . ومع أن درجات التباعد غير متساوية في جميع مناطق العالم، حيث يبدو أنها تسارعت في بعض المناطق بمعدلات أعلى بكثير مما حدث في مناطق أخرى (Atinc, 1997; Wood,1997) .

عموما تبدو ظاهرة عدم المساواة في الدخل اليوم ذات طابع عالمي حيث هي معروفة في كل بلد. من المفيد تتبع تجليات هذه الظاهرة عبر السنوات، ومن المفيد أن تتوفر البيانات عن جميع البلدان . لكن مثل هذه البيانات غير متوفرة لجميع البلدان، وإن وجدت فقد حسبت في معظم البلدان لمرة واحدة أو مرتين. ويوضح الجدول رقم (2) عرضا لحالة عدم المساواة لعدد من البلدان قسمت إلى أوربية وأفريقية وعربية وأسيوية وبلدان أمريكا اللاتينية. ووضعت اليابان على رأس القائمة لحصولها على أصغر رقم لمقياس جيني والذي يمثل درجة اتساع الهوة بين مجموعة القيم الدنيا ومجموعة القيم العليا. حيث تشير الدرجة الصغيرة إلى تقارب مجموعتي القيم، بينما تشير الدرجة الكبيرة لاتساع الهوة بين مجموعتي القيم. وقد طور هذا الجدول من جدول يحمل تفصيلات أكثر من حيث نسب الدخل لكل نسبة سكان. وقد اقتصر في هذا الجدول على مقارنة أفقر عشرين في المائة وأغنى عشرين في المائة مع بيان دليل جيني . وكما يلاحظ بالنسبة لمجموعة البلدان الغنية فإن اليابان تتمتع بأفضل وضع من حيث درجة تقارب الفروقات في مستويات الدخل. ففي حين يحصل العشرين في المائة الأفقر على حوالي 11% من الدخل تحصل العشرين الأغنى في المائة على حوالي 36% من الدخل . وكانت نسب كل من النرويج والسويد قريبة من تلك الخاصة باليابان. بينما كانت أعلى درجة تباعد من حظ الولايات المتحدة تلتها في ذلك بريطانيا.

أما بالنسبة للبلدان العربية فإن الموجودة في الجدول هي التي توفرت عنها بيانات. ومع وجود معلومات عن أفراد مصريين يملكون ثروات ضخمة وعن آخرين معدمين تبين أن أفقر عشرين في المائة يحصلون على 10% من الدخل وهذه نسبة عالية بالمقارنة مع الأرقام الواردة في الجدول ولا تتعداها بأقل من واحد في المائة إلا للتي سجلت في اليابان. كما أن قيمة دليل جيني التي تقارب 29% هي الأخرى منخفضة وتقترب من تلك التي سجلتها أفضل الأرقام الغربية. ثم تأتي القيم الخاصة بالجزائر، فالأردن، فالمغرب، ثم تونس التي كانت حصة العشرين في المائة من المواطنين الأفقر من الدخل لا تتجاوز 6%، بينما تقارب حصة العشرين في المائة الأغنى الخمسين في المائة من الدخل . الذي له معرفة بحالة البلاد العربية لا يمكنه إلا أن يشكك في هذه النسب التي

استعرضت، ولكن لا تتوفر في بيانات الجدول الأصل ما يساعد على اقتراح تفسير مناسب .

حالة التفاوت في الأقطار الإفريقية عالية جدا حيث تدنت حصة العشرين في المائة الأفقر إلى حوالي فقط 3% في حالة جنوب أفريقيا، بينما وصلت حصة العشرين في المائة الأغنى أى حوالي 65%. وجميع القيم التي تواجدت في هذا الجدول لبقية الأقطار الإفريقية تشير إلى حالة من الغبن جد عالية . ففي كل قطر تتمتع أقلية بغالبية الدخل ولا يبقى للغالبية إلا نسبة متواضعة. وبذلك تعيش الغالبية حالة الفقر بل والفقر المدقع.

حالة الفقر والتاين في المداخيل في بلدان أمريكا اللاتينية معروفة وموثقة، والأقطار التي ضمت للجدول بهدف المقارنة مع حالةَ العرب وأفريقيا تعكس درجة عالية من عدم المساواة فيما يحصل عليه أفراد المجتمع من ثروة المجتمع . كما أن الوضع الصين التي أخذت بعدد من متطلبات العولمة في تاريخ متأخر نسبيا .

ومع أن حالة المساواة في الدخل انتهت بمجرد أن عرف الإنسان الملكية الخاصة ، فإن ما يشاهد في الوقتِ الحاضر من انتشار هائل للفقر، وتكدس للثروة في يد عدد صغير من أفراد المجتمع في الكثير من بلدان العالم يستحق وقفة، يحاول خلالها الباحثون تتبع ورصد هذه الظاهرة، بهدف الإجابة عن سؤال حول دور العولمة وخصوصا في موجتها الرابعة بحسب تصنيف وليامسون في تعميق الفروقات في الدخل في داخل المجتمع الواحد.

### 3 . المعرفة والعولمة

وأما في مجال المعرفة فقد يرى البعض أن العولمة تتيح لمواطني جميع الشعوب المساهمة في إنتاجها وفي الاستفادة من تطبيقاتها التكنولوجية . لكن الواقع غير ذلك وعليه استحوذت بلدان بعينها على عمليات إنتاج المعرفة وتوظيفاتها العملية، واكتفت غالبية أقطار العالم بالاستيراد. وقد ساعدت عوامل كثيرة على تنشيط

عمليات الاستيراد. لقد تمكن من يملك المال من شراء واستخدام مختلف أشكال التوظيفات العملية للمعرفة العلمية بما في ذلك التي تقرب المسافات وتختصر الزمن. ولكن، يفترض أن النشاط المتعلق بالبحث العلمي مجال مفتوح أمام جميع أفراد العالم. فهذا مجال يمكن أن يتفوق فيه أي فرد بغض النظر عن لونه أو انتمائه الإثني أو الوطني. فجميع أفراد البشر يتمتعون بدرجات ذكاء متشابهة من حيث طبيعة توزيع الذكاء في داخل كل مجتمع. حيث لا توجد مجموعة إثنية متميزة بالذكاء وأخرى متخصصة في الغباء . بالطبع مرت البشرية خلال حقب تاريخية شاع فيها مثل هذا الإعتقاد. وقد بنيت بعض مبررات النشاط الاستعماري الذي قادته أوربا وشمل في وقت من الأوقات جميع أرجاء المعمورة على أن بعض الشعوب لا تستطيع أن تحكم نفسها، وأنها تحتاج إلى شعوب سميت أحيانا متقدمة وأحيانا أخرى ذكية لكي تتمكن من مزاولة الأنشطة الحياتية اليومية. لكن الزمن تغير، ولم يتغير بتراكم السنوات ولكن بعد أن تراكمت كمية كبيرة من المعرفة العلمية التي أثبتت خطأ فروض ونظريات عنصرية كانت وراء قرارات ألحقت أضرارا كبيرة بملايين من البشر. ولا يوجد اليوم مجتمع لا تعرف نسبة من أبنائه أهمية التعليم الحديث والبحث العلمي ، وأن الاستثمار في هذا المجال سيعود بالنفع على المجتمع بصفة عامة.

ومع ذلك توجد هوة كبيرة بين مجتمعات العالم في ترجمة الاعتراف بأهمية التعليم والبحث العلمي إلى عمل ميداني . فمثلا جميع بلدان العالم تعد ميزانيات وتجعل لها أبوابا ومجالات لصرف الموارد المالية التي تخصص للميزانيات السنوية. ترتبط هذه الميزانيات بالموارد المالية للبلد وكما هو معروف بعض هذه البلاد لها موارد مالية ضخمة وأخرى مواردها جد متواضعة . وكما تشير البيانات فإن النواتج الإجمالية لبلدان العالم وصلت في بعض البلاد إلى أرقام فلكية ، كما أن الفروقات بينها جد كبيرة حتى في حالة ما يسمى مجموعة البلدان السبعة الغنية . فمثلا بلغ الناتج القومي للولايات المتحدة في العام 2000 رقما هائلا لم تعرفه البشرية من قبل (جدول رقم 1). وهذا يزيد عن ضعف الرقم الخاص بثاني أكبر اقتصاد في العالم والخاص باليابان ، والذي يزيد بدوره عن ضعف الناتج القومي لثالث اقتصاد عالمي وهو الخاص بألمانيا، بينما

لا يكاد يصل الناتج الإجمالي للبلد السادس ايطاليا إلى ثمن الرقم الخاص بالولايات المتحدة . جميع هذه البلدان التي يمكن وصفها بالغنية تخصص نسبا واضحة من هذا الدخل للصرف على النشاط البحثي وتتراوح هذه بين اثنين وثلاثة بالمائة حيث وصلت في نفس السنة بالنسبة لليابان (2 .8%) والولايات المتحدة (5. 2%). وكما هو واضح فإن هذه النسب تعني مبالغ ضخمة خصوصا عند التفكير بمقارنتها بما هو حاصل عند العرب وعند الأفارقة . فمثلا أعلى دخل في أفريقيا يخص جنوب أفريقيا وقد وصل في العام 2000 إلى حوالي 126 بليون دولارا، وثاني أكبر ناتج إجمالي محلي هو الخاص بمصر وبلغ حوالي 99 بليون دولارا، ثم تأتي نيجيريا بحوالي 41 بليون دولارا. وتوضح البيانات أن جنوب أفريقيا تخصص للبحث العلمي (6. 0%) من ناتجها الإجمالي، وتبلغ النسبة الخاصة بمصر (9. 0%)، وأما نيجيريا فلم تتجاوز نسبتها.(1.0%) وهذه النسب الإفريقية جد متواضعة ومع ذلك فإن أغلب البلدان العربية والإفريقية إما أن نسبها لا تتجاوز هذه التي ذكرت أو أنها لا تخصص أي شيء للنشاط البحثي . ويمكن الإشارة إلى أن اسرائيل التي تعتمد كثيرا على الدعم الذي يأتيها من الخارج خصصت في العام 2000 حوالي (7. 3%) من ناتجها القومي الذي بلغ 110 بليون دولارا للصرف على البحث العلمي. ومع التزامات هذا البلد المتعددة حافظت على العناية بالبحث العلمي، وتمكنت من المساهمة بنصيب يمكن ملاحظته عند الحديث عن نتائج البحث العلمي وعن توظيفاتها العملية .

يتصل بهذه الأرقام مباشرة مؤشر آخر يعكس التقدم في مجال إنتاج المعرفة وتوظيفها عمليا وتتوفر عنه بيانات عالمية ونقصد به عدد العلماء والمهندسين والمشتغلين بالبحث العلمي بالنسبة للمليون من السكان. الأرقام الخاصة بالبلدان ذات الاقتصادات الكبيرة عالية فهي بحسب بيانات عام 2000 بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية (4103) بينما ارتفع الرقم في حالة اليابان إلى (4960) عالما ومهندسا، ثم تنخفض الأرقام إلى أقل من الثلاثة آلاف في حالة كل من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا. وقد يكون من المفيد استحضار أرقام بلد بعدد سكان لا يصل إلى التسعة ملايين نسمة وهي السويد والتي تخصص 8. 3% من دخلها للبحث العلمي، والرقم الخاص بعدد

العلماء والمهندسين والمشتغلين بالبحث العلمي يصل إلى (4507)، والنرويج بلد صغير من حيث عدد السكان والذين بلغوا في العام 2000 حوالي أربعة ملايين ونصف يصل فيها عدد العلماء والمهندسين لكل مليون نسمة إلى (4095).وأما الرقم الخاص بإسرائيل فيصل إلى (1570). لا توجد مثل هذه البيانات عن معظم البلدان الإفريقية والعربية وباستثناء جنوب أفريقيا ومصر فالأرقام جد متدنية . ففي حالة جنوب أفريقيا توضح البيانات بوجود (992) عالم ومهندس بالنسبة لكل مليون نسمة، والرقم المقابل بالنسبة لمصر عبارة عن (493)، وهو في تونس 124) وفي نيجيريا (15) شخصا.

لا شك أن وضع جنوب أفريقيا في هذا المجال يعد متميزا بالنسبة للمحيط الموجود فيه البلد وللظروف السياسية والاجتماعية التي جعلت لهذا البد وضعا خاصا. لكن الملفت للنظر هو وضع مصر التي عرفت التعليم الحديث في تاريخ مبكر بالنسبة لبقية جيرانها. كما عرف هذا البلد التطبيقات العملية للبحث العلمي في تاريخ مبكر أيضا. لذلك نرى مصر بين البلاد التي تبعث اليابان إليها بالطلاب والمتدربين عندما قررت اليابان الانفتاح على العصر والأخذ بمقومات المعرفة والصناعات الحديثة. وكانت مصر هي البلد الوحيد خارج أوربا التي بعثت له اليابان بالبعثات الطلابية.

لا تعكس هذه الأرقام المتدنية سواء بالنسبة لمصر ولعدد من البلدان الإفريقية والعربية الوضع الفعلي للمتعلمين من هذه البلاد . فجميع هذه البلدان تعاني من مشكلة هجرة المتعلمين. وعليه توجد نسبة لا بأس بها من مواطني هذه البلدان الذين يمكن تصنيفهم تحت خانة العلماء والمهندسين تعيش في خارج أوطانها وتقدم خبرتها للبلدان التي أرقامها في هذا المجال تجاوزت الألفين.

### 4 . ملاحظات ختامية

يقترح عدد كبير من المثقفين والكتاب أن العولمة في مظهرها الأخير ظاهرة عامة، وأنها جاءت لتبقى بغض النظر عن مواقف أو آراء الأفراد والدول . وأن الخطوات التي تمت حتى الآن مثل عولمة الاقتصاد وما ترتب عنها من بناء لمؤسسات، ومن مأسسة لعلاقات بين الأفراد وبين الدول صارت من الثوابت ومن ركائز النظام العالمي. وهو

نظام يقسم العالم إلى قسمين مختلفين: عالم للأغنياء غني بكل ماله علاقة بالقوة كالمعرفة العلمية والمال والسلاح، وعالم للفقراء ويظم غالبية سكان الكرة الأرضية . عالم الأغنياء على الرغم من صغر نسبته العددية بالنسبة لسكان العالم هو الذي بادر إلى إنشاء المؤسسات المعولمة، وهو الذي يرعاها ويدعمها. فهل سيستمر بقاء هذه المؤسسات رغم ما تثيره إجراءاتها من مشاعر الغبن وعدم الرضى عند عالم الفقراء ولدى معارضي العولمة؟ وهل سيتزايد ظهور المؤسسات المعولمة بحيث تطال المجالات التي لم تصل إليها بعد؟ وما الذي يمكن أن يفعله مواطنوا العالم الذين لم يستفيدوا من العولمة بصورة مناسبة وخصوصا العرب والأفارقة؟ وهل بإمكان هؤلاء القيام بنشاط منظم يقود إلى تضييق الفجوة بينهم وبين ما يمكن أن يسمى بعالم الأغنياء أو حتى المحافظة على الفجوة على حالها بحيث لا تتدهور الأحوال وتزداد الفروقات؟ هذه الأسئلة وما يمكن أن يتفرع عنها تستحق الاهتمام بهدف إلقاء مزيد من الضوء على علاقة العولمة بتكريس وتجذير الفروقات بين الشعوب، وما يجره هذا من سلبيات على أبناء الشعوب المسبوقة مع العناية بحالة العرب والأفارقة، وإمكانية رسم نماذج للتعامل مع هذا الوضع غير العادل.

لا شك أن التطور الكبير الذي حدث في وسائط الاتصالات خلال العقود الأخيرة سهل - على الأقل من الناحية النظرية - كثيرا من أمر انتقال المعرفة العلمية وتطبيقاتها وهو ما يصلح أن يشار إليه بثورة المعلومات. وهذا من شأنه ألا يبقي المعرفة العلمية المنتجة في داخل حدود المجتمع الذي أنتجها ، وصار بإمكان المهتمين بغض النظر عن أماكن تواجدهم التعرف على أحدث المعرفة العلمية المنتجة وعلى تطبيقاتها التقانية فور إنتاجها. ولا شك أن هذا يعد مكسبا للكثيرين الذين لا تسمح ظروف بلدانهم من تحمل التكاليف الباهضة التي يتطلبها التطور العلمي والتقاني عبر مؤسسات البحث العلمي. كما ساعد هذا الوضع على تقصير الفترة الزمنية التي تحتاجها حركة انتقال المعرفة ومنتجاتها من البلدان المنتجة إلى البلدان المستقبلة. حيث كانت هذه الفترة الزمنية تأخذ سنوات قد تصل إلى عقود متعددة . ولابد من الإشارة إلى أن انتشار التعليم في مختلف المجتمعات هيأ الجو المحلي المناسب للاستقبال بعدما تقدمت وسائط الانتقال، وضعفت الحواجز التي تضعها الحكومات الوطنية.

ولكن لابد من الإشارة إلى وجود مؤسسات تعمل ضد هذا التيار العام أي إلى الاحتفاظ بالأسرارالعلمية واحتكار المعرفة . يظهر هذا بوضوح في تلك المجالات التي يمكن استغلالها تقنيا بدعوى حق الحصول على شهادات الامتياز . وقد وسع الذين يتبنون هذا المبدأ من مجال الإحتكار ليشمل مجالات معرفية يشكل أمر احتكارها من قبل أقلية خطرا بالنسبة لمواطني البلدان المسبوقة ونعني بصفة خاصة تلك الأبحاث التي تجرى لرسم الأطلس الوراثي للإنسان ، وتلك المتعلقة بالتعرف على الخصائص الحيوية المسئولة عن تحديد مختلف صفات الإنسان أو ما يعرف بالشفرة الوراثية ، والتي تكون مسئولة عن تعرض الإنسان لأمراض بعينها ، وما يتعلق بالهندسة الوراثية للكائنات الحية بمختلف أنواعها. وهذا مظهر من أخطر مظاهر الاحتكارات.وقد يكون الطريق الوحيد الذي يمكن أن يسلكه سكان عالم الفقراء لفك الطوق الذي تفرضه سياسة الاحتكارات العلمية هو المساهمة بنصيب في تطوير المعرفة العلمية ذات العلاقة. ولكن ، وفي نفس الوقت يسهل التطور الدائم في تقانة الاتصالات مهمة مرور الأشخاص والبيانات عبر الحدود السياسية ، ويقود هذا إلى ارتفاع نسبة مشاركة المتخصصين من مختلف بقاع العالم في مهمة إنتاج المعرفة وتطويرها. ويعني هذا أشياء كثيرة من بينها إمكانية استقطاب المتخصصين من نقاط مختلفة من على سطح الكرة الأرضية.إلا لأن الكفة ـ حتى الآن ـ مالت نحو البلدان المتقدمة علميا وتكنولوجيا. لقد نجحت هذه البلاد في استقطاب الكفاءات من مختلف البلدان والثقافات. ومع أنه بإمكان جميع البلدان تطبيق نفس القاعدة، إلا أن الكثير من الأنظمة السياسية أولت الأهمية لبرامج وأنشطة لا تساعد على الاحتفاظ بالكفاءات المحلية واستقطاب غيرها، بل بالعكس أدت حتى الآن إلى طرد نسبة عالية من الكفاءات المحلية، واكتفت البلدان الطاردة بالمباهاة الكلامية بنجاحات من كان يوما ما من أبنائها بعد أن صرفت علية وأعدته ، وبعثت بها جاهزا أو شبه جاهز إلى بلدان أكثر تقدما .

كما جعلت سهولة الاتصالات وسهولة انسياب الموارد المالية أمر مساهمة مراكز متوزعة عبر الكرة الأرضية في صناعة وتطوير وتسويق منتج تقاني قضية ميسرة . إذ يسرت سهولة الاتصالات أمر مشاركة باحثين لا يتواجدون في مكان جغرافي معين . وقد أدى هذا إلى ارتفاع نسبة المشاركين في هذا النشاط دون اضطرارهم إلى الانتقال

من مراكز تواجدهم. ويعني هذا أن البلدان الأقل تقدما لا تضطر إلى التضحية بخبراتها المهنية والتقانية التي يمكن أن تساهم في توسيع الكادر التقني المحلي وجلب مصادر مالية ذات بال.

كما أن الفروقات الموجودة في الأجور بين الذين يحملون نفس المؤهلات في البلدان المختلفة ، ورغبة الشركات الكبيرة في تعظيم الأرباح، فتح الباب أمام مشاركة الفنيين والمتخصصين في مجتمعات العالم الثالث. يبدو تطبيق هذا المبدأ واضحا أكثر في مجال العمالة الفنية، ويرتبط به الكثير من أشكال الاستغلال. فالمهمشون في الكثير من المجتمعات من العاطلين والنساء وحتى الأطفال يرضون بأدنى الأجور ويتحملون أسوأ ظروف العمل. وبما أن بعض أهم الشركات الكبرى تخصص ميزانيات ضخمة للبحث العلمي وتطبيقاته التقانية، فهي تستخدم نفس الأسلوب، فتستعين بعلماء من مواطني العالم الثالث الذين لا يكلفون الشركات نفس المبالغ التي يتكلفها نظرائهم في الغرب. يتيح هذا الأسلوب للكثيرين من المؤهلين في العالم الثالث فرصة نادرة للمشاركة فيما يجري من تطور على مستوى العالم. لكن التخوف من أن المبرزين من هؤلاء سينضمون إلى طابور المهاجرين نحو الشمال. وستتضاعف مشكلة العلم الفقير أكثر حيث يصرف وقتا ومالا في إعداد كوادر ، ثم يبعث بها جاهزة إلى الخارج. ويبدو أن هذا الخارج غير مستعد بعد للدخول مع فئة المسبوقين اقتصاديا في حوار يهدف إلى الوصول إلى وضع فيه شئ من العدل بالنسبة لاقتسام ثروات العالم. كما لا توجد مؤشرات تدل على أن العرب والأفارقة لديهم خططا عملية سيبدءون قريبا في تنفيذها من أجل الاستخدام الأجدى للموارد، وتقليل الهدر، وتعظيم الإمكانات والقدرات البشرية والاحتفاظ بها، وتوظيفها التوظيف الأمل في مجالات توليد الثروة وتوفير الخدمات التي من شأنها الرفع من مستوى حياة المواطنين. وإلى أن يأتي ذلك اليوم الذي تدخل فيه علي طرفي هذه المعادلة تعديلات جذرية، ستستمر المتغيرات التي أدت حتى الآن إلى توسيع الهوة بين الأغنياء وبين المسبوقين اقتصاديا وعلميا وتقانيا تعمل بنفس المنوال، مما يعني زيادة في التباين، وارتفاع مستمر في معدلات الرفاه عند طرف، وانخفاضها عند الطرف الآخر.

## جدول رقم ( 1 )

### بعض المؤشرات ذات العلاقة لعدد من البلدان

| البلد | السكان / مليون نسمه 2000 | الناتج المحلي الإجمالي حسب القوة الشرائية 2000 بليون دولار | عدد العلماء والمهندسين والمشتغلين بالبحث العلمي | % الصرف على البحث العلمي 1990-2000 | قيمة دليل التنمية البشرية 2000 |
|---|---|---|---|---|---|
| الولايات المتحدة | 283 | 9613 | 4103 | 2.5 | 0.939 |
| اليابان | 127 | 3394 | 4960 | 2.8 | 0.935 |
| المانيا | 82 | 2062 | 2873 | 2.3 | 0.925 |
| فرنسا | 59 | 1427 | 2686 | 2.2 | 0.928 |
| بريطانيا | 59 | 1404 | 2678 | 1.8 | 0.928 |
| ايطاليا | 58 | 1363 | 1322 | 1.0 | 0.913 |
| كندا | 31 | 856 | 3009 | 1.7 | 0.940 |
| اسبانيا | 40 | 769 | 1562 | 0.8 | 0.913 |
| اسرائيل | 6 | 126 | 1570 | 3.7 | 0.896 |
| النرويج | 4,5 | 30 | 4095 | 1.7 | 0.942 |
| السويد | 8,8 | 24 | 4507 | 3.8 | 0.941 |
| كوستاريكا | 1,4 | 33 | 533 | 0.1 | 0.820 |
| | | | | | |
| السعوديه | 20 | 236 | 00 | 00 | 0.759 |
| مصر | 68 | 233 | 493 | 1.9 | 0.642 |
| الجزائر | 30 | 161 | 00 | 00 | 0.697 |
| المغرب | 30 | 102 | 00 | 00 | |
| تونس | 10 | 61 | 124 | 0.3 | 0.722 |
| سوريا | 16 | 58 | 29 | 00 | 0.691 |
| جنوب افريقيا | 43 | 402 | 992 | 0.6 | 0.695 |
| نيجيريا | 114 | 114 | 15 | 0.1 | 0.462 |
| غانا | 19 | 38 | 00 | 00 | 0.548 |
| كينيا | 31 | 31 | 00 | 00 | 0.513 |
| تشاد | 8 | 7 | 00 | 00 | 0.365 |
| سيراليون | 4 | 3 | 00 | 00 | 0.275 |
| | | | | | |

المصدر: تقرير التنمية البشرية لعام 2002، ص. 152 ــ 188.

جدول رقم ( 2 )

حالة انعدام المساواة في توزيع الدخل لعدد من بلدان العالم

| البلد | سنة الإستقصاء | أفقر نسبة 20% من الدخل | أغنى نسبة 20 % من الدخل | دليل جيني |
|---|---|---|---|---|
| اليابان | 1993 | 10.6 | 35.6 | 24.8 |
| النرويج | 1995 | 9.7 | 35.8 | 25.8 |
| السويد | 1992 | 9.6 | 34.5 | 25.0 |
| ايطاليا | 1995 | 8.7 | 36.3 | 27.3 |
| فرنسا | 1995 | 7.2 | 40.2 | 33.1 |
| بريطانيا | 1995 | 6.1 | 43.2 | 36.8 |
| الولايات المتحدة | 1997 | 5.2 | 46.4 | 40.8 |
| | | | | |
| مصر | 1995 | 9.8 | 39.0 | 28.9 |
| الجزائر | 1995 | 7.0 | 42.6 | 35.3 |
| الأردن | 1997 | 7.6 | 44.4 | 36.4 |
| المغرب | 1999 | 6.5 | 46.6 | 39.5 |
| تونس | 1995 | 5.7 | 47.9 | 41.7 |
| | | | | |
| غانا | 1999 | 5.6 | 46.7 | 40.7 |
| كينيا | 1997 | 5.6 | 51.2 | 44.9 |
| زمبابوي | 1995 | 4.7 | 55.7 | 50.1 |
| نيجيريا | 1997 | 4.4 | 55.7 | 50.6 |
| بوركينافاسو | 1997 | 4.6 | 60.4 | 55.1 |
| جنوب افريقيا | 1993 | 2.9 | 64.6 | 59.3 |
| | | | | |
| أوروغواي | 1998 | 5.4 | 48.3 | 43.3 |
| بنما | 1997 | 3.6 | 52.8 | 48.5 |
| شيلي | 1998 | 7.8 | 39.7 | 56.6 |
| البرازيل | 1998 | 2.2 | 64.1 | 60.7 |
| | | | | |
| سيريلانكا | 1995 | 8.0 | 42.8 | 34.4 |
| الصين | 1998 | 5.9 | 46.5 | 40.3 |
| ماليزيا | 1997 | 4.4 | 54.3 | 49.2 |

المصدر : تقرير التنمية البشرية لعام 2002، ص. ص. 194 ـــ 197.

## ثبت المصادر


1. أمين، جلال، "العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث"، المستقبل العربي ، العدد :234، 1998.

2 . برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، تقرير التنمية البشرية لعام 1999، نيويورك: منشورات جامعة أكسفورد.

3 . برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 2002، نيويورك: منشورات جامعة أكسفورد.

4 . التير، مصطفى عمر، " آراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة "، مجلة شؤون عربية، العدد 105، 2001.

5. Atinc, Tamar M., " Sharing Rising Income: Disparities In China", Washington, D.C.: The World Bank, 1997.
6. Higgins, Matthew, and Jeffrery G. Willamson, "Explaining Inequality World Round: Cohert Size, Kuznets Curves, And Openness", NBER Working Paper 7224, July, 1999.
7. Milanovic, Branco, Income, Inequality, and Poverty during the Transition from Planned to Market Economy, Washington, D.C. : World Bank, 1998.
8. Richardson, David J, "Income Inequality and Trade: How to Think, What to Conclude", Journal of Economic Perspectives, Summer 1995, pp. 33-56.
9. Williamson, Jeffrey G., "Globalization and Inequality Then and Now: The Late 19th and Late 20th Centuries Compared", NBER Working Paper 5491, March, 1999.
10. Williamson, Jeffrey G., " Winners and Losers Over To Centuries of Globalization", 2000
11. Wood, Adrian , "How Trade Hurt Unskilled Workers", Journal of Economic Perspectives, Summer 1995, pp. 57-80.
12. Wood, Adrian , "Openness and Wage Inequality in Developing Countries: The Latin American Challenge to East Asian Conventional Wisdom", World Bank Economic Review, 11 (January) 1997, 33- 57

# الأبعاد الاستراتيجية للشراكة العربية الأفريقية
# من أجل باندونغ جديدة

عبد الله السيد ولد باه*

## توطئـــة

لا تهدف هذه الدراسة المقتضبة إلى الحفر في تاريخ العلاقات العربية - الأفريقية وهو تاريخ كثيف وغني، ولا التعرض لتجربة هذه العلاقات في المدى القريب والزمن الراهن، وإنما تتحرى تقديم ملاحظات سريعة تتناول الإطار الاستراتيجي للروابط بين فضاءين شديدي التداخل، متشابهي الأوضاع، ومرتبطي المصير، يواجهان تحديات مشتركة.

وقد ارتأينا الانطلاق في هذه الدراسة من المدخل الفكري، لاستعراض تجربتي حركة الوحدة الأفريقية(Panafricanisme) ودينامية الوحدة العربية، على أن نخطط بعض الملاحظات للعلاقة بين المشروعين وانعكاس هذه العلاقة على روابطهما الاستراتيجية، منتهين إلى استشراف آفاق هذه الروابط في ضوء المعطيات الراهنة من منظور ضرورة بلورة ودعم أطر شراكة فاعلة بين المجالين تكون إحياء لمشروع التكتل الآفرو آسيوي ( مشروع باندونغ) المتعثر.

## الفكرة القومية العربية ونزعة الاندماج الأفريقي : عوامل النشأة وأطر التداخل

يمكن القول إجمالا أن المشروع القومي العربي ونزعة الهوية الأفريقية قد تزامنا من حيث النشأة التاريخية، حتى ولو كانت خلفيا تهما متباينة، وأرضيتهما الفكرية متمايزة، ومطامحهما مختلفة.

---

*باحث أكاديمي موريتاني،أستاذ الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعة نواكشوط، أستاذ زائر بالعديد من الجامعات العربية.

وهكذا يمكن القول أن المشروعين قد تبلورا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في سياقين مختلفين : مطلب الانفصال العربي عن الإمبراطورية العثمانية المتأزمة والمتآكلة، ووعي النخبة السوداء في أمريكا والمنطقة الناطقة بالإنجليزية بالتميز القومي وضرورة تجسيد هذا الوعي في مشروع يتجه لعموم القارة السوداء المحتلة من أجل بناء تكتل قومي أفريقي.

فخطوط المشروع القومي العربي، تكتفي بالتذكير أن المحاولات الأولى لبلورة فكر قومي عربي بالمعنى الدقيق للمصطلح قد ظهرت في سياق الصراعات التي شهدتها الإمبراطورية العثمانية المؤذنة أوانها بالانهيار والتفكك جراء أزمة داخلية مستعصية متعددة المناحي وأطماع استعمارية بادية في الأفق.

ولم يتجاوز الوعي القومي أوانها التصور العرقي والأخلاقي للعروبة. كما لم يتبين الانفصال الكامل عن الخلافة الإسلامية والرابطة الدينية الشاملة مع رفع مطالب العرب داخل الرابطة الإسلامية الواسعة.

ولاشك أن أعمال الكواكبي تفصح عن هذا التصور العرقي الأخلاقي الذي يفصله في كتابه "أم القرى"، حيث طرح خيار قيادة العرب للدائرة الإسلامية، بالنظر لفصائلهم العقلية وشيمهم ومكانتهم الخلقية (1).

وإذا كان الكواكبي مثل لحظة انبثاق الوعي القومي في صيغته الأولية المبسطة، فإن ساطع الحصري يعتبر علامة بارزة في تاريخ الفكر القومي، سواء من حيث البعد الفكري بتقديمه أول مشروع متكامل لبناء الطموح العربي، أو من حيث البعد السياسي بارتباطه بأحداث الثورة العربية 1916 واشتراكه في حكومة الملك فيصل.

بيد أن السمة الغالبة على فكره هي الانطلاق في تحديد الهوية العربية من عوامل ثقافية (بدل الانتماء العرقي) تتلخص في بعدي التاريخ واللغة.

فاللغة هي "روح الأمة وحياتها"، لأنها مدار التخاطب وآلة التفكير وأساس التمايز بين القوميات؛ والتاريخ هو شعور الأمة وذاكرتها، فذكراه حية في النفوس، بادية في المسلكيات والعقليات.

ولا يخفي الحصري تأثره بالفكر والتجربة الألمانيين، فتكثر إحالته إلى الفيلسوف الألماني وإلى الزعيم السياسي بسمارك، داعيا إلى استلهام النموذج الألماني في تكريس وحدة الأقطار العربية، مبينا أن الانقسام الحاصل فيها ناتج عن مخططات ومطامع الاستعمار، وأن الفروق بين الأقطار العربية " عارضة وسطحية" ، وبالمجهود السياسي والفكري تعود الحالة الطبيعية للأمة أي وحدتها الضاربة في التاريخ[2].

ولقد بدأ الفكر القومي ينتقل من مرحلة الكمون النظري إلى محاولات التجسيد العملي التي تمثلت في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية بتأسيس الأحزاب السياسية العقدية التي استتب لها الحكم من بعدُ في بعض الأقطار العربية الرئيسية[3]، وتميزت على الخصوص بقيام التجربة الناصرية التي كان أثرها الأكبر قد حول مركز التوجه القومي من بلاد الشام لمصر في ظرفية دقيقة من أبرز سماتها استفحال الخطر الصهيوني بعد قيام دولة إسرائيل، وانبثاق حركات التحرر العربية، بالإضافة إلى المد الاشتراكي الشرقي وقيام كتلة عدم الانحياز، في هذا السياق ظهرت الحركات القومية المنظمة والتجارب الاندماجية، كما نشأ النظام الإقليمي العربي في شكله المؤسسي، أي في جامعة الدول العربية والمنظمات والهيئات المتخصصة المتفرعة عنها.

أما النزعة القومية الإفريقية فقد نشأت لدى الجاليات السوداء في القارة الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر، وتمثل هدفها الأساسي في إعادة الاعتبار للحضارات الأفريقية وتأكيد حرية الإنسان الأسود وكرامته والدعوة لعودة أحفاد الأفارقة المهجرين إلى أوطانهم الأصلية.

ومن أبرز رموز هذه النزعة " سيلفستر وليام" المحامي المولود في ترينيداد الذي نظم عام 1900 مؤتمر الاندماج الأفريقي الأول بلندن. " ووليم ديبوا" مؤسس "الرابطة الأمريكية لتقدم الملونين"، ومنظم المؤتمر القومي الأفريقي الأول المنعقد بباريس 1919 الذي طالب باعتماد" ميثاق حماية دولية لسكان أفريقيا الأصليين".

ويمكن القول إن "ديبوا" هو أول من حول النزعة القومية الأفريقية من نزعة أمريكية ضيقة إلى مشروع قومي متكامل يمثل الأفارقة كلهم.

ينضاف إلى هذين الرمزين ماركوس "جارفي" المنحدر من أصل جمايكي الذي أنشأ عام 1914 " الرابطة الزنجية العالمية" التي قامت على هدف تحسين وضعية الإنسان الأسود ،وتوثيق الصلة بين الأفارقة من كل القارات، وقد اختار ليبيريا نواة لهذا المشروع الذي فشل[4]. وبعد هذه الحقبة التأسيسية، برزت ديناميتان مترابطتان : حركية ثقافية وأدبية تمثلت في مدرسة " الزنوجة"، والحركية السياسية والإيديولوجية تمثلت في حركة التحرر الأفريقية الهادفة إلى استقلال البلدان الأفريقية المستعمرة وتوحدها.

أما تيار الزنوجة فقد ارتبط ببعض الأدباء البارزين في مقدمتهم الشاعر السنغالي ليبولد سيدار سنغور الذي كان من بعد أول رئيس للسنغال، والروائي المارتنيكي "إيميه سيزير" الذي كان أول من اخترع العبارة عام 1934 في مقال منشوربمجلة "الطالب الأسود"، وتمحورت نزعة الزنوجة حول تأكيد كرامة الإنسان الأسود وتميزه واستثمار مأساته، كما هي أداة غزو ووسيلة صراع، ونسق قيم وأفكار.

ويوضح سنغور دلالة الزنوجة في بعديها الموضوعي والذاتي، بالقول إنها موضوعيا مجموع القيم الاقتصادية والسياسية والثقافية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية التي تتحلى بها الشعوب السوداء في مختلف القارات والبلدان، معتبرا أن جدود هذه الشعوب هم مؤسسو أعرق الحضارات القديمة عشرات القرون قبل ميلاد المسيح، وهي ذاتيا تبنٍّ للقيم الحضارية للإنسان الأسود والعمل على تجديد هذه الحضارات بالإسهام الفاعل في تشكيل الثقافة الكونية الراهنة.

وتبرز هذه القيم والمفاهيم في شعر سنغور وروايات سيزير ومن تلاهما من كتاب وأدباء؛ فتخصصت دار " الحضور الأفريقي" presence African في نشر أعمالهم مثل كامرا لاي، وكان من أبرز هذه المفاهيم : تقديس الأجداد وتمجيد الجنس الأسود والحنين للأرض وإحلال العاطفة مكان العقل التجريدي من منطلق النظر للوجود بصفته قوة حيوية وإيقاعا سحريا يندمج فيه البشر بالطبيعة، مع إعطاء مكانة خاصة للشعور الديني ولقيم التضامن الأسري والقبلي.

فالنسق الاجتماعي - الاقتصادي الأفريقي من هذا المنظور يقوم على المساواة والتضامن ونبذ التراتب، وهي القيم التي يمكن أن تؤسس لنموذج أفريقي حديث متميز عن الحداثة الغربية[5].

أما الديناميكية السياسية فقد انطلقت مع المؤتمر القومي الأفريقي الخامس المنظم بمانشستر الذي هيمن عليه جيل الزعماء الأفارقة الشباب الذين قادوا من بعد حركة التحرر الأفريقية مثل جومو كنياتا ( كينيا ) وبيتر آبراهمز ( جنوب أفريقيا ) وهيلاسي لاسي ( أثيوبيا )، ونامدي آزيكيوي (نيجيريا ) وجوليوس نيريري ( تنزانيا ) وكينيت كاوندا ( زامبيا ) وكوامي نيكروما (غانا ).

وبعد مؤتمر مانشستر، تحول نكروما إلى زعيم حقيقي للنزعة القومية الأفريقية فعمل على تنظيم صفوف المندوبين الأفارقة وحول مركز مشروع الوحدة الأفريقية إلى غرب القارة منذ مؤتمري كوماسي (1953) وأكرا (1938)، وأصبح رمزا مقدساً حقيقيا للحركة الوطنية الأفريقية.

وفي أجواء نزوع الاستعمار وقيام الصراع القطبي، برز شكلان من التوجه الاندماجي الأفريقي : مجموعة الدار البيضاء التي ضمت غانا ومصر والمغرب وتونس وأثيوبيا وليبيا والسودان وغينيا ومالي والحكومة الجزائرية المؤقتة وقد دعت إلى الوحدة الأفريقية الفورية والشاملة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا؛ ومجموعة مونرافيا التي تزعمها الرئيسان هوفيه بواني وسنغور وتبنت استراتيجية واقعية تقوم على احترام الحدود الموروثة عن الاستعمار والمطالبة بنظام إقليمي يضمن علاقات تضامن وتعاون بين دول مستقلة؛ ومع أن النزعة الأولى ارتبطت بزعامات ثورية واسعة الإشعاع والتأثير مثل باتريس لومومبا في الكونغو وأحمد سيكوتوري في غينيا وموريبو في مالي، إلا أن الاتجاه الثاني هو الذي ساد في نهاية المطاف، وكان المسلك الذي تجسد في النظام الإقليمي الأفريقي الذي شهد النور في أديس أبابا عام 1963 (منظمة الوحدة الأفر يقية)[6]. وكما هو واضح؛ فإن الدول العربية الأفريقية لعبت دوراً رئيسيا في مشروع الاندماج الأفريقي، وكانت من البلدان المؤسسة لمنظمة الوحدة الأفريقية.

ولابد من الإشارة هنا إلى تأثير حركات التحرر في بلدان المغرب العربي وكذلك تأثير الثورة المصرية في دفع ديناميكية استقلال بلدان أفريقيا ، كما يتعين التذكير بأن الدائرة الأفريقية شكلت إحدى الدوائر الثلاث في الرؤية الاستراتيجية للثورة المصرية كما صاغها الرئيس جمال عبد الناصر في كتابه " في فلسفة الثورة"[7].

وهكذا عرفت العلاقات بين النظامين الإقليميين العربي والأفريقي طفرة نوعية في سياق التحولات الجوهرية التي شهدتها المنطقتان في ظرفية دولية اتسمت بالمواجهة القطبية وانبثاق النزعة العالم ثالثية وبروز المعادلة الاستيطانية العنصرية في فلسطين وجنوب أفريقيا.

ويلخص حلمي شعراوي خلفية الشراكة الاستراتيجية بين الفضاءين العربي والأفريقي في تلك الحقبة بعوامل ثلاثة أساسية هي :

1ـ انتقال فكرة الجامعة العربية من دائرة اندماج غائم لا هوية لها ارتبطت بالاستعمار البريطاني إلى حركة قومية وحدوية تتجه إلى دائرة التحرر الوطني الأفريقية والآسيوية والعالمية بوجه عام.

2 ـ تحول الجامعة الأفريقية في الاتجاه نفسه، بفضل الدور المحوري الذي غدت تؤديه دول ثورية محورية مثل غانا وغينيا ومالي بزعامة قيادات وطنية حريصة على تبني قضايا الجنوب العادلة وعلى الاندماج في حركة التحرر العالمية.

3 ـ تبلور الإطار الاستراتيجي للشراكة ...بين المجالين عبر مؤتمر باندونغ في أبريل 1955 الذي شاركت فيه 29 دولة أفريقية آسيوية، قبل أن يتحول بعد استكمال استقلال البلدان العربية والأفريقية إلى كتلة جيوسياسية لها تأثيرها الواسع في الرهان الدولي[8].

وبانطلاق الدينامية الآفرو آسيوية، تحولت الساحة العربية إلى مركز رئيسي للتنسيق العربي - الأفريقي، وبلغ التساند بين الكتلتين ذروته.

وشكل مؤتمرا عدم الانحياز المنعقدان في القاهرة (أكتوبر 1964) والجزائر (سبتمبر 1973) ومؤتمرا القمة الأفريقية المنعقدان بالقاهرة عام (1964) والرباط عام (1972)

محطات أساسية في هذه الشراكة التي تدعمت بعد حرب 1967 التي كانت البداية الفعلية لظهور موجة التعاطف الأفريقي مع القضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية، فتبلور ما دُعي أوانها "بمشروع" إعلان وبرنامج العمل بشأن التعاون العربي الأفريقي بتنسيق مشترك في جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية.

ففي حين كانت الدول الأفريقية (وعددها قليل جداً) تصوت في اجتماعات الأمم المتحدة ضد القضايا العربية أو تكتفي بالامتناع عن التصويت، أصبحت تعلن دعمها الواضح والصريح للجانب العربي في صراعه مع إسرائيل؛ وبعد حرب أكتوبر 1973، تحول التضامن العربي الأفريقي إلى حقيقة راسخة ملموسة، وقد عكست قرارات مؤتمر وزراء منظمة الوحدة الأفريقية المنعقد في أديس أبابا في نوفمبر 1973 هذا المنعرج الجذري فنصت على تأييد نضال الشعب الفلسطيني وعلى حق البلدان العربية في تحرير أراضيها المحتلة ونددت بالتحالف الإسرائيلي - الأمريكي وأكدت التواطؤ بين النظامين العنصريين في جنوبا أفريقيا وإسرائيل، وتوج الموقف بقطع جل الدول الأفريقية علاقاتها بالدولة الصهيونية[9] . وفي المقابل تبنت الدول العربية قضايا التحرر في أفريقيا وفي مقدمتها قضية التمييز العنصري في جنوب أفريقيا التي استحوذت على الاهتمام العربي منذ مطلع الستينيات؛ فربط مجلس الجامعة العربية بداية من عام 1964 بين التمييز العنصري في جنوب أفريقيا والاحتلال الصهيوني لفلسطين، وقد أكدت كل القمم العربية هذا الموقف المبدئي الداعي لقطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والثقافية والتجارية وغيرها مع جنوب أفريقيا وروديسيا وحظر تصدير البترول العربي إليهما، كما أقرت تقديم مختلف أوجه الدعم لحركة التحرر المناهضة للنظامين المذكورين.

وتجسدت هذه الشراكة في المجال الاقتصادي من خلال الاستثمارات العربية الواسعة في أفريقيا، خصوصا بعد الطفرة البترولية التي تلت حرب 1973، وأنشئت لهذا الغرض العديد من المؤسسات المالية والمصرفية، من أبرزها :

- الصندوق العربي لتقديم القروض للدول الأفريقية الذي أنشأه وزراء لدول العربية المصدرة للنفط عام 1974 من أجل تقديم القروض الميسرة بفائدة رمزية ومدة معقولة للدول الأفريقية.

-المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا الذي أقره مؤتمر القمة العربي السادس المنعقد بالجزائر في نوفمبر 1973، ويسعى إلى توثيق العلاقات العربية الأفريقية ودعم جهود النمو في الدول الأفريقية.

وفي دراسة للمصرف العربي للتنمية الاقتصادية في غرب أفريقيا تعود لسنة 1977 تم حصر 25 هيئة عربية تقدم العون والاستثمارات في أفريقيا من بينها صناديق التنمية الخليجية والصندوق العراقي للتنمية الخارجية والبنك العربي الليبي الخارجي.

وبلغ حجم العون العربي الأفريقي ( من مساعدات وقروض ميسرة) خلال أربع سنوات (1973-1977) مستوى يقدر بـ 4 بليون دولار، مما يعكس الطابع المميز للعلاقات بين المجالين في تلك الحقبة[10].

إن ما نريد أن نستخلصه من هذه المعطيات هو أن العلاقات العربية - الأفريقية انتظمتها في هذه الحقبة الممتدة من نهاية الخمسينيات إلى نهاية الحرب الباردة ثلاث دوائر استراتيجية تتشابك في الغالب هي :

-دائرة حركات التحرر التي جمعت بين تيارات المقاومة والكفاح ضد الاستعمار في المجالين، مكان التنسيق بين هذه الحركات، التي نجحت في تصفية الاحتلال الأجنبي، وشكلت الثورة الجزائرية في هذا السياق بؤرة اهتمام مشترك وتجربة نموذجية كان لها الأثر الفاعل في الساحة الأفريقية.وبالنظر لتشابه مسارى الاستيطان العنصري في فلسطين وجنوب أفريقيا، فقد شكل تماثل المسارين أرضية صلبة لتحالف استراتيجي وثيق بين الكتلتين العربية والأفريقية، كانت نتائجه متميزة ومفيدة في المنتديات الدولية، ومكن من إحكام العزلة على الدولتين المحتلتين.

- دائرة عدم الانحياز : التي أسهم في تشكيلها العرب والأفارقة، ومثلت الكتلتان محور الدائرة التي أرادت أن تكون صوت العالم الثالث في مرحلة الصراع القطبي بين المعسكرين الرأسمالي الغربي والاشتراكي الشرقي.

- الدائرة الإقليمية الإسلامية التي برزت في نهاية الستينيات، وشارك في تأسيسها العديد من البلدان الأفريقية إلى جانب جميع الأقطار العربية.وعلى الرغم من الطابع الديني لهذه الدائرة، إلا أنها استطاعت استيعاب جل الأقطار الأفريقية بما فيها تلك التي لاتضم سوى أقليات مسلمة.

بيد أن هذه الشراكة الاستراتيجية ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية قد تقلصت إلى حد بعيد في العقدين الأخيرين لجملة أسباب، منها ما يعود إلى تحول المعادلة الاستراتيجية العالمية، ومنها ما يتصل بالأوضاع الداخلية والإقليمية في المجالين.

فلقد ترتب على دخول العرب مسار التسوية السلمية مع إسرائيل والذي تزامن مع تصفية نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا انتهاء تلازم المسارين الفلسطيني والجنوب أفريقي الذي شكل إطاراً أساسيا من أطر التنسيق السياسي العربي - الأفريقي، كما عادت إسرائيل إلى الساحة الأفريقية بقوة، وغدت حليفا أساسيا للعديد من البلدان، حتى ولو كان التضامن الأفريقي مع القضية الفلسطينية لا يزال قويا.

كما أن تغير المعادلة الاستراتيجية قد أثر سلبيا على كتلة عدم الانحياز التي غدت ضائعة الهوية / محدودة الدور، وهشة الحضور على مستوى الرهانات الدولية، فاستنفدت أغراضها بعد نهاية الحرب الباردة، ومسها التفكك والضياع، وبذا انحسرت دائرة أساسية من دوائر التكامل العربي - الأفريقي.

ومع أن الكتلة الإسلامية لا تزال قائمة في إطارها المؤسسي، إلا أن الوهن الذي مس العلاقات العربية - الأفريقية قد انعكس سلبيا على التنسيق بين الجانبين تحت المظلة الإسلامية.

ولاشك أن هذه الوضعية هي التي تفسر الغياب العربي غير المسؤول عن الساحة الأفريقية، التي عرفت خلال العقدين الماضيين أزمات داخلية حادة عصفت بالعديد من الكيانات الوطنية، وخلفت فتنا أهلية وصراعات إثنية وإقليمية عصفت باستقرار وأمن المنطقة الأفريقية في مجملها، في الوقت الذي تقلص الدعم الاقتصادي للبلدان الأفريقية ووصل حدا مقلقاً.

ولقد شهدت المنطقة العربية في هذه المرحلة بروز مشاريع إقليمية بديلة عن الشراكة العربية - الأفريقية أبرزها المشروعان الشرق أوسطي والمتوسطي، اللذان ارتبطا بمسار التسوية السلمية للصراع العربي - الصهيوني، في الآن نفسه الذي بدأت الكتلة الأفريقية المفككة والباحثة عن نقطة ارتباط ولو هشة بالنظام الدولي الجديد، مع ظهور بوادر تنافس أمريكي - فرنسي على المنطقة البترولية والمعدنية الأفريقية.

**آفاق الشراكة العربية - الأفريقية : من أجل باندونج جديدة :**

يكثر هذه الأيام الحديث في الدوائر العربية والأفريقية حول إصلاح وإعادة بناء النظامين الإقليميين العربي والأفريقي - مع الاعتراف الضمني بانتكاسة هذين النظامين وانحسار زخم المشروعين اللذين قاما عليهما.

ففي السياق العربي شاع شعور جارف بعد الهزائم المتتالية ( حرب 1967 لأ حصار بيروت 1982 - حرب الخليج 1991) أن النظام العربي قد أخفق في تحقيق أهدافه، سواء في شكل العلاقات العربية البينية أو في شكل مؤسساته السياسية والمتخصصة (جامعة الدول العربية )[11].

وقد قدمت العديد من الحكومات العربية مشاريع ومقترحات لإعادة تفعيل النظام الإقليمي العربي بعد حرب العراق الأخيرة التي كشفت نقاط الوهنْ في هذا النظام. كما برزت ديناميكية فكرية واسعة لتجديد المشروع القومي العربي وإعادة بناء مقولاته ومفاهيمه ومسالكه السياسية في اتجاه مقاربة جديدة للوحدة القومية المنشودة تستوعب المعطى الوطني الفكري في أطراندماجية مرنة، ووفق حقائق ومقتضيات التكامل الاقتصادي والاستراتيجي في عالم يشهد قيام تكتلات إقليمية متعددة.

أما المشروع الاندماجي الأفريقي الذي انطلق عام 1963، فقد عانى منذ البداية من نقاط ضعف رئيسية، من أبرزها نقاط التصدع التي تفصل الأطراف الأفريقية ( بين الأفارقة العرب والأفارقة السود، بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالإنجليزية، بين الثوريين الراديكاليين والموالين للقوى الغربية).

ولقد عانى المشروع كثيرا من انعدام الاستقرار السياسي في أفريقيا من جراء الانقلابات العسكرية المتتالية التي عصفت بأغلب بلدان القارة السوداء، والصراعات الإقليمية والداخلية الحادة التي قوضت التوازنات الجيوسياسية في القارة.

وعلى الرغم من أن اجتماعات منظمة الوحدة الأفريقية على مستوى القمة السنوية والاجتماعات الوزارية المتخصصة قد تتالت بانتظام -إلا أنه بدا من البين أن المنظمة وقد أخفقت في بلوغ الحد الأدنى من أهدافها، أحرى أن تخفف حلم " يقظة العملاق الأفريقي" حسب العبارة التي أطلقها الإمبراطور الأثيوبي هيلاسي لاسي خلال انعقاد القمة التأسيسية في أديس أبابا في مايو 1963.

فلم يتمكن من الحيلولة دون إحداث التصفية العرقية والإبادة الجماعية التي عرفتها بلدان مثل رواندا وبروندي، ولم تتمكن من انتشال بلدان تفككت وغرقت في الفوضى كما هو الحال في الصومال وسيراليون، ولم تنجح في حل المعضلة التنموية وإشكالات الفقر في بلدان هي الأقل نموا في العالم . ولذا ظهرت منذ نهاية التسعينيات مبادرات متتالية لإعادة بناء المشروع الأفريقي وإصلاح هياكله المؤسسية، في مرحلة شهدت بلدان القارة بعض التحولات النوعية من أبرزها انتقال الكثير منها نحو أشكال متفاوتة من الديمقراطية التعددية.

وقد توجت هذه المبادرات الإصلاحية بإعلان قمة سرت الليبية في 9 سبتمبر 1999 الذي تبنى فكرة الاتحاد الأفريقي بديلاً عن المنظمة المتآكلة.

ومن الواضح أن فكرة الاتحاد مستوحاة من الاتحاد الأوروبي. وتقوم على آليات مؤسسة شبيهة بآلياته من هيئة برلمانية ولجنة للاتحاد ومجالس وزارية متخصصة.

وليس من همنا في هذا السياق تقويم المراحل من هذا المشروع الذي بدأ طموحا، ومن الواضح أن زخمه قد تقلص إلى حد بعيد[12]، وإنما حسبنا الإثارة إلى أن نجاح الاتحاد الأفريقي مرهون بعدة شروط ومقتضيات لعل أهمها :

-التوصل إلى الحد الأدنى من التوافق في النماذج السياسية والتنموية في بلدان شديدة الاختلاف والتمايز.

-حل النزاعات والصراعات الحدودية والإقليمية، المتبقية والكثيفة التي تشل أي مشروع وحدوي اندماجي.

-التوصل إلى صيغة توافق استراتيجي حول منزلة النظام الإقليمي الأفريقي في التركيبة الدولية الجديدة شديدة التعقيد والسيولة - في هذا السياق، يبدو لنا من الضروري إحياء مبادرة الشراكة الأفريقية - الآسيوية من منطلقات وخلفيات جديدة .

ومن المعروف أن ديناميكية باندونغ استطاعت في مرحلة الحرب الباردة تحقيق مجموعة من المكاسب أبرزها : استكمال حركية الاستقلال بدعم نضال حركات التحرر الوطني والعمل على تصفية الظاهرةالاستعمارية، تصحيح موازين العلاقات الدولية ورفض آلية الاستقطاب وتكريس حضور العالم الثالث في النظم والمؤسسات الدولية وخصوصا هيئة الأمم المتحدة، تنسيق الجهود المشتركة من أجل تحديث المجتمعات الجنوبية ودفعها عن طريق التنمية المستقلة بفك الارتباط مع القوى المهيمنة المستغلة.

ولئن كان المشروع أخفق في جوانبه التنموية ومطامحه التحديثية والاندماجية، إلا أنه نجح دون شك في أهدافه السياسية والاستراتيجية، فكان قوة دافعة لحركات الاستقلال والتحرر، وإطاراً فاعلاً لفرض صوت الجنوب وإسماعه في المنتديات العالمية.

ولئن كانت بلدان كتلة عدم الانحياز حاولت في العقد الأخير، الذي تلا نهاية الحرب الباردة،الحفاظ على شكلها المؤسسي ومركزها الاستراتيجي، إلا أنها عجزت بوضوح عن تجديد رسالتها واستعادة زخمها الأصلي.

وفي حين دفع بعض هذه البلدان ثمن التحول غالياً، فانتهى به الحال إلى التفكك والحرب الأهلية، كما هو شأن يوغسلافيا وإلى حد أقل أندونيسيا ( وهما رائدتا المجموعة) فضلا عن بلدان أفريقية وآسيوية عدة، فإن البعض الآخر انساق وراء فكرة " المجموعة الدولية المتحدة" أو " النظام الدولي الجديد" قبل أن يكتشف زيفها وعمقها، في حين تمسكت بعض البلدان الخارجة على " الشرعية" الجديدة بغنائية الرفض ومقاومة " الاستعمار الجديد" والإمبريالية، ومثالها كوبا، وظهرت مبادرات محتشمة لتفعيل حركة عدم الانحياز من منطلقات جديدة لم تحقق بعد نتائج عينية تذكر.

الواقع أن كتلة عدم الانحياز لم تستطع بعد استعادة زمام المبادرة والخروج من حالة الضياع التي تلت انحسار التركيبة الدولية السابقة، ووجدت نفسها منساقة قبولا، أو اضطراراً إلى الاندماج ولو من مواقع خلفية وهامشية في ديناميكية العولمة من منظور القوى المتحكمة في الاقتصاد العالمي (مجموعة السبع الاقتصادية). وفي الوقت الذي يتزايد فيه نشاط واحتجاج حركية المجتمع المدني المناهضة لعولمة النهج الرأسمالي الأمريكي بما تفضي إليه من استغلال العالم الجنوبي المنكوب في ظل موازين مختلفة وجائرة، تحتاج كتلة عدم الانحياز إلى تجديد رسالتها وتفعيل آليات اشتغالها في مواجهة اتجاه القولبة الأحادية للمنظومة الدولية.

إن رسالة كتلة عدم الانحياز وفق هذه التحديات، تتمثل في مهام ثلاث أساسية - نراها الرهان الاستراتيجي الأبرز للمجموعة الأفروآسيوية في المنظور القريب - :

**أولاها :** العمل على تصحيح موازين العلاقات الاقتصادية، لا من منطلق الشعارات الاحتجاجية اليسارية السابقة (فك الارتباط، والتنمية المتمحورة حول الذات)، وإنما بتحويل المؤسسات الاقتصادية والنقدية الدولية إلى أطر تشاورية وتشاركية فعلية لإدارة سوق عالمية غدت موحدة ولاسبيل للخروج عليها.

**ثانيتها :** رفع شعار التعددية الثقافية في مواجهة القولبة الأيديولوجية الأحادية، أي الإسهام في الحوار الواسع الثري حول المضامين الحضارية والفكرية لديناميكية

العولمة، التي لا تفرض بنفسها مخزونا حضارياً أو أيديولوجيا على عكس الصورة السائدة، دون الانغلاق في التعددية الإطلاقية العاجزة عن التواصل مع الآخر، إذ المقصود هو التوصل لقيم كونية مشتركة بديلة من الكونية المفروضة حالياً.

**ثالثها** : دفع الديناميكية التكتلية والاندماجية لبلدان الجنوب، وتشجيع خطاب الإقليمية الناشئة، لتدعيم الموقع التفاوضي لمجموعة عدم الانحياز في النظام الدولي ومؤسساته السياسية والتنموية.

إن ما نريد أن نخلص إليه، هو أن الإطار الاستراتيجي المستقبلي لتكتل عربي أفريقي ناجع هو إحياء مشروع باندونغ الذي نراه الاستجابة الضرورية للتحديات الجسيمة التي تواجهها الكتلتان في الواقع الدولي الراهن.

## المراجع :

1 ـ راجع عبد الرحمن الكواكبي: "أم القرى"، دار الرائد العربي ، بيروت 1982.

2 ـ راجع: ساطع الحصري: الأعمال القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990.

3 ـ حول الأحزاب والتنظيمات القومية راجع :

ـ محمد جمال باروت : حركة القوميين العرب: النشأة، التطور، المصائر المركز العربي للدراسات الاستراتيجية والعسكرية، دمشق، 1997.

ـ يوسف الشويري : القومية العربية: الأمة والدولة في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2002.

4 ـ راجع حول دور هذه الرموز المؤسسية :

Oruno D.Lara, naissance du Panafricanisme : Les racines caraibes, Americans et Africaines du mouvement au xix siecle Misonneuve, paris.

5 ـ راجع :

Senghor : liberte 3, negriu de et civilization de universal, le suel, paris

6 ـ راجع

Mwayile Tsinyambe : de messianisme aux reives de la mondialization : difficil question d'union africain - le monde diplomatique juillet 2002 (Pr : 22-23).

7 ـ جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ...

8 ـ راجع حلمي شعراوي : العرب والأفريقيون :وجها لوجه، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، (د.ت)، ص 38 - 39 .

9 ـ راجع : محمود خير عيسى وآخرون : العلاقات العربية - الأفريقية : دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة، ( 281 - 438).

10 ـ راجع : حلمي شعراوي : المرجع السابق ذكره ( ص 22 - 29)

11 ـ حول تجربة النظام الإقليمي العربي راجع الكتاب المتميز الذي ألفه علي الدين هلال وجميل مطر:

-النظام الإقليمي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط 3، 1983.

## الكلمة الختامية للسيد الوزير

السيد الرئيس
أصحاب المعالي
السيدات والسادة

أود في البداية أن أعبر لكم عن أسفي، لأنني لم أتمكن من متابعة أشغال هذه الندوة، وسأقوم بذلك بشكل بعدي عند استمتاعي بقراءة البحوث التي قدمت في هذه الندوة، واطلاعي على المناقشات الغنية بدون شك كما فهمت من التلخيص الذكي والجيد للأستاذ حلمي شعراوي.

أؤكد كذلك أن أتوجه بالشكر الجزيل لأصحاب المعالي السادة الوزراء، السيد وزير التهذيب الوطني في الجمهورية الوريتانية والسيد وزير الثقافة في الجمهورية السودانية الشقيقة، والسيد وزير الثقافة لبوركينافاسو الذي غادرنا أمس، والسيد ممثل وزيرة الثقافة في السينغال.

وأود كذلك أن أتوجه بشكر خاص للأستاذ المختار مبو لأن شخصيته الفذة واستجابته لهذه الدعوة يشكلان منّة في عنقنا نحن المغاربة الذين نعرفه ونعزه، وأود كذلك أن أتوجه بالشكر لكل السادة الباحثين الذين استجابوا لدعوتنا وساهموا مساهمة فعالة في هذه الندوة.

ومرة أخرى أؤكد أن الفكرة الأساسية التي كانت وراء الدعوة إلى هذا اللقاء هي مزيد من العمل المشترك بين المثقفين، لإثارة الانتباه إلى أننا اليوم وفي ظل الهيمنة الكبرى للصناعات الثقافية العالية، وفي ظل المناخ الدولي الحالي، لا خيار لنا سوى أن نرجع إلى جذورنا، وأن نتمسك بها، وأن نبني بها وحولها قوة جديدة، قوة مبنية على التضامن، وعلى التعاون، وعلى

احترام تعددنا واختلافنا، وعلى إعطاء ما تطمح إليه شعوبنا من حاجيات يومية وأيضاً مرجعيات ثقافية، أن نعطي كل ذلك الأهمية التي تستحق على مستوى القرار السياسي، وعلى مستوى العمل الإعلامي والثقافي الذي نقوم به جميعاً في مجتمعاتنا.

أردنا نقط من خلال هذه االندوة رغم أن واواً اندست بين عالينا، نريد مع ذلك أن نقول إن العرب الأفارقة يجب ألا يضيعوا خطهم الأفريقي، هناك خط افريقي لدى العرب الأفارقة ربما أضاعوه خلال مراحل تاريخية، عليهم ألا يضيعوه اليوم في مطلع هذه الألفية، لأنه أحد نقط قوتهم الأساسية، وأردنا أن نقول كذلك إن القارة الإفريقية غنية بتعددها وغنية بثقافاتها وتاريخها ولغاتها وآدابها وفنونها، ولكنها أيضاً غنية بهذه الحضارة الكبيرة، الحضارة العربية الإسلامية التي هي كما استمعنا الى ذلك بشكل واضح من السيد وزير الثقافة بالسودان الشقيق، هذه الثقافة العربية هي بالأساس ثقافة إفريقية؛ وبدون شك، فإننا لا نستطيع في هذه الندوة أن نرسم كل المخططات التي يمكن أن تعيد إلينا هذا الخط الافريقي، فهذا عمل كبير يجب أن تقوم به المؤسسات السياسية والمؤسسات المدنية على مدى متوسط وبعيد لكننا نثق ثقة كبيرة في أن المثقفين يستطيعون أن يزنوا بثقل كبير في ميزان السياسات المحلية، ومن الممكن أن يؤثروا على مسارات التفكير في مجتمعاتنا، ومن الممكن أن يبتكروا أفكاراً جديدة للعمل المشترك بين مكونات القارة الإفريقية، وربما ستكون هذه الندوة الأولى منطلقاً لبحث أكثر قرباً من الميدان في اللقاءات المقبلة، وربما كان ضرورياً في هذا اللقاء الأول أن نبقى في الأفكار العامة وفي المبادىء؛ لقد أدركنا من هذه الندوة أننا متفقون إلى حد بعيد على الأهداف والمبادىء العامة، لكن في المرات المقبلة سيكون من الأفيد أن نتجه الى قضايا محددة تكون موضوع دراساتنا ونقاشاتنا، حتى نستطيع من خلالها أن نبلور أفكاراً قابلة للتنفيذ على المستوى السياسي؛ فمجالات مثل الترجمة وحرية انتقال المنتوج الثقافي وبناء صناعات ثقافية إفريقية، والدفاع عن لغاتنا المحلية، وإعادة الاعتبار إلى ثقافاتنا الشفوية، وبناء جسور التعاون في

الميدان الفلاحي والتجاري والصناعي بين الأقطار الإفريقية عربية كانت أم غير عربية، كل هذا يقتضي إقامة ندوات محددة ومركزة على بعض المواضيع، من أجل أن نصل إلى استخلاص التوصيات الضرورية لتنير الطريق للمقررين السياسيين بصفة عامة.

أقدر شخصياً أن هناك اليوم مناخاً إيجابياً في العلاقات العربية والإفريقية، مناخاً إيجابياً بمعنى لم نعد سجناء لأنواع من الصراعات الأيديولوجية أو الجانبية. وبعد مآسي كثيرة عشناها في قارتنا مثل مآسي الحروب الأهلية والتوترات الإثنية، ومثل مآسي الأمراض المتفشية، والأمية ونقص التغذية وغير ذلك من الفواجع التي عرفتها إفريقيا أصبح التعاون والحوار اليوم ممكنين.

أظن أن هناك نوعاً من الواقعية بدأ يسيطر في الأذهان اليوم وخصوصاً لدى النخب السياسية في مختلف البلدان، وهناك ميل إلى التفاوض والتعاون والبحث عن الوسطية والاعتدال والتسامح، يجب أن نستغل هذا التحول لصالح المجال الثقافي ولصالح بناء جسور جديدة بين دولنا وبين أبناء هذه القارة.

وفي الأخير اسمحوا لي مرة أخرى أن أشكركم جميعاً وأن أعرب لكم عن اعتزاز المغرب ملكاً وحكومة وشعباً بقارتنا وبقوة قراراتنا وقوتها التاريخية، وقوتها المستقبلية، واعتزازنا بكم جميعاً وأتمنى أن يكون لقاء الخرطوم الذي دعانا إليه صديقنا معالي الوزير، خطوة ولبنة ثانية في هذا البناء الذي نريده أن يستمر، وأن يشكل منبراً للحوار والتبادل، وربما أيضاً نقطة تأثير في المجالات السياسية بصفة عامة، وأتمنى لكم بقية مقام طيب في المغرب وعودة سالمة إلى بلدانكم، وإن شاء الله ستصلكم إلى عناوينكم أعمال الندوة بعد نشرها.

44. Aujourd'hui, on compte plus d'une dizaine de Négro-africains qui pratiquent l'écriture hiéroglyphique et accèdent, sans intermédiaire, aux corpus des fouilles archéologiques menées en Egypte, au Soudan et Sahara subnilotique. Lorsqu'en 1974 se tenait le colloque du Caire sur « Le peuplement de l'Egypte ancienne et le déchiffrement de l'écriture méroitique, seuls Cheikh Anta Diop et Théophile Obenga avaient de telles capacités.
45. Pathé Diagne (cf., Bakary II 51312) et Christophe Colomb (1492) à la rencontre de l'Amérique, Dakar, SANKORE, 1992 ; Cheikh Anta Diop et l'Afrique dans l'histoire du monde, Paris, L'harmattan, 1997) développe une perspective similaire mais privilégie le sahara bovidien et l'Afrique de l'Ouest.
46. Diop C.A., African origin of civilisation, traduction de Mercer Cook, New York, Laurence Hill et Compagny, 1974, p.12.
47. En affirmant que l'idée selon laquelle les Africains doivent assumer leur autonomie scientifique et apprendre à se passer de l'approbation de l'autre (SALL B., « Histoire et conscience historique. De la philosophie de l'histoire dans l'œuvre de C.A.Diop », Afrique-développement, Dakar, CODESRIA, 1988, volume XIII, n°4, p.111 ; Diop C.A., Préface de OBENGA TH., L'Afrique dans l'antiquité, Paris, Présence africaine, 1973) est une démarche de « ghettoisation », Alain Froment (« Origine et évolution de l'homme dans la pensée de Cheikh Anta Diop : une analyse critique », in, Cahiers d'Etudes africaines, N°121-122, 1991, p.29-64) semble n'avoir rien compris.

32. Nous rappelons que les professeurs Günter Bräuer et Hartwig Altenmüller, ont, non seulement publié des textes dans ANKH, mais ont aussi participé en 1996 au colloque international de Dakar sur « L'œuvre de Cheikh Anta Diop : La renaissance de l'Afrique au seuil du troisième millénaire », Dakar-caytu, 26 Février-2 mars 1996.
33. Harding L. et Reinwald B., Afrika-Muller und Modell der europäischen Zivilisation. Die rehabilitierung des Schwarzen Kontinents durch Cheikh Anta Diop, Berlin, D. Reimer Verlag, 1990.
34. Nous avons montré plus haut que la thèse d'une Egypte située en occident, peuplée dans l'antiquité par des Caucasoïdes et ou des sémites est une falsification volontaire, délibérée de l'histoire en relation avec les intérêts du capitalisme, du triomphe de l'impérialisme au début du 20° siècle dernier.
35. Les « Histoire générale de l'Afrique » n'ont-ils pas été écrites par des administrateurs coloniaux ? L'histoire de l'orient arabo-musulman ne porte-t-elle pas les stigmates de l'esprit revanchard des croisades ?
36. Nous laissons aux historiens occidentaux qui semblent mener des combats d'arrière-garde, d'inventer un Afrocentrisme pour pouvoir se défouler, se donner l'illusion de faire œuvre utile (Les Afrocentrismes., op.cit , cf., Note 29)
37. Agossou-koovi P., le problème des sources du Nil dans l'antiquité, Thèse de Doctorat de 3° cycle, Dakar, 1978, p.73 et 79.
38. Diop C.A., « Philosophie, Science et Religion. Les crises majeures de la Philosophie contemporaine », in, Revue sénégalaise de Philosophie, N°5-6, 1984.
39. La dissertation historique en Afrique, Dakar et Paris, 1980
40. BRAUER G., « L'Origine africaine des hommes modernes », ANKH, 3, 1994, p.133-151 ; Diop C.A., « Histoire primitive de l'humanité. Evolution du monde noir », in, Présence africaine, 51, 1964, p.2-13 ; Id, « Origine des anciens Egyptiens », in, Mokhtar G. (dir), HGA, II : Afrique ancienne, 1980, p.39.
41. Obenga th., Africa, the cradle of writing. « L'hématome du rocher », in, ANKH, VIII-IX, 1999-2000, p.87-101.
42. SALL B., « L'avènement des candaces », in, ANKH, III, 1994 , p.69-81.
43. C'est dans cette perspective que le colloque de Dakar de 1996, à l'occasion du 10° anniversaire de la disparition de Cheikh Anta Diop était axé sur « La Renaissance de l'Afrique au seuil du 3° millénaire »

21. CF. ANKH, III, 1994, p.29-50; IV-V, 1995-1996, P.139-183; VI-VII, 1997-1998, P.9-53; VIII-IX, 1999-2000, P.183-187. les textes de Jean Pierre Bamouan Boyala (ANKH, III, 1994 , III, P.51-67) et de Mouhamadou N.SARR (ANKH, VIII-IX, 1999-2000, p.73-85) développent les mêmes perspectives à savoir décrire, reconstituer et expliquer les choix culturels des Nilotiques en restant dans la vallée du Nil.
22. cf., Günter Bräuer, « L'origine africaine des hommes modernes », ANKH, III, 1994 , p.133-151 ; Altenmüller H., « Le Maître du tombeau en tant que Horus fils d'Osiris », in, ANKH, IV-V, 1995-1996, p.185-213 ; Wendorf F., « Nabta Playa during the early and middle Holocence », in, ANKH, IV-V, 1995-1996, p.33-35 ; Williams B., « A prospectus for exploring the historical essence of ancient Nubia », in, ANKH, VI-VII, 1997-1998, p.91-119
23. SALL B., « Des influences éthiopiennes sur l'Europe méridionale », in, ANKH, I, 1992 , p.41-50
24. OBENGA TH., ANKH, III, 1994, P.29-49; IV-V, 1995-1996, P.139-183; VI-VII, 1997-1998, p.9-53, VIII-IX, 1999-2000, p.87-101
25. En France, ANKH, exposée au Musée du Louvre, est présente dans les rayons du cabinet d'Egyptologie du collège de France.
26. Se reporter au Site Web ANKH, http:/www.ankhonline.com ou à khepera, B.P.11, 91192 Gif-sur-yvette, cedex-France.
27. Dakar, (Nouvelles éditions africaines) et Paris (Présence africaine), 1980
28. Le colloque du Caire (28 janvier-3 février 1974) a marqué la fin de la banalisation des dites thèses (cf., SALL B., « Civilisation ou Barbarie : la fin d'un débat », in Afrique-histoire, N°5, Mai, 1982, p.28-31
29. cf., entre autres François-Xavier Fauvelles, L'Afrique de Cheikh Anta Diop, Paris, Karthala, 1996 ; Bidima J-G., La philosophie négro-africaine, Paris, P.U.F, 1995 ; Fauvelle-Aymar F-X, Chrétien J-P. et PERROT C-H., Afrocentrismes. L'histoire des Africains en Egypte et Amérique, Paris, Karthala , 2001. La hargne qui caractérise ces textes, où iconoclasme et haine se confondent, semble traduire un fait. C'est qu'un spectre hante certains milieux africanistes français particulièrement, c'est celui de l'irruption de chercheurs africains dans les domaines réservés (Préhistoire et antiquité) et la prise en charge des thèses de C. Anta Diop.
30. L.Bernal M., Black Athena. The Afro-asiatic roots of classical civilization, I, 1987; II, 1991
31. Lefkowitz M., Not out of Africa. How Afrocentrism became an Excuse to teach myth as History, Harper Collins Publishers INC., 1996

TH., « Nubia and its relationship with Egypt (1780-700 B.C) », in Dani A.H. et Mohen J-P. (editors), History of humanity. Volume II; From the third millennium to the seventh century B.C., Paris, UNESCO, 1996, p.299-319 et p.138-144 respectivement.

15. Cette perspective revient dans les textes de A.M.LAM (cf., ANKH, II, 1993, p.15-27 ; III, 1994, p.115-131 ; IV-V, 1995-1996, p.123-136 ; VI-VII, 1997-1998, p.55-72)
16. A propos des faits de langue et d'écriture (graphisme) on se reportera aux études de J-C.GOMEZ (ANKH, I, 1992, p.59-78 ; III, 1994, p.83-113) de G.NGOM (ANKH, II, 1993, p.29-83 ; IV-V, 1995-196, p.93-121 ; VI-VII, 1997-1998, p.75-89), de OUM NDIGI (cf., ANKH, II, 1993 , P.85-123 ; VI-VII, 1997-1998, p.281-283).
17. Le thème « Egypte ancienne-Afrique noire », développé de manière irrégulière mais récurrente avant les travaux de C.A.Diop et de Th.OBENGA, est devenu un axe prioritaire de recherche. Le milieu scientifique semble avoir compris que « Les systèmes heliopolitain et hermopolitain... présentent des éléments tirés du substrat profond de la civilisation, dont certains ont des résonances dans les civilisations africaines » (GRIMAL N., Histoire de l'Egypte ancienne, Paris, Fayard, 1988, p.57)
18. Zayed Abd el Hamid, « Relations de l'Egypte avec le reste de l'Afrique », in, MOKHTAR G.(dir), Histoire générale de l'Afrique, volume II : Afrique ancienne, Paris, J.A./ Stock / UNESCO, 1980, p.140.
19. Actes du colloque du Caire (28 janvier-3 février 1974) sur « Le peuplement de l'Egypte ancienne et le déchiffrement du Méroitique », in, Mokhtar G. (dir), HGA,II : Afrique ancienne, 1980, p.795-822.
20. Ce caractère d'histoire totale en même temps qu'elle rétablit la centralisé de l'Afrique, particulièrement durant la Préhistoire et l'antiquité (c'est là que se jouent l'eurocentrisme, l'Africanisme et la perspective africaine d'Histoire (Cf., Redford D.B. (editor in chief), The oxford encyclopedia of anicent Egypt, Oxford, 2001, volume I, s.v. Afrocentrism, (p.29-32) qui essaie de cerner l'autonomie dans le choix des voies et moyens par lesquels les Négro-africains ont assuré leurs productions et reproductions sociales (cf ; Diop-Maes L.M., « Evolution de la population de l'Afrique noire du Néolithique au milieu du 20° siècle », in, ANKH, IV-V, 1995-1996, p.279-303 ; Id., « Apport des dotations phisico-chimiques à la connaissance du passé de l'Afrique », in, ANKH, VIII-IX, 1999-2000, p.145-181 ; Bocoun H. et Fluzin Ph., « Réduction et traitement du fer à SINCU-BARA » , in, ANKH, WIII-IX, 1999-2000, p.129-143.

ancien était une langue sémétique alors qu'en France, on persistait dans la thèse sans fondement selon laquelle les anciens Egyptiens étaient des Causasoïdes (Naville E., «Origine des Anciens Egyptiens », in, Revue de l'Histoire des religions, 1905, p.1-24)

8. Le Dictionnaire Le Robert 1 (1989) ne répertorie pas les termes chamites et hamites. Sous le mot composé Chamito-sémétique, ou lit « Famille de langues à laquelle appartiennent l'hébreu, l'Egyptien [ancien], le Phénicien, l'arabe, le Berbère et les « couchitiques » [sic] (Afrique orientale). Sous le mot Hamites ou Chamites, Le Robert 2 écrit « Populations du Nord de l'Afrique orientale. De peau sombre, ils [sont] différent des peuples voisins par des particularités physiques (cheveux lisses), linguistiques et culturelles; pasteurs nomades utilisant le chameau [depuis quand] et construisant en pierre [depuis quand]. Les somaliens et les Gallas en font partie.

   On le voit bien, le terme n'a pas de contenu. S'il désigne, une famille de langues parlées par des populations d'Afrique et d'Asie, il ne peut pas en même temps désigner des populations ne vivant qu'en Afrique orientale. Le comble de la confusion réside dans l'identification anthropologique d'un groupe en recourant à certaines de ses activités au mépris de toute profondeur historique.
9. MAUNY R., Les siècles obscurs de l'Afrique noire, Paris, Fayard, 1970
10. Cette fonctionnalité du discours historique n'a rien à voir avec le fonctionnalisme de l'ethnologie (cf., Poirier J., Histoire de l'ethnologie, Paris, P.U.F, 1974, p.47)
11. SALL B., « Histoire et conscience historique : de la philosophie de l'histoire dans l'œuvre de Cheikh Anta Diop », in, Afrique et Développement, DAKAR , CODESRIA, volume XIII, n°4, 1988, p.109.
12. Les lignes directrices de ANKH se retrouvent en partie dans Cahiers caribéens d'Egyptologie et Journal of African civilisation. La différence de tonalité s'expliquerait entre autres, par le degré de déracinement, des conditions d'existence et des enjeux qui constituent le vivier des problématiques et orientations.
13. OBENGA TH., in, ANKH, I, 1992, p.51-58
14. BILOLO M., in, ANKH, 6-7, 1997-1998, p.139-161; OBENGA TH., ANKH, II, 1993, p.9-18.

    On lira à ce propos L.M.Diop - MAES, A.M.LAM, TH.OBENGA, D.W.Phillipson- et B.SALL, «Africa, excluding the Nile Valley » et OBENGA

## CONCLUSION

L'initiative ANKH se situe dans une logique : passer du discours anti-eurocentriste aux actes en développant une nouvelle approche heuristique de l'histoire de l'Afrique et du monde. Elle s'approprie la fonctionnalité du discours historique et la met au service de l'Afrique. Reprenant et approfondissant la perspective dégagée par feu Cheikh Anta Diop, elle véhicule un discours scientifique orienté vers la restauration et la consolidation de la conscience historique africaine. Si l'histoire sert à structurer le temps, à former le jugement en mettant en évidence la variabilité des faits humains à travers le temps et l'espace, elle n'est cependant pas seulement un humanisme. Instrument et arme, l'histoire sert à déconstruire les discours, à désaliéner, à libérer. Tel est le sens de la revue ANKH, une initiative africaine et africaine américaine d'abord (et pas seulement) pour relever le défi de la production du discours scientifique.

## NOTES (I)

1. Hegel G.W.F, La raison dans l'histoire. Introduction à la philosophie de l'histoire, traduction de Kostas Papaioannou, Paris, Plon, 1965, p.245 et 247.
2. Id., Ibid., p.269
3. Hegel s'est fondé sur des rapports de missionnaires, d'explorateurs et de ceux qu'on a appelé les éthnologues dont Karl Ritter (1779-1859), auteur d'une Géographie universelle (Die Erdkunde im verhaltnistzur Natur und Geschichte des menschen) qu'il cite expressément (Id, Ibid., p.250)
4. Montesquieu (Charles de secondat), L'Esprit des Lois, 1742
5. Jean VERCOUTTER, Jean LECLANT, Franck SNOWDEN et Jehan DESANGES (cf., L'image du Noir dans l'art occidental, Fribourg, Menil Fondation, 1976) ont tenté, contre le bon sens, contre toute logique et contre la simple observation, de faire commencer l'art occidental en Egypte.
6. Junker H., « First appearance of Negroes in History », in, J.E.A., VII, 1921, P.121-132.
7. Ibidem. Malgré les pertinentes mises en garde de A. Gardiner (Ancient Egyptian onomastica, 1947), les Egyptologues de Berlin avaient décrété que l'Egyptien

donner plus de profondeur aux études des sociétés africaines. Il s'agit de retrouver la dynamique endogène de l'évolution desdites sociétés pour impulser une orientation conforme à cette dynamique. L'Africanisme a théorisé et vulgarisé une Afrique désincarnée. On a parlé des « 50 Afriques » et de 800 langues africaines. On a parlé de structures tribales et ethniques, de sociétés acéphales et d'anarchie organisée. Tout ceci n'est que vanité, ignorance et idéologie. En réintégrant l'Egypte antique dans son giron négro-africain, en érigeant les civilisations pharaoniques en antiquités négro-africaines égypto-koushites, on dégage, du point de vue historique, les perspectives de la Renaissance africaine[43]. Il a fallu, pour cela, investir les périodes dites Préhistoire et Antiquité[44] pour donner cette profondeur à la perspective historique laquelle permet de formuler une approche prospective : analyse des défis, esquisses de solution.

Cet investissement, à travers ANKH, des périodes anciennes modifie s'il ne révolutionne l'image véhiculée par l'Africanisme. Il débouche sur des remises en cause, non seulement des vues de l'évolution des sociétés africaines, mais de l'histoire universelle en cela que le rétablissement de la centralité de l'Afrique dans l'histoire du monde[45] perturbe les schémas historiques classiques et établit de nouveaux paradigmes. Si l'histoire de l'Afrique restera comme quelque chose suspendue en l'air tant que les historiens africains ne la rattacheront pas à l'Egypte pharaonique pour lui donner de la profondeur[46], exclure l'Egypte de l'Afrique et la civilisation pharaonique de son contexte négro-africain, c'est rendre l'Histoire du monde inintelligible. Ainsi, loin de toute volonté de « ghettoïsation », l'initiative ANKH se veut universaliste, et humaniste[47].

historique qui émane et répond aux besoins de leurs sociétés. Il s'agit ici de l'orientation du discours.

Conformément aux suggestions et intuition de Cheikh Anta Diop[38] formalisées, entre autres, par Th. OBENGA[39], le discours historique véhiculé par ANKH vise la restauration et la fortification de la conscience historique des Noirs d'Afrique et de la diaspora. Cet objectif est lié au besoin de désaliénation. ANKH approfondit entre autres thèmes.

- L'Afrique est, dans l'état actuel de la recherche, le berceau de l'humanité[40]
- L'Afrique est le berceau de la plus ancienne civilisation des temps historiques[41]
- C'est en Afrique que pour la première fois, des femmes ont exercé le pouvoir suprême. Il s'agit des candaces du royaume de Koush[42]
- Les similitudes institutionnelles entre les civilisations pharaoniques égypto-koushites et de l'Afrique noire moderne traduisent le fait que l'Afrique noire post-pharaonique est néopharaonique.

Telles sont les étapes des dix premières années de la revue ANKH éditée par les Editions khépéra qui ont organisé, à Paris le 16 septembre 2000, la première journée de la revue. Il s'agissait entre autres, de faire se rencontrer quelques uns des animateurs, de consacrer, en dehors de tout unanisme, un esprit d'école, de marquer une présence sur le Crédo de l'excellence. Pour relever des défis, y a-t-il meilleur moyen que de passer aux actes ?

Les études africaines en Europe donnent des société africaines une image caractérisée par une approche statique d'essence ethnologique. La revue ANKH, dans le sillage des travaux de Cheikh Anta Diop, entend

brèches, lesquelles allaient révêler la vanité du discours africaniste. Ainsi, c'est au cœur de la nuit coloniale que naquirent les mouvements de revendication culturelle puis de lutte d'émancipation. Aujourd'hui, ils ont pour nom : Nouvel ordre mondial des relations internationales tant au plan économique, politique, culturel, que philosophique. Il s'agit plus globalement du projet de désaliénation dont les formes varient selon les domaines, les époques ou générations. Inutile de s'époumoner sur le colonialisme, le néo-colonialisme et l'européocentrisme[36]. Il s'agit de faire du nouveau, du pertinent. Il s'agit de relever des défis. ANKH, et tout le courant scientifique et philosophique dont elle est une des expressions, en est une tentative dont le caractère concluant s'affirme chaque jour.

- Pour éviter les travers du discours africaniste, les auteurs de ANKH refusent de réserver aux études africanistes le concert du silence. Au contraire, renouant avec la tradition grecque classique de la doxographie, ils exposent dans leurs textes l'opinion des autres i.e des Africanistes. La doxographie, méthode d'exposer des résultats de recherche, consiste à :

- énoncer avec précision et netteté des propositions générales, à en tirer logiquement les conséquences ;
- fixer, de façon rigoureuse, le début d'un raisonnement, à en classer les étapes et résultats ;
- exposer l'opinion des autres, à la discuter, à la réfuter au besoin.

Il y a là un esprit scientifique, un genre d'exercice intellectuel et littéraire[37]. Par cette démarche, la revue constitue un cadre d'analyses nécessaire. Ses animateurs partent d'une donnée évidente qui est que les institutions, les pratiques sociales, les activités de production sont des réponses à des besoins. La production d'un discours historique répond elle aussi à des besoins. Et, dans la mesure où ceux-ci se caractérisent par leur variabilité dans le temps et l'espace, il appartient d'abord, (et pas exclusivement) aux Africains de produire le discours

**- b.** On ne déconstruit pas un discours de balivernes. On en sourit simplement. On l'aura constaté, en Occident, les textes pourfendeurs de ANKH viennent surtout de France.

Les Anglais semblent garder leur flegme quasi légendaire et les Belges s'emmurent dans le silence. En Amérique, M.BERNAL a reposé la question du soit-disant « miracle grec »[30]. Mary LEKKOWITZ attire l'attention sur la distinction entre mythe et histoire[31]. En Allemagne, dans une démarche plus posée[32], Léonhard Harding et Brigitte Reinwald ont revisité le diffusionnisme à travers l'œuvre de Cheikh Anta Diop[33].

## II - L'APPROCHE ANALYTIQUE

Le bon sens veut que lorsque deux communautés se rencontrent, chacune se dise que la communauté qui est en face de moi a une histoire. Parce qu'elle existe, elle a élaboré des voies et moyens grâce auxquels, elle a assuré sa production et sa reproduction sociale. Elle a donc une histoire « en soi ». Les possibilités d'étudier cette histoire, de rendre compte, selon une perspective dynamique, des phases et façons par lesquelles la communauté en question a assuré ses production et reproduction sociales (l'histoire « pour-soi ») peuvent faire momentanément défaut. Cette situation ne saurait induire l'idée de l'inexistence d'une histoire de chacune des communautés. Le péché de l'Africanisme est, sur la base de ces impossibilités momentanées (quasi absence de sources graphiques), d'avoir décrété l'inexistence d'une histoire des sociétés africaines[34]. Le discours qu'il allait produire, loin d'être une tentative de reconstitution de faits historiques, ne devait être que le reflet de l'image que l'Occident avait des Africains et chercher à inculquer aux Africains par une propagande insidieuse en apparence docte[35]. L'Afrique dominée, l'Afrique marginalisée, l'Afrique «périphérisée » était condamnée à la relégation. Mais les contradictions entre impérialismes (Nous pensons à l'affaire marocaine dans les étapes ayant abouti au déclenchement de la Première guerre mondiale) et le caractère dialectique de la marche du temps allaient constituer des

En intégrant les civilisations pharaoniques dans le giron africain, les animateurs de la revue rétablissent la centralité de l'Afrique dans l'histoire[23], apportent une perception différentielle à la compréhension des cultures égypto-koushites[24]. Cette dynamique débouche presque naturellement sur des ruptures méthologiques et épistémologiques à la base de la réception de ANKH par certains milieux.

## I - LA RECEPTION DE LA REVUE ANKH

- D'abord accueillie par le concert du silence, la revue ANKH a fini d'être classée dans les rayons des bibliothèques et centres de recherches[25]. Elle est devenue un manuel pour les cours de préhistoire de l'antiquité africaine et est souvent citée dans les bibliographies. Il faut dire que les articles publiés dans ANKH se situent dans le prolongement d'études majeures éditées notamment par Présence africaine, l'Harmattan et Khépéra[26]. ANKH est ainsi devenue un cadre où se formalise, se conceptualise et s'exprime non pas une révolution de l'Egyptologie (et autres études africaines), mais une perception différentielle, une perspective nouvelle grâce à des problématiques formulées à partir de critères classificatoires qui répondent, émanent de ce que doit être, selon la belle expression de Théophile OBENGA, « La dissertation historique en Afrique »[27]. ANKH, porte-étendard des thèses fondamentales émises par Cheikh Anta DIOP et par Th.OBENGA[28], est aussi la cible de critiques acerbes[29]. La contre-réception est facile à deviner et se résume en deux mots.

- **a.** Si les textes publiés dans ANKH et les études de Cheikh Anta DIOP qui en constituent les fondements classiques n'avaient pas de consistance, n'induisaient pas une perspective rectificationniste de l'histoire des sociétés africaines voire de l'histoire universelle, nul doute qu'ils ne déchaîneraient pas tant de hargne, ne susciteraient pas des critiques.

- « La chamito-sémétique n'existe pas »[13]
- « Aristote et la mélanité des anciens Egyptiens »[14]

B. La mise en évidence des similitudes tant au niveau de la culture matérielle[15] que de la langue[16] entre les anciennes civilisations pharaoniques égypto-koushites et les élaborations culturelles du reste de l'Afrique noire antique et moderne, voire contemporaine[17]. Cette perspective débouche sur des ruptures, épistémologiques notamment. Selon Abd el Hamid Zayed, « l'Histoire de l'Egypte [ancienne] a longtemps été considérée par les Egyptologues [occidentaux] eux-mêmes comme « méditerranéenne » et « blanche » qu'il faut reconvertir les techniques d'enquête, les matériaux utilisés et surtout les mentalités des chercheurs pour replacer la terre des pharaons dans son contexte africain »[18]. La mise en évidence des similitudes renforce la thèse de l'appartenance négro-africaine des civilisations pharaoniques égypto-koushites que l'occident avait décrétée causasoïdes, puis sémitiques et, depuis peu, métisses[19]. Elle enrichit les problématiques de l'historiographie africaine et non africanistique en alimentant le débat relatif au foyer original, vallée du Nil ou Sahara.

Elle permet de poser en des termes nouveaux la question des migrations, éclatements, osmose des communautés africaines et la formation des groupes linguistiques. Ainsi, l'étude de l'évolution des sociétés négro-africaines devient dynamique et l'histoire africaine devient une histoire totale[20].

C - Les animateurs procèdent à la clarification des pratiques, choix et traits de mentalités des anciens Nilotiques, Egyptiens et koushites, d'expliquer la vallée du Nil en restant dans la vallée du Nil. C'est l'axe des contributions de Babacar SALL (ANKH, III, 1994 , P.69-81. IV-V , 1995-1996 , P.57-71 ; VI-VII, 1997-1998, p.121-137 ; VIII-IX, 1999-2000 , p.31-43). C'est dans cette orientation que se situe une bonne partie des textes de TH OBENGA[21] et des contributions des chercheurs allemands et américains qui ont fait publier des études dans ANKH[22].

Numéros 4-5, 6-7, 8-9 qui sont bi-annuels. Il en est de même du numéro 10-11, actuellement sous presse et qui sera édité au compte des années 2001 et 2002. Ce ralentissement du rythme de parution est lié au fait que l'équipe technique chargée de la saisie et de la mise en page, entre autres, est constituée de travailleurs qui doivent prendre sur leurs temps de repos et de loisir pour réaliser le travail technique d'édition.

Sur la base des numéros parus, les principaux auteurs de ANKH sont des Négro-africains établis en Afrique (B. Boyala, A.M.LAM , UM NDINGI, B.SALL), en Europe (G. NGOM, J.P.MBELEK, C. Mb. DIOP, M. BILOLO, L.M. DIOP-MAES, J-C.GOMEZ) et en Amérique (Th. OBENGA).

Le second groupe est constitué par les Africains et Africains américains (M.BEATTY, A. Anselin, etc...). La revue a reçu des contributions de chercheurs américains comme Bruce Williams (ANKH, N°6-7° et Fred wendorf (ANKH, N°4-5). Des chercheurs allemands comme Günter BRÄUER (ANKH, N°3) et Hartwig Altenmuller (ANKH, N°4-5) ont produit pour la revue des études de haute portée scientifique. Ainsi, si ANKH, de par ses animateurs, véhiculent les idées des Africains et Africains américains, elle reste ouverte à toute contribution scientifique. On aura constaté l'absence d'auteurs ressortissants des pays dont l'engagement dans la traite atlantique des Noirs et la domination impérialiste ont été les plus profonds. (France, Royaume Uni, Belgique et Portugal)[12].

Dans leurs axes de réflexion, les animateurs de ANKH privilègent trois axes :

A -La remise en cause (rectification donc) d'un ensemble de thèses et d'idées sur la préhistoire et l'antiquité africaine véhiculées par l'Africanisme et dont les bases scientifiques sont fragiles voire fausses. Citons comme exemples

science, défendre la thèse selon laquelle les Nègres n'apparaissent en Egypte que sous la 18ème dynastie, à partir du 15ème siècle avant Jésus Christ[6]. Il avait fait des Nubiens (populations des terres nilotiques entre les 1ère et 4e cataractes) des Chamites ou Hamites[7]. On remarquera que ces termes n'ont jamais été et ne sont jamais définis par ceux qui les emploient[8]. Pourquoi tant de confusion et d'inconcision?

L'explication est à rechercher dans le caractère inégal des relations internationales et les idéologies qui ont été sécrétées. Après avoir exclu les Nègres de l'humanité pour justifier la traite atlantique, l'Europe s'était ravisée. Au nom du projet colonial, elle décréta que les Nègres étaient une partie de l'humanité restée au stade primitif. Il lui [Europe] appartenait de les civiliser. Mais alors, comment expliquer les vestiges culturels que les Européens découvraient dans des régions habitées par des Nègres ?

On créea en Europe les Sciences africaines ou l'Africanisme.

L'Europe se mit à chercher des Blancs mythiques qui en seraient les auteurs[9]. La terminologie, le bon sens, la logique la plus élémentaire allaient en prendre de sacrés coups. Devant cet imbroglio de l'Africanisme, et conscients du fait que l'Histoire est fonctionnelle[10], qu'elle sert entre autre, à structurer le temps, à établir, restaurer, conforter la conscience historique, ce rempart contre l'aliénation et le fatalisme[11], des chercheurs négro-africains et des Africains américains décidaient de créer la Revue ANKH.

Il s'agit d'un cadre de jonction pour participer à l'écriture africaine de l'histoire des sociétés africaines d'abord, de l'histoire du monde ensuite.

## I.APPROCHE DESCRIPTIVE

C'est en 1992 que fut édité le premier numéro de ANKH, défini comme une Revue d'Egyptologie et des civilisations africaines. Si les Numéros 1, 2 et 3 ont été annuels, un changement s'est opéré depuis les

## *« ANKH : une initiative pour relever un défi »*

**le Professeur Babacar SALL,**
**U.C.A.D. (SENEGAL)**

« L'Afrique est, d'une façon générale, le pays replié sur lui-même et qui persiste dans ce caractère principal de concentration sur soi...

L'Afrique est, pour ainsi dire, composée de trois continents qui sont totalement séparés l'un de l'autre et n'ont aucune communication réciproque. L'un se trouve au sud du sahara : c'est l'Afrique proprement dite... Nous [y] voyons l'homme dans un état de barbarie et de sauvagerie qui l'empêche encore de faire partie intégrante de la civilisation »[1]...

« [L'Afrique] ne fait pas partie du monde historique, elle ne montre ni mouvement, ni développement... L'Egypte... ne relève pas de l'esprit africain ; ce que nous comprenons en somme sous le nom d'Afrique, c'est un monde anhistorique non-développé... dont la place se trouve encore au seuil de l'histoire universelle...»[2]

Tel est l'anathème lancé à l'Afrique noire par l'Europe et que Hegel n'a fait que formaliser[3]. Ainsi, après avoir, selon la célèbre ironie de Montesquieu, exclu les Nègres de l'humanité[4], l'Europe avait reconnu sa première bourde. Malheureusement, elle allait commettre une seconde, consistant à exclure l'Afrique noire de l'histoire. C'est celle qui consiste à défendre la bêtise selon laquelle l'Egypte ne fait pas partie de l'Afrique. Celle-ci se retrouve chez Hegel et est encore en vogue dans plusieurs milieux intellectuels de l'Europe[5]. En 1921, le triomphe de l'impérialisme était établi. Hermann Junker pouvait, au nom de cette situation historique et contre tous les résultats de la

## Conclusion

Le thème des relations entre le Monde Arabe et l'Afrique est pour nous une occasion de reposer le problème de la centralité de l'Afrique dans sa dimension continentale comme seule issue pour changer le destin des peuples africains et nous sortir de la logique coloniale. Ce destin grandiose passe par la reconquête du Sahara par les Peuples Africains de part et d'autre de cette Mer de Sable qui n'a pas encore révélé tout son potentiel de richesses et de vecteur pour la résurrection des liens culturels et sociaux des Africains au delà du facteur religieux et du facteur ethnique. Notre futur se situe d'abord dans ce continent avec l'atout majeur de son cosmopolitisme et de sa diversité. Le Continent Africain est pareil à une grande île ouverte à l'Ouest sur les Amériques, à l'Est sur l'Asie, au Nord à l'Europe et au Moyen Orient. L'Afrique est ainsi un trait d'union avec le reste du Monde de toutes parts. De ce fait elle a un rôle primordial à jouer dans la globalisation à condition que les Africains tournent le dos, un moment, à la Mer pour reconquérir et réintégrer ce vaste continent du Cap au Caire et de Dakar à Mombassa. Au moment où les Grands Ensembles se constituent en Amérique, en Europe et en Asie, l'Afrique n'a pas d'autre choix que l'Unité si elle veut participer à la globalisation, assurer sa survie et assurer son destin.

## Bibliographie


* Barry Boubacar, "Le Royaume du Waalo : Le Sénégal avant la Conquête", Karthala, 1985.
* John Thorton "Africa and Africans in the Making of the Atlantic World 1400-1900", Seconde Edition, Cambridge University Press, 1998.
* Laurence Marfaing et Stephen Wippel, "Les Relations Transsahariennes à l'Epoque Contemporaine. Un espace en constante mutation". Karthala ZMO, 2004.
* Djibril, "Tamsir Niane Histoire Générale de l'Afrique", Volume VI. UNESCO.
* A.A Mazrui, "Histoire Générale de l'Afrique", Volume VIII, UNESCO

récent, édité par Laurence Marfaing et Steffen Wippel, « Les Relations Transsahariennes à l'Epoque Contemporaine : un espace en constante mutation », a l'avantage de montrer la redynamisation actuelle du Sahara après plusieurs siècles de déclin et d'autarcie. Leur étude montre que le Sahara peut être considéré comme un espace potentiel de localisation, de coopération et d'intégration régionales pour les pays riverains de part et d'autre de cette vaste Mer de Sable. Le Sahara représente encore un espace de transit, de rencontres et d'échanges pour les hommes, les biens et les idées. On assiste à une revitalisation des anciennes relations à travers le Sahara, malgré les conflits politiques liés à la divergence des intérêts des Etats et des acteurs locaux et surtout les violences sur le plan économique issues de la logique des stratégies de survie de l'informel.

Mais le problème fondamental est la persistance de la logique de la victoire de la Caravelle sur la Caravane qui a engendré cette fragmentation de l'espace entre le Nord et le Sud du Sahara. Depuis les chercheurs ont développé la notion de barrière ou de trait d'union pour décrire le rôle du Sahara. A notre avis ces deux notions ne rendent pas compte de l'importance du Sahara dans le devenir du continent. Le Sahara n'est pas une barrière infranchissable mais il n'est pas non plus un simple trait d'union entre deux mondes différents les Arabo-Berbères d'un côté et les Noirs de l'autre. Il s'agit du même espace qui a été parcouru de long en large, dans tous les sens par les populations qui vivent aujourd'hui au Nord ou au Sud du Sahara. Le défi majeur pour les Etats actuels est bien sûr de rétablir l'intégrité de cet espace pour une gestion collective. Cette réintégration de l'espace passe par la prise en compte de l'Unité du Continent Africain comme cadre de développement et de modernisation. C'est la condition pour l'Afrique pour reprendre l'initiative sur l'océan donc de la Caravelle après avoir restauré la Caravane dans ses droits séculaires.

aussi des partenaires dans le développement de l'Afrique Noire. La solution à cette question passe par une vision de l'Unité du Continent Africain dans sa globalité.

Cela pose le problème de la redéfinition de la position exprimée par Nasser qui a déclaré, en son temps, que l'Egypte est au centre de trois cercles concentriques :

* celui du Monde Arabe
* celui du Monde Musulman
* celui de l'Afrique

Nasser s'est essayé à faire en sorte que l'Egypte participe effectivement à ces trois cercles. Mais cette philosophie très généreuse repose sur le postulat que le Moyen Orient auquel appartient l'Egypte et le Maghreb a quelque chose à donner au reste de l'Afrique qui se contente de recevoir.

Le problème fondamental que nous voulons poser est de savoir de ces trois cercles le Monde Arabe, le Monde Musulman et l'Afrique lequel est le plus fondamental pour l'avenir de notre continent.

A notre humble avis seule une prise en compte de la centralité du Continent Africain, dans sa diversité, peut amener Arabes, Berbères, Hausa, Bantu, Ethiopiens, à tourner le dos à la Mer pour rassembler les fragments de cet immense espace à bâtir. Pour cela il faut une révolution copernicienne pour changer notre vision du continent et de notre rôle dans la mise en place d'une dynamique interne. Comment mettre fin à la logique du système colonial qui a consacré le triomphe de la Caravelle sur la Caravane et orienté toute notre économie vers l'exportation des matières premières. Cela implique une autre idée de l'Afrique comme un continent qui a un rôle privilégié à jouer dans ce monde de la globalisation. La route du Caire au Cap, celle de Dakar à Mombassa peuvent nous ouvrir les richesses inestimables sur le plan économique et culturel qui permettront de relever enfin la tête après plusieurs siècles d'humiliation et d'exploitation. L'ouvrage

coloniales a contribué à freiner partout le développement de la culture islamique et en particulier l'enseignement de l'arabe. Cette politique est à l'origine de la marginalisation progressive de l'élite musulmane en langue arabe ou en langue africaine même si le Swahili est devenu la langue de communication de toute l'Afrique de l'Est et de l'Afrique Centrale.

Paradoxalement la colonisation n'a pas empêché les progrès de l'islamisation des peuples africains au sud du Sahara et au contraire elle a, dans certains cas, accéléré le processus grâce à la mobilité des populations vers les zones de mise en valeur coloniale. Le développement des confréries Tijane et Muride en rapport avec l'Islam Saharien ou l'Islam d'Afrique du Nord constitue des exemples de la continuité de l'Islam comme facteur d'unification entre l'Afrique et le Monde Arabe. L'Islam va continuer à jouer un rôle majeur dans la prise de conscience qui s'organise autour du nationalisme arabe et africain pour la libération du continent. Maintenant que les événements liés à la décolonisation sont connus il faut s'attarder sur les défis actuels pour bâtir une vision susceptible de renforcer les relations entre le Monde Arabe et l'Afrique en prenant en charge les acquis et les aléas de cette histoire sur la longue durée.

**IV - Défis du présent et de l'avenir.**

Comme le dit si bien Ali Mazrui les relations entre l'Afrique Noire et le Monde Arabe ont été marquées par une série fluctuante de processus de connections culturelles et économiques pendant ces douze siècles. Pour Mazrui sur le plan séculaire les Arabes ont joué à ce jour deux rôles majeurs en Afrique Noire. Premièrement en tant que complices dans l'asservissement des Africains les siècles antérieurs et en tant qu'alliés dans le processus de libération. Les deux parties ont mis en place un solide partenariat politique pour un front commun sur la question du Moyen Orient, de la lutte contre l'apartheid en Afrique du Sud. La question critique pour le futur est de savoir si les Arabes seront

de la lutte contre cette oppression des communautés villageoises, des paysans esclaves. Mais le nouveau califat reprend, à son compte, les méthodes égyptiennes pour organiser la chasse aux esclaves dans les pays voisins. La Traite Négrière va s'organiser aussi à partir de Zanzibar au XIX ème siècle dans des proportions plus importantes vers l'île de la Réunion. Zanzibar devient le centre d'une économie de plantation à l'image des Antilles et son intégration au système capitaliste provoque, tardivement, une Traite Négrière dévastatrice sans aucune analogie avec le commerce à longue distance de la période précédente. Les récits des Européens sur cette traite arabe qui se développe après la suppression de la Traite Négrière est à l'origine de cette confusion entretenue sur la responsabilité respective des uns et des autres. Dans tous les cas comme le dit Yusuf Fadl Hasan l'esclavage est l'esclavage et il ne peut être embelli par des cosmétiques. Le pratique de l'esclavage a laissé beaucoup de ressentiment en Afrique Centrale chez les Africains contre la minorité des Arabes vivant sur la côte. Dans la mesure où ce souvenir continue à ternir les relations entre Arabes et Africains, l'Esclavage mérite d'être étudié courageusement et objectivement en tenant compte des conditions spécifiques à chaque région et du mode de production dominant pour éviter les amalgames.

Dans tous les cas la conquête coloniale, à la fin du XIX ème siècle met fin à l'autonomie du continent qui est soumis à l'Europe, en dehors de l'Ethiopie, à la domination coloniale. La conséquence majeure de la conquête coloniale est de parachever la victoire de la Caravelle sur la Caravane en réorientant toute l'économie du continent vers les Côtes africaines qui sont privilégiées dans la mise en valeur coloniale au détriment de la voie transsaharienne qui, progressivement, est complètement abandonnée. La fragmentation du continent se poursuit et les pouvoirs coloniaux surveillent de près le mouvement des musulmans d'Afrique Noire vers le Monde Arabe en raison de la résistance à la conquête qui a été organisée de part et d'autre du Sahara par les leaders musulmans. La politique musulmane des puissances

de l'Afrique de l'Est au XIX ème siècle au moment où précisément l'Europe met fin, pour des raisons économiques, à la traite atlantique. Ce tournant a donné lieu non seulement de prétexte pour la conquête de l'Afrique mais aussi d'alibi idéologique pour partager avec les «Arabes» la double responsabilité morale des traites négrières.

## III - L'intégration de l'Afrique au système capitaliste achevé. Le XIX et le XX ème siècle.

La Révolution industrielle, en Europe, précipite la fin de la Traite Négrière. Entre temps l'Europe ayant perdu ses riches colonies d'Amérique va se tourner vers l'Afrique pour la fourniture des matières premières dont l'industrie a besoin. De multiples tentatives de colonisation agricole au Sénégal et ailleurs ouvrent la voie à la conquête coloniale à partir de 1880. La conquête permet d'imposer des taxes et le travail forcé aux populations ainsi que l'accaparement des terres pour organiser la production des matières premières pour l'Europe.

Auparavant il a fallu vaincre toutes les résistances de restructuration interne des sociétés africaines par de nouveaux leaders comme El Hadj Umar ou Samori en Afrique de l'Ouest. Le cas de El Hadj Umar est particulièrement intéressant car symbolise le renouveau de l'Islam en Afrique de l'Ouest après son long pèlerinage à la Mecque qui témoigne de l'intensité des relations entre l'Afrique et le Monde Arabe. La tentative de El Hadji Umar avec celle de Samori de restructurer l'espace en recréant des Empires à l'image du Mali ou du Songhaï constitue aussi la preuve de la réadaptation des sociétés africaines à la suite de la suppression de la Traite Négrière qui avait favorisé la fragmentation politique de l'Afrique de l'Ouest.

Certes cette période est marquée par la recrudescence de la Traite Transsaharienne mais surtout par le développement de la Traite Orientale dans l'Océan Indien. Le Soudan est conquis par l'Egypte que Mohammed Ali veut moderniser en pillant sa nouvelle colonie pour de l'or et des esclaves. La révolte Mahdiste (1881-1898) est le résultat

Sud comme au Nord constitue la preuve du dépérissement progressif du commerce transsaharien à la suite de la victoire de la Caravelle sur la Caravane, victoire qui n'est pas un vain mot. Ce dépérissement est certes un lent processus qui s'étale sur plusieurs siècles pour aboutir, aujourd'hui, à cette barrière infranchissable de Mer de Sable abandonnée chaque année à la sauvage traversée de la machinerie du Rallye Paris-Dakar à la recherche de sensations.

Dans tous les cas il y a plus de nombreuses différences entre la Traite Atlantique et la Traite Transsaharienne. La Traite Atlantique, malgré sa relative brièveté, trois à quatre siècles, a eu un impact plus durable sur l'évolution interne des Sociétés Africaines sur le plan politique, économique et social. Cette traite négrière a contribué largement à développer la violence comme moyen de gouvernement et aussi la présence massive d'un esclavage domestique pour les besoins de la Traite Atlantique et de ceux des sociétés africaines elles-mêmes. A ce niveau l'esclave domestique au Sud du Sahara se confond pour beaucoup de ces traits à l'esclavage au Sahara et en Afrique du Nord. Certes les peuples nomades (Berbères, Arabes, Touaregs) que Webb désigne comme Blancs, ont exercé une pression constante sur les peuples sédentaires noirs du Fleuve Sénégal au Lac Tchad, pour satisfaire leurs besoins en main d'œuvre servile et domestique. Le pillage des Ormans, des Trarzas, des Braknas, sont connus de notoriété. Mais de là à conclure que cette traite transsaharienne est plus importante que la traite atlantique relève de la fabulation. Le plus grave est la transposition des préjugés racistes entre Blancs et Noirs qui ont prévalu dans les Amériques dans le contexte de la Méditerranée et du Monde Arabe. L'intégration raciale des esclaves noirs dans les sociétés du Maghreb y compris dans les familles royales n'a pas son équivalent dans les Amériques où le racisme érigé en système constitue le fondement de l'esclavage.

Cela n'exclut pas que cette traite transsaharienne ait connu des hauts et des bas. Mieux elle a revêtu une forme intensive du côté

dans sa phase atlantique a touché l'ensemble du continent tandis que le commerce transsaharien, qui se poursuit au delà du XIX ème siècle, concerne uniquement les rives méridionales du Sahara.

Mais, pour revenir au sujet sur les relations entre le Monde Arabe et l'Afrique, il s'agit plutôt de comprendre le rôle que l'Islam va jouer, désormais, comme facteur de restructuration interne des sociétés africaines confrontées aux conséquences néfastes de la traite négrière au moment où le commerce de l'intérieur du continent se tourne vers l'Atlantique au détriment des pistes transsahariennes. Dans un récent ouvrage, édité par John Hunwick et Eve Tronth Powell « The African Diaspora in the Mediterranean land of Islam », les auteurs ouvrent de nouvelles pistes de recherche pour mieux comprendre le rôle et la place des esclaves dans les sociétés de l'Afrique du Nord. La notion selon laquelle, dans les deux cas, en Amérique et dans le Monde Arabe musulman l'esclavage des Noirs serait « the same but different »amène à conclure que « slavery is slavery » pose problème à mon avis.

Ces formules lapidaires ne rendent pas compte de la complexité et de la diversité des pratiques de l'Esclavage dans des contextes spécifiques à l'Amérique et à l'Afrique du Nord dans la longue durée.

Il est certain que du XV ème à la fin du XVII ème siècle les deux formes de l'esclavage n'ont pas eu le même impact ni la même dimension économique, politique et sociale . La différence notable est que les esclaves dans le monde musulman sont rarement utilisés comme moyen massif de production contrairement à l'usage dans le Nouveau Monde. Leur utilisation dans l'armée comme soldats est aussi un trait dominant dans l'Afrique du Nord que l'on ne retrouve pas en Amérique. Mieux la dynamique économique des deux pôles d'importation des esclaves est d'un niveau différent car l'Afrique du Nord stagne tandis que l'Europe, en pleine expansion, profite au maximum de la conquête à son profit exclusif du Nouveau Monde mis en valeur par l'utilisation massive de la main d'œuvre servile. Le déclin des villes sahariennes au

## II - La période mercantiliste et l'impact de la Traite Négrière.

Le triomphe de la Caravelle sur la Caravane, à la fin du XVème siècle, marque le début d'une nouvelle ère dans les rapports de domination entre l'Europe, l'Amérique et l'Afrique. Durant cette longue période de trois siècles d'incubation la périphérie américaine du centre européen remplira une fonction décisive dans l'accumulation de la richesse argent par la bourgeoisie marchande atlantique. L'Afrique Atlantique remplira une fonction non moins importante celle de la périphérie américaine. Réduite au rôle de fournisseur de la main d'œuvre servile pour les plantations d'Amérique, l'Afrique perd son autonomie. Elle commence à être façonnée en fonction d'exigences externes à elle-même, celles du mercantilisme (Samir Amin, 1972- p16). Les conséquences de la traite négrière, sur les sociétés africaines, sont maintenant largement connues pour s'y attarder même si le débat stérile sur le nombre des esclaves exportés par l'Atlantique a quelque peu diverti les historiens des véritables enjeux qui portent sur la régression du continent dans son ensemble. L'Afrique a subi non sans résistance la domination de l'Europe Atlantique qui a défini les règles du jeu . La victoire de la Caravelle sur la Caravane se fait au profit de l'Europe même si John Thornton, dans son ouvrage «Africa and Africans in the Making of the Atlantic World, 1400-1800 », met l'accent sur une participation active des Africains dans l'aventure Atlantique. Mais le plus grave est sans aucun doute la tentative de James Webb, dans son ouvrage « Désert Frontière », de montrer, à rebours, que la traite transsaharienne a sans aucune discontinuité été plus importante que la traite atlantique. Si cette affirmation s'avère juste il va falloir retrouver les traces physiques de cette nombreuse population noire vendue comme esclaves à travers le commerce transsaharien. Dans tous les cas, cette étude s'avère nécessaire en dehors de cette perspective comparative fondée sur des prémisses idéologiques pour justifier la responsabilité plus grande du Monde Arabe Musulman par rapport à celle moins importante de l'Europe Chrétienne dans les « Traites Négrières ». La traite négrière

de l'Egypte, en 1516, et celle tardive de Al Mansur au Songhaï, en 1592, ne pourront pas changer le cours inexorable de la domination de l'économie mondiale, dans sa phase mercantiliste, par l'Europe. Cette longue période mérite une attention particulière dans la mesure où elle symbolise un va et vient incessant des hommes, des produits et des idées à travers le Sahara, malgré la rigueur du climat et la longueur du trajet, grâce à une maîtrise parfaite des pistes caravanières. Il faut retenir l'importance de l'or mais aussi la diffusion de l'Islam sans oublier la permanence du commerce des esclaves. Ce sujet sur l'esclavage mérite particulièrement notre attention dans la mesure où il constitue un argument aujourd'hui utilisé pour mettre en exergue l'antériorité de ce commerce transsaharien des esclaves par rapport à la Traite Négrière par l'Atlantique, son importance plus ou moins grande et surtout sa permanence au delà de la période d'abolition au XIX ème siècle. Idéologiquement ce commerce des esclaves à travers le Sahara est associé à l'Islam. Il est donc important d'entreprendre des études plus poussées pour mieux comprendre les conditions qui ont facilité ce commerce des esclaves et ses implications à chacune des périodes de cette longue histoire sans la contrainte d'une comparaison anachronique qui prend en charge des périodes différentes dans des contextes économiques et politiques différents pour justifier ou éluder des responsabilités réelles ou fictives. L'essentiel est de comprendre l'impact de ce commerce inhumain dans tous les cas sur les sociétés de part et d'autre du Sahara, sur le plan économique et culturel.

Il est certain qu'au delà des vicissitudes du commerce transsaharien, l'Egypte se pose au sein du Monde Arabe comme un facteur d'uniformisation de l'Islam sunnite en Afrique considérée comme centre de gravité à la fin de cette période de grande autonomie du Continent.

En définitive, c'est la découverte de l'Amérique, en 1492 par Christophe Colomb, avec les mines d'or et de cuivre du Peru et du Mexique qui change le destin de l'Afrique et rompt sa dynamique interne centrée sur le Sahara.

pèlerins et Intellectuels sillonnent le Sahara à l'exemple de Mansa Musa, d'Ibn Khaldum, d'Ibn Batuta ou de Léon l'Africain.

Le Sudan Occidental connaît une unification progressive de son espace sous le contrôle successif des Empires du Ghana, du Mali et du Songhaï de l'Ouest vers l'Est. De même les Almohades, pour contrôler les routes du Sahara et intégrer les différents centres commerciaux du Maghreb, vont créer un vaste empire unifié par une dynastie Berbère authentique. Il est certain que la présence, en grand nombre, des populations du Sudan dans les armées, l'économie a laissé une empreinte durable sur le plan culturel au Maghreb et en Espagne.

Malheureusement la chute de l'Empire Almohade donne naissance à trois entités indépendantes (Maroc, Algérie, Tunisie) consacrant jusqu'à nos jours la fragmentation du Maghreb. C'est le moment où le Commerce transsaharien est dévié vers l'Egypte et que l'Europe consolide sa position sur la côte Atlantique comme prélude à son expansion maritime et coloniale.

Comme le dit si bien Samir Amin, c'est durant cette longue période avant le triomphe de l'Europe sur l'Atlantique, que l'Afrique connaît dans toute sa dimension, de part et d'autre du Sahara, une certaine autonomie lui permettant de disputer le leadership intellectuel politique et économique avec le reste du Monde. Les fameux noms de Mansa Musa, le pèlerin d'Ibn Khaldun le père de la Sociologie et de l'Histoire moderne, d'Ibn Batuta l'explorateur, de Léon l'Africain, le voyageur infatigable, symbolisent ce bouillonnement économique et intellectuel caractéristique de cette époque de rencontres des continents du vieux Monde. La publication du Tarikh El Sudan et du Tarikh El Fettach au XVI ème siècle à Tombouctou témoigne de cette révolution culturelle fondée sur la prospérité économique du commerce transsaharien.

A partir du XV ème siècle la soif pour l'or va contribuer, de façon significative, à l'expansion européenne qui se matérialise par la conquête progressive de l'Atlantique. La conquête Ottomane

## I- Le legs du passé avant le XVème siècle : la période prémercantiliste :

L'histoire des relations entre l'Afrique du Nord et le Sudan est connue dans sa dimension économique, religieuse et culturelle. Cette période est dominée par le commerce transsaharien qui permet à tout l'ancien Monde méditerranéen arabe et européen de se fournir en or auprès de la source essentielle de production du métal jaune jusqu'à la découverte de l'Amérique .

En contrepartie le Sudan va obtenir les produits de luxe et les moyens de constituer des Empires (Ghana, Mali, Songhaï). L'Islam et le commerce vont créer des liens religieux et culturels durables entre les deux rives du Sahara qui constitue une véritable mer intérieure.

Il apparaît aujourd'hui que ce commerce a eu plus d'influence en Afrique du Nord que dans le Sudan Occidental à un moment où l'Islam triomphe sur une large partie du Continent.

Au XI ème siècle le mouvement Almoravide, à partir de sa base sur le Fleuve Sénégal, conquiert une partie du Maghreb et la Péninsule Ibérique tout en restaurant la Sunna dans le Monde Islamique.

De l'autre côté les marchands de la Péninsule Arabique et du Golfe Persique ouvrent l'Afrique de l'Est au commerce international. De l'Egypte, l'Islam se répand en Nubie et au Sudan en dépit de la résistance de l'Ethiopie catholique. Il s'agit d'un Islam des cours et des villes et en particulier des marchands qui n'ont pas de prétention à convertir les masses populaires des campagnes. Les villes de Jenne, de Gao, de Tombuctu, de Marrakesh, de Fez, du Caire, de Mombassa symbolisent cette prospérité du commerce transsaharien et cette renaissance sur le plan culturel et religieux.

L'Egypte devient progressivement le centre du Monde Musulman à la place de Bagdad et de Damas. Le Maghreb rayonne en Andalousie et transmet à l'Europe les secrets de la science moderne. Marchands,

# *La Victoire de la Caravelle sur la Caravane : Quel Destin pour l'Afrique ?*

**Boubacar Barry**
Université Cheikh Anta Diop Dakar.
Visiting Professor New York University.

## Introduction:

L'objectif de cet article est de réfléchir sur une nouvelle problématique pour appréhender les véritables enjeux des relations entre le Monde Arabe et l'Afrique dans une perspective de réintégration du continent sur le plan spatial, économique et politique.

En effet, depuis la fin du XV ème siècle, avec la victoire de la Caravelle sur la Caravane, l'Afrique a été progressivement et artificiellement fragmentée entre une Afrique Blanche au Nord du Sahara et une Afrique Noire au Sud. Le Monde Arabe associé à l'Islam, à cheval sur l'Afrique et la Péninsule Arabique, entretient des relations complexes avec le reste du Continent et vis versa.

Comment repenser ces relations pour rétablir l'unité géographique du continent en fait sa réintégration physique, politique, économique et sociale pour mieux préparer les peuples Africains à relever le défi de la Mondialisation ? A cet effet l'Afrique doit reconquérir pour elle-même les Routes du Sahara et de l'Océan si elle veut renouer avec sa dynamique interne et reprendre l'initiative historique qu'elle a perdue depuis le XV ème siècle. Pour comprendre l'importance de cet enjeu, il faut replacer ces défis du présent et de l'avenir sur la longue durée.

des fonds bilatéraux ou multilatéraux périodiques pour des projets de développement de leur choix ;

* l'obligation d'insuffler une nouvelle dynamique aux organismes et institutions déjà existants et d'ancrer toutes leurs initiatives et actions dans la conscience des peuples concernés, afin de leur permettre de s'approprier les fruits des réalisations de ces institutions et de les défendre comme il se doit et partout où besoin sera.

**Conclusion :**

L'histoire plusieurs fois séculaire des relations entre le Monde arabe et l'Afrique et les conséquences non maîtrisées et non maîtrisables de la mondialisation font de la solidarité arabo-africaine, un impératif absolu. Une solidarité qui doit, plus que jamais, passer du stade des vœux ou des professions de foi, à des manifestations concrètes et quotidiennes sur le terrain. Une solidarité qui doit s'inscrire dans la durée et s'ancrer dans la conscience des peuples arabes et africains.

* les préjugés raciaux et les complexes et qui ne facilitent pas le développement des relations de part et d'autres.

**Ce que je propose**

Les éminents conférenciers qui m'ont précédé à cette tribune ont suffisamment souligné les axes et priorités vers lesquels la solidarité arabo-africaine pourrait s'engager, la culture devant servir de socle à cette nouvelle approche de coopération. Je voudrais, à mon tour, non pas faire des propositions sur ce qu'il faut faire, mais marquer un intérêt particulier sur ce qu'il conviendrait de retenir comme préalables au développement de la coopération nouvelle arabo-africaine face à la mondialisation, notamment :

* l'impératif absolu, pour les dirigeants arabes et africains, de se convaincre ensemble de ce que, aujourd'hui, leurs défis sont communs, leurs sorts sont liés et qu'au-delà des richesses dont les uns ou les autres pourraient paraître ou prétendre disposer, leurs causes doivent également être communes ;

* la nécessité de réaliser une cohésion préalable au sein de chacune des deux parties en présence, de façon à faire efficacement face à la cacophonie des intérêts et aux tentatives de déstabilisation et de récupération des initiatives inhérentes aux actions du genre. De ce point de vue, le consensus réalisé par les Africains autour du NEPAD constitue un important atout ;

* l'obligation impérative d'une alliance géo-stratégique des arabes et des africains avec d'autres régions ou pays avec lesquels ils pourraient partager la même vision du monde, de l'avenir du monde : le continent asiatique ou la République Populaire de Chine par exemple ;

* la possibilité, à l'instar de l'initiative marocaine, de mettre à la disposition des Etats africains, sans contre-partie ni conditionnalité,

du nouveau siège de la Cour Suprême du Benin. Ces deux importantes infrastructures seront inaugurées dans les semaines prochaines. C'est sans doute le lieu de souligner la particularité des liens entre le Bénin et le Maroc en matière de coopération, le gouvernement de ce pays ayant accepté de mettre à la disposition du mien, une importante enveloppe financière dont l'utilisation est entièrement laissée au libre choix du Bénin. Bel exemple n'est-ce pas ? !

Il est certain que la solidarité et la coopération arabo-africaines auraient gagné en poids, en volume et en étendue s'il n'y avait pas eu quelques blocages, les uns, liés à la nature des activités programmées, les autres consécutifs aux contraintes et contingences du moment.

**Contraintes et handicapes de la solidarités arabo-africaines**

La mise en œuvre effective de la solidarité arabo-africaine connaît certaines contraintes parmi lesquelles :

* le temps : on est pressé de voir les résultats de la coopération se matérialiser rapidement et on fait en conséquence preuve d'impatience préjudiciable à toute action ou initiative inscrite dans la durée ;
* l'ampleur et la diversité des problèmes auxquels les populations et les Etats sont confrontés par rapport aux moyens disponibles et qui rend difficile, voire suicidaire (politiquement) l'établissement d'un minimum de priorité.
* l'instabilité politique chronique, les crises et les guerres qui n'en finissent pas en Afrique et qui donnent le sentiment que l'extinction de l'une d'entre elles provoque l'éclosion d'une dizaine d'autre ;
* les querelles intestines de leadership entre Etats des deux parties et qui ne favorisent pas un minimum de cohésion dans les actions à mener ;
* l'imprévisibilité de certaines conséquences de la mondialisation et qui ne permet pas de faire une bonne programmation dans la durée.

décidé de concevoir et de mettre en œuvre des politiques bilatérales et multilatérales de coopération fondées sur la solidarité et la complémentarité.

**Contenu et moyens de la solidarité arabo-africaine**

A partir de 1973 et grâce au renchérissement des prix des produits pétroliers, la solidarité arabo-africaine a pris les formes d'une coopération bilatérale et multilatérale progressivement intense qui, aujourd'hui, embrasse presque tous les domaines et secteurs du développement. Des institutions de coopération et de solidarité ont été au fur et à mesure mises en place, telles que, entre autres, sur le plan politique : le sommet arabo-africian (mars 1977), conférence des parlements arabes et africains ; sur le plan économique : la Banque Arabe pour le Développement en Afrique (BADEA) (novembre 1973) ou encore la Banque Islamique de Développement (BID) et le Fonds Kowétien.

Dans le même état d'esprit, des Etats et personnes morales arabes comme la Lybie participent aux financements des activités d'institutions bancaires africaines comme la Banque Africaine de Développement (BAD) ou la Banque Ouest Africaine de Développement (BOAD), pour ne citer que ces exemples immédiats.

Au Bénin, toutes ces institutions arabes interviennent en particulier dans l'éducation et la formation, les transports et communications, l'agriculture et l'hydraulique villageoise, la santé et le social.

Dans le cadre de la coopération bilatérale bénino-marocaine, le Maroc met chaque année à la disposition du Bénin, trente (30) à quarante (40) bourses d'études supérieures et universitaires et ce, depuis bientôt dix ans. Une résidence universitaire de plusieurs chambres, entièrement financée sur fonds marocains est en cours d'achèvement sur le campus d'Abomey-Calavi et portera le nom de Résidence HASSAN II. De même, le Maroc participe activement à la construction bientôt achevée

La certitude d'avoir des causes communes, historiques et à venir et la conviction qu'un soutien mutuel et réciproque sera bénéfique à tous ont conduit les dirigeants arabes et africains à mettre progressivement en, un processus de solidarité qui assure le développement mutuel de leurs peuples et garantisse dans la durée leurs intérêts politiques économiques et culturels.

Chaque jour que Dieu fait, nous donne des milliers de raisons et d'exemples édifiants sur l'impérieuse nécessite de cette solidarité arabo-africaine :

* l'occupation séculaire de la Palestine et l'agression quotidienne dont le peuple palestinien est la victime,
* l'arrogance outrancière qui a sous-tendu la guerre contre l'Irak,
* le peu de cas fait des crises et guerres actuelles en Afrique par rapport à toute l'attention dont d'autres ont pu bénéficier et bénéficient ailleurs notamment dans les pays baltes,
* l'échec retentissant de la dernière conférence de l'O.M.C à Cancùn, lié justement au refus de prendre en compte les intérêts des producteurs de matières premières et ceux des pays pauvres,

En sont quelques manifestations récentes. Il faut y ajouter cette constance du monde actuel que soulignait Boutros Boutros-GHALI en ces termes : « un monde où un homme ne vaut pas un autre homme, où une région ne vaut pas une autre région, où un continent ne vaut pas un autre continent ». Boutros Boutros-GHALI sait de quoi il parle, lui, un africain et arabe, qui a été victime d'une grave discrimination à la fin de son mandat de Secrétaire Général de l'ONU, une discrimination qui n'a rien eu à envier à celle qui avait frappé quelques années auparavant un africain, Amadou Mahtar M'BOW , ici présent dans la salle, quand il achevait lui aussi, son mandant de Directeur Général de l'UNESCO !

Les dirigeants arabes et africains ont, depuis une trentaine d'années, notamment à la faveur de la guerre israélo-arabe de 1973, pris la mesure des périls communs auxquels ils sont exposés et ont

Aujourd'hui, tant en Afrique que dans les pays arabes, les sentiments collectifs de frustrations, d'humiliations, de nullité et de vacuité, les sentiments collectifs de ne savoir que dire, que faire, ni où aller se sont exacerbés, avec leurs conséquences inéluctables que sont, notamment, la montée des fanatismes, des intégrismes et des extrémismes, de l'intolérance voire du refus de tout.

C'est dans ces sentiments de complexes socio-politiques, économiques et culturels très partagés au sein des populations et même des élites que les Etats concernés doivent faire face aux véritables bombes à retardement que l'on retrouve ici et là indifféremment dans les rues de Parakou au Bénin ou de Ouad-medani au Soudan. Des bombes à retardement constituées d'importances masses de jeunes, la plupart sans formation et d'autres encore munis de diplômes, mais tous sans emploi et sans perspective immédiate pour l'avenir.

Déambulant dans les rues des capitales et des grandes agglomérations à longueur de journée ou rassemblés devant des lieux de culte ou autour de places publiques, ces jeunes sont des cibles privilégiées des marchands d'illusions, de la démagogie socio-politique et de l'intolérance religieuse.

Ce sont autant de sentiments et de situations communes que l'on retrouve à Casablanca ou à Garoua au Cameroun, à Nampula au Mozambique ou à Hama en Syrie et qui requièrent une communauté, sinon une complicité de destin entre pays arabes et africains.

**Solidarité impérative et développement mutuel**

Des chercheurs situent les racines des relations entre le Monde arabe et l'Afrique à l'entrée de l'islam sur le continent noir, principalement par le Nord et la côte Est. Ces relations auront dans le temps un contenu économique et commercial tout le long de la côte Est et à travers le Sahara, puis connaîtront un élan politique avec les luttes de libération nationale ou contre les visées impérialistes, celles de l'Europe notamment.

L'histoire relativement récente des relations entre l'Afrique et le Monde arabe et les exigences impératives que nous imposent les réalités du moment appellent une réflexion collective et profonde sur les enjeux de ces relations et les défis à relever aujourd'hui comme demain.

Il apparaît de plus en plus évident que seule une solidarité véritablement agissante pourra permettre au Monde arabe et à l'Afrique de trouver des réponses communes, justes, légitimes et durables aux inquiétudes d'aujourd'hui et à celles à venir de leurs peuples.

**Mondialisation et marginalisation**

Je ne voudrais pas vous faire l'outrage d'épiloguer à l'envie sur la mondialisation et sur ses conséquences sur le Monde arabe et le continent africain. Je voudrais tout simplement souligner que la marginalisation dont les peuples de ces deux parties du monde sont l'objet depuis des décennies s'est trouvée aggravée du fait :

* du rétrécissement planétaire continu et qui rend le monde de jour en jour plus petit, plus fragile et plus vulnérable ;

* de l'accès chaque jour plus possible des populations des pays sous-développés aux images du monde ; ce qui leur permet de se rendre compte qu'il y a bien mieux ailleurs, sinon qu'il y a du gaspillage ailleurs ;

* des inquiétudes et des incertitudes pour les populations concernées et qui brouillent et assombrissent leur vision de l'avenir ;

* de l'indifférence toujours plus prononcée, voire arrogante des élites des Etats développés vis-à-vis des difficultés des pays arabes et africains pauvres où l'écrasante majorité de la population manque du minimum nécessaire pour survivre ;

* de l'incapacité de plus en plus avérée des responsables arabes et africains à satisfaire quelques-unes des profondes et légitimes aspirations de leurs peuples.

# *Mondialisation et solidarite ARABO - AFRICAINE (vues depuis le Bénin)*

**Ousmane BATOKO**
**Professeur de droit public dans les Universités du Bénin**

Vous me permettrez avant tout de dire à la fois l'honneur et le plaisir que je ressens à être parmi vous, pour partager, ensemble, les sentiments et la vision de chacun sur l'avenir des relations arabo-africaines. Je me sens d'autant plus honoré que je représente ici le Secrétaire général de l'Organisation Internationale de la Francophonie (OIF) à qui je voudrais saisir la présente opportunité pour exprimer ma profonde gratitude et mon indéfectible attachement. Je voudrais également souligner que le thème de ma communication a été choisi et formulé par moi-même et que ce qui y est dit n'engage que moi.

L'objet principal de notre rencontre est plus que d'actualité devant les inquiétudes et les questionnements collectifs sur les effets non maîtrisés de la mondialisation et leurs conséquences immédiates ou à long terme notamment : les tendances au laminage et à l'uniformisation culturelle, la marchandisation de l'Homme et de la culture, le terrorisme international ou d'Etat et les multiples prétextes avancés ici et là pour justifier la lutte contre ce phénomène.

C'est pourquoi, il me plaît de féliciter très chaleureusement les initiateurs du présent forum, les autorités marocaines en particulier, pour leur esprit d'opportunité et leur sens de l'anticipation. L'Organisation Internationale de la Francophonie n'est du reste pas surprise de ces qualités attachées aux responsables marocains, quand on sait comment ce pays qui nous accueille si chaleureusement et si fraternellement est beau, ouvert, divers et pluriel aux plans politique, racial, culturel, voire religieux.

divisions intérieures qui l'affaiblit, et qui le mettent à la merci de toutes les convoitises extérieures. Les Africains doivent faire de même ; ils ont à mettre fin aux affrontements intérieurs et aux guerres régionales qui les paralysent et qui accroissent la pauvreté. Car Arabes et Africains ont besoin de se parler, d'échanger leurs vues sur leurs propres problèmes et sur ceux du monde, de tracer des lignes de conduite convergentes, et de définir les voies et moyens de promouvoir, ensemble, une coopération et un développement économique et social à la mesure des exigences de la mondialisation actuelle. Plus vite ils le feront, mieux ils donneront à leurs peuples des raisons d'espérer en un avenir de progrès, de liberté, de paix et de justice, et au monde celles d'une solidarité plus grande entre tous les peuples, tous égaux en dignité.

l'écriture de certaines périodes essentielles de l'histoire de la zone sahélo-soudanaise avant la colonisation européenne.

Par ailleurs, le domaine de l'information et de la communication, qui joue un rôle essentiel dans l'image que se font les uns des autres, mériterait une attention toute particulière. Il est certes, les obstacles ne manquent pas ; et il serait vain de les nier ou de les minimiser. Mais quand des volontés communes tendent aux mêmes buts, et se donnent les moyens de leur action, aucun obstacle ne peut les entraver. Un des premiers obstacles à surmonter est d'abord l'ignorance mutuelle, et l'indifférence réciproque qui en résulte. Tous les efforts me paraissent devoir être faits pour que s'établissent de nouveaux rapports dans tous les domaines et à tous les niveaux.

Les rapports économiques et financiers méritent, en particulier d'être améliorés. La mise en œuvre de projets concertés pourrait permettre, dans le cadre d'entreprises communes, la création dans une perspective à long terme, de vastes zones de développement dans les domaines minier, énergétique, hydraulique, agricole, industriel et dans celui des services.

Pour se faire, le renforcement de la coopération intellectuelle, scientifique, technique, culturelle serait d'une grande utilité. En effet, des rencontres systématiques entre universitaires, chercheurs permettraient, outre l'échange d'expériences, de mettre sur pied de vastes programmes communs de recherche et de formation dans des domaines essentiels pour le développement, agricole, la mise en valeur des ressources en eau, l'exploitation des ressources de la mer, la préservation de l'environnement, la prospection et l'exploitation des ressources minières etc. Les travaux réalisés pourraient permettre de mieux cerner les potentialités et les problèmes dont la solution serait utile à la mise en œuvre des divers projets de développement.

Toutes, c'est au niveau politique, sans doute, que l'action paraît la plus urgente. Pour la faciliter, le Monde arabe devrait surmonter les

avec la pensée de son Père le Roi Mohammed V, l'Institut Supérieur d'Etudes Africaines dont j'ai eu l'insigne honneur de prononcer la conférence inaugurale. Il faut se féliciter que dans la même continuité, son fils le Roi Mohammed VI ait patronné cette rencontre. Le Maroc, une fois de plus, joue un rôle d'avant garde conforme à la géographie, à son histoire et à sa double vocation de pays à la fois africain et arabe.

Je sais qu'il existe d'autres centres d'études africaines dans des universités marocaines, et dans plusieurs autres pays comme l'Egypte, la Libye, le Soudan, pour n'en citer que les plus connus. Leur multiplication aiderait sans aucun doute à rapprocher les universitaires et les chercheurs des deux entités. Ces centres peuvent favoriser, en effet, des échanges de vues et de savoirs ainsi que la mise en œuvre d'études ou de projets communs dans des domaines essentiels son seulement à une meilleure connaissance des réalités et des problèmes des uns et des autres, mais aussi dans ceux du développement, des relations internationales, etc. Certes, les mêmes efforts devraient être faits en Afrique subsaharienne où l'on devrait donner plus d'importance aux études arabes, sans les cantonner au seul domaine religieux.

Certes une difficulté majeure rend la coopération intellectuelle souvent difficile, c'est le problème de la langue. Les intellectuels de plusieurs régions d'Afrique subsaharienne n'accèdent que difficilement aux publications faites dans le Monde Arabe en langue arabe. A cela, il y a deux raisons : d'une part les difficultés liées aux problèmes de diffusion, d'autre part, le fait que la langue arabe, si elle est largement utilisée notamment dans les milieux religieux, n'est que peu connue par les élites intellectuelles modernes, qui sont au pouvoir, même leurs membres qui sont musulmans ont appris le Coran, qu'ils utilisent dans leurs prières. Des efforts particuliers sont donc nécessaires pour développer l'enseignement de la langue dans les établissements scolaires officiels, ainsi que dans le domaine de traduction. C'est le lieu de souligner la nécessité de revoir les traductions, faites jadis par des orientalistes, concernant les Tarikh anciens sur lesquelles sont fondées

que l'aspect religieux et culturel. A cette constatation, s'ajoute une autre: les rapports distants entre les deux ensembles. Chacun d'entre eux a plus le regard tourné vers le Nord que vers le voisin immédiat. Ainsi quoique vivant dans une proximité immédiate qui devrait faciliter leur connaissance mutuelle et leurs rapports, les Africains et les Arabes, à l'exception de quelques milieux, se connaissent relativement peu.

L'ignorance est, du reste, partagée. Dans le Monde arabe, il ne fait pas de doute que l'ignorance de l'Afrique hors du Monde arabe, y est réelle. Si on excepte les milieux religieux en rapport direct avec leurs homologues du sud du Sahara, quelques intellectuels, quelques dirigeants politiques ou d'institutions qui travaillent directement en relation avec l'Afrique, et certains milieux d'affaires, l'ignorance est presque générale.

Peu de personnes dans le Monde arabe, même parmi l'élite cultivée, s'intéressent réellement à l'Afrique subsaharienne, à ses réalités souvent déformées par les médias internationaux, à ses civilisations, à son histoire, à ses potentialités. La grande masse des populations des pays arabes jugent souvent les Africains selon des critères erronés. Beaucoup ne sont pas loin de partager la vision négative prônée par les médias internationaux ; et certains sont prompts à juger les Africains sur la base de préjugés anciens. Aussi, les dirigeants des pays arabes, à quelques exceptions près, sont-ils été très peu attirés par l'Afrique. Leur regard est tourné plus vers le Nord occidental que vers le continent africain.

Dans ces conditions, un des défis majeurs dans les relations entre Monde arabe et Afrique est, d'abord, celui d'une compréhension mutuelle exempte de tout préjugé. De là tout devient impossible. Car l'incompréhension relative, je dis bien relative, elle est loin d'être générale, et ce colloque le prouve, peut être surmontée avec une bonne volonté réciproque et une meilleure connaissance mutuelle. C'est ce que le Roi Hassan II a compris en créant notamment, dans la continuité

mener une politique d'aliénation culturelle, en conjonction, souvent, avec le travail des missionnaires. L'école, qu'elle soit laïque ou confessionnelle, a souvent été utilisée comme instrument de cette politique, en inculquant aux élèves des stéréotypes, aussi tendancieux les uns que les autres, qui donnaient de l'Arabe et, plus généralement du musulman, une image totalement déformée. Par exemple, tous les leaders musulmans qui, au moment de l'effondrement des pouvoirs traditionnels, avaient pris le flambeau des résistances à la conquête coloniale étaient présentés comme des tyrans sanguinaires.

En Afrique centrale particulièrement, et dans certaines régions de l'Afrique orientale, les Arabes étaient présentés comme des chasseurs d'esclaves dont les puissances européennes étaient venues délivrer les populations. Un tel conditionnement ne pouvait ne pas laisser des séquelles dans la conscience collective de certains peuples, séquelles que le temps n'a pas toujours effacées.

L'Ecole des indépendances, même si elle ne reprend pas ce conditionnement a souvent fait peu faire y apporter des corrections, et en maints endroits, les missionnaires, appuyés par des pays occidentaux, continent de diffuser des messages qui sont loin de refléter les réalités de l'islam et des musulmans. Dans les pays à forte population musulmane, même si une telle propagande était difficile à faire accepter, il n'a pas manqué d'orientalistes, parmi les mieux disposés à l'égard de l'islam, pour lancer l'idée d'un islam Noir qui se distinguerait de celui pratiqué ailleurs, ce qui est out à fait contraire aux faits, mais qui a pu influencer certains intellectuels formés aux idées de l'école de la laïcité occidentale. Certes, les musulmans africains ont des spécificités, comme toutes les autres communautés musulmanes du monde, sans que cela soit matière à affecter la pureté de leur foi ou à modifier leurs pratiques rituelles. Aussi, y a-il une partie de l'Afrique au Sud du Sahara, qui ignore totalement le Monde arabe et les liens qui l'unissent à l'ensemble africain. Dans les pays musulmans subsahariens, ou l'islam prédomine, on ne voit souvent dans les relations avec le Monde arabe

## IV- Les Exigences du Renouveau de la Coopération entre le Monde Arabe et l'Afrique

Pour assurer le renouveau de la coopération arabo-africaine, il faut d'abord une volonté commune s'exprimant de manière concertée. Tout au long de cet exposé, je me suis efforcé de montrer combien les défis de la mondialisation, en particulier en rapport avec la culture et le développement, les y invitent. J'ai souligné aussi, tous les facteurs qui les rapprochent. Mais la volonté d'agir en commun ne suffit pas, si elle n'est pas fondée sur une véritable compréhension mutuelle. Or, celle-ci est loin d'être assurée de façon générale pour des raisons diverses.

S'il y'a une grande proximité spirituelle et intellectuelle, entre des couches nombreuses de populations des pays fortement islamisées du sud du Sahara et celles du Monde arabe, africain en particulier, et si la colonisation européenne a favorisé également des rapports entre intellectuels du nord et du sud ayant fréquenté les mêmes universités ou parlant les mêmes langues héritées de la colonisation, cela n'est pas vrai partout.

L'Afrique est, en effet, plus diversifiée dans sa partie subsaharienne que ne l'est le Monde arabe, même si celui-ci est confronté à des divergences politiques, souvent paralysantes, qui minent son unité. L'islam, religion dominante dans diverses régions de l'Afrique subsaharienne, cohabite avec d'autres religions et croyances, dans plusieurs pays où les sensibilités sont moins bien affirmées à l'égard du Monde arabe. A cela, il y a deux raisons fondamentales, l'une relevant de la période coloniale, la seconde ayant sa source dans la propagande intense menée de l'extérieur par des groupes puissants qui font de l'islam une sorte d'épouvantail.

Pendant la période coloniale, les autorités établies ont mené très souvent une politique systématique visant à isoler l'Afrique subsaharienne du Monde Arabe, y compris même le Monde arabe africain, avec pour objectif essentiel d'affaiblir l'islam pour mieux

Aussi, rejeter en bloc ce que la science et les technologies apportent de progrès pour la vie des hommes, ou ignorer les transformations économiques et sociales indispensables à notre époque, risqueraient de faire plus de mal que de bien. Le repli sur soi a conduit bien souvent à des impasses regrettables. S'il s'agit d'une volonté de préserver la foi, il faut souligner que celle-ci n'est jamais menacée quand elle est solidement ancrée dans la conscience et dans le cœur du croyant. Elle l'est moins encore quand il s'agit de satisfaire un besoin de savoir.

Au reste, il faut se rendre à l'évidence, qu'aucune culture n'est jamais figée ni isolée. C'est le propre de toutes les cultures d'évoluer avec le temps, et toutes les cultures peuvent se féconder mutuellement sans perdre leur essence propre, et l'islam, que partage le monde arabe et une grande partie de l'Afrique, en a fourni l'exemple tout au long de l'histoire.

Le Prophète (PSL) n'a-t-il pas conseillé aux fidèles d'aller, pour apprendre, jusqu'en Chine qui était à l'époque un des centres les plus féconds de la pensée et des innovations techniques les plus avancées ? A leur tour les universités et les penseurs du monde arabe et islamique n'ont-ils pas permis aux penseurs occidentaux d'accéder aux savoirs qui ont été quelques-uns des leviers essentiels de la Renaissance du XV° ? Une culture ne meurt que si ceux qui en sont les héritiers et les continuateurs, et qui ont la charge de l'enrichir et de la transmettre, s'en détournent ou négligent d'en inculquer les fondements à leurs descendants.

Aussi, parmi les défis que la mondialisation actuelle pose au Monde arabe et à l'Afrique, séparément et ensemble figurent, au premier plan, ceux du développement et de la culture y compris la culture scientifique. Ces défis, ils peuvent les relever ensemble, avec plus de chances de succès, s'ils ont la volonté de travailler en commun en mettant en valeur tout ce qui les rapproche, et en éliminant toute source éventuelle d'incompréhensions et de malentendus.

arabe. Car, il serait vain de le nier, la mondialisation a des effets, directs ou indirects, sur les cultures de tous les peuples. L'universalisation des cultures occidentales, de leurs valeurs, de leur esthétique, a été, et demeure, au centre de la mondialisation. Les moyens de communication de masse qui dominent le monde de l'information et leurs industries culturelles qui rayonnent sur la terre entière depuis le Nord, en sont devenus un des instruments majeurs. Aussi véhiculent-ils des messages qui sont loin d'être neutres. Faut-il, dès lors, se replier sur soi et refuser toute ouverture aux autres, alors que les contacts avec autrui peuvent être sources de connaissances et d'enrichissement mutuel ? On ne se replie sur soi que quand on doute de sa propre capacité à s'ouvrir, aux autres sans perdre sa propre identité.

La même interrogation vaut quand il s'agit de la maîtrise des sciences et des technologies qui est au centre de tout projet de développement économique et social. Les sciences et les technologies sont loin, elles aussi, d'être neutres. Elles influencent, plus ou moins directement, la culture au sens large du terme, puisque qu'elles véhiculent des modes de pensée, des formes d'organisation, des approches intellectuelles qui peuvent être en contradiction avec bien des aspects de certains héritages du passé. Mais la maîtrise des sciences et des technologies, comme l'indispensable popularisation de la culture scientifique ne paraissent pas incompatibles avec les valeurs fondamentales, spirituelles, humaines et sociales de l'Afrique et du Monde arabe, à conditions qu'ils sachent les utiliser pour le bien de leurs peuples, sans en être aliéné, comme l'exemple en a été fourni par l'islam des premiers siècles. En effet, l'islam a intégré, dès ses origines tout autant les savoirs arabes, perses, grecs qu'indiens ; il s'est enrichi sur le sol africain, comme en Andalousie et en Asie des apports les plus divers. Il a donné au monde quelques unes des bases essentielles des mathématiques qui sont au fondement du développement scientifique moderne, comme le positionnement du zéro et l'algèbre pour ne citer que deux exemples fort connus.

En tout cas, rien n'a été tenté jusqu'ici, du moins à ma connaissance, pour faire de l'espace que constitue l'Afrique et le Monde Arabe une entité plus intégrée sur le plan économique. Cependant, les capacités d'investissement sont énormes dans le Monde arabe et les potentialités de l'Afrique le sont également. Une union économique, fondée sur une volonté commune de promouvoir un développement intégré, permettrait de créer de vastes zones d'expansion industrielle et agricole disposant d'un marché qui atteindra dans la prochaine décennie plus d'un milliard de consommateurs, sans compter les possibilités de ventes à l'extérieur.

L'intégration économique constitue donc un des défis majeurs que la mondialisation pose à l'Afrique et au Monde arabe. S'ils savent le relever, ils pourraient créer les conditions d'une coopération plus étroite dans tous les autres domaines, certes pour le progrès de leurs peuples, mais aussi pour l'équilibre d'un monde. Ils pourraient, ensemble, jouer un rôle essentiel dans la préservation de l'indépendance de leurs pays, dans la recherche d'une paix universelle fondée sur la justice et sur la reconnaissance de l'égale dignité de tous les peuples.

Mais avec cette exigence une autre s'impose, tout autant pour les uns que pour les autres. Il s'agit de l'élimination des faiblesses qui freinent l'indispensable modernisation dans tous les domaines, et en particulier dans ceux des structures de production agricole et industrielle, des équipements et infrastructures de base, de l'éducation qui est la clé de la revalorisation des cultures. Celles-ci sont le moteur de tout développement, car les changements qu'impose le développement sont inopérants s'ils ne s'appuient pas sur la pleine conscience des hommes et des femmes responsables ayant le besoin et la volonté de les promouvoir.

S'adapter aux réalités du monde qui s'édifie et à certaines de ses exigences fondamentales, sans perdre son identité propre, est un autre des défis majeurs que confronte tout autant l'Afrique que le monde

transferts pour retours d'investissement, ou pour paiement des intérêts d'une dette excessive qui augmente sans cesse, souvent par un simple jeu d'écriture, sans apport appréciable d'argent frais.

Devant cette situation, une seule alternative s'offre : la création de larges espaces économiques susceptibles, par le regroupement des moyens et des efforts, de permettre de moderniser les appareils de production, de transformer sur place les matières premières et d'offrir aux secteurs de production de vastes marchés. Les Européens, les premiers, ont compris les nouveaux enjeux économiques. Aussi poursuivent-ils inlassablement depuis cinquante ans, l'intégration de leurs économies, et bientôt de leurs politiques, dans le cadre de Communauté Economique Européenne, ensuite dans l'union Européenne. On peut citer d'autres exemples, dont certains relativement récents, comme ceux des pays d'Asie du Sud Est, avec l'ASEAN, de l'Amérique du Nord avec l'ALENA, d'Amérique du Sud avec le MERCOSUR.

Concernant l'Afrique, au sens continental du terme, MohammedV, sentant l'évolution en cours et préoccupé par les effets désastreux des menées néocolonialistes qui se manifestaient déjà, dès la première année des indépendances de l'Afrique subsaharienne, en particulier au Congo Léopoldville, avait fait adopter par la Conférence de Casablanca, en janvier 1961, un vaste programme d'intégration et de mise en commun des efforts et d'entraide mutuelle, qui avait été accueilli favorablement. La création en mai 1963 de l'Organisation de l'Unité Africaine devait permettre d'avancer dans cette voie, mais de nombreux facteurs, qu'il serait long d'analyser ici, n'ont pas permis d'aller plus loin que des regroupements régionaux, dont certains sont assez bien avancés, alors que d'autres piétinent. L'Union Africaine, qui a pris le relais de l'OUA, a la même ambition, mais pour la réaliser, avec tous les Etats du continent, il faut que soit résolu le problème crucial du Sahara dans lequel l'OUA s'était engagée sans que l'on mesurât toutes les conséquences qui allaient en résulter.

suscitée par les puissances occidentales, favorisée par les institutions financières issues des accords de Brettons Wood et par les divers organismes spécialisés dans le développement mondial, est loin d'atténuer les disparités dans le monde, elle tend même à les aggraver.

Avec leurs multinationales qui rayonnent sur toute la planète, les puissances occidentales dominent, en effet, l'économie mondiale et dictent leur loi, sur le marché mondial façonné et contrôlé par elles. Les rapports d'inégalité que génère cette loi, ne laisse d'autre perspective, aux plus pauvres, qu'un endettement excessif, une dépendance et une pauvreté croissantes, que cherche à tempérer une aide humanitaire qui permet de placer, à bon compte, des surplus agricoles devenus encombrants du fait des frais de stockage, et ce, au détriment des paysans producteurs de vivres des pays assistés.

Pour les pays exportateurs de matières premières brutes, si on excepte le cas particulier des hydrocarbures, l'impasse devient de plus en plus évidente. Le cas de l'Afrique, par exemple, est significatif à cet égard : sa part dans le commerce mondial n'a cessé de s'amenuiser au point d'être réduite à une peau de chagrin. Les revenus qu'elle tire de ses exportations, ne cessent de diminuer par le jeu simple de la manipulation des cours en bourse. Ceux-ci baissent au gré des intérêts des courtiers et de leurs mandants, alors que les prix des biens d'équipement et de consommation importés des pays riches ne cessent d'augmenter.

A cette détérioration des termes de l'échange s'ajoute, la concurrence qui fausse le marché de certaines matières premières du fait des subventions que les pays riches accordent à leurs agriculteurs, ce qui pénalise d'autant le travail des paysans et des travailleurs de certains pays africains. Toute reproduction élargie, qui est à la base même du développement économique, devient d'autant plus difficile que les flux financiers venant de l'extérieur diminuent drastiquement. Ces flux deviennent même nuls, dans beaucoup de cas, du fait des

connaissent pas de frontières, la paix, la sécurité, la démocratisation de la vie internationale, le respect de la liberté et de la dignité des peuples, la sauvegarde de la pluralité des cultures, qui est au fondement de la compréhension mutuelle et du respect réciproque entre les peuples, et enfin les problèmes cruciaux du développement dont dépend, en définitive, l'élimination de l'ignorance, de la maladie et de la faim qui, aujourd'hui encore, affectent la plus grande partie de l'humanité.

Parmi les effets de cette évolution, j'insisterai plus particulièrement sur ceux qui concernent le développement et la culture, puisqu'ils concernent plus directement le sujet de cette rencontre.

Si l'on considère le développement, la lumière de ses résultats sur le plan mondial, une évidence s'impose. Au XV° siècle peu d'écarts séparaient la plupart des pays du monde sur le plan matériel. En cinq siècles, le processus de mondialisation a généré d'énormes inégalités entre les différents pays du monde. L'image qui apparaît est, désormais celle d'un monde divisé on zones de pauvreté et en zones d'opulence, avec au sein de chacune d'entre elles des disparités sociales souvent très grandes. Ces inégalités sont la conséquence directe de la manière dont les puissances dominantes actuelles ont su tirer partie des ressources et du travail des autres à leur profit. L'accumulation primitive du capital en Europe, a été, en grande partie le résultat de la traite des esclaves enlevés à l'Afrique, et de l'exploitation des ressources des Amériques. Puis c'est l'Afrique, l'Asie et l'Océanie qui fournissent des matières premières à bas prix, et des marchés privilégiés pour la production industrielle et pour les capitaux.

Aussi, à tous les stades de son développement, et jusqu'au milieu du XX° siècle, l'économie occidentale a bénéficié des situations privilégiées qui ont pu faciliter son essor, situations qui ne sont plus offertes à aucun des pays qui cherchent, actuellement, à développer leur économie. Aujourd'hui, l'intégration de tous les pays à l'économie mondiale, qui est une autre des caractéristiques de la mondialisation,

soviétique, les faiblesses des pays anciennement colonisés et la pusillanimité de l'Europe.

Une telle situation peut être lourde de conséquences pour différents peuples, et surtout pour la vie internationale. L'expérience historique a montré, en effet, que tous les grands empires ont eu tendance à ériger en normes universelles des principes et des règles conformes à leur vision et à leurs intérêts, pour chercher à les imposer aux autres. Dès lors tout est possible sur une planète dont la mondialisation fait un espace unique au sein duquel les idéologies manichéennes, qui émergent actuellement, peuvent mener à toutes les aventures.

**2- Les caractéristiques essentielles de la mondialisation et de la globalisation des problèmes de l'humanité et leurs effets.**

Une des caractéristiques essentielles de la mondialisation, c'est d'avoir élargi la communauté internationale aux dimensions de la planète entière. La circulation des personnes et des biens s'est considérablement accrue. Les échanges de marchandises, de capitaux, de savoirs et de savoir-faire se sont multipliés, de même que les brassages intellectuels. Le Commerce comme les flux financiers se sont internationalisés. Avec la révolution de l'informatique et des télécommunications, l'espace de la communication est devenu si ouvert qu'aucun peuple n'est plus isolé des autres. Aucun ne peut échapper, désormais, aux messages et aux produits des industries culturelles qui tendent à modeler l'esprit, la sensibilité et les comportements des individus et des peuples.

Les problèmes essentiels de l'humanité se sont ainsi globalisés, appelant, de plus en plus, des solutions de caractère universel. Parmi ces problèmes, je citerais ceux de la dégradation de l'environnement et de ses effets sur les climats, la question de l'exploitation des ressources marines, celle de l'eau, si cruciale dans les zones arides et semi-arides et qui risque à terme d'être le problème majeur de la survie de nombreux peuples, l'éradication à l'échelle mondiale de maladies endémiques qui sont d'autant plus préjudiciables à la santé publique qu'elles ne

premières et d'autres débouchés pour ses industries et pour ses capitaux. Elle entreprend alors, la conquête et la colonisation directe de l'Afrique, de l'Asie et de l'Océanie, au XIX° siècle et début du XX° siècle. Ses hommes politiques et ses intellectuels façonnent de nouvelles idéologies pour justifier ces conquêtes, auprès de leurs opinions publiques. La conquête coloniale aurait désormais pour but l'accomplissement d'un devoir de civilisation que l'Occident aurait à l'égard de peuples promus au rang de barbares, on disait plus couramment sauvages, parce que leur cultures, leurs valeurs, leurs croyances, en d'autres termes leurs civilisations, étaient différentes de celles de l'Europe.

La colonisation apparaît ainsi, à la fois, comme une entreprise d'exploitation économique, de domination politique, et comme un système de domination culturelle qui cherche à imposer aux peuples soumis la vision politique, la sensibilité et les valeurs occidentales. Elle devient, de ce fait une étape décisive dans le processus de mondialisation par ses caractéristiques totalisantes.

La première guerre mondiale renforce ce processus avec la chute de l'Empire ottoman qui ouvre à l'Occident les ressources pétrolières du Moyen Orient, et l'influence directe sur ses peuples. La seconde guerre mondiale, en déplaçant l'axe principal de l'Occident vers l'Amérique du Nord, que la première guerre mondiale avait déjà mise au devant de la scène internationale, accélère l'évolution.

Dans la deuxième moitié du XX° siècle, la concentration des savoirs et du savoir-faire, grâce aux nouvelles révolutions scientifiques et technologiques qui bouleversent tous les aspects de la vie et de l'activité humaine, assure, en même temps que l'argent et la puissance militaire, la prépondérance totale des Etats-Unis d'Amérique dans le monde. Les dernières décennies du XX° période qui marque l'apogée de la mondialisation actuelle, imposée par le dynamisme de l'Occident au reste du monde, donne la primauté à un seul Etat ; Celui peut se déployer désormais sans obstacle majeur avec la disparition de l'Union

## III- Le Processus de Mondialisation

### *1- La marche vers la mondialisation*

C'est à partir de la Renaissance, et la naissance du capitalisme moderne, que commence le processus qui aboutit à la mondialisation dont tous les peuples vivent aujourd'hui les effets, certes de manière différente. L'Europe entreprend, alors, la conquête du monde et l'exploitation de ses ressources et de ses hommes pour bâtir progressivement sa puissance économique, financière et militaire qui, de siècle en siècle, a assuré la primauté économique et financière de l'Occident sur tous les autres peuples, primauté qui est la caractéristique essentielle de la mondialisation.

Au XV° siècle, en effet, commence la circumnavigation, sur les côtes marocaines, qui, peu à peu, conduit les navires portugais chaque année plus loin vers le sud. Elle leur ouvre les régions côtières de l'Afrique de l'ouest, d'abord, puis celles de l'Afrique australe et enfin de l'Afrique orientale. L'Europe tirent des pays visités des produits variés, y compris de l'or et des hommes qui sont réduits à l'esclavage et déportés hors de chez eux.

A la fin du XV° siècle et au début du XVI° siècle, la conquête et la colonisation des Amériques et des Caraïbes, accentuent l'afflux de l'or, de l'argent, des pierres précieuses et des métaux tirés notamment des mines et des plantations, que met en valeur une main d'œuvre servile, et non rétribuée, d'Amérindiens, puis essentiellement d'Africains. Ces richesses permettent une accumulation et une extension du capital, sans précédent dans l'histoire de l'humanité, donnant ainsi à l'Europe les moyens d'un développement continu et prodigieux. Celui-ci est stimulé par les révolutions agricoles et industrielles successives qui amplifient considérablement les capacités de production et l'accumulation des richesses. La dynamique de l'économie capitaliste et l'émancipation de ses colonies d'Amérique, à la fin du XVIII° siècle et du début du XIX° siècle, amènent l'Europe à rechercher de nouvelles sources de matières

10.000.000 de kilomètres carrés, relève, à la fois de l'Afrique et du Monde arabe. Cette superficie est près de trois fois supérieure à celle des 12 pays arabes du Moyen Orient qui n'en comptent que 3.726.000. Toute l'Afrique du Nord, une partie de l'Afrique orientale et des îles de l'Océan indien sont africaines, tout en appartenant au Monde arabe, même si leurs populations ne sont pas toutes arabes.

La situation est encore plus nette, si on se réfère à la démographie. Alors que la population, du Proche Orient arabe, n'est que de 100 Millions d'habitants environ, les Etats arabes d'Afrique en rassemblent près du double avec, plus de 180 millions. Il faut ajouter, par ailleurs, la présence en Afrique subsaharienne, à l'ouest, au centre comme à l'est de plusieurs communautés d'origine arabe qui ne sont pas incluses dans ces statistiques, dont beaucoup de leurs membres, reste, se sont fortement métissés avec les populations locales.

Ainsi la population la plus nombreuse et les territoires les plus vastes du Monde arabe sont africains. Par ailleurs, de nombreux Etats de l'Ouest, du Centre et certains de l'Est, où la langue arabe et la culture musulmane sont très présentes, vivent en symbiose, depuis des siècles, avec le Monde arabe.

Dès lors on peut considérer que l'Afrique et le Monde arabe ont tout naturellement vocation à coopérer, à s'unir même, pour faire face aux nombreux défis que l'évolution actuelle du monde leur impose. Pour mesurer l'ampleur de ces défis, je voudrais retracer brièvement le processus de cette mondialisation, et insister particulièrement sur ses effets sur le monde et, notamment sur le développement et sur la culture.

En effet à tous les stades de ce processus, l'Afrique d'abord, le monde arabe ensuite, ont été les instruments du développement de l'Occident qui a largement profité de leurs ressources et de leur potentiel, tout en accroissant la vulnérabilité de plusieurs d'entre eux, obligés de s'engager dans des guerres de libération ruineuses pour leurs populations.

D'autre Etats musulmans très connus virent le jour, sur des territoires allant du fleuve Niger au Tchad, au Niger, au Nigeria, au nord du Cameroun et du Tchad par où les liens étaient établis avec le Soudan, une des escales principales des pèlerins se rendant à la Mecque. Les langues locales s'enrichissent alors de nombreux mots empruntés à l'arabe ; et la langue arabe devient la langue officielle écrite de ces Etats, et même de bien d'autres qui étaient loin de se réclamer de la loi islamique, et ce, jusqu'à la conquête coloniale. La législation adoptée par certains d'entre eux, quoique d'essence africaine, n'était pas loin de la pratique musulmane, des cadis rendant, bien souvent la justice au civil.

Au moment de la conquête, au XIX° siècle, les traités passés par les puissances coloniales avec les pouvoirs nationaux, dans la zone sahélo-soudanaise étaient rédigés généralement en langue arabe. Il s'était développé, du reste, une abondante littérature en langue arabe ou dans les langues africaines écrites à l'aide de l'alphabet arabe, littérature qui continue de s'enrichir de nos jours de nouvelles œuvres, malheureusement peu connues dans le Monde arabe.

Cette histoire commune a permis de créer des liens particuliers entre une partie importante de l'Afrique subsaharienne et le Monde arabe. Malgré les diverses mesures prises par le système colonial et l'intense propagande des Missionnaires, en vue d'isoler l'Afrique subsaharienne de l'Afrique du Nord et du Monde arabe et même de détruire les sentiments islamiques chez les jeunes générations, ces liens se sont maintenus. Ils se sont affermis au moment des indépendances, sans atteindre sans doute, les niveaux requis par la géographie, l'histoire et les affinités culturelles et religieuses.

Du reste, aux facteurs historiques et culturels, il faut ajouter une autre raison d'agir en commun : une grande partie du Monde arabe est africaine. Sur 22 Etats membres de la Ligue Arabe, dix appartiennent au continent africain. Près du tiers du territoire africain, soit environ

qu'entreprennent les souverains, les notabilités politiques, les élites intellectuelles et même les simples croyants. Certains d'entre eux en profitent pour effectuer des séjours prolongés afin de mieux s'imprégner des savoirs et de la culture islamiques. Des commerçants, des intellectuels, des architectes, viennent du nord pour des séjours plus ou longs. D'autres s'y établissent dont on trouve encore de nos jours des descendants.

Pendant tout le Moyen âge européen, et jusqu'à la conquête coloniale, le monde musulman est, en effet, un vaste espace ouvert où les intellectuels arabes et non arabes, blancs et noirs, peuvent circuler librement, s'instruisant et échangeant des idées, s'enrichissant chacun des expériences des autres. Les intellectuels du monde arabe, africain ou d'ailleurs, comme El Békri, Hassan Ibn Mohamed dit Léon l'Africain, Ibn Khaldoun, qui parcourent l'Afrique subsaharienne, observent, notent et publient des ouvrages qui sont, avec ceux d'érudits africains noirs comme Mahmoud Koti, Es Saadi et Ahmed Baba, tous originaire de Tombouctou, des sources essentielles de l'histoire de l'Afrique occidentale.

Au sujet de Tombouctou, il faut faire une mention spéciale de l'université Sankoré qui avait acquis une grande notoriété, grâce notamment, à des érudits comme Ahmed Baba, qui a enseigné au Maghreb, et dont les œuvres enrichissent encore, de nos jours, des bibliothèques marocaines. D'autres centres d'études islamiques furent créés en maints autres endroits, de l'Afrique de l'Ouest. Je citerai, à titre d'éxemples, ceux du fouta Djallon, dans République actuelle de Guinée, du Mali, du Sénégal où l'Université de Pire au Nord-est de Dakar joua un rôle primordial sur les plans intellectuel et religieux. Certains de ses étudiants ont été les initiateurs d'une des premières révolutions ayant abouti à la création, au XVIII°, d'une République musulmane dans le Fouta Toro, sur la vallée du Sénégal, après les Etats du Boundou, au Sénégal oriental et du Fouta Djallon, en Guinée.

chargés vers la Péninsule Arabique et la Perse, mais aussi vers l'Inde et même la Chine lointaine. C'est depuis ces ports que les Portugais furent guidés par des pilotes musulmans vers l'Inde, en 1498. Une langue commune s'y crée, le swahili, faite d'un mélange de langues africaines et de plus de 60% de mots arabes, idiome devenu aujourd'hui langue officielle de divers pays de l'Afrique orientale.

Au centre, l'islam se répand à travers deux axes principaux, l'un partant du Kordofan, au Soudan, vers le Tchad, le second de la Libye et de la Tunisie vers le Tchad, le Niger et le nord du Nigeria.

Par ce second axe l'islam atteint l'Afrique de l'Ouest. Mais la pénétration de l'islam en Afrique de l'Ouest s'est faite surtout à partir du Maghreb, et le rôle des Almoravides y fut déterminant. Au XI° siècle, ils ont islamisé l'ancien Ghana et établi sur le Maroc un vaste empire s'étendant du Fleuve Sénégal au cœur de l'Espagne, avec pour centre Marrakech. Il est inutile de souligner l'importance des routes reliant le Maghreb, et essentiellement le Maroc, à l'Afrique de l'Ouest, à la fois pour le commerce des marchandises et dans la circulation des idées.

Les musulmans autochtones de l'Afrique de l'Ouest, Peuls ou Foulbé en particulier, jouent à leur tour, un rôle de premier plan dans la propagation de l'islam, du Sénégal et de la Mauritanie, à l'ouest, au Nigeria et au Nord du Cameroun, et même au delà, à l'est, créant notamment des Etats musulmans dont les populations demeurent encore de nos jours de fervents musulmans. L'adoption de l'islam, il faut le rappeler, ne fut ni le résultat d'une conquête ni celui de l'emploi de la force ou d'une quelque forme de coercition. Les Africains sont venus à l'islam par la force de conviction que représente le message divin transmis par le Coran, qui a emporté d'abord l'adhésion des classes dirigeantes, puis celle des peuples.

Avec l'islam des relations commerciales, intellectuelles, spirituelles, se renforcent entre l'Afrique subsaharienne et le monde arabe, surtout maghrébin, grâce notamment au pèlerinage à la Mecque

Aussi, des communautés arabes vivaient-elles dans différentes parties du continent africain et plus particulièrement dans le Nord. De même des communautés africaines importantes se sont établies très tôt dans la Péninsule arabique, et le peuplement de l'Afrique du Nord a toujours été tout autant blanc que noir, celui-ci particulièrement dans les régions méridionales, même si ce dernier y était minoritaire. Rien, du point de vue culturel ne distinguait les uns des autres, sauf que certaines communautés voisines des populations subsahariennes avaient quelques expressions artistiques semblables à celles du sud du Sahara.

Mais, c'est avec l'avènement de l'islam, au VII° siècle, qu'une grande partie du continent a commencé à entrer en osmose avec le Monde arabe. C'est en l'An 20 de l'Hégire, correspondant à l'An 640 de l'ère chrétienne, que les Musulmans pénètrent en Egypte alors occupée par les Byzantins. Toute l'Afrique du Nord, de la Mer Rouge à l'Océan Atlantique, passe à l'islam en quelques décennies. Puis la progression se fait, certes plus lente, mais inexorablement vers le sud, par les axes traditionnels que sont, à l'est, la vallée du Nil, la Mer Rouge et le Détroit de Bab Al-Mandab et le Golfe d'Aden, au centre et à l'ouest, par les pistes transsahariennes. Ces pistes, qui passent par les oasis, empruntent les lits asséchés des oueds de la période humide du grand désert qui sépare l'Afrique du Nord de l'Afrique subsaharienne. En Effet, le Sahara n'a jamais constitué une barrière infranchissable. Comme une mer, les caravanes, la traversaient, sans doute avec plus de difficultés que les navires sur l'océan, franchissant son immensité d'un port saharien du Nord à un autre du Sud, et vice versa.

Entre le X° siècle et le XV°, l'islam s'est répandu sur toute la côte orientale de l'Afrique, de la Corne jusqu'au Mozambique, et à l'intérieur des terres jusqu'en Ethiopie, 14 l'ouganda et le Malawi. Il atteindra même le Bassin du Congo. Des villes musulmanes florissantes se créent, permettant un commerce maritime intense. De Mogadishu, Kilwa, Zanzibar, Malindi, Mombassa, Sofala, partent des bateaux

et le Monde arabe, en deuxième partie le processus de mondialisation et ses effets et je terminerai, en soulignant l'importance que revêt la coopération entre l'Afrique et le Monde arabe, ses difficultés et les possibilités de l'améliorer.

**II - Les facteurs qui militent en faveur du renouveau de la coopération entre Afrique et monde arabe.**

Quand on examine les relations entre le Monde arabe et l'Afrique, la première constatation qui s'impose est que, si bonnes qu'elles soient, ces relations ne sont pas à la hauteur de ce qu'elles auraient pu être, surtout dans la conjoncture mondiale actuelle. La nouvelle donne internationale résultant des dissymétries créées par la mondialisation au stade où elle est arrivée impose de larges unions entre Etats ayant des affinités et des intérêts communs. C'est, dans une large mesure, le cas de l'Afrique et du monde arabe auxquels la conjonction des efforts permettrait de faire face ensemble, avec des meilleures chances de succès, aux défis du présent à ceux d'un avenir encore plein d'incertitudes.

De nombreuses raisons d'ordre géographique, historique, culturel, économique les y invitent. Parmi ces raisons vient en premier lieu la proximité. Celle-ci a permis que s'établissent des rapports de plus en plus étroits et des relations humaines et économiques plus ou moins suivies depuis les temps les plus anciens.

Les échanges se faisaient par le nord du Sinaï et l'isthme de Suez, la Mer Rouge et le détroit de Bab Al-Mandab qui donnent accès, depuis la Péninsule arabique, à L'Egypte et à la Corne d'Afrique, puis à l'intérieur du continent. On sait, du reste, les liens très étroits, politiques, économiques et culturels qui ont uni le Yémen ancien et l'Ethiopie où, sur instruction du Prophète, purent trouver refuge, avant même l'hégire, les premiers musulmans persécutés à la Mecque, et l'hospitalité qu'il y reçurent.

## *Réflexions sur les facteurs qui favorisent la coopération Arabo-Africaine et les exigences de cette coopération à la lumière de la mondialisation.*

**AMADOU MAHTAR M'BOW**

### I - Introduction

La géographie et l'histoire ont crée entre le Monde arabe et l'Afrique des liens si étroits, qu'ils justifieraient à eux seuls, dans les circonstances actuelles, une rencontre comme celle-ci.

Aussi faut-il savoir gré à Monsieur Mohamed Achaari, Ministre de la Culture du Maroc d'avoir invité des intellectuels appartenant aux deux aires, culturelles pour débattre ensemble d'un thème aussi important que celui qu'il propose à notre réflexion, à savoir : « Le Monde arabe et l'Afrique : défis du présent et de l'avenir ».

Que cette réflexion soit axée sur les défis que la mondialisation pose à la culture et au développement en souligne l'importance et l'opportunité.

Les défis que confrontent l'Afrique et le Monde arabe, dans la perspective du thème de ce colloque, peuvent être classés en deux catégories : les défis relatifs au renforcement de la coopération entre l'Afrique et le Monde arabe pour faire ensemble face aux exigences de l'évolution actuelle du monde, d'une part, les défis que la mondialisation pose aux africains et aux Arabes dans leurs relations réciproques. C'est compte tenu de cette double approche que je voudrais faire quelques réflexions. Je compte aborder dans une première partie les facteurs qui militent en faveur du renforcement de la coopération entre l'Afrique

*Magassouba, Moriba. L'Islam au Sénégal : Demain les mollahs ? Paris : Editions Karthala, 1985.*
*O'Brien, Donald B. Cruise. "Charisma Comes to town : Mouride Urbanization, 1945-1986.".In Charism and Brotherhood in African Islam, edited by Donald B. Cruise O'Brien and Christian Coulòn, 135-155. Oxford : Clarendon Press, 1988.*
*O'Brien, Donald B. Cruise: The Mourides of Senegal : The Political and Economic Organization of an Islamic Brotherhood. London : Oxford University Press, 1971.*
*Kane, Cheikh Amadou. Ambiguous Adventure. New York : Collier Books, 1969.*
*Sylla, Assane. La philosophie morale des Wolof. Dakar : Sankoré, 1978.*
*Islamologie*
*Mbacké, Khadim. Soufisme et confréries religieuses au Sénégal,Dakar, 1995*
*Mbacké, Khadim . Daaras et droits de l'enfant ,Dakar,1994*
*Mbacké, Khadim . Le Pèlerinqge à La Mecque : le Cas du Sénégal1886-1986,thèse de doctorat d'Etat , Dakar,1991*
*Mbacké, Khadim . Pèlerinage à La Mecqueet plitique , Revue d'Histoire maghrébine,2002.*
*Mbaye,Ravane.-L'Islam au Sénégal,thèsede 3e cycle,Dakar,1974.*
*Rapport du Commissaire du Gouvernement au pèlerinage ,Archives Nationales du Sénégal (1951-1954) Archives Nationales du Sénégal.*
*Samb,Amar.-La Littérature sénégalaise d'expression arabe,IFAN Dakar, 1972.*
*Samb,Amar.-l'Islam et l'histoire du Sénégal,bulletin de l'IFAN,1972*
*Dumond, Fernand.-La pensée religieuse d'Ahmad Bamba,NEA Dakar,1975.*
*Monteil,Vincent.-L'Islam Noir, Paris1964.*

**Eléments bibliographiques**

*Barry, Boubacar. Le Royaume du Waalo : Le Sénégal avant la conquête . Paris : François Maspero, 1972.*

*Barry, Boubacar. La Sénégambie du XVè au XIXè siècle : Traite négrière, Islam et conquête coloniale .Paris : Editions l'Harmattan, 1988.*

*Cohen, William B. Rulers of Empire the french colonial service in Africa. Stanford : Stanford University Press, 1971.*

*Crowder, Michael. Senegal : A study of French Assimilation Policy : London : Oxford University Press, 1962.*

*Delavignette, Robert. Freedom and authority in french West Africa. London : Oxford University Press, 1950.*

*Diagne, Pathé. Pouvoir traditionnel en Afrique Occidentale . Paris : Présence africaine, 1967.*

*Diop, Cheikh Anta . L'Afrique noire pré-coloniale . Paris : Présence africaine, 1960.*

*Gellar, Sheldon. Structural Changes and Colonial Dependency : Senegal, 1885-1945.*

*Johnson, G. Wesley, Jr. The Emergence of black politics in Senegal : The struggle for power in the four communes, 1900-1920. Stanford : Stanford University Press, 1971..*

*Robinson, David W. Clerics and Chiefs : The History of Abdul Bokar Kane and the Futa Toro. New-York : Oxford University Press, 1976.*

*Robinson, David : The Holy War of Umar Tal : The Western Sudan in the Mid-nineteenth Century. Schachter-Morgenthau, Ruth. Political Parties in French-Speaking West Africa. London : Oxford University Press, 1964.*

*Coulon, Christian. Le marabout et le prince : Islam et pouvoir au Sénégal . Paris : Pedone, 1981.*

*O'Brien, Donald B. Cruise: Saints and Politicians : Essays in the Organization of a Senegalese Peasant Society. Cambridge : Cambridge University Press, 1975.*

dans les études africaines comme l'Institut des Etudes Africaines de Rabat pour valoriser et diffuser les manuscrits arabes de l'Afrique Noire. Cependant il arrive souvent que les ouvrages publiés soient localement écoulés par l'éditeur !

14 L'Ecole sénégalo-turque, créée il y a quelques années refuse du monde en raison de la qualité de son enseignement.

15 Il est regrettable que des manœuvres politico-judiciaires aient abouti à la fermeture de cet important établissement.

Le financement de programmes communs de recherche et de la publication des manuscrits arabes d'Afrique Noire, l'échange de produits culturels (films, programmes de radio et de télévision, pièces de théâtre, livres, etc.) et la systématisation de l'organisation des semaines culturelles peuvent faire progresser la coopération.

## Notes

1 Presque toutes les familles maraboutiques se réclament une origine arabe et certains sont même considérés comme des descendants du Prophète.

2 L'éminent historien sénégalais,Pr. Omar Kane, soutient que les Africains de l'Ouest importaient des idoles à partir de l'Arabie.

3 Christian Coulon, Les Musulmans et le Pouvoir en Afrique Noire. Karthala, Paris, 1983, p. 106.Coulon affirme (p. 128) la présence de 82 étudiants sénégalais à al-Azhar en 1962

4 Voir notre thèse intitulée : le pèlerinage à La Mecque au Sénégal 1886-1986 et notre article : Pèlerinage et politique, Revue d'Histoire Maghrébine,n°109 janvier 2003.

5 Ce fut le cas du calife général des Mourides, El-hadj Fadil Mbacké qui, en 1965, envoya cinq de ses fils et neveux à l'Université Islamique de Médine.

6 Ces chiffres donnés à titre indicatifs sont largement dépassés. Ceci est particulièrement vrai pour l'UIM qui accueille chaque année une dizaine d'étudiants sénégalais.

7 En réalité la licence arabe (bac + 4 ans) équivaut à notre maîtrise. Quant au « Majestère », il est l'équivalent de notre doctorat du 3e cycle. Le seul doctorat existant dans la plupart des pays arabes équivaut à notre doctorat d'Etat.

8 Les arabisants formés à l'Université de Dakar ne sont pas concernés par cette étude consacrée à ceux ayant fait la totalité ou la majeure partie de leurs études en Arabe.

9 Créé en 1987 à l'initiative d'un marabout local, ce lycée est financé et géré par le Ministère des Affaires islamiques du Royaume d'Arabie saoudite.

10 L'essentiel de l'effort mené dans ce sens est dû à l'initiative d'universitaires marocains particulièrement intéressés à cette forme de coopération.

11 Une multitude d'ONG arabo-musulmanes interviennent au Sénégal dans le domaine de l'enseignement et de l'action sociale.

12 Citons à titre d'exemple la participation au budget de fonctionnement de l'Organisation des Radiodiffusion et Télévisions Islamiques (ISBO) . Nous avons découvert, lors de notre passage au siège de cette institution que plus de la moitié des pays membres n'étaient pas à jour de leur cotisation.

13 Des efforts louables sont déployés par certaines institutions arabes spécialisées

Beaucoup de bourses d'études ont été octroyées à des centaines de ressortissants de ce pays. Ce qui a permis de former non seulement d'excellents professeurs d'arabe, mais aussi des médecins, des ingénieurs, des juristes , des économistes, etc. Et une fois leur formation terminée, ceux-ci ont pu apporter une grande contribution au développement de leur pays, notamment dans le domaine de l'enseignement de l'arabe aussi bien dans le cadre de l'enseignement public que dans le cadre de l'enseignement privé.

La coopération universitaire se développe lentement et donne lieu à un échange de professeurs et à l'accueil d'étudiants dans nos structures respectives d'enseignement supérieur.

Cependant, de nombreuses difficultés bloquent encore la coopération culturelle entre le Sénégal et les pays arabes. Certaines sont structurelles et d'autres conjoncturelles. Les résidus des préjugés reçus de la colonisation inspirent encore la réticence, l'immobilisme et le manque d'enthousiasme à certains responsables africains, d'où l'absence de la volonté politique et partant d'une politique claire en matière de coopération.

Toutefois, il est vrai que la situation économique du Sénégal ne lui permet pas de supporter sa part des charges financières de la coopération.

C'est pourquoi nous pensons que les institutions financières communes devraient mener un effort particulier pour donner une nouvelle impulsion à la coopération. Pour ce faire, Il faut accorder des bourses d'excellence aux étudiants méritant pour leur permettre de faire des études dans les universités africaines. Il faut aussi financer des programmes de séjours scientifiques qui permettent à des enseignants/ chercheurs arabes et africains d'enseigner dans les universités des pays concernés et de participer à l'encadrement des étudiants.

Les institutions financières communes devraient être invitées à octroyer des bourses d'excellence aux meilleurs étudiants arabes voulant s'inscrire dans une université d'Afrique Noire et vice versa.

Les organisations internationales comme l'ISESCO et l'ALESCO devraient intensifier leurs efforts dans le sens de la réalisation de projets de recherche communs et dans celui de la publication de leurs résultats et leur diffusion en Afrique Noire...

Ces mêmes institutions devraient œuvrer davantage pour assurer une meilleure circulation des produits culturels arabes et africains comme les films, les œuvres d'art, les livres, les journaux, les éléments audiovisuels, les pièces de théâtre, etc.

La question des manuscrits arabes en Afrique Noire devrait préoccuper les institutions arabes compétentes au plus haut point. Car on sait que ces manuscrits, malgré leur importance scientifique et historique, sont mal conservés et risquent d'être définitivement perdus;

La coopération culturelle devrait faire de la bonne conservation de ces manuscrits et de la publication des meilleurs d'entre eux l'une de ses priorités...

Enfin il convient de savoir que, compte tenu de la situation économique des pays africains et du poids encore écrasant de l'héritage colonial d'une part et de la rude concurrence entre la civilisation arabo-musulmane et la civilisation occidentale d'autre part, les pays arabes nantis devront accepter de supporter l'essentiel du coût financier de la coopération culturelle arfo-arabe.Ce serait la meilleure expression de leur foi en l'universalité de leur civilisation.

## Conclusion

Depuis son indépendance en 1960, le Sénégal est un des pays qui ont manifesté le plus grand intérêt pour la coopération arabo-africaine et en ont tiré le plus grand profit.

De ce fait, l'arabisant, malgré le combat culturel qu'il mène chez lui, a du mal à occuper dans la société une place qui lui permette d'avoir une influence déterminante.

En réalité, la coopération semble souvent évoluer à sens unique. Ceci est souvent le cas à propos de l'échange des produits culturels : les livres arabes abondent dans nos marchés, mais les livres écrits par des ulémas sénégalais sont souvent mal connus dans le monde arabe. Dans certains cas, la production intellectuelle africaine en arabe a du mal à être reconnue digne d'être diffusée[13].

Par ailleurs, les films arabes sont quasiment absents des écrans du Sénégal. En général, la participation arabe aux manifestations culturelles internationales organisées au Sénégal reste faible. Quant à la présence sénégalaise sur la scène culturelle arabe ( exposition, foire du livre, festivals ; théâtre, etc.) elle demeure presque nulle.

L'absence d'intérêt pour le tourisme culturel constitue un obstacle. En effet, contrairement aux occidentaux qui effectuent très fréquemment des séjours d'exploration culturelle qui les conduisent jusqu'aux villages africains les plus reculés, les arabes ne semblent pas particulièrement attirés par le tourisme en Afrique Noire...

**Suggestions**

Depuis quelques années des privés étrangers investissent dans le secteur de l'éducation au Sénégal[14] Et nous pensons que les arabes devraient profiter de cette opportunité pour créer un réseau d'écoles modernes allant du pré-scolaire à la terminale. Le succès d'une telle opération ne fait l'objet d'aucun doute, compte tenu de l'attachement des populations à la langue arabe et vu la réussite spectaculaire de l'expérience de l'école du Centre Social Sénégalo-Kuweïtien[15].

Il convient d'orienter la coopération de manière à permettre aux bacheliers de pouvoir poursuivre plus facilement leurs études dans les universités sénégalaises et arabes.

**Obstacles**

Il existe bien un facteur psychologique qui ne joue pas en faveur du développement de la coopération culturelle entre l'Afrique Noire et le monde arabe. Il s'agit de la persistance de préjugés hérités de la colonisation. En effet, les colonisateurs avaient inculqué aux élites africaines une certaine méfiance à l'égard de l'arabe auquel on avait collé l'image d'un homme foncièrement esclavagiste. Et la situation des communautés noires dans certains pays arabes devaient encore être exploitée pour alimenter les dits préjugés.

Certains responsables restent encore visiblement influencés par cette réalité. C'est pourquoi ils ne manifestent pas le moindre enthousiasme envers les initiatives allant dans le sens de l'approfondissement de la coopération afro-arabe. Ceci explique largement le manque de volonté politique qui se traduit par le refus de participer au financement des instruments de la coopération.[12]

L'absence d'une vision commune de la coopération fait que chaque partenaire lui donne le contenu qui lui convient le mieux. Il en résulte le manque d'adéquation entre les besoins et l'offre. Certains donnent généreusement des ouvrages religieux à des institutions qui, en réalité, manquent d'ouvrages pédagogiques ou de référence précis dans des domaines spécialisés. De même on s'empresse à offrir des bourses pour faire des études littéraires ou religieuses alors que le pays bénéficiaire a besoin d'ingénieurs agronomes par exemple. Parfois on envoie des prédicateurs à un moment où l'on a surtout besoin de professeurs pour former des formateurs et pour encadrer des étudiants du 3e cycle...

En réalité, les pays arabes les plus généreux n'envisagent la coopération que sous son angle religieux. Il faut, selon eux, former le maximum d'agents religieux imbus naturellement de la vision de l'Islam qui prédomine dans le pays où l'on est formé. D'autres, mus par des considérations purement nationalistes, ne semblent s'intéresser qu'à la diffusion de leur langue et culture.

- L'Institut Islamique et la grande mosquée de Dakar (Maroc,Arabie Saoudite)
- L'Institut Islamique Supérieur de Louga (Arabie Saoudite)
- Centre Culturel et Social Fayçal de Dakar (Arabie Saoudite)
- Complexe socio-culturel Abd Allah ibn Abd al-Aziz de Tivaouane (Arabie Saoudite)
- Complexe scolaire Keur Soultan de Dakar (Arabie Saoudite)
- Faculté des Etudes Islamiques de Pir (Libye)
- L'Ecole Imam Muhammad ibn Saoud de Dakar (Arabie Saoudite)
- Complexe Fahd ibn Abd al-Aziz pour les conférences (Arabie Saoudite)
- Centre socio-culturel Sénégalo-kuweitien de Dakar (Kuweit)
- Complexe socio-culturel islamique de Ngégnène (Libye)
- organisation de stages de formation pour les imams et les enseignants du Sénégal.
- fourniture de livre : ex L'Egypte offre entre 1996 et 1998, 47 000 livres distribués aux institutions suivantes : l'Université, l'Ecole Normale Supérieure, l'Ecole Franco-arabe, les Inspections d'Académie, Les IDEN, et l'Institut Islamique de Dakar.
- assistance financière de 3 700 000 000 F CFA pour le développement des écoles franco-arabes (construction de salles de classes et équipement), amélioration des enseignements religieux et financement de séminaires.(B.I.D)
- ouverture d'une Faculté internationale de Théologie à Pire ouverte aux étudiants de la sous-région auxquelles elle octroie des bourses (Libye)
- création d'un centre de formation à Grand-Médine. (Libye)
- construction d'un complexe islamique d'une valeur de 120 millions de francs à Nguénième (Libye)

**Résultats**

- création de centres de lecture pour promouvoir la culture islamique et lui assurer une plus large diffusion
- organisation de stages de formation pour les enseignants en langue arabe.
- organisation d'ateliers sur la communication et les nouvelles technologies. participation à l'équipement des musées ( Musée Historique de Gorée )
- fourniture de matériels audio-visuels didactiques
- échange de conférenciers
- assistance technique : envoi de professeurs pour former de futurs enseignants (ENS) et pour encadrer des étudiants du 3e cycle (FLSH)
- envoi de professeurs pour enseigner dans des lycées privés (Azhar, Egypte)
- création d'établissements scolaires : ISI de Louga, Université de Pir (Arabie Saoudite, Libye)
- octroi de bourses d'étude et formation (Arabie Saoudite, Kuweit, Egypte, Maroc, Tunisie , Qatar, Irak, Syrie, Algérie, Libye, Soudan).
- publication d'ouvrages et/ou d'articles écrits en Arabe par des sénégalais (Maroc, Arabie Saoudite, Qatar, Algérie, Libye, Soudan
- réalisation de projet de recherche et publication de leur résultats (ISESCO,ALESCO,IEA)
- co-organisation de manifestations scientifiques internationales.
- financement de projets culturels initiés par des structures de la société civile (exemples :UPIS : centre Fayçal, Centre Abdalla/ Falah : centre de Colobane /JIR : écoles primaires.../FSSI : projet Patte d'Oie/CERID : complexe socio- culturel du Cerf Volant)
- financement de la construction ou de la réfection ou de l'équipement d'établissements socio-culturels :

On note que les marocains restent les plus nombreux. Ceci nous semble du à cinq facteurs :

- la qualité des relations politiques existantes entre les deux pays;
- la similitude existante entre les deux systèmes éducatifs ;
- le partage du français ;
- la proximité du Maroc ;
- la difficulté d'accéder à l'enseignement supérieur au pays d'origine.

Les tableaux ne mentionnent pas la Mauritanie, bien que des étudiants de ce pays aient toujours fait leurs études à Dakar, notamment en médecine. L'omission est peu-être dû au fait que, au Sénégal la Mauritanie est considérée comme un pays plus africain qu'arabe. Toujours est-il que la présence de la Turquie sur les tableaux est moins explicable.

**Les semaines culturelles**

Des semaines culturelles arabes ont été organisées à Dakar dans le but de promouvoir les relations culturelles arabo-sénégalaises.Ces manifestations ont été marquées par des conférences, des expositions de livres universitaires et des soirées culturelles.

Cette forme d'échange s'est avérée très populaire et pourrait avoir un impact profond et contribuer efficacement au rapprochement des peuples arabes et africains. Elles étaient toutes initiées et presque entièrement prises en charge par la partie arabe. Car les moyens financiers du Sénégal ne lui permettent pas d'organiser de pareilles manifestations dans les pays arabes.

**Coopération multilatérale**

Différentes manifestations culturelles sont initiées par des institutions nationales et internationales comme les organismes subsidiaires de l'OCI et des organisations non gouvernementales[11].

## *Statistiques des boursiers arabes 2001-2002 (niveau national)*

| NATIONALITE | Garçons | Filles | Total |
|---|---|---|---|
| Maroc | 124 | 129 | 253 |
| Soudan | 2 | 0 | 2 |
| Tunisie | 12 | 14 | 26 |
| Egypte | 0 | 1 | 1 |

| Natio-nalité | Méde-cine | Phar-macie | c.den-taire | Infor-matique | P.C | Cesti | Droit | français |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| Maroc | 67G et 57 F | 49G et 70f | 6G et 2 F | 1 G | 0 | 1 G | 0 | 1G |
| Soudan | 0 F | 0 F | 0 F | 0 | 0 | 0 | 1G | 1G |
| Tunisie | 6G et 11F | 3G et 2 F | 1 F | 0 | 0 | 0 | 0 | 0 |
| Egypte | 0 | 0 | 0 | 0 | 1 F | 0 F | 1 F | 0F |

P.C. Physique et chimie

## *Statistiques des boursiers arabes 2000-2001 (niveau national)*

| NATIONALITE | Garçons | Filles | Total |
|---|---|---|---|
| Maroc | 79 | 96 | 175 |
| Tunisie | 9 | 11 | 20 |
| Egypte | 0 | 1 | 1 |

| | Médecine | Pharmacie | C. dentaire | P.C. |
|---|---|---|---|---|
| Maroc | 32G et 34 F | 41 G et 59 F | 6 G et 3 F | 0 |
| Tunisie | 8 G et 10 F | 1 G et 1 F | 0 | 0 |
| Egypte | 0 | 0 | 0 | 1 F |

G : Garçons

F : Filles

## Apport du Sénégal

Le Sénégal contribue à la formation d'étudiants venus des pays arabes africains comme le Maroc, l'Egypte et la Tunisie. Les statistiques officielles révèlent que des ressortissants de ces pays poursuivent leurs études à l'Université Cheikh Anta Diop de Dakar dans les domaines de la médecine, de la pharmacie, de la chirurgie dentaire, de l'informatique, du tourisme, du français, du droit, des sciences physiques, de la chimie et des sciences de l'information comme l'indiquent ces tableaux qui concernent les trois dernières années :

***Statistiques des boursiers arabes au 12-06-2003 (niveau national)***

| Nationalité | Garçons | | Filles | | total |
|---|---|---|---|---|---|
| | UCAD | Privé | UCAD | Privé | |
| Maroc | 152 | 2 | 149 | 0 | 301 |
| Tunisie | 13 | 0 | 12 | 0 | 25 |
| Turquie | 1 | 0 | 3 | 0 | 4 |

| | Médecine | Pharmacie | C. dentaire | Informa-tique | Tourisme | français |
|---|---|---|---|---|---|---|
| Maroc | 92G et 74 F | 49 G et 73 F | 9G et 2 F | 3G | 1G | 0 |
| Tunisie | 12 g et 11 F | 1 G et 1 F | 0 | 0 | 0 | 0 |
| Turquie | 0 | 0 | 0 | 0 | 0 | 1G et 3 F |

G : Garçons

F : Filles

attachement à la culture islamique, le Ministre convoqua en 1986 les états généraux de l'enseignement arabo-islamique pour discuter de toutes les difficultés qui entravent sa bonne marche.

A l'issue de cette rencontre, une commission nationale pour la réforme de l'enseignement privé arabe a été mise sur pieds pour procéder, entre autres, à la réforme de la législation scolaire de manière à l'adapter à l'enseignement islamique, à l'uniformisation des diplômes qui ne sont pas, par ailleurs, reconnus par l'Etat et à l'élaboration de manuels scolaires en langue arabe.

Le Ministre avait également entrepris une série d'actions pour l'amélioration des conditions matérielles des enseignants en langue arabe et l'admission des diplômés des universités arabes à l'Ecole normale supérieure de l'Université de Dakar.

**Coopération universitaire**

Depuis deux décennies, des efforts sont menés pour redynamiser la coopération universitaire entre le Sénégal et des pays arabes. Dans ce cadre, on a tenté de définir un cadre institutionnel réaliste, clair et précis[10]. Et plusieurs accords ont été établis à l'initiative d'universités marocaines en vue de réaliser les objectifs suivants :

- élaboration de programmes de recherche communs ;
- échange de publications ;
- collaboration dans le domaine de l'impression et de l'édition ;
- perfectionnement des personnels scientifiques et techniques ;
- organisation d'expositions communes ;
- organisation de colloques et séminaires scientifiques ;
- formation de jeunes étudiants-chercheurs ;
- échange d'enseignants et de chercheurs dans le cadre de missions scientifiques.

et l'Education islamique, des Ecoles de l'Union des Associations islamiques du Sénégal (à Dakar, Pikine et Thiès), de l'Institut Ahmad Sakhir Lo de Kokki, et de l'Ecole arabo-islamique Ali- Bakrin à Louga.

Le programme d'enseignement dans ces établissements comprend des matières religieuses et linguistiques, des sciences pures, etc.

Pour ce qui est des œuvres au programme, elles sont fondamentalement identiques d'un établissement à un autre. Cependant, l'Institut Islamique Supérieur de Louga se distingue des autres établissements en ce sens qu'il enseigne l'éducation sanitaire et applique le programme de l'Université Islamique de Médine[9].

Concernant les manuels scolaires, on note que l'inexistence d'ouvrages islamiques adéquats sur le marché local a fait que les établissements scolaires islamiques se contentent de manuels utilisés dans certains pays arabes tels que le Maroc, le Royaume d'Arabie Saoudite, l'Egypte et l'Algérie. Mais, ces manuels n'étant pas suffisants et ne répondant pas aux besoins locaux en matière d'enseignement, certaines écoles ont eu recours à des ouvrages locaux, tandis que d'autres ont préféré élaborer des manuels qui leur sont propres.

Dans le domaine de la coordination et de la coopération entre les différents établissements scolaires, nos recherches n'ont abouti à rien de significatif, aussi bien au niveau local qu'au niveau régional. Cependant, les universités islamiques dans le monde arabe entretiennent des relations de coopération avec les établissements scolaires au Sénégal depuis l'indépendance à travers l'octroi de bourses scolaires et l'envoi de professeurs coopérants au Sénégal.

D'autre part, le Ministère de l'Education nationale avait manifesté un grand intérêt pour l'enseignement arabo-islamique, après la nomination du Professeur Iba Der Thiam au poste de Ministre de l'Education au milieu des années quatre vingt. Connu pour son

Des difficultés conjoncturelles et structurelles rendirent le maintien de cette situation impossible, le nombre d'arabisants demandeurs d'emploi s'étant gonflé considérablement. Ce qui rendit nécessaire l'institution d'un concours dont l'objectif n'était rien d'autre que de réduire au strict minimum le nombre d'arabisants à recruter par l'administration. L'effet restrictif de l'opération est d'autant plus assuré que l'introduction du Français dans le concours constituait un filtre supplémentaire susceptible d'amoindrir les chances des arabisants formés à l'Etranger et d'augmenter celles des diplômés du Département d'Arabe de l'Université de Dakar[8]

Les arabisants ne comptent pas exclusivement sur l'Etat pour trouver du travail. Beaucoup d'entre eux ont créé leurs propres écoles et d'autres ont rejoint les établissements qui avaient assuré leur formation de base pour renforcer leur personnels enseignants. D'autres encore travaillent dans les ONG.

**Le rôle des arabisants dans le développement de la culture arabo-islamique au Sénégal**

Les sénégalais formés dans les pays arabes contribuent efficacement au développement de l'enseignement de la langue arabe à travers un réseau d'écoles primaires, de collèges et de lycées implantées sur toute l'étendue du territoire national. Il s'agit de l'Institut Daar Al-Arqam à Fass Touré, de l'Institut Manaar Al-Houda de Louga, des établissements scolaires du mouvement Jama'at Ibad Ar-Rahman ( Ecole Imam Malick ibn Anas à Dakar, Ecole Abd Allah ibn Yassin à Pikine, Institut El-Hadji Omar Tall à Thiès, Ecole Bilal Ben Rabah), du Centre Ibn Taymiya à Kaolack, de l'Ecole imam Mouhamed ibn Saoud du Mouvement Al-Fallah pour la culture islamique, des Instituts Al-Azhar ( à Bambey, Kaolack, Saint-Louis, Thiès, Ngaye Mékké, Diourbel, Mbour, Guédiawaye), des Instituts Cheikh Ahmad Mbacké dont le siège se trouve à Diourbel, de l'Institut Islamique Supérieur de Louga, de l'Institut Cheikh Khadim Mbacké pour l'Enseignement

Ceux qui n'ont pas pu bénéficier de telles interventions ont soit demandé et obtenu l'aide d'associations et établissements scolaires islamiques, soit adressé directement leurs demandes de bourses aux établissements ou Etats arabes après s'être rendus sur les lieux.

**NIVEAU**

La plupart des arabisants se sont arrêtés au niveau de la licence. Car au début, les instituts et universités arabes ne permettraient pas aux étudiants étrangers d'y poursuivre leurs études au-delà de la licence. Ce n'est semble-t-il qu'à partir des années soixante dix que des étudiants ont pu s'inscrire pour la maîtrise et le doctorat7. Cependant le nombre des titulaires de la maîtrise, des docteurs et des ingénieurs reste relativement minime .

**Secteurs d'accueil**

Les arabisants sont pour la plupart dans les établissements d'enseignement primaire, élémentaire et secondaire. Un petit groupe est recruté pour l'Université Cheikh Anta Diop comme chercheurs et enseignants. Un groupuscule est recruté par l'Administration notamment le Ministère de la Communication, le Ministère de la Santé, le Ministère du Développement rural, le Ministère des Affaires Etrangères, etc. Ceux qui dépendent de ce dernier département deviennent parfois ambassadeurs, conseillers ou secrétaire d'Ambassade et consuls.

**SITUATION PAR RAPPORT A L'EMPLOI**

Jusqu'au début des années 1980, les arabisants qui désiraient recevoir une formation à l'Ecole Normale Supérieure pour se consacrer à l'enseignement pouvaient trouver un emploi. Beaucoup d'arabisants, pressés de trouver un emploi et incapables d'en trouver ailleurs, acceptèrent l'enseignement furent-ils journalistes, scientifiques, juristes, etc. D'autres devaient chercher les moyens de se faire recruter par le MAE.

## REPARTITION GEOGRAPHIQUE

Les renseignements disponibles ne permettent pas d'établir une répartition géographique rigoureusement conforme à la réalité. Cependant beaucoup d'indices permettent de comprendre la région d'origine des intéressés.

Les foyers d'enseignement religieux tels que Touba, Kaolack (Médina Baye), Diamal, Tivaouane, etc. ont été de gros fournisseurs d'étudiants en arabe.

Les régions de Saint-Louis, de Kaolack, de Diourbel, de Thiès et de Louga semblent occuper la première place suivi par la région de Dakar. Les quatre autres régions comptent un nombre d'arabisants beaucoup moins important.

La majorité des arabisants sont d'origine rurale. Les urbains sont également dans leur écrasante majorité issus des régions autre que Dakar.

## REPARTITION ETHNIQUE

La répartition des arabisants sur une base éthnique est encore plus difficile. Il semble que les wolofs soient largement majoritaires suivis des Toucouleurs puis des Soninkés, puis des Mandingues puis des Sérères. Cette situation ne signifie point que les uns soient plus attachés à la culture arabo-islamique que les autres, mais plutôt à la facilité de l'obtention des moyens d'accéder aux établissements de formation arabes.

Il est déjà signalé plus haut qu'une bonne partie des arabisants est issue de familles maraboutiques. Or les marabouts les plus influents habitent dans les zones occupées majoritairement par des wolofs. Ces personnalités religieuses sont toujours intervenues pour l'octroi de bourses arabes à leurs parents.

**ETABLISSEMENTS DE FORMATION ET LE NOMBRE DE DIPLOMES FORMES PAR CHAQUE ETABLISSEMENT**

| *Etablissement de formation* | *pays* | *nombre* |
|---|---|---|
| Daar al-Uloum (Institut supérieur) | R.A.E. | 2 |
| Université Aïn Shams | R.A.E. | 7 |
| Université AL-Azhar | R.A.E. | 107 |
| Université d'Alger | Algérie | 8 |
| Université de Alep | Syrie | 1 |
| Université de Baghdad | Iraq | 16 |
| Université de Basra | Iraq | 3 |
| Université de Benghazi | Libye | 2 |
| Université de Damas | Syrie | 7 |
| Université de Doha | Qatar | 5 |
| Université de Fès | Maroc | 4 |
| Université de Khartoum | Soudan | 2 |
| Université de Kuweit | E.K. | 10 |
| Université de Mousol | Iraq | 5 |
| Université de Ryadh | R.A.S. | 7 |
| Université de Tlemcen | Algérie | 3 |
| Université de Tripoli | Libye | 6 |
| Université du Caire | R.A.E. | 1 |
| Université Imam M. Ibn Saoud | R.A.S. | 5 |
| Université Islamique de Médine | R.A.S. | 30 |
| Université Muhammad V | Maroc | 10 |
| Université Quadi Iyad | Maroc | 5 |
| Université Quar Younous | Libye | 5 |
| Université Roi Abdoul Aziz | R.A.S. | 3 |
| Université Zaytouna | Tunisie | 5 |
| Indéterminés | | 19 |
| | | ***Total : 278***[6] |

## DOMAINES DE SPECIALISATION

| *Disciplines étudiées* | *nombre de spécialistes* |
|---|---|
| Administration | 2 |
| Agronomie | 37 |
| Appel (prédication islamique) | 1 |
| Chimie | 1 |
| Commerce | 7 |
| Comptabilité | 1 |
| Coran | 2 |
| Droit | 28 |
| Education | 4 |
| Electricité | 1 |
| Electronique | 3 |
| Géologie | 1 |
| Histoire | 16 |
| Islamologie | 10 |
| Journalisme | 27 |
| Langues (arabe, Français) | 44 |
| | 24 |
| Linguistique | 5 |
| Littérature | 1 |
| Médecine | 18 |
| Philosophie | 8 |
| Psychologie | 4 |
| Radio | 2 |
| Relations internationales | 1 |
| Sociologie | 1 |
| Sciences | 2 |
| Sciences politiques | 1 |
| Télécommunications | 1 |
| Théologie/Philosophie religieuse | 17 |
| Traduction | 9 |

En effet, dans les années cinquante, les dirigeants des ordres soufis du Sénégal avaient presque tous fini par choisir la collaboration avec les autorités coloniales pour préserver leurs intérêts matériels. Et les dites autorités veillaient à renforcer leur audience auprès de leurs adeptes et les montraient comme des interlocuteurs privilégiés et des représentants crédibles des populations.

Tout courant de pensée qui pouvait menacer les fondements du pouvoir religieux soufi était à surveiller strictement et à combattre le cas échéant. C'est ainsi que des chercheurs se mirent à étudier le panislamisme et le wahhabisme plus particulièrement pour empêcher leur propagation en A.O.F. Les résultats de ces études ont eu un impact non négligeable sur la pensée politique des dirigeants du Sénégal indépendant.

Un bonne partie de ceux-ci continue à considérer l'Islam anti-soufi comme une déviation et le wahhabisme en particulier comme une hérésie très dangereuse pour leur influence et leurs intérêts.

Toujours est-il que certains marabouts assez réalistes ont sollicité et obtenu du gouvernement du Sénégal des bourses d'étude pour permettre à leurs enfants de mener des études dans des pays arabes où l'Islam soufi n'est pas officiellement rejeté. D'autres n'ont tenu aucun compte de la différence d'attitude à l'égard du soufisme[5].

Des enquêtes menées il y a quelques années dans le cadre de l'élaboration d'un répertoire des arabisants du Sénégal nous ont permis de recueillir des informations partielles concernant les domaines de spécialisation des arabisants, la répartition géographique des établissements de formation, le nombre des diplômés issus de chaque établissement, la répartition ethnique, le niveau, les secteurs d'accueil et la situation par rapport à l'emploi.

Les autres pays arabes d'Afrique n'étaient pas moins engagés à consolider la position de l'arabe en Afrique Noire, mais leurs moyens n'étaient pas en adéquation avec leurs ambitions politiques dans ce domaine.

Les pays du Golfe, mus par des considérations plus religieuses, ont accueilli massivement des étudiants africains à partir des années soixante. Leurs moyens financiers leur ont permis d'augmenter sensiblement le nombre des bourses offertes aux africains.

**Influences**

A l'époque coloniale, le séjour des ressortissants des colonies françaises d'Afrique Noire dans les pays arabes suscitait des appréhensions aussi bien chez les autorités politiques que dans les milieux religieux traditionnels, les uns craignant des influences idéologiques nuisibles à leur cause et les autres des options nouvelles de nature à remettre en question l'ordre établi.

L'on sait d'ailleurs que l'un des volets de la mission du commissaire du gouvernement qui accompagnait les pèlerins était de collecter des renseignements sur les ressortissants de l'AOF résidant au Moyen Orient. C'est pourquoi, après avoir conduit les pèlerins à Djeddah, il passait le temps du pèlerinage rituel à se délacer entre les grandes villes de la région qui abritaient une communauté noire d'origine ouest africaine[4].

Les discussions engagées avec les étudiants sur place révélèrent très vite qu'ils étaient profondément imprégnés des idées des nationalistes arabes. Ils étaient aussi hostiles aux colonisateurs qu'à leurs alliés religieux qui leur servaient d'intermédiaires auprès des populations. Ils exigeaient nettement l'indépendance et affirmaient la nécessité de lutter pour l'obtenir, et reprochaient aux marabouts leur manque de conscience politique et leur attachement aux honneurs et privilèges personnels .

**Nature des études**

La plupart des étudiants sénégalais étant des descendants de chefs religieux, leur formation de base porte essentiellement sur des disciplines religieuses et littéraires. Aussi est-il normal qu'une fois arrivés dans le monde arabe, nos étudiants poursuivissent des études de droit musulman, de théologie, d'exégèse coranique, d'histoire, de littérature arabe , etc.

L'on croit souvent que les arabisants sont tous , soit islamologues, soit littéraires , parce que le monde arabe n'a pas voulu leur permettre d'étudier d'autres disciplines scientifiques. En réalité, la plupart d'entre eux partaient de chez eux munis d'un baccalauréat littéraire. En outre, ils ne désiraient que faire des études religieuses ou littéraires .

Cependant une petite minorité de sénégalais ayant fait des études secondaires dans des lycées nord-africains a pu poursuivre ses études supérieures dans les domaines scientifiques. Ce groupe comporte des médecins, des ingénieurs, des botanistes, des chimistes, des techniciens, etc.

**Lieux de formation**

Il semble que les pays arabes, qui ont joué le plus important rôle dans la formation des arabisants sénégalais, peuvent être classés, en fonction de l'importance quantitative de leur contribution selon l'ordre suivant : l'Egypte, l'Arabie Saoudite, le Maroc, le Kuweit, la Libye , la Tunisie, le Soudan, l'Irak et l'Algérie.

Ces pays semblent avoir adopté au début une politique d'ouverture à l'égard des africains et accueillaient dans leurs établissements religieux tous ceux qui désiraient apprendre l'Islam et la langue arabe. Cependant la grande célébrité d'al-Azhar en fit la première destination des étudiants sénégalais.

familles ayant assumé un héritage culturel musulman pendant des siècles restent encore plus sensibles à cette culture.

On sait que le Fouta , le Djolof, le Cayor, le Saloum, etc. ont abrité des foyers d'enseignement islamique dont les plus célèbres étaient Pir (1603-1869) et Koki (1700-1900).Ces foyers furent affaiblis pendant la colonisation. Mais des descendants de leurs fondateurs ont tant bien que mal tenté de maintenir le flambeau.

Après la deuxième guerre mondiale, des sénégalais, issus de milieux maraboutiques, commencèrent à se rendre au Moyen-Orient et en Afrique du Nord en dépit de la surveillance que l'administration coloniale exerçait sur les contacts entre les ressortissants noirs de leurs colonies et le monde arabe.

Depuis les années 1950, le mouvement devint assez sérieux pour alerter l'administration coloniale. " Selon l'enquête d'un administrateur colonial, spécialement chargé d'étudier les réseaux de la " propagande" pan-islamique au sud du Sahara, écrit Christian Coulon, on comptait à al-Azhar une centaine d'étudiants originaires de l'Afrique Occidentale Française..."[3]

**Raisons du choix**

L'enseignement arabo-musulman avait connu un certain déclin au début du 20e siècle, seules les écoles coraniques continuaient à progresser. Dès lors, on se tourna vers les pays arabes qui abritaient les grandes écoles et universités musulmanes comme le Maroc, la Tunisie et l'Egypte. L'on estima que pour pouvoir mieux résister à l'entreprise coloniale, il fallait suivre un enseignement moderne afin de pouvoir réformer les écoles arabes locales et d'en faire un puissant moyen d'impulsion du développement culturel. Aussi se rendait-on au monde arabe parce qu'on croyait y trouver la source d'une culture qu'on avait pleinement adoptée et à laquelle on avait fini par s'identifier

Le Sénégal a souvent joué le rôle de locomotive dans la promotion des relations culturelles arabo-africaines.Ce pays situé à la frontière occidentale du monde arabe est l'un des pays africains les plus influencés par la culture arabo-musulmane, l'un des pays africains non arabes qui comptent le plus grand nombre d'établissements scolaires qui enseignent en arabe et un des pays qui comptent le plus grand nombre d'arabisants.

La confusion entre l'arabe et l'Islam y a favorisé une vision particulière de l'arabe. En effet, il y a un siècle, l'Arabe était considéré comme un charif, donc un descendant du Prophète Muhammad et il jouissait partout d'une grande considération. Les populations l'accueillaient avec enthousiasme et se mettaient à son service et veillaient à satisfaire ses exigences.

D'une manière générale, les populations rurales nourrissent encore un grand respect pour l'Arabe. En revanche, les intellectuels francophones, en général, sont plutôt influencés dans leur attitude envers l'Arabe par des préjugés hérités des colonisateurs .Ceux-ci avaient propagé dans leurs colonies africaines l'idée selon laquelle les arabes étaient les premiers esclavagistes du monde et que les Noirs étaient leurs principales cibles.

Par ailleurs, on a constaté chez les arabes un phénomène contraire. Les intellectuels sont en général plus ouverts à l'égard des Noirs et leur manifestent une plus grande compréhension. En revanche, les populations rurales et les couches les plus basses de la société tolèrent mal les Noirs et perpétuent encore à leur égard des préjugés ancestraux. Il en suffit pour preuve les vocables sous lesquels les Noirs sont désignés dans les différents pays.

**Centres d'influence**

L'intérêt que les sénégalais portent à la culture arabo-musulmane trouve ses racines dans l'histoire. En effet, les personnes issues de

# *Quelques aspects de la coopération culturelle arabo-africaine : le cas du Sénégal*

**Khadim Mbacké**
Chercheur à l'IFAN Université de Dakar

## Introduction

Nombreux sont les facteurs qui condamnent arabes et africains à mener une coopération riche et diversifiée. L'histoire et la géographie ont établi une complémentarité entre l'Afrique et le monde arabe qui trouve sa source dans des liens culturels et sociaux plus que millénaires[1].

On sait que la majorité de la population arabe est africaine (chiffre Atlas 1999) et que l'arabe semble être la première langue nationale de l'Afrique par rapport au nombre des africains qui l'emploient comme langue maternelle.

Les historiens font remonter l'histoire des échanges culturels et commerciaux entre l'Arabie et l'Afrique sub-saharienne à l'époque de l'empire du Ghana, donc avant l'avènement de l'Islam[2].

Toujours est-il que la présence culturelle arabe n'a cessé de se développer en Afrique Noire depuis le 11e siècle. En effet, commerçants, prédicateurs, conquérants, chroniqueurs, pèlerins, etc. ont sillonné le continent africain en tout sens. Certains d'entre eux comme Askia Muhammad, Al-Maghili et Ahmad Baba de Toumbouctou peuvent être considérés comme des pionniers de la coopération arabo-africaine dans la mesure où ils ont établi un courant d'échange que les générations postérieures ont développé de manière mutuellement bénéfique.

La méthode courante d'enseignement était scolastique. La méthode de la grammaire qui était appliquée et qui consistait à dégager la signification grammaticale du texte était si révolutionnaire qu'elle fut longtemps suspecte en Europe. Comme en Europe, l'enseignement était sanctionné par un diplôme. La pensée était si consciente qu'elle devenait scientifique. En Effet, au Moyen-Age, quatre siècles avant la rédaction de la Mentalité primitive de Lévy Bruhl, l'Afrique noire musulmane commentait la « logique formelle » d'Aristote et était déjà dialecticienne. Les connaissances astronomiques y était assez développées à cause de la nécessité de trouver la direction de la Mecque, même en dehors des horizons coutumières, par observation du ciel. S'il est erroné de supposer que le niveau général atteignit celui d'une classe de « Mathématiques Elémentaires », il n'en demeure pas moins que le plus important et qui attire l'attention des chercheurs était la qualité de la pensée de l'Ecole.

Ainsi, bien avant la colonisation, l'Afrique noire avait donc accédé à la civilisation. Son niveau de connaissance dans le domaine technique tant sur le plan de l'Architecture (architecture au Soudan nilotique, architecture au Zimbabwe, architecture au Ghana et dans la Boucle du Niger), la Métallurgie, le Travail du verre que de la Médecine et l'Hygiène, du tissage, de l'Agriculture, de l'Artisanat, de la Chasse, de l'Expérience nautique, etc. rappelle le monde arabe dans les mêmes domaines de la connaissance. Et s'il est une coopération qui peut lier le monde arabe à l'Afrique noire, ce serait incontestablement dans le domaine des échanges culturels, techniques et universitaires.

La poussée almoravide s'exerça ainsi du Sud au Nord, à travers le désert, en passant par Sidjilmessa, le Maghreb, pour atteindre une partie de l'Espagne. Elle ne s'étendit pas, en Afrique occidentale, vers l'Est et le Sud : la conversion de ces régions sera l'œuvre de marabouts autochtones.

**LIENS DE COOPERATION**

L'islamisation de l'Afrique noire s'est accompagnée aussi de l'éclosion de grands ensembles étatiques dont les plus célèbres furent le Ghana, le Mali et le Songhoï. La force réelle et l'étendue des empires africains avaient été souvent minimisées ou laissées dans la vague avec l'existence d'une certaine tendance vivace qui consistait à invoquer des conquérants blancs, plus ou moins mythiques, pour expliquer l'origine des civilisations africaines. Mais grâce à des faits des documents, en ce qui concerne les rapports du monde blanc et du monde noir vers la fin du premier millénaire où l'histoire africaine commence à peu près partout, il a été établi la vérité qui consiste à reconnaître la puissance et la grandeur des empires africains.

Au-delà des rapports historiques renforcés par le religion dont l'Islam est le véritable socle, le monde arabe et l'Afrique noire ont essentiellement partagé en commun – à des époques certainement différentes – la culture basée sur l'éducation et l'enseignement universitaire.

L'enseignement, comme au Moyen-Age occidental, était l'œuvre du clergé qui, dans le cas de l'Afrique occidentale, est musulman. Selon les documents disponibles, il est possible de décrire en détail la vie intellectuelle de l'université, en particulier celle de Sankoré à Tombouctou. Les étudiants étaient distingués sans distinction d'âge, par tous ceux qui étaient animés d'une soif inextinguible de savoir. La mosquée servait en même temps de lieu d'enseignement, d'université. Elle n'était pas un bâtiment d'Etat mais l'œuvre pieuse d'un cadi dévot aidé par la population, tout au moins à l'origine, vraisemblablement.

entre les croyances africaines et la « tradition musulmane ». On retrouve, en effet, dans cette tradition musulmane, l'existence d'un monde invisible, doublant le monde que nous voyons, il est même le calque de ce dernier, mais seuls les initiés peuvent le voir.

L'analyse des conditions de succès de l'Islam amènera à dégager le rôle qui lui revient aussi dans la civilisation du pays. C'est uniquement dans le mouvement almoravide de la première moitié du XIème siècle que des ressortissants blancs, berbères ont essayé d'imposer l'Islam par la force des armes. On attribue à Yahia Ben Ibrahim, chef des tribus lemtouna et Djoddala qui occupent respectivement les régions du Tagant et de l'Adrar mauritanien, l'origine du mouvement almoravide. De retour de la Mecque aux environs de 1035, il amène le prédicateur Abdallah Ben Yacine pour convertir les ressortissants des tribus sur lesquelles il régnait. L'échec fut d'abord total. Le prédicateur était sur le point de partir, lorsque Yahia réussit à le convaincre de l'utilité qu'il y avait à s'enfermer tous les deux dans un couvent fortifié, sur une île de l'embouchure du Sénégal, de manière à attirer vers eux des adeptes, grâce à l'exemple de la vie ascétique qu'ils mèneraient. Ce fut l'origine du mouvement maraboutique en Afrique occidentale (marabout : el morabbatin, qui vit dans les couvents) : Almoravide dérive, par altération, de cette expression. D'après Ibn Khaldoun, lorsque le nombre des adeptes atteignit le chiffre de mille, Yacine leur dit : « Mille hommes ne se laissent pas facilement vaincre ; aussi devons-nous maintenant travailler à maintenir la vérité et à contraindre, s'il le faut, tout le monde à la reconnaître. Sortons d'ici et remplissons la tâche qui nous est imposée ». Les Almoravides investirent Aoudaghost et Ghana. Ce fut le seul cas où des éléments d'origine blanche tentèrent d'imposer l'Islam par la violence. Un disciple de Yacine, le roi Ouardiabi, convertit une partie des Toucouleur du Fleuve Sénégal, ceux-ci devinrent des alliés zélés des Arabo-berbères dans les guerres saintes dès le XI ème siècle.

évolution à l'origine de laquelle, il faut situer le génie matérialiste des Indo-Européens : Grecs, Romains. Toute l'histoire de l'Egypte montre que le métissage de la population primitive avec des éléments blancs nomades, conquérants ou commerçants a été de plus en plus important au fur et à mesure que l'on approche de la fin de l'histoire égyptienne. Selon M. de Paw, à la Basse-Epoque, l'Egypte était comme imbibée de colonies étrangères de races blanches : les Arabes à Coptos, les Libyens à l'emplacement de la future Alexandrie, les juifs aux environs de la cité d'Hercule, les Babyloniens (ou Perses) au-dessous de Memphis, des « Troyens fugitifs » dans la région des grandes carrières à l'Orient du Nil, des Cariens, des loniens, vers le bras Pélusiaque.

Mais, le contact entre le monde arabe et l'Afrique noire s'est véritablement renforcé à partir du VII ème siècle à la faveur de l'arrivée de l'Islam d'abord au Nord de l'Afrique puis à partir du XI ème siècle en Afrique sub-saharienne ou Afrique noire lorsque la religion musulmane a été véritablement introduite sur le continent . Trois étapes ont marqué l'islamisation – avec succès – de l'Afrique noire.

La première cause du succès de l'Islam en Afrique noire vient du fait qu'il fut pacifique, dans une première période, par des voyageurs arabo-berbères solitaires à des rois et des notabilités noirs qui l'étendirent ensuite autour d'eux aux peuples qu'ils gouvernaient . Ce fut le cas, d'après Bekri, du roi du Mali qu'il appelle El Moselmani et qui devait n'être que le roi Mandingue Baramendana Keita (1050) dont parle Ibn Khaldoun.

La deuxième période de l'islamisation de l'Afrique noire est marquée par la conversion du peuple, soit par imitation automatique de son chef, soit par une action violente de celui –ci qui peut déborder le territoire gouverné pour prendre le caractère d'une véritable guerre sainte : toutes les guerres saintes ont été menées par les chefs noirs.

Enfin la troisième raison qui explique le succès de l'Islam en Afrique noire semble résider dans une certaine parenté métaphysique

## Contact avec l'Afrique Noire

Le monde arabe est une zone de civilisations, nées de contacts, d'emprunts et d'apports en ce qu'il gère un héritage où l'Islam occupe une part intime non seulement parce qu'il se veut un message universel mais aussi parce qu'il vient sacraliser certains traits de culture, en reformer d'autres et souvent s'inscrire dans une continuité. Mais les liens entre le monde arabe et l'Afrique noire remontent au moins à l'Antiquité. Donc les contacts entre les deux cultures sont antérieurs à l'introduction même de l'Islam en Afrique au VIIème siècle. Dans la Haute Egypte par exemple (au Nord de l'Egypte pharaonique), des populations apparentées aux Arabes y étaient installées.

En effet, au moment où Hérodote la visita, l'Egypte avait déjà, depuis un siècle, perdu son indépendance. Conquise par les Perses en (-525), elle ne cessa plus dès lors d'être dominé par les étrangers : après les Perses, ce furent les Macédoniens avec Alexandre, les Romains avec jules César (-50), les Arabes au VII ème siècle, les Français Avec Napoléon, puis les Anglais à la fin du XIX ème siècle.

Berceau de la civilisation pendant 10 000 ans au moment où le reste du monde était plongé dans la barbarie, l'Egypte détruite par toutes ces occupations successives ne jouera plus aucun rôle sur le plan politique, mais n'en continuera pas moins pendant longtemps encore à initier les jeunes peuples méditerranéens (Grecs et Romains, entre autres) aux lumières de la civilisation. Elle restera pendant toute l'Antiquité la terre classique où les peuples méditerranéens viendront en pèlerinage pour s'abreuver aux sources des connaissances scientifiques, religieuses, morales, sociales, etc, les plus anciennes que les hommes aient acquises. C'est ainsi que sur tout le pourtour de la Méditerranée, se sont édifiées successivement de nouvelles civilisations qui, bénéficiant d'apports multiples favorisés par la configuration géographique de la Méditerranée – Véritable carrefour, le mieux situé du monde– ont évolué surtout vers un développement matérialiste et technique,

Contrairement à une idée assez répandue, les grandes vagues de la conquêtes arabo-musulmane n'ont pas eu pour effet d'imposer uniformément et systématiquement une culture et une croyance aux populations dominées et majoritaires en nombre. Tout d'abord, en droit, juifs et Chrétiens (Gens du Livre) ne se convertissent que s'ils le souhaitent et pour peu qu'ils reconnaissent l'autorité des souverains musulmans (en s'acquittant d'un impôt) ils se voient accorder leur protection (d'où leur nom de Dhimis : protégés). Ensuite, le converti dispose des mêmes droits que le croyant ce qui n'est pas toujours bien vu par les conquérants méfiants face aux excès de religion et soucieux de leurs avantages aristocratiques. Enfin, à une époque où la paysannerie regroupe 80 à 95% de la population, l'influence arabe demeure limitée sur le costume, l'habitat, le mobilier.

Deux lieux, dont les noms sont restés hautement évocateurs de prestige et de l'art de vivre, sont dans les premiers siècles de l'expansion arabe les foyers de rayonnement culturel : Bagdad et Cordoue.

C'est à Bagdad, au début de l'ère abbasside, que se produit une extraordinaire floraison intellectuelle. Les califes font figure de despotes orientaux éclairés ; ils animent et protègent les cercles de lettrés. Parmi eux, la tradition conserve l'image de Harûn ar-Rachid (786-889), le souverain des mille et une nuit et celle de Ma'mun (813-833) son fils, et le fondateur de Beït Al-Hikma (la maison de la sagesse) le premier grand centre de traduction et de réflexion arabes.

Al Andalus est l'autre grand foyer de transmission à l'occident chrétien de la pensée gréco-arabe. En 756, l'Umayyade Abdel ar-Rahman fonde l'émirat de Cordou. Sa dynastie a été massacrée par l'Abasside Al Safrah. Il survit, gagne l'Espagne et là, dans un pays où les groupes ethniques s'affrontent (Arabes, Yéménites, Berbères, Espagnols convertis ou non, Juifs, Slaves, … ) et où il ne dispose d'aucun appui, il installe un régime qui va se caractériser par sa stabilité et son rayonnement.

ensuite traduites en arabe, parlent grec et son originaires d'Egypte, de Syrie, de Mésopotamie et de toute l'Asie occidentale. L'extension du christianisme gagnait davantage les Empereurs que les savants. Après la fermeture de l'Ecole d'Athènes par Justinien (529), nombre de ceux-ci trouvèrent refuge auprès du roi de Perse, à Djundishapur, qui devint le point de rencontre des connaissances et des influences grecques, syriaques, persanes, indiennes. D'autres centres savants se formèrent Edesse et surtout à Harra (Haute Mésopotamie), Ville sabéenne qui devint dépositaire des enseignements , de l'astrologie babylonienne, du néo- pythagorisme, de l'hermétisme.

La conquête arabe apportait les éléments d'un nouvel enthousiasme pour le savoir :

- une langue qui se forge et qui s'impose comme un instrument de communication internationale ;
- un gouvernement fortement centralisé ;
- une religion qui exalte la connaissance. Le Coran énonce que l'encre des savants est plus précieux que le sang des martyrs.

Le monde occidental manifesta une réserve, voire une hostilité, envers ces savoirs étrangers. Avant, à son tour, de se les approprier et de les enrichir. Aux grandes heures de la civilisation arabe (VIII ème – XIIIème siècle), les spécialisations disciplinaires sont encore incertaines et la soif de connaissances est telle que les savants pratiquent, au gré de leurs curiosités, la médecine et l'astronomie, l'alchimie et l'optique… Tous ne sont pas Arabes de naissance, mais c'est dans la langue de l'élite politique qu'ils expriment leurs découvertes. Les apports des Arabes à la civilisation se retrouvent dans les techniques, l'art, la philosophie … Il y a les inventions scientifiques et les thèses philosophiques mais à côté de ces coups de génie d'autres apports ont été plus discrets. Ils résultent de contacts, d'emprunts irréfléchis, d'une contamination qui ne s'exerce pas dans un seul sens.

annoncé le déclin et où un paganisme hétéroclite avait progressivement été estompé par les influences juives et chrétiennes venues avec les commerçants.

## PENSEE INTELLECTUELLE FERTILE

« Quand on se rend compte de toute l'étendue des domaines que les Arabes embrassèrent dans leurs expérimentations scientifiques, leurs pensées et leurs écrits, on voit que, sans les Arabes, la science et la philosophie européennes ne se seraient pas développées à l'époque comme elles l'ont fait. Les Arabes ne se contentèrent pas de transmettre simplement la pensée grecque*. Ils en furent les authentiques continuateurs (...) Lorsque vers 1100, les Européens s'intéressèrent à la science et à la philosophie de leurs ennemis sarrasins, ces disciplines avaient atteint leur apogée. Les Européens durent apprendre tout ce qu'on pouvait alors apprendre, avant de pouvoir à leur tour progresser eux-mêmes », écrit Montgomery Watt. Longtemps, le monde occidental a accordé une importance exagérée, dans le domaine des sciences et des arts, à l'héritage gréco-romain. Au point de sous-estimer, voire ignorer sa dette envers les grandes civilisations du Proche- Orient. L'opinion voulait que les Européens chrétiens soient les destinataires naturels de la pensée d'Athènes et de la gloire de Rome. Pendant la « longue nuit du moyen-âge », les Arabes n'auraient été que les gardiens d'un savoir qu'ils se sont accaparés sous formes de traductions. Pendant l'âge d'or de la pensée grecque qui s'étend sur trois siècles (VIème – IVème siècle), les civilisations égyptienne et babylonienne sont encore bien vivantes : les influences et les échanges sont réciproques. De plus les savants grecs se reconnaissent comme les héritiers des savoirs orientaux.

Après l'effondrement des Etats cités (338 av. J-C.), le foyer de la science retourne au Proche-Orient pour y durer pendant la longue période hellénistique (III ème siècle avant J-C – V ème siècle après j-C). Pendant 800 ans, les plus grands savants dont les œuvres sont

**Un monde partagé**

A l'aube du VII ème siècle, les Arabes ne sont encore qu'une fraction d'un monde partagé. Dans leur péninsule de steppes et de sables, les langues et les usages sont divers. A l'extérieur, les changements s'accélèrent. A l'intérieur du sous-continent, les chefs tribaux exercent leur influence à partir de villes oasis. Bédouins et sédentaires nouent des alliances incertaines. Les groupes chrétiens, juifs, païens commercent et se côtoient. Au sud-ouest, l'antique Royaume du Yémen vit dans le souvenir d'une puissance perdue. L'histoire se déroule ailleurs, dans l'affrontement des Byzantins et des Sassanides. A l'ouest, Byzance a remplacé Rome. Les rois barbares se sont partagé l'Europe depuis les îles britanniques jusqu'au Nord de l'Italie. L'Empire d'Orient conserve les côtes d'Afrique du Nord, l'Egypte, la Grèce, l'Anatolie et l'Italie du Sud. Bien que la pensée païenne subsiste et que les querelles doctrinales soient nombreuses, Byzance, comme son Empereur, est chrétienne. A l'Est, les Sassanides couvrent de leur autorité les territoires actuels de l'Irak et de l'Iran et une partie de l'Asie centrale. Ils sont originaires d'Iran méridional et ont transporté leur capitale à Ctésiphon (Irak central). Les sujets de l'Empire se partagent en chrétiens (nestoriens), juifs, païens, manichéens (de Mani qui entendait fondre en un culte unique les enseignements de tous les prophètes). Afin d'asseoir leur pouvoir, les Sassanides s'attachent à faire revivre l'ancienne religion iranienne : le Zoroastrisme (ou mazdéisme). Cette religion, dotée d'un culte et d'un clergé, conçoit le monde comme le champ de bataille où luttent, sous le regard d'un Dieu suprême, les forces du bien et du mal.

Le grand événement est la lutte de ces deux univers. Le Croissant fertile (Syrie principalement) est l'enjeu et le théâtre des opérations. La guerre (et ses trêves) dura de 540 à 629. Les troupes sassanides iront jusqu'à occuper Jérusalem, Antioche, Alexandrie avant d'être refoulées vers 620. Pour être complète, la description doit encore évoquer deux autres sociétés politiquement organisées. L'Ethiopie tout d'abord, qui professe le christianisme copte. Le Yémen ensuite dont on a déjà

du Yémen à la Palestine, de l'Ethiopie au Golfe persique, la ville voit passer les caravanes et leurs précieux chargements : épices, encens, soieries, bois précieux, armes, perles, ivoire et esclaves. Elle spécule sur des trésors qui voyagent depuis la chine, le Soudan, les Indes, et jusqu'en Méditerranée où l'on en fait grand usage et où ils seront âprement renégociés.

Dans cette ville le commerce est intense, mais on y prie avec autant d'application. La Mecque d'avant l'Islam est déjà un haut lieu de vénération, un sanctuaire, où se croisent juifs et chrétiens, polythéistes, mazdéens ... Le pluriel traduit à peine le foisonnement des croyances. Le christianisme et le judaïsme de ce siècle sont loin de présenter les belles unanimités d'aujourd'hui : les sectes monothéistes pullulent au sein de chaque religion, elles se connaissent, se font la guerre, se reconnaissent, se comparent, s'empruntent quelques idées au passage et au besoin. Les polythéistes ne sont pas en reste et les syncrétismes sont déjà à l'œuvre : le bricolage religieux bat son plein. Le voyageur désireux de pratiquer l'offrande avait le choix entre plus d'idoles (400) que de jours de l'année, certaines rappellent étrangement les dieux grecs, d'autres les divinités perses ... L'une s'appelait Allât, l'autre Allah (littéralement, Dieu) mais il n'a pas encore la prééminence et, en ce temps, on lui attribue même une descendance. Nombre de rites que le pèlerinage musulman codifia plus tard appartiennent à ce moment. La Kaaba, enceinte de pierre avec dans un angle, la Pierre noire – probablement une météorite – est alors vénérée et les croyants tournaient, comme aujourd'hui, sept fois autour dans le sens contraire des aiguilles d'une montre. La Mecque est une foire des choses et une féerie de doctrines. Un havre de retraite où plusieurs fois l'an, la trêve autorisait tous les bénéfices matériels et toutes les controverses religieuses. Les orateurs et les poètes sont les seuls à s'affronter : par l'éloquence. Les joutes oratoires affinent les propagandes : on vante sa tribu dans la rime que choisit l'adversaire et il faut le terrasser par la réplique, la hauteur des sentiments, l'éloquence.

En ce temps, l'individu ne se revendique pas spontanément comme sujet autonome : la vie communautaire est la condition de la vie de chacun. Le terme de tribu résume mal la subtilité des subdivisions et des associations des hommes. Le groupe de base réunit les gens qui se réclament d'un ancêtre commun. Lorsqu'il atteint une certaine importance numérique, il n'est pas rare qu'il se subdivise selon le même principe, car le désert n'est pas propice au mouvement des grands groupes ; par contre, il faut pouvoir y nouer des alliances temporaires, connaître les contentieux et les affinités. La mémoire des généalogies, des mariages des filiations deviennent alors un instrument de stratégie.

Dans ce paysage communautaire accidenté, une tribu plus puissante que les autres contrôle, par la ruse et par la force, la Mecque. Elle monnaie la sécurité des voyageurs et le « calme » des tribus voisines. Il s'agit des Quraich dont les privilèges sont nombreux et à laquelle Muhammad, prochain prophète de l'Islam, appartient par un modeste lignage paternel.

A l'origine, la ville (La Mecque) n'est qu'une tribu fixée, avec, aux alentours, sa clientèle. Elle est bien située, à 80Km de la mer, dans la gorge d'une chaîne montagneuse, dans un monde désert de 300 000 Km2 où les hommes sont rares et les conditions d'existence périlleuses. Par son histoire et sa position, elle se distingue, déjà, comme un centre commercial et comme un sanctuaire. Lieu d'entrepôt et de translation de marchandises, La Mecque avait commencé, à la fin du VIème siècle, à affréter elle-même les caravanes qui, à travers de multiples territoires de tribus, sur près de 2 000 Km, parcouraient d'un bout à l'autre l'ancienne route de l'encens. Cette évolution semble avoir été à l'origine de mutations sociales de la tribu surent maîtriser, tandis que d'autres, quasiment exclues du grand trafic caravanier, se laissaient marginaliser. Le phénomène urbain altère déjà les habitudes : les propriétés sont plus facilement fractionnables, les femmes sont plus isolées et moins libres de leurs allers et venues. Bien protégée et incontournable, La Mecque est un lieu de passage obligé et une relâche privilégiée. Sur le chemin

de transport, comme monture et comme condition de survie. Il fournit laine, cuir, viande, combustible (la bouse), boisson dans les conditions extrêmes (sang et urine). La littérature exalte cette bête capable de couvrir 300 km en une journée et de lever des charges de 300 Kg.

Aux marges du désert et dans les oasis se tiennent des groupes sédentaires qui entretiennent avec les Bédouins des relations obligées et consenties. Les échanges concernent les biens nécessaires. Les premiers fournissent aux seconds des dattes, des vêtements, quelques objets manufacturés qui sont troqués contre des bêtes et surtout contre une protection. Les nomades assurent les oasiens contre les raids des autres nomades. Ils protègent les biens de quelques uns et convoitent le reste. Ce contrat s'applique aux caravanes qui ne peuvent refuser les guides et les escortes.

Les convois attirent les tribus nomades. Elles sont nombreuses et incontrôlées, miséreuses et orgueilleuses. Par nécessité de survie, elles pratiquent la razzia selon un code de l'honneur qui évite, si possible, la mort d'homme et le rapt des femmes et des enfants pour ne pas s'exposer au droit de la vengeance. Le coup de force est rapide et circonstancié, il s'agit de capturer le bétail d'autrui, les biens légers qui font défaut aux moments de précarité et d'éviter les dérives vers la guerre. L'historiographie arabe ne cesse d'opposer la fidélité et le bon vouloir des sédentaires et l'opportunisme des Bédouins, ou leur sens du gain, comme leur refus à combattre sans risque, ou enfin leur inculture.

Mais matériellement et économiquement, les sous-ensembles sont solidaires et dépendants. La disparition du sédentaire entraînerait celle du nomade qui a besoin d'installations fixes, du commerce urbain, d'une production agricole minimale. Les nomades en remontrent aux cultivateurs et aux marchands, pour vaincre leur réticence, mais sans pouvoir ni les soumettre entièrement, ni moins encore les éliminer. Dans cette société sans police, ni loi écrites, les équilibres entre les parties sont fragiles et le système des valeurs règle les rapports.

les indépendances hésitent entre une arabophonie, symbole d'une communauté culturelle et le respect du pluralisme linguistique. Enfin, les variantes dialectales interfèrent, certaines prenant le pas sur d'autres, hors de leurs cadre initial d'apparition, avec le déploiement de la radio, de la télévision et du cinéma.

## SITUATION GEOGRAPHIQUE ET ORGANISATION SOCIALE

L'Arabie est une île (Jazîrat) selon le mot des Arabes, au sens d'une terre coupée des autres : un sous-continent aride séparé de l'Afrique et de l'Asie par la mer et de la Méditerranée par le désert. De cette terre difficile, les Arabes avec obstination ont fait un carrefour de relations culturelles et économiques internationales. Ils l'ont également dressé comme un refuge, une retraite périlleuse à atteindre pour leurs adversaires, ou après leurs coups de force, par leurs poursuivants. Ici, tous les déplacements sont un risque, un affrontement avec les traîtrises du sable, des pierres, des vagues.

Tout au long de la Mer Rouge, le Hijâz compose une haute barrière montagneuse. Au sud, s'étend l'Arabie heureuse, qui reçoit les pluies de mousson, le pays des senteurs et de l'encens. Dans l'angle de ces deux axes, se tient le plateau, le Nadj, couvert de dunes et des amas de rocailles. Sur une superficie grande comme quarte fois la France, l'eau est rare. Les rivières sont fugitives; les points d'eau et les puits sont d'autant plus précieux qu'ils sont jalousement gardés. A l'exception du Sud où les populations se sont fixées, l'Arabie se confond avec le désert et celui-ci a imposé sa marque sur les modes de vie des Bédouins (de Bâdiya, la steppe) nomades. La frugalité et la sobriété caractérisent leur quotidien. L'alimentation se résume à quelques crudités, aux laitages et plus rarement à la viande. Et surtout, il faut inlassablement se mettre en mouvement, passer de campements en campements, suivre les circuits des maigres pâturages et des oasis selon un fragile équilibre menacé par la sécheresse. Le chameau est la providence du nomade. Il apparaît en Arabie vers le XIVème siècle avant l'ère chrétienne, comme animal

l'intrépidité (des explorateurs et des conquérants), le savoir et la foi. La poésie reste attachée au sentiment de l'amour impossible. Pendant la période classique, elle goûte l'évocation provocatrice des plaisirs terrestres et illicites. Cette poésie n'est pas seulement une activité d'artiste au sens contemporain. Elle est utile socialement. Elle conserve l'histoire du groupe et de ses héros. Au Moyen Age, les cours occidentales avaient aussi leurs chantres et troubadours. Troubadours du pays d'Oc dont l'étymologie fait remonter le nom à l'expression arabe qui désigne ceux qui ont pour métier de se rendre de maison en maison pour chanter en musique et évoquer le patrimoine. Cette langue de poésie, de commerce et de conquête se porte à la rencontre d'autres parlers ; elle intègre de nouvelles régions et s'adapte à différentes populations (berbères, turques, franques, iraniennes, africaines ...). Elle connaît des revers également : l'expansion occidentale la soumet à un processus complexe et à d'autres échanges. En fait, l'arabe dès le départ s'est présenté sous une double forme. D'un côté, pour assurer la diffusion du message coranique, il se présentait comme une norme intangible et savante (l'arabe classique ou littéraire). De l'autre, pour répondre aux besoins quotidiens de chaque pays et régions, il se diversifie, il adopte des variantes particulières (arabes dits dialectaux rarement écrits et plus rarement encore mis en forme).

Après cinq siècles d'apparente léthargie, à la fin du XIX ème siècle et sous l'impulsion des modernistes et des réformateurs qui entendaient en faire le moyen de communication culturelle et technique de toute une civilisation, la langue arabe a connu un renouveau. Cette opération qui veut réconcilier l'oral et l'écrit et intégrer de nouvelles notions a donné naissance à ce que l'on appelle l'arabe médian utilisé par la presse et les médias. La situation aujourd'hui pourrait être qualifiée de polyglotte. Les personnes qui maîtrisent le classique restent en minorité (avec des proportions variables selon les régions et les moyens d'enseignement disponibles) ; l'usage de l'anglais et du français reste primordial pour les études supérieures. Les politiques d'arabisation conduites après

La civilisation arabe est née de contacts, d'emprunts, d'apports : elle gère et invente un héritage où l'Islam occupe une part intime non seulement parce qu'il se veut message universel mais aussi parce qu'il vient sacraliser certains traits de culture, en réformer d'autres et souvent s'inscrire dans une continuité de civilisations antérieures. A ce titre, Hérodote relate entre autres témoignages de ses voyages, que 1000 ans avant l'Islam, les prêtres égyptiens se rasaient le corps, faisaient quatre ablutions par jour et que tous avaient horreur du porc et pratiquaient la circoncision. Il ajoute « seuls (....) les Colchidiens, les Egyptiens et les Ethiopiens pratiquent la circoncision depuis l'origine. Les Phéniciens et les Syriens de Palestine reconnaissent eux-mêmes qu'ils ont appris cet usage des Egyptiens ».

L'Occident désignait de Sarrasins (en grec Sarakênoi, en latin Saraceni) ceux qui étaient auparavant appelés Arabes scénites, c'est-à-dire Arabes qui vivent sous la tente (en grec, Skênê). Les plus anciens témoignages qui les concernent remontent à environ trois mille ans. Dès le neuvième siècle avant J-C., ils auraient influencé le développement historique du Moyen-Orient par la position géographique du pays d'Aribi, situé entre Syrie et Mésopotamie et leur rôle dans la compétition pour le contrôle des routes commerciales qui reliaient le golfe dit aujourd'hui arabo-persique à la Syrie, la Syrie à l'Egypte, l'Egypte à l'Arabie méridionale. Au cours des siècle, la définition des Arabes recouvre des réalités fluctuantes. Déjà, à l'époque pré-Islamique, elle désigne les populations de l'Arabie, distribuées en tribus surtout nomades dont certaines avaient commencé à pénétrer les steppes de Syrie et de Mésopotamie et dont d'autres, sédentaires, sont issues des civilisations de Sa'ba, Ma'in, Qataban, Hadramut (c'est-à-dire au sud, sur les terres de l'actuel Yémen).

Le monde arabe cultive aussi l'oralité. Il conserve des temps anté-Islamiques le sens de l'improvisation poétique, le défi des joutes oratoires, le chant collectif. L'expansion des Arabes et de l'Islam offre de nouveaux épisodes aux thèmes anciens : l'harmonie (l'Andalousie),

personnel soignant. La mortalité infantile est passée de 16,6 % en 1960 à seulement 6,7 % en 1995. Raison de cette bonne santé et de cette longévité, l'importance du nombre de médecin par habitant : 1516 habitant pour un médecin, selon les statistiques de 1994.

L'accès aux moyens de communication, aux ressources naturelles, à l'électricité, aux hydrocarbures, est tout aussi important et contribue à développer le niveau de vie des populations du monde arabe.

Sur le plan des échanges commerciaux, les importations se chiffraient en 1992 à 120 038 000 dollars contre 140 969 000 dollars pour les exportations. Le volume des échanges : 267 007 000 dollars. La balance commerciale totale est bénéficiaire, mais la balance commerciale alimentaire est déficitaire : les Importations de produits alimentaires se chiffrent à 15% des importations totales, tandis que les Exportations de produits alimentaires sont arrêtés à 2,6% des exportations totales. Le déficit commercial alimentaire est de 14,2 milliards de dollars.

**APERCU HISTORIQUE**

Le monde arabe s'identifie à un groupe ethnique : l'arabe. Historiquement connue depuis environ trois mille ans, l'ethnie arabe a expérimenté les cultures et les pratiques religieuses d'abord païennes, zoroastriennes, judaïques, chrétiennes pour devenir, depuis quinze siècles, majoritairement musulmane. Aujourd'hui, sur près d'un milliard de musulmans, un cinquième est arabe. Ainsi, sont Arabes, ceux qui « parlent » une variante de la langue arabe et considèrent que l'arabe est leur langue « naturelle », ceux qui regardent comme leur patrimoine, l'histoire et les traits culturels des Arabes et, enfin, ceux qui revendiquent l'identité arabe ou une conscience d'arabité. Cette définition de Maxime Rodinson rejoint celle que Khatabi a donnée de l'Arabe : «j'entends par « Arabe » celui qui se dit comme tel, là où il est, dans son histoire, dans sa mémoire, dans son espace de vie, de mort et de survie. La où il est-dire dans l'expérience d'une vie tolérable et intolérable pour lui ».

## *Monde Arabe et Afrique : quelle coopération en perspective ?*

Par Babacar Néné Mbaye

La population du monde arabe est passée de 92,4 millions d'habitants en 1960 à 236,0 millions d'habitants en 1994 avant d'atteindre 272,4 millions d'habitants en 2000. Le taux de croissance démographique est passé de 2,8 % entre 1960 et 1994 à 2,4 % de 1994 à 2000. Selon les estimations, la population du monde arabe va doubler en 2023. Parce que le taux de natalité est de 3,3 % tandis que celui de la mortalité est de 0.8 %. L'espérance de vie est l'une des plus importantes au monde : 62,9 ans. Si les femmes vivent plus longtemps (64,8 ans), que les hommes (62,0 ans), elles sont par contre moins alphabétisées (53,7) %) que les hommes (63,3 %). Par contre le PIB réel par habitant est de 4450 dollars.

Cinq pays arabes ont un développement humain plus élevé (de 0,800 à 0,870) que les autres : Bahrein, Emirats Arabes Unis, Koweït, Libye et Qatar. Onze pays ont un développement humain moyen (de 0,530 à 0,794) : Algérie, Arabie saoudite, Egypte, Irak, Jordanie, Liban, Maroc, Oman, Palestine, Syrie, Tunisie. Par ailleurs, six pays arabes ont un développement humain faible (de 0,319 à 0,412) : Il s'agit des Comores, Djibouti, Mauritanie, Somalie, Soudan, Yémen.

Entre 1985 et 1987, 77,0 % de la population du monde arabe avaient accès à des soins de santé. Ce chiffre est passé en 1994 à 87%. Pendant ce temps, 76,0 % de la population de cette zone avait accès à l'eau potable tandis que le taux d'assainissement est 52,0 % 93% des enfants âgés d'un an sont vaccinés contre la tuberculose, 83% sont vaccinés contre la rougeole. 58 % des naissances sont suivies par un

islamique, il faudra bien des moyens. Comme la réalisation de la stratégie culturelle reste l'étape la plus importante du projet, comment éviter de la compromettre ?

### III. Les moyens d'Action

Trois types de moyens sont nécessaires à la mise en route de la politique culturelle dans le monde arabo-musulman et les sociétés noires-africaines. Il s'agit :

- Des moyens institutionnels ;
- De la création d'activités ;
- De la mobilisation de ressources financières.

### III. 1 la réalisation des cadres institutionnels

Il s'agit de travailler à donner dans un premier temps une réalité à une entité institutionnelle dont les missions ont été indiquées plus haut. Celles-ci peuvent être parfaites et détaillées par un corps d'experts.

- Réaffirmer l'identité de la culture islamique en dotant les structures locales en charge du patrimoine culturel et des arts, périodiquement, de soutiens financiers pour des missions de valorisation et de conservation des témoins de toutes formes de la culture islamique afin qu'au plan local, elle soit connue et promue au plan international. Cette vision à terme devrait permettre l'amélioration de la présence des sites culturels musulmans sur la liste du patrimoine mondial de l'UNESCO autant que les témoins matériels de la chrétienté y sont largement représentés. C'est l'absence d'une stratégie forte qui explique en bonne partie cette sous-représentation. Cela contribuera à n'en pas douter à l'enrichissement de la culture mondiale de façon générale ; l'islam vu ici, sous l'angle civilisationnel ;

- Renforcer les liens sociaux entre différents groupes sociaux dans l'action grâce aux organismes spécifiques et aux institutions culturelles de bienfaisance, de jeunesse, de femmes, des enfants, d'enseignement, de recherche et ce à travers des activités et des actions ciblées à déterminer par les cadres de l'institution.

Enfin, l'action de l'institution devrait conduire périodiquement à l'attribution de prix d'encouragement pour les responsables locaux de la vie culturelle et artistique. Il y a là des défis à relever et les activités doivent êtres conduites avec méthode.

L'aboutissement de tous ces efforts devra être le développement du tourisme d'une part au niveau local pour découvrir les richesses islamiques (par des expositions périodiques, concernant les arts, les productions littéraires, l'artisanat, etc.) en rapprochant les valeurs culturelles des populations, et d'autre part, le tourisme entre les pays islamiques pour découvrir les valeurs générées par les autres.

Pour mener à bien un tel projet s'inscrivant dans le processus de développement et matérialisant fortement l'individualité de la culture

**II. 3 les objectifs de l'institution**

Cette institution serait gérée par des cadres cultivés, conscients et convaincus de l'apport de la culture islamique au développement de nos Etats. Leurs choix se feraient suivant des critères qui pourraient faire l'objet de propositions ultérieures mais suffisamment objectives pour maintenir l'adhésion de chacun.

Cette institution culturelle spécialisée nécessaire, aurait pour tâche, comme souligné plus haut, le traitement des questions liées à la connaissance de la pensée et de l'histoire islamique, le patrimoine, la détermination et la conduite des canaux de coordination entre cette institution et les autres opérants dans le secteur culturel à différents niveaux (régionaux et internationaux) et surtout les relations entre l'institution et les organes de l'éducation (primaire, secondaire, supérieur) et de l'information (presse écrite, radio, télé et tout autre médium) cela, afin de garantir une certaine cohésion et éviter toute opposition ou contradiction.

Naturellement, on veillera à adapter les différents domaines de l'action culturelle aux valeurs de l'islam en évitant tout prosélytisme. En tout état de cause, cette institution assistera effectivement (ce sera l'une de ses tâches primordiales) aux côtés de l'ISESCO (Islamic éducational, scientific and cultural organization / organisation islamique pour l'éducation les sciences et la culture basée ici même à Rabat (ce qui explique qu'il est souhaitable, si l'idée est retenue, de fixer l'institution à créer en Afrique de l'Ouest où l'activité islamique est forte) les Etats dans le cadre de leurs efforts de valorisation du patrimoine culturel islamique qui occupe une part importante dans les offres touristiques.

- Les objectifs assignés à cette institution dans le cadre de la stratégie culturelle auront pour résultats de :

- Redonner confiance à l'individu de l'espace musulman à travers ses capacités individuelles et sa relation solidaire avec les autres membres de la société et l'aptitude des sociétés marquées par l'islam à contribuer pacifiquement et efficacement à la civilisation de l'humanité.

éloquente de l'identité culturelle de la « oumma», la communauté des musulmans, entendus ici dans son sens le plus large.

L'héritage culturel du passé, récent ou lointain prend plusieurs formes englobant l'art, la pensée, les Us et coutumes acceptés par l'islam, l'architecture, les témoins matériels de la vie et de la diffusion de l'islam (objets d'arts, armes du Djihad, lettres échangées entre lettrés, vêtements de figures historiques de l'islam, objets de la religion comme les chroniques (les Tarikhs), les tablettes, etc.).

La communauté est hautement responsable de leur conservation et de leur promotion afin de transmettre aux générations futures ces témoins non renouvelables de la civilisation islamique dans l'espace arabo-musulman et noir-africain. C'est la tâche à laquelle s'attèle l'ISESCO depuis maintenant des décennies et elle pourra être soutenue efficacement par une institution spécifique car de nombreux éléments matériels et immatériels du patrimoine culturel islamique sont en voie de disparition du fait de l'absence de cadre adéquat de conservation et d'une politique élaborée et concertée de promotion.

Si cela était fait, la culture pourrait être un pilier important de l'action touristique dont on ne peut nier l'importante part dans l'économie de certains pays. Comment se présentera l'institution commune en charge de la culture, et comment peut se présenter son organisation ?.

**II. 2 l'institution culturelle commune**

Elle pourrait s'appeler l'Institut des Cultures Musulmanes Arabo-Africaines ou Centre d'Etudes et de Promotion des Cultures Arabo-Africaines.

Cette institution dont la dénomination ici donnée n'est qu'une proposition comblerait un vide.

Le siège de cette institution, pour que le message soit fort sera un des Etats d'Afrique noire et particulièrement l'Afrique de l'Ouest, dans des pays comme le Nigeria, le Sénégal ou le Burkina Faso.

Pour que la culture puisse jouer son rôle de base du développement, il faut la doter d'un concept de plan global et des objectifs à atteindre suivants des termes à définir.

Avec une telle méthode, la culture, portée par l'islam pourrait être l'expression du progrès, du bien-être et facteur d'innovation et de développement économique sans tomber dans un prosélytisme inhibiteur des bonnes intentions des politiques.

**II.1 le concept culturel global**

L'islam dans son acception générale assimile les domaines de l'esprit et de la réalité matérielle des choses. La culture qui en découle embrasse les questions de la connaissance et intéresse de ce fait le développement des sociétés.

Les sociétés occidentales ont élaboré leurs schémas de développement en s'inspirant de la culture judéo-chrétienne, et il nous semble que la même logique peut efficacement s'appliquer dans l'espace musulman en se tenant à bonne distance du prosélytisme.

Le plan culturel global concernera les axes suivants :

- Identification et création d'une institution culturelle commune au monde arabo-musulman et à l'Afrique noire ;
- Définition des domaines prioritaires ;
- Détermination des moyens et d'un calendrier d'exécution des missions de l'organisation.

La culture étant le fondement de la personnalité individuelle et collective, elle devient par ce fait le puissant pilier de l'unité de la communauté. Aussi est-il nécessaire, dans le cas qui nous concerne, d'élaborer une politique cultuelle. Celle-ci tiendra compte de la réalité de la situation de l'islam dans chaque pays. La base de cette action restera l'acceptation par tous de la conservation du patrimoine islamique et de sa promotion au plan mondial ce qui traduira l'expression la plus

## II. La Stratégie Culturelle à Envisager

Depuis la période de la décolonisation, l'Afrique du Nord et l'Afrique Noire se sont mutuellement soutenues dans les différentes luttes de libération nationale et dans les mouvements d'émancipation.

Très tôt, après leur accession à l'indépendance, les Etats d'Afrique noire et ceux du Nord ont entretenu des relations diplomatiques très riches, basées essentiellement sur la solidarité et l'unité africaine. C'est ainsi qu'ils se sont retrouvés pour la création de l'Organisation de l'Unité Africaine (O.U.A.) en 1963 à Addis-Abeba (aujourd'hui Union Africaine). Pour la plupart d'entre eux, ils se retrouveront par la suite au sein de l'Organisation de la Conférence Islamique (O.C.I) en 1971. Ces dernières années une autre tentative de regroupement est entrain de s'opérer au sein de la CENSAD (Communauté des Etats Sahélo-Sahariens).

Le Burkina Faso, particulièrement, entretient d'excellentes relations avec les Etats d'Afrique du Nord. Le Burkina est mémoratif de sa coopération avec le Royaume du Maroc, dans le cadre de l'opération Saaga (en 1998) qui consistait à engendrer de la pluie grâce à des vecteurs aériens et terrestres.

Le monde musulman tel que nous l'avons présenté du point de vue de l'importance qui est le sienne, géographiquement et démographiquement a un fort potentiel pouvant aider à son développement. Toutefois, comme nous l'avons souligné, ce progrès dans les domaines du social, de l'économie, de la politique notamment, ne peut s'opérer harmonieusement que sous-tendu par une stratégie efficiente sur la base d'un minimum acceptable par tous.

De ce point de vue, la chance du monde musulman dans son ensemble, en particulier le monde arabo-musulman et l'Afrique noire est d'avoir l'islam comme socle et lien commun, générateur de cultures.

De nos jours, ces populations noires et blanches vivent en bonne intelligence dans chacune des régions.

Les éléments probants que nous avons cités, présents dans la vie quotidienne des Noirs d'Afrique, inspirés de la pratique ou de la présence passée ou présente de l'islam ne sont que les plus visibles et donc que notre tableau et loin d'être exhaustif. Tout cela pour montrer que l'Afrique noire et le monde arabo-musulman sont liés de manière objective et non opportuniste et appartiennent ainsi à un même et seul espace culturel, le monde musulman encore identifié sous l'appellation de monde islamique.

Cet espace est important du point de vue de l'espace occupé sur le globe et la réalité démographique. Le cinquième (1/5) des habitants de la terre est musulman ou vit dans sa zone d'influence et le tiers (1/3) des pays du Tiers-Monde est concerné de près ou de loin par l'islam.

A partir de ce constat, il est une nécessité pour le monde arabo-musulman de se doter d'une stratégie pour placer la culture basée sur l'islam, au centre de sa politique de développement. L'intérêt et l'avantage de ce socle étant qu'à la différence des autres religions, l'islam est également une civilisation dont l'étude montre qu'il a des développements dans les domaines des lettres, des sciences, de la médecine, de l'économie, etc.

Le développement d'une stratégie viable dans le contexte politique actuel doublement marqué par des déchirements au sein du monde arabo-musulman et une course effrénée menée par les puissances économiques actuelles vers un monde globalisé, doit tenir compte ici aussi, de la claire conscience que seule la défense de la diversité culturelle, débouchant sur la promotion de tous les éléments (immatériels et matériels de la civilisation islamique) peut permettre une meilleure solidarité et un développement harmonieux et durable.

Au moyen âge, l'un des Africains les plus connus dans le monde arabe, après Bilal Ben Rabah, le muezzin du prophète et le poète Ziryab, était Mansan kankan Moussa qui fit son pèlerinage à la Mecque. Sur son passage il distribua d'importantes quantités d'or dans les villes traversées, si bien que le cours de l'or chuta et les arabes pensèrent que l'or poussait comme les céréales dans son Empire, tant il en distribua.

A sa suite beaucoup d'empereurs et d'érudits musulmans africains firent le pèlerinage à la Mecque pour s'abreuver aux sources de l'Islam.

Plus tard des universités arabophones et islamiques furent érigées en Afrique noire, telle l'université de Sankhoré qui formait des érudits africains.

Après la décolonisation de l'Afrique, malgré l'existence de divergences quant à la forme à lui donner, les africains dans leur ensemble, ceux d'Afrique du Nord et ceux d'Afrique Sub-Saharienne, confondus, ont porté sur les fonds baptismaux, l'Organisation de l'Unité Africaine (O.U.A.) grâce à la clairvoyance de grands dirigeants tels Kwamé N'Kruma, Habib Bourguiba, Sekou Touré, Gamel Abdel Nasser, Félix Houphoïet Boigny, Hassan II (paix à leur âme) et bien d'autres illustres dirigeants.

**I.6 Les mouvements de populations**

Des flux migratoires dans les deux sens sont observés entre l'Afrique Noire et le monde arabo-musulman depuis plusieurs siècles.

Ainsi, la présence de populations arabes est signalée dans l'Empire du Ghana depuis le IVème siècle.

Egalement, dans le monde arabe notamment en Afrique du Nord on note une ancienne implantation de populations noires.

### I.4 Le commerce transsaharien

Depuis le IXème siècle, l'Afrique noire et le monde arabe entretiennent des relations. Le commerce entre ces deux entités s'établit avec les grands Empires de l'Afrique Occidentale (Ghana, Mali, Songhaï...). Plusieurs routes commerciales reliaient les ports de la méditerranée aux villes du Sahel en traversant le Sahara du Nord au Sud. Dans le sens Sud-Nord, le commerce portait sur l'or, les captifs, la cola, les céréales, l'ivoire, le cuir... Dans le sens Nord-Sud, le commerce portait sur le sel, les métaux, (cuivre, fer), les étoffes en soie, les chevaux...

Ces caravanes traversaient les villes telles que Sidjilmassa, Tlemcen, Walata, Tombouctou, Gao.

### I.5 Des figures historiques communes

Les contacts entre l'Afrique Noire et le monde arabo-musulman ont surtout été l'œuvre de grands hommes, qui grâce aux Arts et aux Sciences, établirent des passerelles entre ces deux entités. L'un des plus illustres de ces grands hommes est sans conteste Ziryab, un noir, grand compositeur et inventeur d'instruments de musique, qui bouleversât les habitudes de la cour de Cordoue par son raffinement et son esprit courtois. Ziryab vécut de 789 à 852.

Les sources sur l'histoire de l'Afrique noire avant la conquête coloniale sont rares. Cependant beaucoup d'auteurs arabes ont écrit sur l'histoire de l'Afrique noire. Il s'agit des auteurs :

- Al Fazari (qui fait mention du Ghana)
- Al Khwarizmi (avec sa nappe monde)
- Mohamed Ibm Hawkal (description d'Aoudaghost)
- Ibn Battuta (description du Mali)
- Ibn Khaldun (description des rapports entre l'Afrique noire et les pays de la méditerranée).
- Es Saadi (description de Tombouctou et du Royaume Soghaï)

### I.2 Le mode vestimentaire

L'Exemple de la langue n'est pas limitatif. Le partage de la communauté de traits s'étend à d'autres domaines tout aussi essentiels. Il s'agit notamment des habitudes vestimentaires : boubou plus ou moins long, blanc de préférence (la pureté) avec un pantalon plus ou moins ample. En tous les cas, des vêtements couvrant bien tout le corps. L'individu dans son comportement vestimentaire doit être pudique, surtout la femme.

### I.3 L'architecture

Nous avons dit que les traits partagés par nos deux entités (monde arabo-musulman et sociétés noires d'Afrique) sont dus à l'islam, religion commune. En bonne place, parce que cela est notable à tout observateur, à travers la présence des mosquées et la conception architecturale des bâtis.

Depuis le moyen âge, l'islam a pratiquement créé des villes en Afrique noire, et exercé dans de nombreux autres cas, une forte influence sur bien d'autres. A l'origine de ces mutations architecturales tout aussi spectaculaires que bénéfiques, il y a la conversion des souverains à l'islam. L'Empire du Mali et celui du Songhaï en Afrique de l'Ouest en sont les témoignages les plus frappants avec des cités comme Tombouctou, Djenné, Gao, etc. On peut même dire que dans la période précédente, autour des VIIIème, IXème, il y a la cité de Koumbi-Saleh dans le Ghana ancien, dont les connaissances historiques nous permettent de dire que l'islam y était implanté avec la présence d'une mosquée.

Comme nous avons souligné plus haut, les relations entre l'Afrique noire et le monde arabo-musulman datent de plusieurs siècles et recouvrent plusieurs aspects.

## I – L'identité de Culture

L'islam, comme, religion s'est développé sur le continent noir depuis plus d'un millénaire aujourd'hui. Du fait qu'il a été introduit par des lettrés arabes et sa propagation (enseignement du coran notamment) dans la langue arabe, l'une des premières influences notables est l'introduction de mots arabes dans les langues africaines.

### I.1 Les emprunts linguistiques

La présence et l'usage quotidien de nombreux mots arabes depuis plusieurs siècles en ont même fait oublier à plus d'un leur origine. C'est ainsi que très couramment, dans les sociétés noires d'Afrique, le visiteur s'annonce par le terme « A Salamalékoum ! » et pour s'entendre répondre « Alékoum Salam ! ». Si au départ, cet emprunt était une marque d'appartenance à une société du savoir (l'islam) avec ses mots (ses traits donc), pour l'exprimer, très vite, cela est devenu une tradition. Dans de nombreux cas, on en est arrivé à perdre les traces des expressions qui prévalaient pour adopter celles qui ont accompagné le développement de l'islam.

On peut ainsi à volonté, citer de nombreux autres mots importants comme :

- Akili : l'esprit
- Sabari : pardon
- Les jours de la semaine : Téné, Talato, Arba, Alkamoussa, Arzoum, Sibiri, Ato.

Si la langue est considérée comme le premier patrimoine culturel d'un groupe humain et le véhicule principal de la culture, donc le moyen le plus significatif de l'expression de son identité et de sa différence avec l'autre, l'adoption de mots arabes, tirés de la langue du Saint Coran, la pénétration de l'islam ne concerne donc pas les sociétés uniquement, mais bien plus, l'essence culturelle de l'homme, l'individu de l'espace musulman, encore appelé espace islamique.

Enfin, les contacts entre le monde arabe et l'Afrique noire se traduisent par l'islamisation des peuples avec des influences dans le mode vestimentaire, le patrimoine architectural, les témoins matériel et immatériel, les jihads, etc. Autant d'éléments concrets qui font des liens entre l'Afrique noire et le monde Arabe, des liens essentiels et non accidentels, comme on pourrait le penser.

**Introduction :**

Le sous-continent noir et le monde arabe sont hier et aujourd'hui deux (02) entités dans l'histoire de notre humanité, qui entretiennent des relations et dont les traits communs sont essentiellement le partage de l'islam et l'appartenance au Tiers-Monde.

En nous situant dans le cadre strictement culturel, on peut dire de manière formelle, que les sociétés africaines n'ont jamais été aussi durablement et profondément marquées par une civilisation (langue, comportement, architecture, habitudes vestimentaires, etc.) que celle donnée par l'islam et par voie de conséquence, les sociétés arabes.

Le monde arabo-musulman et l'Afrique noire ont donc un destin lié dont une bonne gestion peut leur être durablement profitable sur les plans politique et économique et dont les conditions nous paraissent être :

- La reconnaissance de l'identité de culture ;
- Le développement solidaire d'une stratégie culturelle ;
- La réunion de moyens financiers et l'organisation des ressources humaines en vue de la mise en œuvre d'une politique de développement dans laquelle la culture occupe une place de choix.

Ces trois points nous semblent être les axes essentiels à même d'insuffler une dynamique valorisant à la fois la culture islamique et permettant à celle-ci de jouer pleinement son rôle dans les efforts de développement.

## *Patrimoine Culturel et identité En Afrique et dans le monde Arabe*

**Mahamoudou Ouedraogo**

Depuis au moins le VII^ème^ siècle de notre ère, l'Afrique noire et le monde arabe ont développé et entretenu des relations multisectorielles : religion, commerce, diplomatie, politique, culture, etc.

Si chacun de ces domaines a eu un prolongement plus ou moins heureux, de nos jours encore, il est incontestable qu'en Afrique noire, les convergences positives se manifestent fortement dans le patrimoine culturel et particulièrement dans les manifestations identitaires des peuples.

Dans les langues, de nombreuses sociétés négro-africaines, on note des emprunts forts :

- « Akili » pour parler de l'intelligence, de l'idée ;
- « Sabari » de « Sabr », le pardon ;
- « Dunia » pour évoquer le monde, l'environnement
- « Abada», jamais ;
- «Baraka» influence bénéfique d'un saint, grâce divine devenu merci dans nos langues ;

Enfin, les jours de la semaine.

De nombreux voyageurs et lettrés musulmans arabes participent à fixer le patrimoine par écrit et ont ainsi contribué à mieux faire connaître l'histoire : El Berki, Ibn Khaldoun, Ibn Battuta.

## *Note de Présentation*

Bien que les relations arabo-africaines soient historiquement des plus enracinées dans la mémoire commune de leurs peuples, elles comportent plusieurs points communs non encore exploités des uns et des autres. Outre les intérêts communs au présent comme à l'avenir, les rapports interculturels et inter-sociaux sont dictés par des espaces géographiques et civilisationnels interactifs, ce qui en impose une réflexion nouvelle et critique sur ces rapports.

Aussi supposons-nous que le dialogue entre les intellectuels arabes et africains débouchera sur les questions essentielles relatives tant au temps présent qu'à l'avenir, les problèmes, ambiguïtés et espoirs qu'ils mettent en scène.

Le patrimoine, l'identité, le développement permanent et la mondialisation constituent aujourd'hui de véritables défis à la culture arabe et africaine. C'est pourquoi, vu la richesse de la culture arabo-africaine, de son patrimoine et de son passé militant, un dialogue sincère et sérieux, basé sur une vision critique mutuelle est à même d'ouvrir la voie à une appropriation productive et efficiente de la place importante qu'occupe l'espace arabo-africain et à une valorisation de sa place dans le monde.

Axes du colloque :

- Patrimoine culturel et identité en Afrique et dans le monde arabe,
- Communication culturelle entre le Monde Arabe et l'Afrique
- Le Monde Arabe et l'Afrique : Les défis du présent
- Le Monde Arabe et l'Afrique : perspectives de l'avenir.

# *Sommaire*

Avec la participation des professeurs :

- ***Boubacar Barry : La victoire de la caravelle sur la caravane : quel destin pour l'Afrique ?***
- ***Abdellah Essaîd Ould Bah : les relations arabo-africaines : les dimensions stratégiques.***
- ***Babacar Sall : Ankh : une initiative pour relever un défi.***

**Débat**

**Clôture des travaux.**

***et l'Afrique : réflexions sur les facteurs qui favorisent la coopération arabo-africaine et sur les exigences de cette coopération à la lumière de la mondialisation.***

**Débat**

**Vendredi 17 octobre 2003**

***Axe III : Le Monde Arabe et l'Afrique : les défis du présent.***

9h30mn : la 5 ème séance sous la présidence de

***Ahmed Achoukri***

Avec la participation des professeurs :

- ***Hilmi Chaâraoui : problématiques de la polémique culturelle arabo-africaine dans le contexte de la mondialisation.***
- ***Ali Ahmed Foulaîfel : les Arabes et les Africains face aux défis de la mondialisation.***
- ***Mustapha Omar Tir : Mondialisation et approfondissement des disparités entre les sociétés : cas des Arabes et des Africains.***
- ***Ousmane Batoko : « Mondialisation et solidarité arabo-africaine. Vues depuis le Bénin»***

**Débat**

***Axe IV : Le Monde arabe et l'Afrique : perspectives de l'avenir :***

16h : la 6 ème séance sous la présidence de Monsieur

***Abdel Ahad Sebti***

- *Ali El Hadi Al Hawate : la communication culturelle dans l'espace arabo-africain : cas de l'Afrique du Nord.*

**Débat**

**Jeudi 16 octobre 2003 :**

9h30mn : 3ème séance sous la présidence de Monsieur *Hilmi Chaâraoui.*

Avec la participation des professeurs :

- *Mohammed Ben Mansour Fantar : Terre de l'arabité et Afrique Noire : un ancien dialogue*
- *Ahmed Choukri : les fondements et déterminants de la communication entre le Maroc et le Soudan durant le moyen âge.*
- *Mustapha Ouachi : L'homme et son évolution entre l'Afrique et l'extrême Orient*
- *Hassan Essadiki : Aspects de la coopération entre le Maroc et l'Afrique sud du Sahara dans le présent.*

**Débat**

16 h : la 4ème séance sous la présidence de Monsieur *Omar Tir.*

Avec la participation des professeurs :

- *Mohamed Ettahr El Jirari : l'héritage historique des rapports arabo-africains : cas de la Libye.*
- *Khadim Mbacké : Quelques aspects de la coopération culturelle arabo-africaine : le cas du Sénégal.*
- *Fatima Ejjamîi Lahbabi : la création littéraire un pont de rapprochement arabo-africain : exemple du romain Meryem Ba.*
- *Amadou Mahtar Mbow : Le monde arabe*

# *Programme*

**Mercredi 15 octobre 2003**

9h30 mn : La Séance inaugurale

Cocktail de bienvenue

***Axe I : Patrimoine culturel et identité en Afrique et dans le Monde Arabe***

10h30 mn : la première séance sous la présidence de Monsieur ***Ibrahim Boutaleb.***

Avec la participation des professeurs :

- ***Ahmed Taouifiq***
- ***Mahamoudou Ouedraogo***
- ***Abderrahman Etaïb Al Ansari***
- ***Youssef Mokhtar Al Amine.***

**Débat**

***Axe II : Echange et communication culturelle entre l'Afrique et le Monde Arabe.***

15h : 2ème séance sous la présidence de Monsieur ***Abdelmajid El Kaddouri .***

Avec la participation des professeurs :

- ***Afraâ Al Khatib : quelques exemples des relations et des interactions entre le Grand Sahara et le sud de la Péninsule Arabique dans les temps anciens.***
- ***Babacar Néné Mbaye : Monde arabe et Afrique : quelle coopération en perspective ?***

un engagement constitutionnel, demeurera à l'avant-garde de ceux qui contribuent au dialogue arabo-africain ainsi qu'avec d'autres espaces, notamment islamique, européen et américain, particulièrement les pays du Sud.

*Mesdames, Messieurs,*

Nous n'avons pas manqué lors de l'assemblée générale de l'actuelle session d'exprimer notre ferme engagement de nous solidariser activement avec les pays africains frères, de renforcer la coopération avec eux dans les domaines politique, sécuritaire, économique et social et de soutenir les initiatives africaines constructives, appelant la communauté internationale à fournir une aide substantielle à la stratégie du NEPAD qui vise le développement durable du continent africain.

Nous n'avons pas non plus manqué dans le cadre de notre soutien constant aux efforts des pays africains, d'annuler nos dettes envers les moins développés d'entre ces pays et d'établir un régime douanier préférentiel pour encourager leurs exportations vers le Maroc.

Le Maroc loue les efforts de tous les pays arabes et africains qui encouragent cette orientation, fondant Notre espoir sur les intellectuels et les penseurs arabes et africains pour être en tête de ceux qui soutiennent la consolidation des liens de fraternité afro-arabes et qui défendent les choix unionistes contre les tentatives de partition et de sécession qui constituent la menace la plus grave pour notre monde afro-arabe.

Puisse Dieu vous accorder réussite, guider vos pas pour soutenir l'orientation afro-arabe commune garantissant un lendemain meilleur à nos peuples et nos générations montantes.

Que la paix, la bénédiction et la miséricorde de Dieu soient sur vous.

en sorte que les réformes que nous entreprenons et les projets que nous planifions soient fondés sur une connaissance profonde de nos besoins matériels et moraux, et sur la ferme conviction que nous ne pourrons résoudre nos problèmes par des formules préconçues, mais par la mise au point de procédés inspirés de notre patrimoine et reflétant nos ambitions, avec la mise à contribution de toutes nos potentialités humaines dans l'élaboration et la mise en oeuvre de nos conceptions. Cela exige de réhabiliter les composantes de notre identité culturelle et de s'investir dans un effort visant à accorder un intérêt particulier à l'être humain en tant que valeur civilisationnelle consacrée et pilier de toute stratégie de développement pertinente.

Comme disait Mon vénéré Père feu Sa Majesté Hassan II, que Dieu ait son âme:

"Le Maroc ressemble à un arbre dont les racines nourricières plongent profondément dans la terre d'Afrique, et qui respire grâce à son feuillage bruissant aux vents de l'Europe. Cependant la vie du Maroc n'est pas seulement verticale. Elle s'étend horizontalement vers l'Orient, auquel nous sommes unis par des liens culturels et cultuels séculaires. Même si nous le voulions -et nous ne le voulons pas !- il nous serait impossible de les rompre".

Nous sommes convaincu que les relations profondes existant à ce niveau entre le monde et l'Afrique qui se réfèrent à un précieux capital spirituel linguistique et civilisationnel, constituent une plate-forme pour engager une réflexion commune sur l'avenir, à même de créer le climat propice pour jeter des ponts économiques et culturels solides, en ayant présent à l'esprit, la richesse de cette terre qui constitue un phare de l'islam, religion qui se distingue par la valorisation de l'homme et la consécration des valeurs de solidarité et de tolérance.

Le Maroc, à l'identité unie et aux composantes riches et variées, amazighe, arabo-islamique, andalouse et africaine, pays ouvert sur la civilisation planétaire et qui a fait de la réalisation de l'unité africaine

Partant de cette vision, nous sommes tenus de repenser les relations afro-arabes sur des bases durables et solides, dans un monde marqué par une rude concurrence et dominé par des économies fortes, ce qui nous place devant une seule alternative, à savoir la sauvegarde des intérêts communs, une meilleure exploitation des ressources disponibles, l'encouragement de l'esprit d'initiative qui a toujours été une composante essentielle de notre culture, pour offrir de nouvelles perspectives aux échanges commerciaux et culturels, nous permettant de mieux exploiter nos expériences, de mobiliser de manière beaucoup plus judicieuse et productive nos richesses et potentialités naturelles et humaines.

*Excellences, Mesdames et Messieurs*

Autour de nous, le monde évolue à un rythme rapide, ce qui nous incite à déployer chaque jour des efforts supplémentaires pour trouver des réponses adéquates et audacieuses aux défis auxquels nous sommes confrontés.

S'agissant de notre monde arabo-africain, les questions de la démocratie, du développement, du poids de la dette, de la santé, de l'environnement, de l'identité culturelle, les questions de l'éducation et de l'enseignement ainsi que la situation de la femme, des enfants et autres questions pressantes de par leur caractère sensible et prioritaire, ne supportent plus d'être renvoyées ou mises en attente.

C'est pourquoi, outre les réponses pratiques que peuvent apporter les pouvoirs publics, les instances politiques et économiques et les compétences de la société civile, le besoin est de plus en plus pressant pour élaborer une approche globale, intégrant toutes les dimensions, y compris celle culturelle et intellectuelle.

Nous n'avons d'autre alternative pour réaliser un changement qualitatif véritable dans notre vie, que de nous doter d'une assise intellectuelle et morale, liant l'homme à son environnement, et faisant

Les caravanes du commerce, les délégations des hommes de Science et le mouvement des voyageurs entre l'Afrique et le monde arabe, apôtres de la paix et de la concorde et chantres du raffermissement des liens entre le monde arabe et l'Afrique, ont joué un rôle capital dans l'échange des connaissances, des lettres et des arts, ce qui nous a permis à nous tous en des époques où la communication n'était guère au point, de fructifier judicieusement nos connaissances, nos produits et nos diverses créations. Cela a également engendré des interactions entre les modes de vie, les arts de l'urbanisme et de la musique, l'artisanat et bien d'autres activités humaines.

Nul doute que cette expérience unique offre de nos jours un modèle en matière d'établissement de relations solides entre nos peuples, et constitue pour ces derniers un puissant stimulant pour continuer à défendre les principes et les idéaux suprêmes que nous partageons et contribuer efficacement à forger une culture universelle authentique fondée sur les valeurs du dialogue, de la coexistence et du respect de l'autre.

Nous aspirons à ce que l'intellectuel assume pleinement sa mission consistant à fructifier ce legs civilisationnel, et à en faire un tremplin pour répandre les valeurs humaines de paix, de fraternité, de liberté et de tolérance, ainsi que pour combattre toutes les formes de ségrégation, d'extrémisme, de violence et de terrorisme que bannit la civilisation arabe et africaine.

Si nous sommes fiers de ce patrimoine commun et convaincus de sa capacité de nous procurer les raisons de la continuité et de nous inciter à renforcer la solidarité et l'entraide pour faire face aux défis, nous souhaitons également jeter de nouveaux ponts entre nos nations, à l'heure où les grands ensembles sont devenus l'un des moyens pour construire une puissance économique et sociale à même de satisfaire les besoins matériels et moraux des citoyens.

## *Message de SM le Roi Mohammed VI aux participants à la conférence "Le Monde arabe et l'Afrique: défis du présent et de l'avenir"*

*Mercredi 15 octobre 2003 (Rabat)*

"Louange à Dieu,

"Que la paix et le salut soient sur le prophète Sidna Mohamed, Sa Famille et ses compagnons,

"Excellences, Mesdames et Messieurs,

C'est pour Nous un motif de joie de voir se tenir au Maroc, pays africain et arabe, cette importante rencontre qui réunit une élite d'intellectuels et d'hommes de lettres représentant les peuples arabes et africains frères pour examiner les relations les unissant, étudier les retombées des défis de leur présent et les paris de leur avenir avec comme objectif de tenter d'identifier les moyens à même de rénover leurs concepts et de définir leurs projets pour accéder au troisième millénaire avec une vision claire et une stratégie porteuse.

Le Maroc, qui affiche sa fierté d'avoir, de tout temps, constitué un lieu de rencontres, de brassage des civilisations et des cultures de par son attachement aux valeurs de liberté, de tolérance et d'ouverture, qui a jeté de manière civilisationnelle les ponts de la propagation de l'Islam et de ses idéaux suprêmes particulièrement en Afrique de l'Ouest, apprécie à leur juste valeur les actions entreprises par d'autres nations arabes et africaines dans l'est africain.

Notre histoire commune a ainsi consacré les traditions de l'échange commercial et culturel et de l'interaction civilisationnelle entre nos peuples.

***Le monde Arabe et l'Afrique Défis du Présent et de l'Avenir (Travaux de la Conférence)***

*Les textes présentés à l'occasion de la conférence citée ci-dessus Organisée par le Ministère de la Culture les 15-16-17 Octobre 2003 à Rabat pour sa célébration comme Capitale de la Culture Arabe 2003. Les idées exprimées dans les contributions publiées n'engagent en rien le Ministère de la Culture.*

*Le monde Arabe et l'Afrique*
*Défis du Présent et de l'Avenir*
*(Travaux de la Conférence)*

*Les textes présentés à l'occasion de la conférence citée ci-dessus Organisée par le Ministère de la Culture les 15-16-17 Octobre 2003 à Rabat pour sa célébration comme Capitale de la Culture Arabe 2003.*
*Les idées exprimées dans les contributions publiées n'engagent en rien le Ministère de la Culture.*

*Conférence*
*« Le Monde Arabe et l'Afrique :*
*Défis du Présent et de l'Avenir »*

*Le monde Arabe et l'Afrique Défis du Présent et de l'Avenir*
*Préparation et coordination : Mme Khadija EL GOUR et Mr Abdelhamid AKKAR*
*Imprimerie Al Karama - Rabat*
*Publication du Ministère de la Culture - Royaume du Maroc*
*Première édition 2005*
*Dépôt Légal : 0106/2005*
*ISBN : 9-4043-0-9954*

*Royaume du Maroc*
*Ministère de la Culture*

*Organisation Islamique pour*
*l'Education, Les Sciences et la Culture*

# *Conférence*
# *« Le Monde Arabe et l'Afrique : Défis du Présent et de l'Avenir »*

***bre 2003***

Salle Ah Ministère des Affaires
Etrangères et de la Coopération








2003 الرباط عاصمة الثقافة العربية
2003 Rabat capitale de la culture arabe
Rabat 2003 the arab cultural capital

مد جاريد – تنفيذ الإخراج : ادريس برادة